



تاريخ الكنيسة

عصر الآباء: من القرن الأول وحتى السادس

چون لوريمر

تاريخ الكنيسة

عصر الآباء: من القرن الأول وحتى السادس

بقلم

چون لوريمر



دار الثقافة

الطبعة الأولى

الكتــــــاب : تاريخ الكنيسة: عصر الآباء
المؤلــــــف : چون لوريمر
صدر عـــن : دار الثقافة - ص. ب. ١٦٢ - ١١٨١١ - البانوراما - القاهرة
رقم الإيداع : ٩٦٩١/ ٢٠١٣
الترقيم الدولي : 5 - 912 - 213 - 977 - 978
المطبعــة : مطبعة سيوبرس ت: ٢٦٢٢١٤٢٥/٦
الإخراج الفني والجمع: دار الثقافة
تصميم الغلاف : آن مجدي

١١٣٤/١٠ ط١/١ - ١ / ٢٠١٣

لوريمر، چون.
تاريخ الكنيسة: عصر الآباء: من القرن الأول وحتى السادس/ بقلم چون لوريمر.- ط١. - القاهرة: دار الثقافة، ٢٠١٣
٢٧٧ ص؛ ٢٨ سم.
تدمك ٥ ٩١٢ ٢١٣ ٩٧٧ ٩٧٨
١- الكنيسة المسيحية
أ. العنوان
٢٧٦,١

مقدمة الدار

لم يكن يومًا تاريخ الكنيسة بالنسبة لدارسيه مجرد تاريخ، أو حكايات بائدة من عصر مضى، هذا لأن تاريخ الكنيسة يحمل في طياته الكثير والكثير لنتعلمه اليوم.

إنه يقدم لنا رسالة متجددة عن تعاملات الله الرائعة والكاملة في كل الأوقات، أوقات الرحب وأوقات الضيق والاضطهاد؛ أوقات الأمانة وأيضًا في أوقات البعد والعصيان، في جميعها يبقى الله أمينًا وصالحًا للجميع على مر العصور، فيحفظ كلمته وكنيسته دائمًا. ولولا أمانته وصلاحه لكان الكتاب المقدس اندثر والكنيسة تشتت وانهدمت مع أول موجة عاتية جاءت في طريقها. لكن في جميع الظروف كانت يد الله ظاهرة.

يقدم تاريخ الكنيسة أيضًا لنا دروسًا من رجال سبقونا، فنتعلم من أخطائهم، كما نتعلم من تعاليمهم وحياتهم. فهم قد عاشوا في أزمنة قاسية صاغوا فيها إيمانهم، بعضهم أخطأ، وربما ذهب بعيدًا عن الإيمان، إلا أن جماعة الإيمان عملت دائمًا على الحفاظ على الإيمان السليم. وهناك منهم من كانوا رجالاً للإيمان، تمسكوا بإيمانهم حتى في أحلك أوقات الاضطهاد، ولم يخافوا يومًا الموت، بل كانت حياتهم أرخص ما يقدم.

وفي طيات هذا التاريخ إن أمعنا النظر سنجد كثيرًا لنتعلمه: دروسًا لنا ولحياتنا، ودروسًا للكنيسة العامة والكنيسة المحلية، بل وسنجد دروسًا للمجتمع بأثره، فالتاريخ يعيد نفسه، فنرى يومنا في الماضي وكأننا ننظر لمرآة. وهذا كان الغرض من إعادة نشر هذا الكتاب القيم في طبعة جديدة، إذ نحن اليوم في أمس الحاجة لهذا التاريخ.

وتفتخر دار الثقافة إذ تقدم هذا العمل الضخم العريق لقرائها من جديد، باعثة الحياة فيه بعد أن نفدت كل نسخه وطبعاته، في طبعة جديدة، في مجلدات تتناسب مع العصر، مصلين أن يكون هذا العمل سبب بركة للكنيسة وللمجتمع..

دار الثقافة

المحتويات

تمهيد

أُعد هذا الكتاب عن تاريخ الكنيسة بناء على طلب لجنة النشر التابعة لسنودس النيل الإنجيلي. وقد قابل هذا الطلب هوى في نفسي اذ أنني كنت أحس بالحاجة إلى مثل هذا الكتاب الشامل الذي يصور بقدر الإمكان قصه نشأه الكنيسة ونموها في العشرين قرنًا الماضية، لا سيما وأنا أقوم بتدريس مادة تاريخ الكنيسة بكلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة.

ولم يكن في تصوري، أول الأمر، أن أكتب كتابًا في هذا الموضوع.

لكن الفكرة تبلورت عندما كنت أبحث في مجموعة كبيرة من كتب مشاهير المؤرخين لأجهز محاضراتي.

وسيرى القارئ بين صفحات هذا الكتاب جداول بأسماء المراجع الإنجليزية التي رجعت إليها.

ورغم إن الهدف الرئيسي من كتابة هذا الكتاب هو أن يكون مرجعًا لطلبة اللاهوت في كلية اللاهوت الإنجيلية، إلا إنني أرجو أن يكون مرجعًا مفيدًا أيضًا لكل المهتمين اهتمامًا جادًا بتاريخ كنيستهم، ومع أن كاتبه مشيخي، وقد تظهر فيه بعض الإشارات البروتستانتية، إلا أنني بكل إخلاص وأمانة، حاولت أن أتجنب كل الميول الطائفية حتى يتمكن الأرثوذوكس والكاثوليك من الاستفادة منه أيضًا.

وإلى جانب ذلك فقد حاولت أن أكتب كتابًا مصريًا فأضفت إليه بعض المعلومات والمراجع المصرية المعاصرة كلما أمكن، وأرجو أن أقدم في المجلدات التالية مادة هامة عن المسيحية المصرية، حيث أن المسيحية الشرقية نمت مستقلة عن المسيحية الغربية.

أما الخطة التي تُبنى على أساس الأجزاء التالية فهي كالآتي:

- من القرن الثالث إلى قسطنطين الأكبر.
- القرنان الرابع والخامس إلى أغسطينوس.
- القرون الوسطى.
- الإصلاح.
- من عصر النهضة إلى عصر المسكونية في القرن العشرين.

وإنني لأشعر بأني مدين بالشكر الخاص للدكتورة مرثا روي للكثير من النصح والتصحيح، وإلى الدكتور

فهيم عزيز للترجمة الفصيحة المفهومة. وإلى ماري لويز لورِمر لكتابة المخطوطة على الآلة الكاتبة. ولأنها عاشت معي كزوجة وصديقة ومعينة في عمل تطلب منها جهدًا أكثر مما تطلب مني.

المؤلف

الباب الأول

القرن الأول

الفصل الأول
العالم الذي جاء فيه المسيح



لتكوين فكره حقيقية عن تاريخ الكنيسة المسيحية، يلزم أن نعرف شيئًا عن حوض البحر الأبيض المتوسط الذي وُلدت فيه الكنيسة. وكتابات العهد الجديد تعكس هذه الحقيقة عندما تشير إلى الحكام الرومان أو الفلسفة اليونانية أو الناموس اليهودي، ومع ذلك فالاهتمام الأساسي لهذه الكتب المقدسة كان موجهًا لشيء آخر غير التاريخ العالمي، أو مناقشات الفلاسفة.

لذلك قد يساعدنا كثيرًا في دراسة بداءة الكنيسة ونموها أن ندرس بإيجاز الحالة السياسية والدينية للعالم في القرن الأول الميلادي. وتظهر في هذا المجال ثلاث قوى رئيسية: اليونان والرومان واليهود. ومع انفصالها وتميزها بعضها عن البعض، إلا أنها كانت العناصر الرئيسية لعالم واحد تفاعلت فيه معًا شدًا وجذبًا.

ولتقريب الهدف من هذه الدراسة سنقسمها إلى قسمين رئيسيين:

١ـ الخلفية اليونانية الرومانية.

٢ـ الخلفية اليهودية.

١- الخلفية اليونانية الرومانية:

استخدم المؤرخون هذا الاصطلاح (اليونانية ـ الرومانية) نظرًا لما رأوه من الامتزاج الكامل بين الحضارتين (ولعل المتحف اليوناني الروماني في الأسكندرية هو خير شاهد على ذلك). ولقد كان للبناء السياسي الروماني الذي كان يتصف بالأصالة والقوة، أثر كبير في امتداد الكنيسة، وكذلك كان تأثير الفلسفة والآداب اليونانية على قادة الكنيسة المسيحية الأوائل إذ ساعدتهم على التعبير عن عقائدهم اللاهوتية والدفاع عنها.

العالم المعروف:

في الوقت الذي وُلد فيه المسيح كان العالم المعروف في ذلك الوقت ـ وهو حوض البحر الأبيض المتوسط ـ تحت سيطرة الرومان يحده غربًا المحيط اللانهائي (لم تكن أمريكا معروفة في ذلك الوقت) وجنوبًا أفريقيا السوداء والغابات والجبال، وقبائل أوربا البربرية إلى الشمال، وإلى الشرق البلاد المجهولة الغامضة: الهند والصين. هذه المناطق التي ذكرناها لم تكن جزءًا من العالم المعروف. فحدود الدولة الرومانية كانت هي حدود العالم.

الأمن في الإمبراطورية:

كان الأمن بحسب مقاييس ذلك العصر في وضع ممتاز. فالدولة الرومانية، لم تضارعها أية إمبراطورية أخرى سابقة سواء كانت اليونان أم مصر أم آشور أم بابل، في المساحات الشاسعة من العالم التي حكمتها، ولا في طول الزمن الذي ظل فيه سلطانها حيًا ملموسًا. ورغم بعض الثورات القليلة العدد والضعيفة التأثير، وبعض الحوادث التافهة على حدود هذه الإمبراطورية، استمر النسر الروماني (رمز القوة الرومانية) يرفرف على منطقة يحدها من الغرب جبل طارق وبريطانيا، ومن الشرق نهرا دجلة والفرات، اذ لم يكن هناك سوى إمبراطور واحد وجيش واحد وقانون واحد. وبذلك صار البحر آمنًا للرحلات والتجارة، وسهل السفر في البر نظرًا للطرق التي عبّدها الرومان (التي لا تزال آثارها باقية إلى الآن). بل كان هذا الأمن والسلام النسبيان من أكبر العوامل التي سهّلت طريق المبشّرين حاملي الإنجيل، لينشروا الإنجيل بسرعة مذهلة في بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط. لقد أحس كل الناس - حتى العبيد منهم - بالأمان بكيفية لم يعرفوها من قبل.

وإلى جانب ذلك فقد ربطت اللغة اليونانية الشعوب المختلفة التي كانت تحت حكم الإمبراطورية بعضها ببعض، فصاروا وكأنهم شعب واحد، يعرفون هذه اللغة ويستخدمونها كلغة أساسية، وعلى هذا الأساس استخدمها كُتّاب العهد الجديد في شهادتهم وكتابتهم.

التسامح الروماني:

ومن مآثر الرومان أيضًا أظهروا تسامحًا عظيمًا تجاه الاختلاف اللغوي والثقافي والديني ونظام الحكومات داخل الإمبراطورية. ففي غالب الأوقات كانوا يتركون للشعوب الحرية في أن ينظموا شئونهم بأنفسهم[1]. أما في الأمور الدينية والعبادات فقد ترك الحكام الناس يعبدون آلهة غير رومانية الأصل، ويقومون بطقوس محلية دون التدخل من جانبهم، وذلك لأن الرومان أنفسهم كانوا يعبدون آلهة متعددة (مع أن المسيحيين لاقوا مصاعب جمة من جهة عبادة الإمبراطورية ديانة الدولة الرسمية في زمن لاحق).

ويعتبر هذا الاستقلال الجزئي للشعوب من إنجاز الدولة نفسها، وأساسًا للأمن الذي أحس به كل فرد وشعب حتى لمن لم تكن لهم الجنسية الرومانية. ولكن لا يُفهم من هذا أن حياة الذين لم تكن لهم الجنسية الرومانية حياة سهلة. فالضرائب كانت باهظة، وعقوبة الخطأ كانت قاسية ووحشية، وكان الرومان يعاملون من لا يحمل الجنسية الرومانية معاملة مواطن من الدرجة الثانية، وهكذا كانوا يعاملون اليهود.

الآلهة الوثنية:

كانت شعوب العالم الروماني اليوناني القديم تعتبر بحسب المقاييس العصرية متقدمة ثقافيًا وحضاريًا، ولكنها في نفس الوقت كانت متخلّفة

(١) يمكننا أن نلمس هذا الموقف في محاكمة يسوع عندما أراد القادة اليهود أن يقتلوا يسوع بإجبار بيلاطس على قبول حكمهم على يسوع وادعائهم عليه أنه يريد أن يكون ملكًا أي أنه كان متآمرًا ضد قيصر (لو ٢٣: ٢؛ يو ١٩: ١٢).

دينيًا. كانوا متدينين، وكانوا يعتقدون أن كل ما يحدث في الطبيعة من عمل آلهة للخير أو آلهة للشر تسيطر على أقدار الناس، وكان على هؤلاء أن يتملَّقوها بالصلاة والطقوس والذبائح. وكان عدد هذه الآلهة كبيرًا، وتخصصاتها متعددة، وترتبط ببعض الأمكنة (المزارات) والأزمنة (الأعياد). وتزداد شعبيتها أو تقل بحسب فكرة الناس عنها وعن تأثيرها.

وفي البداية العصر المسيحي بدأ الناس يملّون عبادة تلك الآلهة القديمة، وبدأو ينتقلون من مزار إلى مزار ومن عيد إلى آخر، يفتشون عما يشبع جوعهم الروحي، وبدوا في حيرة وتخبُّط كلما زادت رغبتهم في إجابة حقيقية لأسئلة عميقة في حياتهم. لقد كانوا في الحقيقة يفتشون عن «طريق أفضل».

الفلاسفة اليونانيون:

ومن الناحية الأخرى كانت هناك طبقة بالغة الثقافة واسعة التأثير، هم الفلاسفة اليونانيون، الذين وضعوا ونشروا مفاهيم، كان لها تأثير جذري ليس على معاصريهم فقط بل على كل تاريخ الكنيسة والمدنية الغربية. ولقد ورثنا عن أوائلهم مفهومًا عن الكون وعن القوى التي تحمله وتسيِّره، وهي عبارة عن عنصر ناري وعقل كوني اسمه «اللوجوس» أو «الكلمة» الذي تتولَّد منه كل أرواح الناس.

سقراط، أفلاطون، أرسطو:

عندما جاء سقراط العظيم (٤٧٠ ـ ٣٩٩ ق.م.) بنى سلوك الإنسان وعمله الصالح الأساسي على المعرفة التي تتجسم في الفضائل الأربع: الحكمة، الشجاعة، ضبط النفس، العدل. أما أفلاطون تلميذه الذي لا يقل شهرةً عنه (٤٢٧ـ ٣٤٧ ق. م.) فقد علم بأن هذا العالم المحسوس الذي نعرفه بالحواس الخمس النظر واللمس والسمع والشم والذوق، ليس هو العالم الحقيقي لكنه ظِل لعالم الأفكار الذي لا يمكن أن تصل إليه هذه الحواس، بل يُدرك عن طريق النفس. هذه الأفكار البالغة السمو هي الحق والجمال والصلاح. وبقدر ما يكون الإنسان أمينًا في تقصي وطلب عالم الأفكار الحقيقي، تاركًا خلفه العالم المحسوس ـ عالم الظلال ـ بقدر ما يقترب من الروح الحقيقي. لكن بمجيء أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق. م.) تغيرت هذه النظرة، فذكر أن العالم المحسوس هو عالم حقيقي، وأن الأفكار الأبدية والمادة المحسوسة غير منقسمة، وأن الكون نفسه أزلي. ومع ذلك فقد افترض أن هناك محركًا أول للكون يفسر حوادث التغير في الطبيعة، وهذا الافتراض صار بدوره برهانًا على وجود الله، استفاد منه أساطين اللاهوت في القرون الوسطى، وإلى جانب ذلك فقد اعتقد أرسطو ككل الفلاسفة الاغريق بوجود شرارة إلهية أو «اللوجوس»، التي يتشارك فيها الإنسان مع الله.

وإلى جانب هؤلاء الفلاسفة الذين صارت فلسفتهم أساسًا لتفكير اللاهوتيين والمفكرين الذين جاءوا بعدهم، ظهرت حركتان جمعتا بين الدين والفلسفة، كان لهما أتباع كثيرون في العالم الروماني ـ اليوناني، وكان لهما تأثيرهما على التفكير السلوكي المسيحي وهما الأبيقورية والرواقية.

الأبيقورية: Epicureanism

اعتقد أبيقور ـ مؤسس الأبيقورية (٣٤٢ـ ٢٧٠) أن العالم بل الآلهة نفسها جاءت إلى الوجود

بالصدفة، وأن أرواح البشر مادية تمامًا كأجسامها. ويمكن تلخيص تعاليم أبيقور في العبارة التالية: «لا يوجد في الله ما يخيفنا ولا يوجد ما نشعر به في الموت. ويمكن احتمال الشر، كما يمكن البلوغ إلى الصلاح».

ومع أن أبيقور نفسه كان شديد التقشف، ولكن تعاليمه كان لها تأثير عكسي على الناس، فجعلهم لا يهتمون بالمستقبل، وصاروا ينظرون إلى كل الأعمال مهما تناقضت على أنها متساوية وكلها جيدة، وأصبح شعارهم: «لنأكل ونشرب لأننا غدًا نموت».

ولعل الرسول بولس كان يشير إلى اتباع أبيقور عندما قال: «الذين نهايتهم الهلاك، الذين إلههم بطنهم ومجدهم في خزيهم الذين يفتكرون في الأرضيات» (في ٣:١٩؛ ١ كو ١٥:٣٢).

الرواقية: Stoicism

أما الحركة الثانية فكانت تُسمى «الرواقية». ومع أنها كانت يونانية الأصل إلا أنها انتشرت بين الرومانيين المثقفين، واعتبرت أسمى ما وصلت إليه الوثنية من أخلاقيات. وكان من قادتها اليونانيين زينو Zeno (٢٦٤ ق. م.) وكريسيبس Chrysip-pus (٢٨٠-٢٠٧ ق. م.) ولكن أهمهم جميعًا كان بوسيدونيس Poseidonis (١٣٥- ٥١ ق. م.). أما الرومانيون فكان أهمهم سنيكا Seneca (٦٥ ق. م- ٣ ق. م.)، ابقتيتس Epictetus (١٢١- ١٨٠ م). وكانت - مثلها في ذلك مثل الأبيقورية - تعتقد أن الكون مادي صرف غير أن مادته اعتبرت أكثر شفافية، وكلما كان الشخص أكثر شفافية كان أكثر روحانية. واعتقدت الرواقية أن أصل كل الخليقة هو «اللوجوس» روح العالم الحي، والعقل الذي ينساب فيه، والذي يعتبر العقل البشري جزءًا منه. ولقد أطلقت عليه الرواقية «الإله الداخلي» واعتقدت أن كل الآلهة المعروفة ماهي إلا أسماء للقوى التي تنساب من هذا الإله. وطاعة العقل هي الواجب الأسمى والهدف الوحيد من هذه الحياة، وحرية الإنسان لا تتضمن أن يحيا بحسب غرائزه، ولكن ليطيع أوامر ومطالب العقل الذي هو الإله الداخلي. وكانت الرواقية بالطبع «حلولية» Pantheistic لأنها كانت تعتقد أن العقل الإلهي ينتشر في كل المادة. ولكن أخلاقياتها العالية وإيمانها بأخوة جميع الناس، جعلتها تشابه المسيحية في نواح كثيرة، ولكنها كانت تناقضها في زهدها الناس وكبريائها وخلوها من التواضع والعطف المسيحيَّين. ولقد كان من حسنات الرواقية تلك الحياة العظيمة التي كان يعيشها بعض قادتها وبعض الأباطرة الرومانيين، وفي اتجاه القانون الروماني لنشر العدل الحقيقي بين جميع الناس حتى للعبيد أنفسهم، وفي الإنكار القاسي لمطالب الجسد الذي ظهر في الرهبانية المسيحية التي نشأت بعدها بعدة قرون.

الآلهة الشعبية:

من الأمور المعروفة في ذلك الوقت أن الطبقات المثقفة التي تميزت بكثير من العقائد، كالرواقية والأبيقورية لم يكن يعنيها كثيرًا أن جماهير الناس الأخرى كانت لاتزال تحت سيطرة الديانات الوثنية القديمة والآلهة الشعبية بمزاراتها وأعيادها مثل هرمس (السرعة) أفروديت (الحب)، دايونيسيوس (الخمر)، ديميتر (الخصوبة) زيوس (الشمس)، أبولو (رجولة الشباب)، أسكاليبس (الطب)، أورفيوس (الموسيقى)، وغير ذلك. وكان الاعتقاد العام هو أن التمسك بهذه الآلهة شيء ضروري لضمان أمن

الدولة. أما الطبقات العليا فكانت تنظر إلى هذا التعدد في الآلهة. بنوع من الشك ومع ذلك فقد قال سنيكا الفيلسوف الروماني: «إن الانسان الحكيم يتمم كل الأوامر الدينية لا لإرضاء الآلهة ولكن لأن القانون يتطلبها».

عبادة الإمبراطور:

كانت إحدى تلك الديانات الشعبية التي بدأت تنتشر في تلك الحقبة من الزمن. تتكون من ربط الوطنية بالطقوس التي كان محورها الدولة. مع اتخاذ الإمبراطور مركزًا لها. ولهذا فقد جعلوا من الإمبراطور إلهًا. وأصبحت عبادته واجبًا وطنيًا على كل مواطن[٢]. وكان يظهر على أحد وجهي العملة المتداولة في عصر المسيح رأس الإمبراطور أغسطس قيصر الذي كان قد توفي في ذلك العهد. مكتوبًا تحتها: «الله الحاكم الأعظم». هذه العبارة التي كانت توجه إلى الحاكم كتجسيد للدولة أو إلى عبقريته. أو الروح التي تسكنه. انتشرت بسرعة. وكانت أكثر الديانات تغلغلًا بين الناس وأدقها نظامًا. وكان هدفها الأساسي أن تقوى السلطة المركزية لروما. لا أن تكشف عن الذين لا يحبون وطنهم. ولكنها صارت بمرور الوقت تحديًا صارخًا ضد الكنيسة الأولى. لأن الذين رفضوها. اتهموا لا بالزندقة فقط بل بالخيانة السياسية. ووصل الأمر إلى أن صار الامتناع عن عبادة الإمبراطور نقطة البدء في اضطهاد المسيحيين في القرن الثالث.

الديانات الشرقية:

ولا يمكن أن تكتمل صورة الموقف الدينى في العالم الروماني ـ اليوناني في عصر المسيح دون ذكر ما يُسمى «بالعبادات الشرقية». ويُطلق على هذه العبادات اسم «الديانات السرية». وقد جاءت من أماكن متعددة: فمثلًا جاءت عبادة الأم العظيمة من آسيا الصغرى. وإيزيس وأوزوريس من مصر. ومثرا من بلاد فارس (إيران). وكانت ديانات متجانسة سهلة الاختلاط والتمازج بعضها مع بعض ومع الطقوس الرومانية[٣].

عبادة إيزيس:

انتشرت عبادة إيزيس في أرجاء الإمبراطورية. وهي عبادة نبتت في مصر في الألف الثانية قبل الميلاد. وكان المصريون يعتبرون إيزيس هذه. الأم العظمى التي تتجسم في القوة الخالقة للتربة. وكان زوجها أوزوريس وهو أخوها في نفس الوقت. وقد أنجبت منه حورس الذي ولدته بعد أن قتله أخوه الشرير ست. وقد وجدت إيزيس جثة زوجها فأخفتها. ولكن الأخ الشرير اكتشفها وقطعها إلى أجزاء صغيرة نشرها في كل أرض مصر فما كان من إيزيس إلا أن جمعت هذه الأجزاء وأرجعت زوجها بقوة سحرية إلى الحياة مرة أخرى. هذه الأسطورة تمتلئ بالرموز: فأزوريس يرمز إلى الشمس التي يتغلب عليها ست الذي يمثل الليل. أما إيزيس فهي السماء الشرقية عند الفجر التي

---

(٢) يرجح أن الرومانيين قد اقتبسوا عبادة الامبراطور من المصريين الذين عبدوا فرعون كإله. وكان هدف الرومان ربط الدولة معه وتأكيد إخلاص الروماني لوطنه.

(٣) جاء في ص ١٩ من سفر الأعمال قصة الصعوبات التي واجهها الرسول بولس في أفسس من جراء عبادة أرطاميس التي كانت إحدى آلهات آسيا الصغرى التي وجدت لها صدى واسعًا في بلاد اليونان.

تلد حورس الذي يرمز إلى النهار الجديد. وقد بقيت طقوس هذه العبادة متركزة في معبدها العظيم في فيلة حتى سنة ٥٦٠ م. أما اليونانيون فقد جسموها في الآلهة ديميتر Demeter وبمرور الأيام صارت إيزيس المثال لكل الآلهات.

ممارسة العبادات:

تتميز هذه العبادات الشرقية بالاعتقاد في إله فادٍ مات وقام مرة أخرى. وقد صارت دورة الفصول الطبيعية، والمحاصيل عندما تُزرع وتنمو وتموت وتنمو مرة أخرى رمزًا لموت وولادة الروح البشرية. وعندما كان أحدهم يريد الانضمام إلى إحدى الديانات كانت تُقام له طقوس خاصة لإدخاله عضوًا في الطائفة، وفي هذه الطقوس يشارك العضو في موت وقيامة الإله. ففي عبادة إيزيس Isis كان العضو يولد من جديد عندما يستحم في مياه مقدسة. أما في عبادة الأم العظمى أو مثرا فكان يستحم في دماء ثور، فيُعطى حياة جديدة. ولقد تطورت عبادة مثرا إلى عبادة الشمس في أيام قسطنطين.

روح العصر:

من هذا الوصف السابق للعالم الروماني الذي وُلدت فيه المسيحية، يتضح للدارس أن هناك أصواتًا متعددة كانت تحض الناس على اعتناق هذه المدرسة الفكرية أو تلك أو الدخول في هذه الديانة أو تلك، ولهذا بدأ الارتباك الفكري يسود، وتولدت من ذلك موجة عارمة من اليأس والتشاؤم. فالعالم شرير والحياة لا معنى لها، ولا جواب لأسئلة جذرية في النفس البشرية. وكم من عبادات ثبت فشلها في إشباع الإنسان. وانتشر الإحساس بالذنب، والحاجة الملحة للخلاص والرجاء. ولا عجب إذًا أن يظهر ذلك الشخص الذي يجذب الجميع إليه، وظهوره هذا نسميه «ملء الزمان» كما يقول الرسول بولس «ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة، مولودًا تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبني» (غل ٤: ٤، ٥).

Recommended English Readings

1) Foster. John – *The First Advance* (Church History I), pp. 1-12.

2) Frend, W.H.C. *The Early Church,* pp. 15 - 25.

3) Latourette, Kenneth S.- *A History of Christianity,* (abridged version), pp. 20 - 29.

4) Lietzmann, Hans – *A History of the Early Church, Vol. I,* pp. 154- 176.

5) Walkar, Williston – *A History of the Christian Church,* pp. 3 - 11.

6) Davies, J. G. – *The Early Christian Church,* pp. 36 – 38.

٢- الخلفية اليهودية

أ- الحالة السياسية

الرجوع من السبي:

تأثر موقف الشعب اليهودي كثيرًا، في أيام المسيح، بالانقسامات السياسية داخل اليهودية نفسها، ومن تغير مراكز القوة في الدول العظمى حولهم، ولهذا فالمعرفة الصحيحة لموقفهم هذا، تتطلب دراسة تاريخهم بدءًا من رجوعهم من السبي البابلي في أثناء حكم كورش الفارسي سنة ٥٣٩ ق. م. ففي ذلك الوقت أعاد الشعب بناء الهيكل وأسوار أورشليم تحت إشراف عزرا ونحميا. ولم يكن الراجعون من السبي سوى بقية صغيرة وجدت وطنها الصغير قد تغير كثيرًا تحت تأثير الثقافة الهلينية والنفوذ الهليني اللذين انتشرا في شرق البحر الأبيض المتوسط منذ القرن السابع قبل الميلاد.

الإسكندر الأكبر:

ازداد تأثير الثقافة اليونانية بوصول الاسكندر الأكبر إلى الحكم (٣٥٦ - ٣٢٣ ق. م.) وهو يعد بحق من أعظم القادة العسكريين في كل العصور. فحينما خلف أباه في العرش أخمد عدة ثورات قامت بها بعض الدويلات اليونانية، ثم تقدم إلى بلاد الفرس ففتحها وأخضعها بعد أن تحكَّم في كل شرق البحر المتوسط. ولكي يصل إلى هذا الغرض فقد زحفت جيوشه جنوبًا إلى فلسطين ومصر (٣٣٢ ق. م.) وهناك أكرم المصريون وفادته ونادوا به ابنًا للإله آمون رع (إله الشمس) مما جعله يظن أنه من أصل إلهي. وفي ذلك الوقت أسس الإسكندر مدينة الإسكندرية التي بقيت لمدة طويلة مدينة يونانية. ولما ترك الإسكندر مصر تقدم شرقًا حتى وصل إلى الهند وأفغانستان، ثم اضطرته جيوشه المتعبة للرجوع. لكنه مات في سن الثالثة والثلاثين فانقسمت إمبراطوريته الشاسعة بين قادة جيوشه المتشاحنين، ومع ذلك فقد بقيت آثار الإمبراطورية وإنجازاتها في انتشار اللغة والثقافة والدين والفلسفة في كل بلاد المنطقة وبخاصة في مصر.

البطالمة في مصر:

وجاءت مصر من نصيب أحد قادة الإسكندر اسمه بطليموس سوتير Soter الذي تمكن من تثبيت دعائم حكمه بعد فترة من النضال. وكان المصريون في ذلك العصر قد عرفوا الحكم الأجنبي فتعودوا على معاناة البيروقراطية والضرائب الثقيلة التي انتشرت في عهد البطالمة بكيفية لم تختلف كثيرًا عما كانت عليه في أيام الفراعنة.

وكان من أهم أعمال بطليموس سوتير اهتمامه الشديد بمدينة الإسكندرية حتى صارت مركزًا هامًا للثقافة الهلينية فأسس مكتبتها العظيمة التي صارت مقصدًا للكُتَّاب والمفكرين من جميع أنحاء العالم.

ولقد جاء بعد بطليموس سوتير ثلاثة عشر حاكمًا من نفس الأسرة كانت آخرهم كليوباترة التي عُرفت في التاريخ بعلاقتها بالقيصر وأنطونيوس، ولقد كان انتحارها سنة ٣٠ ق. م. علامة على ابتداء الحكم الروماني وقد بدأه أوكتافيوس الذي عُرف في التاريخ باسم أوغسطس قيصر.

مصر كمصدر للطعام:

وتستحق مصر أن يُذكر عنها أنها استمرت

مطمعًا لكل الإمبراطوريات المتعاقبة سواء أكانت فارسية أو يونانية أو رومانية. رغم إن أيام مجدها الحقيقي كانت قد انتهت. فشعبها كان كادحًا ومحبًا للسلام. وتربتها الخصبة التي تغمرها مياه الفيضان كل سنة كانت تنتج المحاصيل الوافرة المنتظمة. لقد كانت في الحقيقة مصدرًا للخبز لكل شعوب البحر الأبيض المتوسط. ولهذا حسدتها الأمم الأخرى. وطمعت فيها الإمبراطوريات المتعاقبة الفارسية واليونانية والرومانية.

السلوقيون: Seleucids

كان السلوقيون هم الذين حكموا سوريا بعد الإسكندر. وبهذا صارت فلسطين في وسط الدولتين: سوريا ومصر. مطمعًا لكل منهما تحاول كل قوة أن تستولي عليها. وقد نجح البطالمة في ذلك في أول الأمر. ولكن ما أن أتت سنة ٣٠٠ ق.م. حتى أخذها منهم السلوقيون. أما اليهود أنفسهم فلم يجدوا في حكام أي من الدولتين سوى جماعة من اليونانيين الذين يحاولون فرض نوع من الحياة الغريبة والممقوتة عليهم.

التأثير الهليني:

وإزاء هذا التيار الهليني الغريب انقسم اليهود على أنفسهم. فكثير منهم رحبوا بالحضارة الهلينية ورأوا فيها كثيرًا من العناصر التي تتوافق مع الحياة اليهودية. إنها المستقبل والأمر «الجديد» الذي يجب أن يعيشه الناس.

وإلى جانب ذلك لم يستطع يهود الشتات مقاومة الضغط الحضاري الذي يحيط بهم في بلاد غربتهم. فمثلًا كانت هناك جاليات يهودية في أماكن كثيرة في مصر. في الإسكندرية وبابليون (مصر القديمة) وحتى في أسوان حيث أكتُشفت بقايا معبد يهودي. فعندما انتشرت الحضارة الهلينية لمدة ثلاثة قرون. عرف اليهود الذين يسكنون تلك المناطق أن تيار هذه الحضارة سيجرفهم رغمًا عنهم.

ومع ذلك فقد حدث رد فعل عنيف من اليهود المحافظين ضد هذه الحضارة. فاعتبروها نجاسة. وشددوا على التمسك بناموس موسى. وقد أطلق على هذه الجماعة اسم «الهاسيديم» أو «الأتقياء». أما القادة الذين كان عليهم أن يتعاملوا مع السلوقيين. فكانوا يميلون بالأكثر إلى هذه الحضارة وخاصة رئيس الكهنة الذي كان يُعتبر الحاكم الرمزى للمجتمع اليهودي. وكان كثيرًا ما يستسلم لميل الرأي العام إلى الحضارة الهلينية.

أنطيوخوس أبيفانس: Antiochus Epiphanes

بمجيء أنطونيوس أبيفاس السلوقى إلى الحكم في سوريا (١٧٥ ـ ١٦٣ ق. م.) وصلت أزمة الهلينية في اليهودية إلى قمتها. فقد تآمر معه ياسون ـ رئيس الكهنة اليهودي. الذي كان هلينيًا متعصبًا ـ على أن يحولا أورشليم إلى مدينة هلينية ويغيرا اسمها إلى «أنطاكية» مثل (أنطاكية سورية).

وهذا بالطبع أشعل لهب غضب الهسيديم. وكان هناك كاهن آخر اسمه مينلاوس دفع لابيفانس مبلغًا أكبر من المال ليطرد ياسون من مركزه. وبلغ به الأمر أن سرق أواني الهيكل الذهبية ليدفع هذه الرشوة. ولكن ياسون حاول أن يطرد مينلاوس بالقوة بينما كان أبيفانس مشغولًا في حملته التي جردها على مصر. ولكنه فشل في ذلك.

فلما رجع أبيفانس مهزومًا من مصر صب جام غضبه على كل أورشليم، فقتل منها من قتل، ثم نجّس الهيكل، وحاول جهده أن يدفع اليهود إلى ترك عبادة آبائهم. وفي ديسمبر سنة ١٦٧ ق. م. ارتكب أعظم جريمة تجديف في نظر اليهود إذ بنى مذبحًا للإله زيوس في وسط الهيكل، وهو ما سماه دانيآل «رجسة الخراب» (١١: ٣١).

ثم حرّم على اليهود ممارسة عباداتهم مع إعدام كل من خالف ذلك، بهذا أراد أن يوجد الشعب كله تحت حكمه.

الثورة المكابية:

كان من نتيجة هذا الظلم القاسي أن انفجر رد فعل بالغ العنف بين اليهود وخاصة الهسيديم. وقد بدأ الثورة وقادها كاهن اسمه متياس Math-ias له خمسة أبناء، فسانده اليهود، وانتشرت حركته حتى إن يهوذا أحد أبناء الكاهن الخمسة استطاع في سنة ١٦٤ ق. م. أن يهزم السلوقيين ويستولي على الهيكل والمنطقة التي تحيط به (لكن لم يستول على كل أورشليم)، ثم بنى الهيكل والمذبح، ودشنه بذبيحة للرب كما كان من قبل. وصار اليهود يذكرون هذا التاريخ ويسمونه «عيد التجديد» Hanukkah وقد أُطلق على يهوذا لقب «المكابي» (رأى المطرقة) نظرًا لبراعته العسكرية، وسُميت الثورة «بالثورة المكابية».

وقد تمكن المكابيون من أن يعززوا سلطانهم وأن يحرزوا انتصارات أخرى على السلوقيين مع أنهم لم يستطيعوا أن يحكموا فلسطين كلها. نعم نالوا حريتهم الدينية، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتحرروا بالكامل سياسيًا. فقد انهزم يهوذا المكابي. عندما تحالف رئيس الكهنة أليسيماس ضده مع السلوقيين السوريين. وبعد عدة سنوات وضع السلوقيون يوناثان بن يهوذا في رئاسة الكهنوت، وتبع ذلك عدة سنوات من السلام والطمأنينة، لأن يوناثان كان من القوة حتى إنه تحالف مع الرومان الذين بدأوا يهتمون بهذه المنطقة من العالم، أي فلسطين. ولما خلفه سمعان أخوه سارت الأمور في طريق التحسن والثبات، إذ جمع سمعان هذا كل السلطة في يده فصار قائد الجيوش والحاكم ورئيس الكهنة في نفس الوقت. واعتبرت هذه الفترة قمة المجد الذي وصل إليه المكابيون (١٣٥ ق. م.).

الهسيديم والصدوقيون:

من الأمور الغريبة أن أصبح المكابيون الذين كانوا يقاومون التيار الهليني، أكثر ميلًا وقربًا منه، نظرًا لبقائهم مدة طويلة في الحكم ولمعاملاتهم المستمرة مع السلوقيين. أما الصدوقيون الذين ركزوا سلطانهم في الهيكل وعبادته فقد أعتُبِروا هلينيين. ولكن الهسيديم، الذين عُرفوا فيما بعد باسم الفريسيين، فقد استمروا كالجناح المحافظ الذي تزايدت قوته، ولهذا السبب استمر الصراع العنيف بين هذين الجناحين أو الحزبين في اليهودية: الفريسيين والصدوقيين.

بومبي والحكم الروماني:

في الربع الأول من القرن الأول قبل الميلاد بدأ زحف الرومان بالتدريج إلى تلك المنطقة. فقد انتصر بومبي القائد الروماني العظيم على السلوقيين، ثم تحرك في اتجاه أورشليم بعد ذلك وهزم أرستوبولس الثاني وقتل الكهنة وهم يصلُّون، ثم وقف بنفسه في قدس أقداس الهيكل

وكان ذلك لطمة قاسية لليهود. وهكذا بدأ الحكم الروماني لفلسطين في سنة ٦٣ ق. م. ولكنه لم يكن يتميز بالسلام والهدوء بل بالقلائل والثورات التي قام بها اليهود وغيرهم من شعوب المنطقة، مما أخذ من الدولة الرومانية سنوات عديدة حتى تثبتت أقدامها فيها.

أنتيباتر: Antipater

وهُزم بومبي أمام قيصر روما سنة ٤٩ ق. م. ونجح أنتيباتر في كسب ود القيصر، الذي منح اليهود حريتهم الدينية وبنى الهيكل مرة أخرى.. ومع ذلك فقد أبغض اليهود أنتيباتر لأنه كان أدوميًا[1]. وكرهوا الاحتلال الروماني بسبب الضرائب الثقيلة التي فرضها عليهم. وإلى جانب ذلك فقد ساد الاضطراب جميع نواحي الإمبراطورية عندما خلف أنطونيوس القيصر في الحكم وبدأ البارثينيون يهددون الإمبراطورية من جهة الشرق.

حكم هيرودس الكبير: Herod

في وسط هذه الدوامة بدأ هيرودس ابن أنتيباتر يشق طريقه إلى مركز القوة مستخدمًا في ذلك كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة كالشجاعة والتهور، التآمر والعزيمة الهائلة، وأخيرًا كسب صداقة الرومان وتمكن أن يصل إلى الملك. وفي سنة ٣٧ صارت المملكة كلها في قبضة يده، وهكذا بدأ عهد ذلك الملك، الذي كان له الأثر الكبير في حياة المسيح والمسيحية، وأصبح هيرودس الكبير الذي عرف كيف يستفيد من هذا السلطان المطلق يفعل كما يفعل أي دكتاتور آخر في التاريخ: لا أخلاق ولا مبادئ، وامتلأ حكمه بالمؤامرات، والاتهامات والسجون مما يضعه في صف النازية أو الفاشية. تزوج عشر مرات، ولم يفرق بين دين ودين، فتسامح مع العبادة الوثنية، ولم يحاول أن يتدخل في شئون اليهودية الدينية طالما دفعوا ماعليهم من الضرائب، واختار رئيس الكهنة كما فعل السلوقيون من قبل ولم يدخل في صراع مع الفريسيين مع أنه ناصر الصدوقيين.

مشروعات هيرودس:

كان هيرودس ينفق معظم الضرائب التي يحصل عليها في بناء القصور والأبراج والحصون وخصوصًا الهيكل اليهودي، مع أن اليهود لم يظهروا له أي امتنان على ذلك.

وهناك بقايا لهذه المباني يمكن أن يراها الإنسان في عصرنا الحاضر.

موت هيرودس:

مات هيرودس سنة ٤ ق. م. بعد ما أصيب بمرض عضال. ويمكن أن يُقال عنه إنه أوجد نوعًا من السلام والثبات الاجتماعيين رغم كل مؤامراته وقساوته. ويذكر المؤرخون أنه عندما شعر بقرب موته، أمر فجمعوا كل رؤساء اليهود الذين في أريحا ووضعوهم في استاد الملاعب لكي يُعدموا عند موته، وبذلك يضمن أن هناك حزنًا عامًا يوم يموت، لأنه عرف أنه لم يبق من يمكن أن يحزن عليه ساعة موته، ولكن رحمة الله تداركت هؤلاء الرؤساء فأطلقتهم بعض السلطات قبل موت هيرودس بقليل.

---

(١) تقع أدومية غرب البحر الميت وكانت تُسمى قبلاً أدوم. وكان الأدوميون شعبًا منفصلاً دائم الحرب مع جيرانهم إلى أن أخضعهم المكابيون فاختلطوا باليهود.

بعد أن مات هيرودس حدثت فترة من الاضطراب السياسي[٢]. فقد فشل مجموعة من الحكام الأدوميين أن يسيّروا أمر الدولة. وقد كان آخرهم أرخيلاوس الذي خلعه الرومان في سنة ٦ ميلادية فصارت اليهودية والسامرة وأدوم تحت سيطرة الولاة الرومانيين الذين كانوا يختارون رؤساء الكهنة وكان بيلاطس واحدًا منهم، وهو الذي أجرى محاكمة المسيح.

Recommended English Readings

1) Filson Floyd V., ***New Testament History;*** p.p. 1 -33.

2) Frend, W.J.C., ***The Early Church,*** p. p. 26 -33

3) Foster, John, ***The First Advance*** (Church Historyl) p.p. 13-17.

(٢) كان هيرودس الذي يظهر في لوقا ٣: ١؛ ١٣: ٣١-٣٣؛ ٢٣: ٦-١٢ هو هيرودس أنتيباس بن هيرودس الكبير. وقد حاول أن يرث المملكة ولقب «ملك» عن أبيه ولكن الرومانيين خذلوه وسموه «ملك بيريه والجليل» وقد كان في أرشليم حين صُلب المسيح.

ب- الحالة الدينية

الوحدة اليهودية:

كان من المنتظر بعد كل هذه الاضطرابات الكثيرة والضغوط الخارجية على اليهود، أن تضعف «يهوديتهم» أو تزول في تلك الفترة العصيبة، ولكن الذي حدث هو العكس. فعندما واجهوا التحدى الروماني اليوناني الرهيب والديانة الوثنية لم يستسلموا، بل ظلت الجموع اليهودية متمسكة ومتعصبة لتقاليد آبائهم وللناموس ولطرق حياتهم.

يهود الشتات:

ولكن هذه الوحدة وهذا التماسك اليهودي لم يمنعاهم من العلاقات الخارجية، فقد برهنوا أمام كل موقف أنهم شعب مرن يستطيع أن يتعامل مع كل حضارة مخالفة لديانته بكيفية مدهشة. ربما تعلموا ذلك من ماضيهم وتاريخهم في السبي والاحتلال الأجنبي، مما جعلهم يتماشون مع كل موقف ويتعاملون معه دون أن يفرطوا في يهوديتهم. وقد اتضح هذا بصورة عجيبة في ظروف يهود الشتات الذين انتشروا كجاليات مستقلة في بلدان البحر الأبيض المتوسط. وقد بدأ هذا الشتات تحت حكم الأشوريين والبابليين، واستمر في أثناء حكم البطالسة والرومان حتى أنه في أيام المسيح، كان عدد يهود الشتات ستة أضعاف اليهود الذين يعيشون في فلسطين وكانوا يحافظون على طرق حياتهم المتميزة، ولكنهم كانوا أيضًا مواطنين صالحين للبلاد التي عاشوا فيها وعملوا تجارًا أو حرفيين، وكان الحكام وأصحاب البلاد يحترمونهم.[1]

الدخلاء والمتعاطفون: Proselytes and adherents

كان المجمع مركزًا لحياة اليهود الدينية والاجتماعية، ولكن يهود ذلك العصر كانت لديهم روح الإرسالية والتبشير مما جذب كثيرين من غير اليهود إلى عبادتهم وحياتهم. بعضهم صار يهوديًا بالكامل يحفظ الناموس، ولكن البعض الآخر كانوا متعاطفين فقط، إذ كانوا يكتفون بحضور المجمع وبعض الأنشطة القليلة. ومن هذين النوعين من الناس: الدخلاء والمتعاطفين جذبت المسيحية الكثيرين إلى عضويتها.

تطعيم اليهودية بالهيلينية:

وفي نفس الوقت يجب أن نلاحظ المميز الثاني ليهود الشتات وهو تطعيم اليهودية بالهلينية كاستعمال اللغة والحضارة والفلسفة اليونانية في المجتمع اليهودي. وقد بلغ بهم الأمر أنهم نسوا العبرية، لغتهم الأصلية، لأنهم اضطروا أن يتكلموا اليونانية باستمرار لكونها اللغة العالمية في ذلك العصر، ومع ذلك فقد استفاد اليهود من تلك الفرصة، فترجموا كتبهم المقدسة (التوراة) إلى اللغة اليونانية حتى يمكنهم أن يتعلموا عناصر إيمانهم الموروث.

وقد يسّرت هذه الترجمة جذب الدخلاء الذين لا يعرفون العبرية إلى اليهودية، وقد أُطلق على هذه الترجمة الشهيرة لقب «السبعينية» وعلامتها «LXX» ويقول التقليد إنها تُرجمت في ٧٢ يومًا

(١) تدل السجلات القديمة أن العساكر اليهود خدموا في الجيش المصري، وكان اليهود يعيشون في الإسكندرية عندما أسسها الإسكندر وقد وُجدت في أسوان بقايا الهيكل اليهودي (وليس مجمعًا) ويرجع تاريخه إلى القرن السابع أو السادس قبل المسيح. وهذا يدل على أن اليهود هناك، تركوا أية فكرة عن الرجوع إلى أورشليم لتقديم الذبائح هناك..

بواسطة ٧٢ عالمًا إطاعة لأمر بطليموس الثاني «فيلادلفيوس»[٢]. والحقيقة أن الترجمة قد تمت تدريجيًا على مر السنين بواسطة مترجمين غير معروفين.[٣]

فيلو اليهودي: (Philo Judaeus)

ويعتبر فيلو اليهودي (٢٠ق. م- ٥٠م.) الفيلسوف الأسكندري من أعظم اليهود الذين تثقّفوا بالثقافة اليونانية. وكانت أسرته من أسر الكهنوت، وتعلم إيمانه اليهودي بواسطة السبعينية. ومن أهم مآثر هذا الفيلسوف هو أنه ربط أفكار العهد القديم بمفاهيم الفلسفة اليونانية بكيفية توافق روح ذلك العصر الذي عاش فيه. ولكي يصل إلى هذا الربط فقد استخدم التفسير المجازي حتى يوفق بين مفهوم «اللوجوس» اليوناني الذي ينساب من الله نفسه، وبين تعاليم الناموس والأنبياء التي تخص شعب العهد «إسرائيل» ولعله في ذلك كان أبًا لأولئك اللاهوتيين المسيحيين الذين ربطوا بين الأفكار العبرية واليونانية في العصور المسيحية اللاحقة.

اليهودية ومقارنتها بالديانات الوثنية:

لا يحتاج الأمر إلى التنويه بأن اليهودية كانت تختلف عن كل الديانات الأخرى في الإمبراطورية الرومانية. فقد تشابهت الديانات الوثنية كثيرًا في العقيدة والممارسات، حتى وإن اختلفت أسماء آلهتها فقد كانت تملؤها الصور والخرافات والسحر والعمل على إرضاء الآلهة التي كانت تملك القوة، ولكنها كانت أحط أخلاقًا من الذين يعبدونها. أما إله اليهود فقد كان إلهًا واحدًا ولا يوجد إله سواه: إله القوة وفي نفس الوقت إله العدل والبر والمحبة. هذا الإله الواحد اختار شعبًا خاصًا ـ اليهود ـ ليكونوا الواسطة التي يبارك بها العالم. دخل معهم في عهد وأعطاهم الناموس. إنهم شعب الكتاب لأن هذه الكتب المقدسة هي المركز الحقيقي لحياتهم وعبادتهم والتي جعلتهم متميزين في كل شيء. فلا يمكن أن تضارع ديانتهم ديانة أخرى في ذلك العصر.

جـ- منظمات الديانة اليهودية

ولكن ما هي منظمات اليهودية الرئيسية؟ إنها ثلاثة: المنزل، الهيكل، المجمع.

المنزل اليهودي:

يعتبر المنزل اليهودي المركز الحقيقي لعدة ممارسات دينية. ففيه يُختن الذكور اليهود، وفيه يعيّدون عيد الفصح فتجتمع الأسرة كلها لتذكر خلاص الأمة من العبودية. وفيه يعلّم كل أب يهودي أولاده الإيمان.

الهيكل في أورشليم:

بُني الهيكل العظيم في أورشليم في عهد سليمان الملك، ولكنه هُدم عند السبي، ولكن بناه زربابل بعد ذلك. هذا الهيكل الثاني أعيد بناؤه بكيفية أعظم على يدي هيرودس في سنة ٢١ ق. م. وكما يقول إنجيل يوحنا ٢: ٢٠ استمر بناؤه ٤٦ سنة حتى

(٢) قيل إن العلماء الـ ٧٢ اشتغلوا كل على حدة في جزيرة فاروس. وعندما أكملت الترجمات قورنت فوجدت متطابقة تمامًا.

(٣) أما اليهود الذين يتكلمون الآرامية والساكنون في فلسطين فقد كانت لهم أيضًا ترجماتهم «الترجوم» وتفسيراتهم الآرامية.

كمل. وكان يحتوى على دار يجتمع فيها الأمم لأنهم كانوا ممنوعين من الدخول إلى القدس. وكان الهيكل مركزًا لكل الذبائح اليهودية. ولذلك كان الكهنة هم [illegible] عظيمًا في الأمة. ولعل رئيس الكهنة ـ وهو الوحيد الذي يستطيع أن يدخل إلى قدس الأقداس مرة في السنة ـ هو أكثرهم نفوذًا وأعظمهم شأنًا. في هذا الهيكل كانت الذبائح تُقدَّم والممارسات تسير وذلك من أجل كل يهود العالم. وكان مزارًا للحجاج اليهود الأتقياء من كل أركان العالم. يأتون إليه ويدفعون له الضرائب. وفي الهيكل أيضًا كان ينعقد مجمع السنهدريم. ومع ذلك فقد كان الهيكل، بكل أسف، مركزًا للفساد السياسي والمالي، مما جعل السيد يصب غضبه ـ وله الحق في ذلك ـ على هؤلاء الذين جعلوا «بيت الآب» مغارة لصوص.

المجمع:

أما المنظمة الثالثة، التي تعتبر من بعض النواحي أهمها جميعًا فهي المجمع. وقد ظهر المجمع متأخرًا في حياة الأمة اليهودية كضرورة حتمتها ظروف السبي. فعندما وجد اليهود أنفسهم بعيدين عن أورشليم، حيث الهيكل مركز عبادتهم، استبدلوه بهذا المجمع يقيمون فيه أينما كانوا، سواء في السبي أو الشتات، العبادة وتعليم الناموس. لم يستطع المجمع أن يحل محل الهيكل، فلم يكن فيه مذبح ولا قدس أقداس، ولكن كانت الكتب المقدسة تُقرأ وتُفسر هناك، وفيه تعمق الناس في ناموس موسى وناقشوا مشكلاتهم الاجتماعية.

كان المجمع أساسًا منظمة علمانية ولم يكن من الضرورة حضور كاهن أو «رباي» (معلّم) في اجتماعاته. ومع ذلك، لو وُجد أحد من هؤلاء، كانوا يطلبون منه أن يقرأ الكتاب المقدس ويفسره، كما حدث مع يسوع عندما زار الناصرة (لو ٤: ١٦ ـ ١٨). وكان لكل مجمع رئيس أو مشرف يعاونه عدد من المساعدين في تأدية خدمة العبادة. وكانت العبادة، التي هي الوظيفة الرئيسية لهذه المنظمة، تتكون من الصلاة وقراءة الكتب المقدسة وتفسيرها. أما العمل الثاني وهو لا يرقى إلى أهمية العبادة، فهو تعليم الناس وخاصة الأطفال. ويلوح أن كل مجمع كان يحتوى على مكتبة للدراسات الدينية تُفتح لكل من يحب القراءة. وكان التعليم ينصب على الناموس وتفسيراته. وكانت هناك بعض الخدمات الاجتماعية والدنيوية مثل البت في القضايا القانونية، وتوقيع العقوبات (مت ١٠:١٧؛ ٢٣:٣٤) والاجتماعات السياسية، والإعلانات العامة، ومن المحتمل أيضًا أنها كانت تُستخدم كفنادق يبيت فيها اليهود القادمين من بلاد أخرى.

ولم يتأكد بعد ما يُقال عن أورشليم من أنها كانت تحتوي على ٤٨٠ مجمعًا، ومما لاشك فيه أن وجود عدد كبير من الجامع في هذه المدينة التي كانت تفتخر بوجود الهيكل فيها يدل على أهمية المجمع للحياة اليهودية. ومن المعروف أن مجمعًا بُنى في الهيكل لكى يجتمع فيه القادة العلمانيون للإعداد للخدمة في الهيكل والمساعدة فيها.

د- الأحزاب اليهودية

لندرس الآن شيئًا عن الجماعات والأحزاب اليهودية الكبرى في تلك الفترة. كان في اليهودية أقسام وأحزاب عديدة، ولكنها لم تكن على غرار الطوائف المسيحية في أيامنا الحاضرة. وإلى جانب ذلك لم تجتذب هذه الأحزاب عامة الشعب، ولكنها كانت تقتصر على جماعة مُختارة محددة من الناس.

الصدوقيون:

كان الصدوقيون حزب الكهنة والمسئولين عن العبادة في الهيكل. وكانوا كذلك طبقة أرستقراطية تأثرت بالحياة الهلينية، وكوّنوا صلات قوية مع الرومان. أما من الناحية الفكرية فقد كانوا محافظين وعلى أشد الاختلاف مع الفريسيين من ناحية التقليد الشفوي الذي رفضوه ولم يتمسكوا إلا بأسفار موسى الخمسة تمسكًا حرفيًا. ولم يكن هذا فقط هو كل اختلافهم مع الفريسيين، بل اختلفوا في أمور أخرى كما هو واضح في سفر الأعمال (٢٣: ٨) إذ يقول «لأن الصدوقيين يقولون إنه ليس قيامة ولا ملاك ولا روح. وأما الفريسيون فيقرون بكل ذلك». ولقد ظهر دور الصدوقيين واضحًا في محاكمة المسيح. فطالما كان يعظ في أجزاء أخرى من البلاد بعيدًا عن أورشليم لم يأبهوا به، ولكنه عندما جاء إلى هذه المدينة ودخلها الدخول الانتصاري، وأدان إدارتهم للهيكل، بطرده التجار والصيارفة من الهيكل، صار بذلك خطرًا كبيرا على نفوذهم وقوتهم، فعملوا بكل قوة على تسليمه ومحاكمته وقتله.

الفريسيون:

اشتق اسم «الفريسيين» من الكلمة العبرية «ب ر ش» أي «عزل». لم يكونوا من الطبقة الأرستقراطية مثل الصدوقيين، ولكنهم كانوا يحيون حياة التقشف، مكرسين أنفسهم لدراسة وتفسير الناموس. وكانوا في بعض النواحي أكثر تحررًا من الصدوقيين، لأنهم كانوا يعتقدون أن الناموس ينبغي أن يتطور ليوافق روح العصر ويتمشى مع الظروف الاجتماعية المتغيرة وذلك بواسطة تقليد شفوي. ولكن هذه التقاليد انغمست بالأكثر في تفسيرات دقيقة وتفاصيل صغيرة للناموس. فمثلًا «هل يأكل اليهودي بيضة باضتها فرخة في يوم السبت المقدس وهي لا تعرف الناموس؟ هذه هي تقاليد الشيوخ التي هاجمها المسيح» (مر ٧: ٤). أما بالنسبة للفريسيين أنفسهم فقد كان لهذا التقليد عندهم نفس سلطان الناموس المكتوب.

ولقد كان للفريسيين قوتهم السياسية، ويحتلون عددًا كبيرًا من مقاعد السنهدريم، ولهم تأثيرهم في المجمع نظرًا لدورهم التعليمي.

الكتبة:

يجد قارئ الإنجيل أن الكتبة والفريسيين يُذكرون جنبًا إلى جنب.

وفي الحقيقة كان الكثيرون من الكتبة من الفريسيين، ولكن لم يكونوا كلهم كذلك بل كانوا يعملون سويًا. وكما يدل عليهم اسمهم، كانوا يسجلون الناموس ويفسرونه كما كان يفعل الفريسيون، ولكنهم لم يحتلوا مدرسة لاهوتية مستقلة، بل كان كل تأثيرهم من خلال المجمع حيث كان يجتمع عامة الشعب للعبادة وتعلُّم الناموس الذي كان المرجع لهم دينيًا ومدنيًا أيضًا.

الغيورون:

كان الغيورون جماعة تجمع بين الدين والسياسة. ويقال إنهم ظهروا وقت التعداد الذي جرى سنة ٦ م معترضين عليه وعلى النتيجة المباشرة له وهي الضرائب. وفي الكتاب المقدس يظهر الغيورون منذ القدم فمنهم شمعون ولاوي (تك ٣٤: ٤-٦) وفينحاس (عد ٢٥: ١-٨). وكان هناك غيورون في أثناء الحكم المكابي وهم - بدون شك - أجداد الذين ظهروا إبان العصر المسيحي. ومعنى الاسم: أن «تكون غيورًا». فالغيور هو الشخص الذي

يسلِّم نفسه لله لكي يكون الوسيلة التي يظهر بها غضبه العادل ودينونته ضد الأصنام والضلالة وكسر الناموس. ولقد كان هدف الغيورين في أيام المسيح هو الثورة لكسر نير الرومان. أما يسوع، فلم يظهر أي دليل عملي، يدل على أنه كان واحدًا منهم.

الأسينيون:

أما الحزب الأخير الذي ينبغي أن يُذكر في هذه الدراسة فهو حزب الأسينيين وهو يتكوَّن من جماعة متصوِّفة متطرفة في تقواها، يرجع أصلهم غالبًا إلى الهسيديم في أيام المكابيين. لقد تركوا المدن وأسسوا لأنفسهم مستوطنات رهبانية يسودها نظام في غاية القسوة. ولقد كشفت مخطوطات «القمران» التي أُكتشفت حديثًا قرب الشاطئ الشمالي الغربي للبحر الميت عن أشياء كثيرة وقيِّمة عنهم لم تكن معروفة من قبل. فقد ظهر أنه ربما كان لديهم كتب مقدسة أخرى إلى جانب التوراة. وكانوا يسمون أنفسهم أبناء النور وحكموا على الآخرين أنهم أبناء الظلمة. وكانوا ينتظرون مسياوين أحدهما كاهن والثاني ملك.

ولقد زعم بعضهم أن يسوع كان واحدًا منهم، ولكن هذا الرأي لم يجد قبولًا عند العلماء. أما يوحنا المعمدان فربما كان أقرب إليهم، مع أن حياته التي نعرفها لا تتفق كثيرًا مع حياة الأسينيين.

انتظار المسيَّا:

وما سبق يمكن القول بأن ذلك العصر كان لليهود عصر قلق وتذمر وانتظار. ولقد دفعت هذه الحالة القاسية من الضغط السياسي والارتياب الديني، كل يهودي إلى الصلاة والرجاء لأجل عصر أفضل جديد. فلا غرابة إذًا في أنه عندما جاء يوحنا المعمدان يكرز «بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا» ومقتبسًا إشعياء: «صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب» تدفق الناس إليه من كل نواحي فلسطين ليعتمدوا في الأردن على رجاء مجيء الملك الآتي. فالفقراء الأتقياء والناس البسطاء الذين لم يهتموا كثيرًا بصراعات الصدوقيين والفريسيين، هم الذين تطلعوا برغبة عارمة لمجيء المسيا. وقد جاء أخيرًا منهم ولهم.

Recommended English Readings

DAVIES J. G. *The Early Church,* PP. 1-6.

FILSON; Floyd V. *A New Testament History,* pp. 34-61.

LIETZMANN, Hans *A History of the Early Church,* pp. 24-103.

LATOURETTE, K. Scott *A History of Christianity* (abridged) pp. 10-19.

WALTER, Williston *A History of the Christian Church,* pp. 12-17.

The Interpreter's Dictionary of the Bible, especially articles on Synogogue, Temple, Sadducees, Pharisees, Scribes, Zealots, Essenes.

الفصل الثاني
إرسالية المسيح



جذور الكنيسة:

لابد أن يبدأ تاريخ الكنيسة بإرسالية المسيح، لأنه مؤسس الكنيسة ومركز كل تاريخها.

وقد يُقال عن الكنيسة إنها تبدأ من بدء الخليقة نفسها، لأنها في معناها الأساسي هي جماعة من الذين انفصلوا عن العالم ليكونوا شعبًا لله. وهذا القول فيه بعض الصواب لأن الكنيسة كحقيقة حية كانت موجودة في أيام الآباء والقضاة والملوك والأنبياء.

ففي عظة بطرس (أع ٢) يوم الخمسين تظهر إشارات إلى الأنبياء: يوئيل، والآباء وداود. وفي عظة استفانوس (أع ٧) إشارة إلى «الكنيسة في البرية» وخيمة الشهادة في البرية، مما يؤكد اهتمام الرسل بأسلاف الكنيسة وإحساسهم بأن ما عمله الله في المسيح يسوع هو من خطة أزلية غير مرتبطة بالزمان. ولكن اذ نأخذ عناصر الزمان والمكان في الحسبان ينبغي أن نتبع ما اصطلح الناس عليه، وهو ابتداء قصة الكنيسة بحياة من أسسها واضعين نصب أعيننا الماضي السحيق حيث تكمن جذور الكنيسة.

المسيح رأس الكنيسة:

بالطبع لا نستطيع أن ندرس حياة المسيح وتعاليمه دراسة تفصيلية في كتاب قصد به أن يكون تاريخًا للكنيسة. وليس في المسيحية ما أمكن درسه دراسة عميقة مثل حياة المسيح. ومن الناحية الأخرى ما كان يمكن أن يكون هناك كنيسة بدون يسوع المسيح. فهو أساس وجودها، هو رأسها وهي جسده. فإن كان لها حياة فهي فيه ومنه وبواسطته. وهو الشخص المركزي لكل المسيحية. وهذا ما يعترف به كل مسيحي ويتمسك به مهما كانت طائفته. ولهذا السبب فلن ننسى حياة يسوع الأرضية وخدمته لأنها نقطة البدء والأساس في تاريخ كنيسته.

ولكن وباختصار شديد، سنحاول اكتشاف العناصر التي تكمن في أعمال وأقوال يسوع التي صارت أساس الكنيسة، علمًا بأن كل ما قاله وعمله كان ذا أهمية عظمى عند المسيحيين. ولكن اهتمامنا هنا سيوجه إلى توضيح تلك العناصر القوية والمؤثرة التي حلت أتباعه القلائل من الرُبط التي كانت تربطهم بيهوديتهم وبأجدادهم، ودفعتهم إلى إقامه جماعة فريدة لم يسبق لها

مثيل سُمّيت فيما بعد: «الكنيسة المسيحية». وبالرغم من كل ضعفاتها البشرية فإنها نمت واتسعت وخرجت عن تخوم فلسطين، وامتدت إلى خارج حدود الديانة اليهودية نفسها.

الإشارات التي وردت عن المسيح خارج الكتاب المقدس:

تعتبر الأناجيل، بلا شك، مصدرنا الأساسي عن يسوع، اذ لم يكن معروفًا للمؤرخين الآخرين، وحتى لو عرفوه فإنه بالنسبة لهم، لم يكن شيئًا يُذكر إلى جانب القادة والقياصرة الرومانيين. ورغم ذلك فقد أصبح ذلك الرجل، الذي لم يكتب كتابًا ولم يؤسس مدرسة ولم يقد جيشًا، ولم تزد حياته العامة عن ثلاث سنوات، ولم يزد أتباعه عن اثنى عشر رجلًا قليلي الشأن، هذا الرجل صار النقطة الفاصلة والحاسمة في التاريخ. لم يظهر اسم يسوع في أي كتاب من كتب التاريخ العالمى حتى ٩٥ م، عندما أشار المؤرخ اليهودي يوسيفوس إليه مرتين. ويقول العلماء إن الإشارة الثانية ربما كانت إضافة متأخرة بواسطة كاتب مسيحي. أما كتب الربيين فقد احتوت على بعض الإشارات القليلة العابرة، وكلها مملوءة بالعداء المستحكم. وفي القرن الثاني الميلادي وردت في بعض كتابات الكتاب الرومانيين من أمثال تاسيتوس (Tacitus) وسوتونيس (Suetonius) ثم بلينى (Pliny) إشارات عابرة عن شخص اسمه (كريستوس) ولكنهم لم يزيدوا عن مجرد ذكر اسم المسيح، ولم يضيفوا شيئًا للقصة الوافية الكاملة في الأناجيل.

خدمة يسوع لكل الناس:

من الصعوبة بمكان أن نحدد عنصرًا بذاته في خدمة يسوع كان له الأثر الأكبر في تكوين الكنيسة. لقد اختلف عن القادة الدينيين في أثره العام في الناس، في دعوته بالقول والعمل لجماعة بسيطة، في اختلاطه بجماهير لم يكن غيره يهتم بها، في اختياره للحقول والقرى للتبشير برسالته بعيدًا عن أورشليم المركز الرئيسي للقوة الدينية اليهودية.

فلكي تُبنى الكنيسة كان يجب أن يكون ذلك على قاعدة عريضة من كل طبقات المجتمع وهكذا فعل يسوع الذي عاش للآخرين ولكل الناس.

تدريب الاثني عشر:

وكانت الجماعة الخاصة التي صارت أقرب الناس إليه جماعة عادية من كل الوجوه، ضعيفة أمام الأزمات، ولم يكن لأي إنسان مهما كان خياله أن يرى فيهم أولئك القديسين والأبطال كما صاروا فيما بعد، ولكنهم كانوا مع يسوع. لقد تركوا عائلاتهم وأعمالهم ليتبعوه. ولم يعرفوا من هو إلا بعد مدة طويلة في صحبته، وحتى عندما رأوه على جبل التجلي لم يكونوا يظنونه سوى واحد من الأنبياء. أما الهزيمة المروعة التي ظنوها في تسليمه ومحاكمته وصلبه، فكانت شديدة الأثر عليهم فأخافتهم وأربكتهم. ولكنهم عندما اكتشفوا قيامته وعرفوا معناها العميق، وعندما استوعبوا تعاليمه عن الهدف الذي جاء من أجله، لأجلهم ولأجل العالم، عندئذ اختبروا وعرفوا تلك الشركة الأساسية الخلاقة التي صارت الصفة الأساسية للكنيسة التي يجب أن تحفظها في كل العالم وإلى كل الدهور.

الصلب والقيامة:

الحقيقة التي لا تحتاج إلى زيادة تأكيد لبيان أهميتها القصوى، هي أن أهم ما عمله يسوع،

واهتمت الأناجيل جدًا بتسجيله، هو بذله نفسه لأجل خلاص البشرية. ولقد عاشت تلك الحوادث التي سبقت الصلب حية في ذهن الكنيسة إلى هذا اليوم. وهل تنسى الكنيسة الدخول الانتصاري، إقامة لعازر من الموت، العشاء الأخير، جهاده في بستان جثسيماني والتسليم والمحاكمة؟ وكان للعشاء الرباني أهمية خاصة فلقد مارسته الكنيسة منذ أيامها الأولى كذكرى لآلامه وموته. ثم جاءت القيامة التي لا تقل عن كل ذلك أهمية والتي لولاها ما كان يمكن أن يكون للكنيسة وجود بالمرة، فهي التي جعلت معنى لموته ولكل شيء فعل وقال قبل ذلك. فعندما قام السيد من بين الأموات عرف أتباعه من هو، ومن هم، وماذا يجب أن يفعلوا. ومع أنهم لم يتكلموا كثيرًا عن الكنيسة كمنشأة، ولكنهم أصبحوا هم هذه الكنيسة في قوة الرب المُقام من بين الأموات.

ناموس المحبة:

ينبغي أن نلاحظ هنا أيضًا الأهمية البالغة لكرازة يسوع وتعاليمه، فقد تكلم كما لم يتكلم إنسان غيره. وهو الذي أعاد تفسير ناموس موسى مرّكزًا على الروح لا الحرف، حتى أصبح وكأنه شيء جديد. إنه لم ينكر الناموس القضائي الذي جاء به موسى، ولكنه ذهب إلى أبعد من ذلك ليظهر أن البر الحقيقي يكمن في التوبة والتواضع والاتكال على نعمة الله (قارن صلاة الفريسي والعشَّار في لوقا ١٨: ٩-١٤). فهو لم يتطلب إصلاحًا في السلوك، بل تغييرًا في الحياة، ولذلك نبّر على الوصيتين «تحب الرب إلهك .... وقريبك كنفسك» اللتين كانتا جزءًا من المفهوم الديني اليهودي ولكنهما في الحياة العلمية، دفنتا تحت أكوام من التفاصيل اللانهائية للنواميس والتقاليد الفريسية.

ملكوت الله:

ومن أهم تعاليم يسوع أيضًا تعليمه عن ملكوت الله، وحياة الفرح والكفاية في هذا الملكوت. وكان مفهوم يسوع للملكوت أنه حاضر الآن وفي نفس الوقت سيأتي في المستقبل. لم يكن الملكوت في تعاليمه مرادفًا للكنيسة، ولكنه تكلم عنه بمعنى أنه الحالة التي تتملّك العقل والقلب والتي تتحقق - لحد ما - في العصر الحاضر ثم تتحقق في كمالها المطلق في المستقبل الذي لم يحدَّد بعد، عندما يحققها الله بحسب إرادته. وكان أسلوب يسوع في الكلام عن الملكوت غامضًا ومتحديًا، ولكنه في نفس الوقت يعطي الرجاء والرضا. ومع أن الكنيسة ليست مرادفة للملكوت إلا أن وعد الملكوت ملأ الكنيسة بالثقة واليقين في أحلك الظروف. وتظهر الكنيسة في أعظم انتصاراتها في رؤيا ٢١ ... أورشليم الجديدة نازلة من فوق من السماء مزينة كعروس لرجلها .... هذا هو عمل الله لا عمل إنسان.

يهودية يسوع:

وهناك عنصر آخر في حياة يسوع يميزه عن الناس، هو رفضه القوي وانتقاداته الحادة لنوعية القيادة الدينية لليهود. كان يسوع يهوديًا، يحترم ناموس موسى وعادات الناس، ويحافظ على المواسم والأعياد، عَيَّدَ عيد الفصح وحضر العبادة في المجمع والهيكل. وكان الناس ينادونه باللقب الجليل «رباي» أو يا معلم. ولكنه في نفس الوقت قال وعمل أشياء كانت قذى في أعين قادة اليهود الأتقياء. لم يكن زاهدًا متقشفًا .... جاء يأكل ويشرب .. اختلط بعامة الناس وخاصة المنبوذين كالسامريين والعشارين والخطاة والزواني، وأصعب

من هذا كله. نسب لنفسه سلطان الله نفسه، فغفر الخطايا. وكان يبدأ خطابه بالقول «وأما أنا فأقول لكم ...» بدلًا من أن يقول العبارة التقليدية: «هكذا قال الرب». وأخيرًا أخذ على نفسه أن يتمم عمل المسيّا المنتظر بل وضع نفسه للموت حتى يتمم عمل تلك الوظيفة.. أشياء لم يكن اليهود مستعدين بتاتًا أن يتقبّلوها أو يتحملوها.

استقلالية يسوع:

من هذا يتضح أن يسوع كانت له طريقته الخاصة في كل شيء، مستقلًا تمامًا عن أي تأثير خارجي. ورفض رفضًا باتًا أن يتوافق مع الأحزاب الكبرى. فلم ينعزل مع الأسينيين ولا أن يقوم بثورته مع الغيورين. وأظهر سخطه على الكهنة والصدوقيين وطرقهم. وهاجم الكتبة والفريسيين علنًا واتهمهم بأنهم مراؤون وقادة عميان وقبور مبيضة. وبالاختصار فقد رفض يسوع بكيفية حاسمة أن يربط نفسه بالأحزاب الرئيسية، حتى ان الجماعة أو الكنيسة التي كان عليها أن تحمل شهادته ورسالته، رُفضت وطُردت من الحياة اليهودية كما فعلوا مع سيدها.

يسوع وتكوين الكنيسة:

ويمكن مما سبق أن نستنتج من الأسباب السابقة أن ظهور الكنيسة المسيحية كان ضرورة حتمية .. فالآثار التي ترتبت على حياة يسوع وموته وقيامته أظهرت بكل جلاء أنه لابد من ظهور منظمة تستمر وتبقى. ومع ذلك فلم يذكر يسوع تفاصيل بناء وإدارة وممارسات الكنيسة المقبلة. والعشاء الربانى كان الممارسة الوحيدة التي رسمها. وكانت وصيته الأخيرة لتلاميذه أن «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به» (مت ٢٨: ١٦-٢٠) هي البرنامج المتسع للتبشير وضم المسيحيين في جماعة المؤمنين، وتعليمهم في الإيمان. وظهر اهتمام يسوع الواضح بالكنيسة ووحدتها - في سنواتها المقبلة المستمرة - في صلاته الكهنوتية (يو ١٧). وقد مارس يسوع نفسه بعض الممارسات وشجعها، التي صارت ممارسات الكنيسة نفسها، مثل الصلاة والصوم وإعطاء الصدقة.

اعتراف بطرس:

أما إشارة السيد الواضحة إلى الكنيسة بذات الاسم فجاءت في متى ١٨: ١٨ وقد بُنيت على اعتراف بطرس بأن يسوع هو المسيح. وعلى هذا بنى بعض المسيحيين الأهمية الكبيرة للاعتراف العلني بالمسيح. واستنتج بعضهم أن الخدمة المسيحية الحقيقية هي تلك التي سارت في خط واحد مستمر لم ينقطع من بطرس رئيس الرسل. ولكن نظرًا لهدف هذه الدراسة يكفينا أن نقول إن التخطيط لمنظمة خاصة يُطلق عليها «الكنيسة» لم يكن في حياة المسيح هو الهدف الأول. نعم يمكننا أن نقول إنه توقع بل أمر بأن تكون هناك شركة ونشاط مستمرَين. ولكن الصورة التي تأخذها هذه الشركة، تركه لهذه الجماعة الأمينة لكى تقيمه بارشاد الروح القدس الذي يعلّمهم ويرشدهم إلى كل الحق (يو ١٤: ٢٦؛ ١٦: ١٣).

Recommended English Readings

DAVIES J. G. – ***The Early Christian Church,*** pp. 19 – 29.

FILSON, Floyd V.– ***A New Testament History*** pp. 88-150.

LATOURETTE, K. Scott – ***A history of Christianity,*** pp. 37 – 60, 112, 113

LIETZMANN, Hans – ***A History of The Early Church,*** pp. 45 – 60.

WALKER Williston – ***A History of The Christian Church.*** pp. 18 – 21

الفصل الثالث
الكنيسة في أورشليم



نأتي الآن إلى الكنيسة الأولى التي بدأت وعاشت أيامها الأولى بعد صعود المسيح. والمصادر - التي تكاد تكون - الوحيدة لمعرفة هذه الفترة هي الكتب المقدسة وخاصة سفر الأعمال. ولكننا لن نتكلم بالتفصيل عن الحوادث التي سُجِّلت في هذا السفر. بل سنقتصر في حديثنا. على السمات الأساسية لهذه الكنيسة الأولى. كيف كانوا يرون أنفسهم وكيف عملوا كتكوين جديد... أي جسد المسيح.

الكنيسة كمؤسسة لعصر جديد:

ينبغي أن يُذكر هنا أن هذه الجماعة الصغيرة غير المعروفة من المسيحيين الذين عاشوا على هامش الإمبراطورية الرومانية كانوا يخلقون منظمة تعيش وتبقى. بينما تزول تلك الإمبراطورية العظيمة وكل ما خلفها من إمبراطوريات. ويمكن أن يُقال إن كل شيء له تأثير في العالم الغربي بل وكثير من بلدان الشرق الأوسط. مما يعتبر «تراثًا» (Legacy) من الحضارة الرومانية اليونانية مثل المفاهيم السياسية. أسس القانون والفلسفة. أشكال الشِعر والفن. وباختصار كل أسس الحضارة الحديثة والثقافة الإنسانية. كل هذه كانت الكنيسة عاملًا أساسيًا في حفظه وتوصيله إلينا. أما المؤسسون الأوائل فلم يفكروا في هذا الاتجاه ولم يحلموا بأعمال القسوة والاجحاف التي كانت - بين الحين والآخر - تشوِّه تاريخ الكنيسة. لكن كان مركز انتباههم هو الرب المُقام وما طلبه منهم. وقد لا ترجع إليها كنيسة العصر الحديث إلى هذه البساطة. ولكنها يجب أن تعيش بضعفاتها وامتيازاتها. لكن السنين الطويلة لم تستطع أن تعتم رؤيا الرب المُقام. أو أن تضعف دعوته الحاسمة القوية للكنيسة التي أحبها. في كل العصور.

تاثير القيامة:

لا ينكر أي دارس أن الكنيسة وُلدت يوم الخمسين. ومع ذلك فنحن نوقن بأن تكوين الكنيسة في شكلها البدائي. ظهر حالما اقتنع التلاميذ بقيامة السيد. فأينما ظهر السيد. ومهما كانت الطريقة التي ظهر بها سواء أكان للنساء في البستان أو لبطرس وحده. أو لتلميذيّ عمواس. أو للأحد عشر وهم مجتمعون في العلية في خوف ويأس. أو على شاطئ بحيرة الجليل. أو للخمسمائة أخ الذين يذكرهم الرسول في ١ كورنثوس ١٥: ٦. فإن

روحًا جديدة تختلف عن الماضي. تظهر واضحة ملموسة. مملوءة بالبهجة والفرح والشكر. ثم نظرة ثقة قوية إلى مستقبل بانتظاراته العظيمة.

ذلك لأن سيدهم لم يُهزم ولم يتركهم بل أعطاهم المواعيد وتممها ولم يكن ايمانهم به عبثًا. أراد أن يستخدمهم في أعمال عظيمة. وكانوا بدورهم مستعدين لذلك. وهكذا ظهرت الكنيسة فكرًا وحقيقة عندما تشكل التلاميذ بهذه الرؤيا. وحتى لو لم يستخدموا كلمة «كنيسة» فإنهم صاروا كنيسة حالما اختبروا قوة قيامة المسيح. ولكي يكونوا عمليين عزموا على ملء المكان الذي تركه يهوذا الأسخريوطي الذي خان سيده. بانتخاب رجل كان مؤهلًا لأن يكون تلميذًا. متياس (أع ١: ٢١ـ ٢٦). وبذلك برهنوا على أنهم كانوا ينظرون لأنفسهم كجماعة مترابطة مستمرة.

يوم الخمسين:

يعتبر يوم الخمسين وما حدث فيه ثاني الحوادث المهمة في تاريخ الكنيسة. ويوم الخمسين هذا هو عيد الأسابيع اليهودي. وسُمي بالخمسين لأنه يجيء بعد خمسين يومًا. من اليوم الذي فيه تدخل حزم الشعير إلى بيت الرب في عيد الفصح. وهناك مناسبة أخرى يرتبط بها يوم الخمسين وهي إعطاء الناموس على جبل سيناء. وهكذا لم يكن اليوم غريبًا على التلاميذ بل كانوا يعرفونه من قبل. في ذلك اليوم كان حوالي ١٢٠ تلميذًا مجتمعين في العلية (أع ١: ١٥).

وقد اجتمع حولهم جمع كثير يسمعونهم باستغراب وهم يتكلمون بألسنة. وهذا يدل على أن المكان الذي كانوا فيه كان مكانًا عامًا ومتسعًا.. ربما كان أحد قاعات الهيكل. وإن صح هذا الاستنتاج فهو يدل على أن اختبار القيامة ولَّد فيهم روح الشجاعة والإقدام. وفي نفس الوقت لم تكن السلطات في الهيكل قد أخذت منهم موقف العداء بعد. بل كانت تعتبرهم يهودًا محافظين.

ومن الناحية الأخرى. فإن الحقيقة البارزة في العدد الضخم الذي آمن بعد عظة بطرس. حيث انضم إلى التلاميذ ثلاثة آلاف عضو آخر تدل على أن الكنيسة أصبحت شعبية بل ومنطقة جذب ضخمة من السهل أن تلفت إليها انتباه السلطات. وبالأخص إذا عُرف أن كل سكان أورشليم في تلك الفترة كانوا عشرين ألفًا. ومع ذلك فقد مر وقت طويل نسبيًا لتظهر الحركة المضادة لمحاربة نشاط المسيحيين الأوائل ومضى وقت أطول ليطرد اليهود المسيحيين الذين من أصل يهودي من المجمع.

عمل الروح القدس:

لقد أمر يسوع تلاميذه أن ينتظروا وعده ويختبروا حلول الروح القدس عليهم. وقد تم الوعد وجاء الروح القدس في «صوت ريح وضوء هو ألسنة من نار» ولعل توقع التلاميذ لم يصل إلى هذا الحد ولكنهم فرحوا به بكيفية جعلت الناس من حولهم تعرف أن امرًا عجيبًا حدث لهم.

ومع ذلك فيجب أن نعرف أن الروح القدس يعمل ويظهر بكيفية أخرى. ففي يوحنا ٢٠: ٢٢ نقرأ أن التلاميذ قبلوا الروح القدس عندما نفخ المسيح المُقام فيهم في هدوء. وفي هذا المجال يجب ألا ننسى نصيحة الرسول بولس للكورنثيين في رسالته الأولى إليهم والأصحاحات ١٢و ١٣و ١٤ عندما كان يناقش المواهب الروحية في إطار المحبة والوحدة المسيحية. هذه نصيحة يجب أن تذكرها الكنيسة دائمًا إذ يقول لهم: «جدوا للتنبؤ ولا تمنعوا التكلم بالسنة. وليكن كل شيء بلياقة وبحسب ترتيب» (١ كو ١٤: ٣٩).

عظة الرسول بطرس:

كانت عظة بطرس الحدث الهام الثاني في يوم الخمسين عندما أجاب على تساؤل وحيرة المشاهدين: «ماذا يعني كل هذا؟» في هذا الموقف الذي فيه شهد بأن «يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم، جعله الله ربًا ومسيحًا» استطاع بطرس أن يخلط العاطفة المتقدة بالدعوة الذهنية، وبذلك جمع بين الخبرة الروحية والشهادة للإيمان. وهكذا استطاع في عظته الأولى أن يجمع العناصر الجوهرية للإنجيل، فالعهد القديم الذي أشار إلى مجيء المسيح قد تمت نبواته، والمسيح قد صُلب بأيدي الأثمة والله أقامه من الأموات، ونحن شهود لهذه الحقيقة، ويسوع هذا هو رب ومخلص، ولهذا فيجب أن تتوبوا وتخلصوا (أع ٢: ١٤ـ ٣٦).

كانت الألسنة سبب حيرة للناس، ولكن عظة بطرس وضعت أمامهم بكل وضوح دعوة لتسليم الحياة، ولهذا تقدم ٣٠٠٠ عضو إلى الأمام، وتابوا واعتمدوا وانضموا إلى الكنيسة.

هذه العناصر الثلاثة المرتبطة معًا: الخبرة الروحية، والشهادة العلنية، ونمو الكنيسة تدل بكل وضوح على أن الكنيسة قد اتخذت القرار الحاسم بالعمل، والتحرك لتقديم المسيح يسوع إلى العالم غير عابئة بما يجرُّه عليها هذا العمل ولا كم هي النفقة التي ستتكلفها، يكفي أن تتحرك. وهكذا يمكننا أن نقول إن يوم الخمسين هو يوم ميلاد الكنيسة.

ميزات كنيسة أورشليم:

بدأ هؤلاء المسيحيون يشعرون بهويتهم، ويحسون أنهم شركة وجماعة مميزة وبدأت بعض الصفات الهامة تظهر في جماعتهم هذه. لم يطلقوا على أنفسهم بعد لقب مسيحيين، ولكنهم كانوا يعرفون في أنفسهم جماعة من اليهود اكتشفوا لأنفسهم المسيّا المنتظر، وهم يعيشون الآن في انتظار مجيئه ثانية. إلى جانب ذلك استمروا يعبدون في الهيكل لأسباب عديدة.

ربما منها أن الهيكل هو المكان المتسع المناسب والمثالي للشهادة، ولكن فوق ذلك كان من حقهم الطبيعي كيهود أن يجتمعوا هناك. كان الهيكل بنفس الدرجة الذي كان للمسيح ربهم من قبلهم.

الأمور التي ميَّزت المسيحيين:

ولكن هناك أيضًا بعض القيم التي كانت تميِّز المسيحيين دون غيرهم منها: ضرورة سكنى الروح القدس، ثم المعمودية التي رغم إنها نبتت من معمودية يوحنا المعمدان، لكنها صارت إجراءً ضروريًا للدخول في الشركة المسيحية. وهناك أيضًا شواهد تدل على أن الكنيسة بدأت من أول تكوينها تضع أهمية خاصة على يوم الأحد أول أيام الأسبوع، وذلك بتخصيص نوع من العطاء (١كو ١٦: ٢). وكسر الخبز الذي كان يجري فيه (أعمال ٢٠: ٧)، وقد أُطلق عليه اسم «يوم الرب» (رؤ ١: ١٠). لقد خلقت قيامة السيد أهمية عظمى لهذا اليوم بالنسبة للمسحيين فأصبح سهلًا عليهم أن يعبدوا الرب فيه مع أنه لا يوجد ما يجعلنا نعتقد أنهم أبطلوا تقديس يوم السبت اليهودي. كما كان يومًا الاثنين والخميس يوميّ صوم لليهود، وكان المسيحيون الأوائل يحفظونهما بكل إخلاص، ولكن بمرور الوقت استبدلوهما بيومي الأربعاء (الذي فيه أُسلم المسيح) والجمعة (لأنه صُلب فيه).

أنشطة الرسل ومواعظهم:

كانت هناك أيضًا أنشطة الرسل العلنية من شفاء مرضى ووعظ. وخاصة من الرسولين بطرس ويوحنا. (حوالي خُمس سفر الأعمال يتكوَّن من مواعظ[1] وتعليم المؤمنين. ويجدر بنا هنا ملاحظة أن مواعظهم مع أنها كانت مركَّزة على المسيح الحي المُقام وسلطانه في الكنيسة. إلا أن جذورها كانت مثبتة في الناموس وفي التاريخ اليهودي وفي كتابات الأنبياء وكانت في حقيقتها دعوة إلى التوبة والرجوع إلى الله. وكانوا يعتقدون أنهم لهم الحق في الهيكل وفي الوعظ فيه ويؤكدون أنهم لا ينادون بديانة جديدة أو جماعة جديدة. ولكنهم يعملون على إرجاع إسرائيل إلى المعنى الأساسي الذي أعلنه لهم يسوع.

مجيء المسيح الثاني:

وكان الفكر السائد بين الجماعة الأولى هو العنصر الإسخاتولوجي. فقد عاش المسيحيون في انتظار رجوع السيد الذي اعتبروه على الأبواب. وذلك استنادًا إلى ما قاله يسوع لهم (مت ٢٤: ٣٢- ٣٦؛ مر ١٣: ٢٨- ٣٧؛ لو ٢١: ٢٩- ٣٦). وكما أن الرسول بولس يختتم رسالته الأولى إلى كورنثوس بقوله: «ماران آثا» أي «ربنا تعال» (١كو ١٦: ٢٢). ويقول في رسالته للفيلبيين «الرب قريب» (في ٤: ٥). ويختتم يوحنا الرؤيا بهذا القول: «يقول الشاهد بهذا نعم. أنا آتي سريعًا. آمين. تعال أيها الرب يسوع» (رؤ ٢٢: ١٠).

وبهذا كانت الكنيسة ذات طبيعة توسطية فهي كقنطرة تربط ما بين مجيء المسيح الأول ومجيئه الثاني القريب جدًا. فهي جماعة بدت وكأنها قد حُرمت مؤقتًا من قائدها وتنتظر رجوعه ثانية.

وهنا يكمن الرد على التساؤل عن الصلة بين الكنيسة وملكوت الله. فالكنيسة ليست بديلًا عن الملكوت ولم تأت بدلًا عنه. لقد جاءت لتمكِّن الإنسان من أن ينتظر مجيء الملكوت.

حياة الشركة المسيحية:

بدت للمسيحيين الأوائل أهمية اجتماعهم معًا في بيوت بعضهم البعض. فقد كان هناك مسيحيون يسكنون في أورشليم وكانت لهم بيوت كبيرة تتسع لجماعات منهم (ويبدو أنه لم يكن لأي واحد من التلاميذ بيت في أورشليم غير يوحنا مرقس). وربما كان اجتماعهم معًا في هذه البيوت بسبب الخوف من اليهود. ولكن كان أساسًا لكي يمارسوا معًا فريضة العشاء الرباني الذي كان عزيزًا عليهم أكثر من سائر الممارسات الأخرى. والذي لم يكن يرضى لهم اليهود أن يقوموا به في الهيكل. ويلوح أيضًا أن كسر الخبز في بيوت في المساء كان هامًا بالنسبة لهم. لأنهم كانوا يعتقدون أن المسيح سوف يأتي بينما هم يشتركون معًا في كسر الخبز (أع ٢: ٤٢). ومع أن عشاء الرب وكسر الخبز كانا يُمارسان في وقت واحد إلا أنهما بمرور الوقت. بدآ يتمايزان. وكان هناك شيء آخر هام وهو ما يعبَّر عنه «وكان عندهم كل شيء مشتركًا». وهذا يدل على أنهم كانوا يحيون حياة جماعية. وكان يلزمهم أن يستخدموا البيوت المتسعة لاجتماعاتهم. هذه «الاشتراكية المسيحية» الأولى كانت ضرورة اجتماعية لأن

(١) المواعظ في سفر الأعمال هي: لبطرس (أع ٢: ١٤- ٤٠، ٣: ١٢- ٢٦، ٤: ٨- ١٢، ١٠: ٣٤- ٤٣). ولاستفانوس: (٧: ٢- ٥١). ولبولس: (١٣: ١٦- ٤١، ١٧: ٢٢- ٣١، ٢٠: ١٨- ٣٥، ٢٢: ١- ٢١، ٢٢: ١-٢١، ٢٦: ٢-٢٩، ٢٦: ٢- ٢٩، ٢٨: ٢٣- ٢٨).

المسيحيين الفقراء الذين لم يكونوا من أورشليم أصلًا. لم يكن لهم سوى هذه البيوت ليمكثوا فيها. كما كان هناك سبب لاهوتي بسيط وهو قرب مجيء سيدهم. وكان من الأحسن لهم أن يحيوا معًا منتظرين ذلك الحادث الجليل. ففي مقابل الإعداد لمجيء الرب. كانت الممتلكات لا تساوي شيئًا. ولكنهم لم يفعلوا ذلك ليكون أساسًا لكنيسة المستقبل ولا للمجتمع عامة.

معنى كلمة «كنيسة»:

لم يذكر العهد الجديد السبب الذي لأجله استخدم التلاميذ كلمة «كنيسة» ولا متى استخدموها. وبقدر ما نعلم لم يُطرح هذا السؤال للبحث أبدًا. وعندما استخدمها القديس لوقا في أعمال ٥: ١١ فعل ذلك دون أي تنبير أو تعريف. واستمر كذلك في كل كتابه. ولكن العهد الجديد استخدم كلمة «الكنيسة» بمعنى «اجتماع». أي اجتماع جماعة مسيحية في مكان ما. وقد تُطلق على المسيحيين أنفسهم عندما يجتمعون للعبادة. ولكن هذه الكلمة بدأت تكسب معناها اللاهوتي في كتابات الرسول بولس عندما نبَّر عليها تنبيرًا عميقًا في رسائله. وأعطاها ذلك المعنى الذي نعرفه نحن الآن. ولعل التلاميذ الأوائل كانوا يتذكرون كلام السيد لبطرس. ولعلهم كانوا في حاجة إلى كلمة تُطلق على جماعتهم لتميِّزهم عن اليهود الآخرين. ولقد قرأوا تلك الكلمة في الترجمة السبعينية بمعنى «كل الشعب كجماعة مدعوة من الله» (إكليسيا). وهي ترجمة الكلمة العبرية «كنيسة» بمعنى «اجتماع» وبهذا المعنى أخذها التلاميذ وأطلقوها على أنفسهم لأنهم كانوا يعتقدون أنهم إسرائيل الحقيقي. وبذلك صارت وصفًا لهم ولشركتهم.

تنظيم الكنيسة:

وأخذ الوقت يتقدم بالكنيسة. كما بكل تنظيم بشري آخر. فإننا نلمح انتقالًا تدريجيًا من جو الانتعاش الأول. إلى حالة من الاستقرار والنظام. فالكنيسة ظلت تعتبر نفسها جماعة ذات مبادئ علوية سامية. تعيش في أواخر الأيام. ولكنها كانت تدرك أيضًا أنه يجب عليها أن تؤدى خدمتها حسب الواقع البشري.

قوة عمل المعجزات التي كانت للرسل:

بدأ التحرك نحو التنظيم في الكنيسة عندما بدأت الجماعة تعترف بقيادة الرسل. وهذه القيادة لم تأت عفوًا ولكنها بُنيت على مجموعة من الاعتبارات: فهم الذين رافقوا يسوع في حياته في الجسد. وقد رأوا الرب المُقام. وكانوا يعظون ويعلِّمون وكانت لهم قوة خاصة لعمل المعجزات لم تكن للآخرين. ولقد دوَّن أعمال ٨: ١٤- ١٦ أن بطرس ويوحنا صليًا ووضعا أيديهما على المؤمنين في السامرة فحل عليهم الروح القدس. ومع ذلك فإن سفر الأعمال يبيِّن أن كل هذه القوات والآيات كانت نعمة وُهبت لهم من المسيح. فهو وحده مصدر السلطة في الكنيسة كلها. هو الذي عمل في الرسل وفي كل من كانت لهم مواهب روحية بل وفي كل جماعة المؤمنين.

القيادة والمسئولية في الكنيسة الأولى:

من الأمور الملاحظة في سفر الأعمال أن لا يذكر بعد (١: ١٣) سوى بطرس ويوحنا فقط من بين التلاميذ الاثني عشر. ثم بدأ اسم يعقوب أخي الرب في الظهور بين أسماء القادة. أصبح واحدًا من الأعمدة ورئيسًا في مجمع أورشليم ثم قائدًا

للكنيسة في أورشليم. إلى جانب هؤلاء ظهرت أسماء في مراكز أقل من الثلاثة السابقين: فهناك لجنة السبعة التي اُختيرت لتوزع الطعام على الفقراء، وهناك الشيوخ الذين أُقيموا في كل كنيسة (أع ١٤: ٢٣). ولعلهم كانوا امتدادًا للشيوخ اليهود. ومع كل هذا فمن الأمور الهامة والملاحظة أن الكنيسة لم تكن تهتم كثيرًا بالألقاب أو المراكز. وكان يختارون الشخصيات ذوي المواهب الملائمة لعمل خاص ولنفع الكنيسة. فالرسل الاثنى عشر، عندما عُرضت عليهم مشكلة الأرامل اليونانيات (أع ٦: ٢)، لم يقولوا إنهم لن يخدموا الموائد لأنهم رسل، بل قالوا: «لا يرضى أن نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد» فالخدمة عند الرسل كانت وكالة تُبنى على المواهب الخاصة التي أُعطيت لهم، ومسئولية لنمو الكنيسة وبنائها.

المعارضة ضد الكنيسة:

بالرغم من ظهور المعارضة من وقت قيامة المسيح، إلا أن الكنيسة كانت تتمتع بحريتها بعد يوم الخمسين. وظهرت المسيحية على أنها حركة شعبية داخل اليهودية ظهرت في أورشليم، انضم إليها الكثيرون من اليهود دون أي خوف من تدخل السلطات ضدهم سواء أكانت سلطات يهودية أم رومانية. فالرومان لم يفرقوا بين المسيحية واليهودية. ويذكر سفر الأعمال في هذا الصدد عن غاليون والي أخائية أنه رفض التدخل ليحكم بين اليهود والمسيحيين، لأن الأمر عنده لم يكن يتعدى «كلمة وأسماء وناموسكم» (أع ١٨: ١٥).

تردد اليهود في اضطهاد المسيحيين:

لكن المعارضة الأولى جاءت من رؤساء الكهنة والصدوقيين، لأنهم رأوا في الحركة المسيحية تهديدًا لسلطانهم الكبير في الهيكل، فعندما أُحضر بطرس ويوحنا أمام السنهدريم، وعندما وضع الرسول بطرس التحدي الضخم بكل شجاعة أمامهم (أع ٤: ٨ ـ ١٢) ظهر على أعضائه التردد والارتباك، ولم يعرفوا كيف يتعاملون معهما، وكان كل الشعب يتقبَّل الرسل ويتبعهم حتى أن الجنود حين ذهبوا لكي يقبضوا عليهم (بعد معجزة إخراجهم من السجن) فعلوا ذلك بدون عنف بل بكل هدوء خوفًا من الشعب (أع ٥: ٢٦). فلم يكن مستغربًا أن ينصاع السنهدريم إلى رأي غمالائيل ويترك الأمر في يدى الله نفسه. (لاحظ أن غمالائيل كان فريسيًا وأن المعارضة جاءت من الكهنة والصدوقيين، ومع ذلك كانوا يترددون في اتخاذ عمل علني ضد التلاميذ) ولقد كان وعظ التلاميذ مؤثرًا حتى أن كثيرين من الكهنة والفريسيين آمنوا بالمسيح (أع ٦: ٧؛ ١٥: ٥).

استشهاد استفانوس:

لقد بدأ الاضطهاد العلني القاسي باستشهاد استفانوس. ويلوح أنه شمل أولاً اليونانيين الذين أصبحوا مسيحيين. فهل كان ذلك لأن اليونانيين كانوا مكروهين لدى اليهود الفلسطينيين الذين كانوا يتكلمون الآرامية؟ أم لأن السلطات كانت أقل ترددًا وخوفًا في اضطهاد المسيحيين اليونانيين؟ لا نستطيع أن نعرف ذلك على وجه التحقيق لأن الكتاب لم يذكر ذلك. لكن من الواضح أن استفانوس كان يتمتع بمواهب ممتازة حتى أنه عمل آيات ومعجزات بين الناس، وعندما اتهموه بأنه يتكلم ضد الناموس والهيكل، قال نفس ما قاله بطرس من قبل: إن الله «لا يسكن في هياكل مصنوعات الأيادي»، ثم اتهم اليهود بأنهم يقاومون

الروح القدس، ويكسرون الناموس. وكان من جرَّاء ذلك أن هجم عليه اليهود وجرُّوه إلى خارج المدينة، وهناك رجموه حتى الموت دون أية محاكمة. ومن ذلك الوقت وجدت السلطات الشجاعة الكافية لاضطهاد المسيحيين علنًا. وكان الشخص الذي تزعم هذه الحملة المروعة هو شاول الطرسوسي الذي نشر الاضطهاد في أورشليم والبلاد التي حولها. وبدأ الاضطهاد اليهودي يزداد.

النشاط المرسلي الأول:

كان من نتائج هذا الاضطهاد أن تشتت المسيحيون خارج أورشليم وبدأوا التبشير في أمكنة أخرى. والأصحاح الثامن من سفر الأعمال يذكر نجاح فيلبس المبشر (يوناني) في تبشير السامرة ثم في تبشير وزير ملكة الحبشة[٢]. وفي البلاد الواقعة على طريقه إلى قيصرية على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط فكانت إرسالية متسعة. وفي أعمال ٩: ١و٢ يذكر القديس لوقا أن شاول الطرسوسي كان ينفث تهددًا وقتلاً في تلاميذ الرب وخصوصًا في مجامع دمشق، مما يدل على أن الإنجيل كان قد وصل إلى ذلك المكان البعيد. ويلوح أن الاضطهاد الذي شنه شاول الطرسوسي لم يكن بالغ القسوة لأن الرسل كانوا يحسون بالأمان في خروجهم ودخولهم إلى أورشليم، فقد بقي عدد منهم في أورشليم يبشرون بالكلمة كلما سنحت لهم الفرصة.

مدى اتساع شهادة الكنيسة:

عند هذا الحد نستطيع أن نرى أن الكنيسة كانت تمتد وتتسع جغرافيًا وتنظيميًا. فلم يقتصر التبشير على الاثني عشر رسولاً، بل كان هناك كثيرون غيرهم مثل استفانوس وفيلبس. ولقد بشروا في كل مكان ولكل إنسان. ويبدو أنهم كرسل للمسيح كان لا يزال لهم نوع من الإشراف في الكنيسة كلها. فلما سمعوا في أورشليم أن السامرة قبلت كلمة الله، ذهب بطرس ويوحنا ليريا ماذا هناك. ولكن عندما انتشرت الكلمة في أنطاكية أرسلوا إليها برنابا، الذي لم يكن واحدًا من الاثني عشر (أع ١١: ٢٢).

بطرس المرسل المسيحي:

وفي هذه الأثناء أيضًا حدث شيء بالغ الأهمية في تاريخ الكنيسة، هو تحول بطرس الرسول إلى مرسَل متجول - ربما كان وحده في ذلك الوقت. فذهب إلى السامرة ثم إلى لدة وأخيرًا إلى يافا حيث جرت على يديه قوات وعجائب في المدينتين. في يافا مكث عند رجل دباغ اسمه سمعان (كان الدباغ نجسًا عند اليهود). أما الحادثة التي كانت نقطة تحول في حياة بطرس وحياة الكنيسة كلها، فكانت تبشير كرنيليوس قائد المائة الروماني. لقد دعاه الرب بواسطة الرؤيا السماوية وهو فوق سطح بيت سمعان الدباغ، لأن يختلط بكل الناس من كل جنس وأمة، وأن يقدم الإنجيل حتى إلى الأمم. وهكذا حدث، فذهب إلى بيت كرنيليوس وبشره مع أهل بيته وعمَّده. وكان ذلك مبعث دهشة لليهود المسيحيين الذين كانوا معه. ولكنه عندما رجع إلى أورشليم

(٢) قصة الخصي الحبشي قصة مؤثرة، وبينما لا نستطيع أن نثبت أن الخصي لم يكن يهوديًا، لكن يلوح أنه كان واحدًا من «أنصاف المؤمنين» باليهودية، يحب اليهودية ولكنه لم يتهود (ولأنه خصي فمن غير المحتمل أن يكون من أصل يهودي) انظر:
The Interpeter's Dictionary of the Bible, "The Ethiopian Eunuch".

واجهته عاصفة من الانتقاد من جانب أهل الختان (ويلوح أن هذه القضية كانت قد أوجدت انقسامًا في الكنيسة)، ولكنه أخبرهم بكل ماحدث بكل قوة منهيًا خطابه بقوله: «فمن أنا؟ أقادر أن أمنع الله؟» (أع ١١: ١٧). فلم يستطع معارضوه أن يجيبوه. وهكذا نقض الحجاب بين اليهود والأمم وعرف المسيحيون الأوائل المدى الواسع لإرساليتهم التي ينبغي أن تمتد أبعد بعيدًا عن حدود بيت اسرائيل.. إلى كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض، كما أوصاهم السيد. ومع ذلك فقد كان الشخص الذي حمل هذه القضية إلى نهايتها هو بولس الرسول.

نمو الكنيسة بين الأمم:

في هذه الأثناء اجتاز المبشرون إلى فينيقية وقبرص وأنطاكية[٣] يبشرون اليهود أولاً ثم للأمم أيضًا. أما الكنيسة في أنطاكية فقد نمت بسرعة في العدد والتأثير حتى صارت المنافس الأول لأورشليم في الأهمية، فقد دُعي التلاميذ مسيحيين لأول مرة في أنطاكية (أع ١١: ٢٦)، ربما أطلق عليهم هذا اللقب الذين من الخارج للتمييز. ولكن الأهم من ذلك هو أن اليهود والأمم عندما اجتمعوا معًا لم يكن ممكنًا أن يُطلق عليهم لقب يهود.

ولسبب من الأسباب يركز القديس لوقا في كتابه، سفر الأعمال، على ما كان يحدث في العالم اليهودي واليوناني. ولكننا نعلم أن المسيحية قد انتشرت شرقًا وجنوبًا أيضًا. فيوسابيوس المؤرخ المسيحي يكتب في القرن الرابع أنه في أثناء حكم طيباريوس قيصر قبل ٣٧ م.: «كانت كل الأرض تستجيب لمناداة المبشرين والرسل». قد يكون في هذا القول بعض المبالغة، لكننا نعرف أن الكنيسة نمت وكبرت في بعض الأمم الأخرى، مثلاً: مصر وقد بشرها مرقس[٤]، كما ذهب توما إلى البارثنيين ثم إلى الهند.

ثم ظهرت كنيسة «سريانية» قوية بين الآراميين. وكنيسة الناصريين في بيلا في شرق الأردن حيث التجأ المسيحيون إليها سنة ٧٠ م. عندما خربت أورشليم، وبينما لا نستطيع أن نحدد أسماء البلاد التي ذهب إليها كل رسول من الرسل،

---

(٣) يوجد دليل على وصول الإنجيل إلى أفريقيا الشمالية عندما ذُكر في أعمال الرسل وجود قيروانيين في أنطاكية (أع ١١: ٢٠). كما ذُكر أيضًا اسمان أفريقيان: نيجر ولوكيوس القيرواني (أع ١٣: ١).

(٤) قصة الرسول مرقس في مصر موجودة في كتاب «تاريخ البطاركة لكنيسة الإسكندرية القبطية (كتاب جُمع من مصادر قبطية قديمة). وُلد مرقس من أبوين يهوديين عاشا في القيروان. ولقد ترك الوالدان خوفًا من البربر موطنهما إلى أورشليم، حيث وُلد مرقس وصار تابعًا ليسوع عندما كان شابًا. وصار بيت أمه في أورشليم مكانًا يجتمع فيه التلاميذ بعد صعود المسيح. أما مرقس، وهو شاب متعلم، فكان مترجمًا لبطرس الرجل البسيط الصياد، وكان مرقس أول من كتب الإنجيل في كتاب. بعد ذلك سافر وبشر بالإنجيل في شمال أفريقيا حتى جاء أخيرًا الى الإسكندرية واستقر فيها. أما تاريخ مجيئه إلى مصر فمختلف عليه (مابين ٥٥- ٦١م). بدأ تبشيره بعد أن شفى إسكافيًا، فتجدد هو وأهل بيته. ثم انضم كثيرون غيره إلى الكنيسة الجديدة. كما سافر مرقس أيضًا إلى روما والخمس المدن، ولكنه كان يرجع من وقت لآخر إلى الإسكندرية حيث بدأت الاضطهادات تهدد الكنيسة هناك. وقد حدث أن جاء عيد القيامة في نفس يوم عيد الإله الوثني سرابيس سنة ٦٨م. فاجتمع جمهور كبير من الوثنيين وهاجموا المسيحيين وأمسكوا بمرقس وجرُّوه في الشوارع بحبل في عنقه لمدة يومين حتى مات. ولكن عاصفة ممطرة شديدة هبّت فتفرق الوثنيون، فقام المسيحيون سرًا وأخذوا جسده ودفنوه في الكنيسة. ويذكر التاريخ أن هذا الجسد قد أخذه أهل فينيسيا ودفنوه في كاتدرائية مرقس في فينيسيا في القرن التاسع. وإظهارًا للنيات الحسنة أعيد الجسد مرة أخرى إلى الكنيسة القبطية ووُضع في كاتدرائية القديس مرقس في القاهرة عام ١٩٦٨م. (عن تاريخ الكنيسة الشرقية للكاتب عزيز سوريال عطية، صفحة ٢٥- ٢٨).

كما تذكر التقاليد القديمة[٥] الا أن الشواهد تدل على أن الكنيسة امتدت إلى بلدان كثيرة لم تذكر في سفر الأعمال.

أهمية كنيسة أورشليم:

ولكن مهما كان المدى الذي وصل إليه الإنجيل فإن كنيسة أورشليم ظلت تعتبر المركز أو «الكنيسة الأم» وعندما بدأ بطرس الذي كان يعتبر القائد للكنيسة، في التجوال، انتقلت الزعامة ليعقوب (أخي الرب) الذي برهن على أنه قائد قوي. وعندما جاءت المجاعة (٤٥ - ٤٦ م) اشتركت كل الكنائس في إرسال المعونات إلى أورشليم. وتعود أهمية أورشليم لأسباب دينية فحينما كان المسيحيون يظنون أنهم جماعة يهودية مصلحة، كان الهيكل لهم مركزًا للعبادة. زد على ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن رجوع السيد سيكون إلى أورشليم. وعلى هذا الأساس، ورغم اتساع الاضطهاد خاصة في عهد هيرودس أغريباس (أع ١٢)، فقد بقي المسيحيون في أورشليم مدة طويلة. ولقد مر بنا أن المجمع المسيحي الأول الخاص بالتهوديين عقد في أورشليم، فلقد جاء بولس وبرنابا من أنطاكية إلى «الرسل والمشايخ» الذين كانوا يسكنون هناك (أع ١٥: ٣). ولكن عندما مضى الجيل الأول، بدأت الكنيسة تصبح رويدًا رويدًا، أممية أكثر منها يهودية، ورأت أن الرب يتأنى في مجيئه الثاني، وبدأت الكنائس خارج أورشليم تزداد عددًا وثراء. وبدأ مركز كنيسة أورشليم يتراجع، واستمر الحال هكذا إلى أن حدثت الكارثة في ٧٠ م، بتدمير أورشليم.

Recommended English Readings

Atiya, A.S. ***A Histroy of Eastern Christianity,*** pp. 25 – 28.

Chadwick, Henry – ***The Early Church,*** pp. 12-18.

Danielou, Jean & Heanri Marrou – **The Christian Centuries** Vol. I, **The First Six Hundred Years.** pp. 3 – 28.

Davies, J. G. ***The Early Christian Church,*** pp. 39 – 40.

Filson, Floyd V. ***A New Testament History,*** pp. 153 – 195.

Foster, John, ***The First Advance*** (Church History I – TEF Study Guide) pp. 19 – 21, 35 – 40.

Lietzman, Hans, ***A History of the Early Church, Vol. I,*** pp. 61 – 74.

Latourette, K.S. ***A History of Christianity,*** pp. 65 – 68, 112 – 116.

Walker, Williston, ***A History of the Christian Church,*** pp. 21 – 24.

(٥) الدول التي نسبت إلى بعض الرسل هي: بطرس: روما، إندراوس: سكيثيا Scythia. متى: الحبشة، يعقوب: أسبانيا، توما: الهند، فيلبس: بلاد فارس، سمعان: إنجلترا، مرقس: مصر، تداوس وبرثلماوس: أرمينيا.

الفصل الرابع
الرسول بولس ومسيحية الأمم



نأتي الآن إلى شخصية عملاقة في تاريخ المسيحية، شخصية كان لها دور حاسم في تاريخ المسيحية ونموها في القرون اللاحقة. هذه الشخصية هي الرسول بولس الذي كتب حوالي ثلث العهد الجديد، وصارت أفكاره اللاهوتية نهائية لكل العصور، وعمله المرسلي المثال لكل المرسلين في التاريخ. عرف الرسول بولس بأنه رسول الكنيسة الغربية لكن رسائله تحوز على نفس الاحترام والتقدير في الكنائس الشرقية التي تقرأها وتتأثر بها. ولا تزال طريقته في العمل المرسلي نموذجًا لهذا العمل في القرن العشرين. لكننا لا نستطيع أن نقدم دراسة مفصَّلة عن أفكاره اللاهوتية هنا لأنها تخرج عن مجال هذه الدراسة، ولا أن نذكر تفاصيل حياته فهي واضحة في سفر الأعمال. إن كل هدف الدراسة هنا هو أن نكشف عن الكيفية التي صارت بها حياته وتفكيره أساسًا في تكوين المسيحية والكنيسة في عصره.

١- بولس المرسل

مؤهلات بولس:

كان الرسول مؤهلاً تأهيلاً حقيقيًا فريدًا لعصره. فلم يكن ذا مواهب عظيمة وعقل حاد وطاقة بدنية لا حد لها فحسب، بل كانت له أيضًا خلفيته ودراسته الخاصة التي أهَّلته للعمل الذي دعي إليه. كان يهوديًا من طرسوس كيليكية. وكان يعرف العبرية واليونانية، وغالبًا الآرامية أيضًا. وكانت مؤهلاته كعالم يهودي لا يشك فيها إنسان، فهو فريسي تعلم عند قدمي غمالائيل العظيم. زد على ذلك أنه كان يحمل الجنسية الرومانية. وهكذا كان مؤهلاً لأن يعيش ويعمل مع الكنيسة في وسطها اليهودي البسيط، ثم يشتغل أيضًا بين الأوساط الراقية المؤهلة تأهيلاً يونانيًا، ويلوذ برعويته الرومانية حتى يحمي نفسه من ظلم السلطات ويستطيع أن يتكلم إلى أعلى السلطات الرومانية.

استراتيجية الرسول في عمله المرسلي:

بعد أن تقابل مع الرب يسوع على طريق دمشق، قضى الرسول بعضًا من الوقت في صحراء العربية بقصد الإعداد الروحي لحياته وعمله الجديد. وبعد ذلك عمل على توطيد علاقاته مع الكنيسة في أورشليم التي كان معروفًا فيها كمضطهد قاس. وكان من الملاحظ منذ بدء حياته المسيحية والعملية أن الحقل الحقيقي لعمله المرسلي هو

الأمم. ولذلك نراه بصحبة برنابا في أنطاكية حيث بدأت الكنيسة تزدهر بين اليهود والأمم معًا. ولكن ذلك لا يعني أن بولس تجنَّب العمل بين اليهود. بل على العكس من ذلك. فعندما كان يدخل مدينة ما كان يبحث أولاً عن اليهود سواء الدخلاء منهم أم الأصلاء. كان يدخل الجامع ليعظ. وكانوا يطردونه منها فيأخذ معه الذين آمنوا بمناداته، ويذهب إلى الأمم ويبدأ التبشير بينهم. كان يعظ في كل مكان. وكان يكلم كل إنسان يصغي إليه. ولكنه كان حريصًا على ألا يبشر حيث بشر آخرون قبله (رو ١٥: ٢٠). وبينما لم يكن يضع خطة منظمة لرحلاته كما يفعل الرحالة العصريون. لكنه قصد أن يذهب إلى أبعد حدود الإمبراطورية إذا سمحت له الظروف والامكانيات. لقد قصد أن يذهب إلى المراكز الحضرية: كأفسس وفيلبي وكورنثوس وروما. ومع ذلك فقد اقتنع بالدعوة للذهاب إلى مكدونية. وليعظ سجانًا قاسيًا. أو ليشهد لسيده بين أنقاض سفينة كان مسافرًا عليها.

الكنائس ذات الاكتفاء الذاتي:

كان الهدف الأساسي للرسول بولس في جهوده المرسلية هو أن يقيم كنائس قوية لها اكتفاء ذاتي. لهذا كان لا يكتفي بزيارة واحدة للكنيسة بل يرجع إليها ليعينها ويشجعها. أو يكتب لها رسالة. أو يرسل إليها واحدًا من معاونيه. ومتى تطلب الأمر. كان يمكث في المدينة سنتين أو ثلاث. ولكن لا يطيل إقامته أكثر من ذلك لئلا تعتمد الكنيسة عليه في خدمتها. ولهذا أيضًا عمل جهده في خلق قيادات محلية قوية من داخل الكنائس وحملها المسئولية كاملة. ومع أن طريقته هذه في الإرسالية كانت بسيطة. لكن الأجيال اللاحقة لم تتبعها. فإن الكنائس الصغيرة كثيرًا ما كانت تضعف لاعتمادها الزائد على الكنائس القوية.

فردية الرسول بولس:

كان الرسول بولس من أعظم شخصيات الكنيسة. ولذلك كان فخورًا بدعوته ليكون رسولاً. لأن هذه الدعوة جاءته مباشرة من المسيح المقام الذي قابله على طريق دمشق. وهكذا يقول: «بولس رسول لا من الناس ولا بإنسان بل بيسوع المسيح...» (غل ١: ١). وظهر تفرده في رفضه أن يأخذ معونة من الكنائس سواء أكانت طعامًا أو سكنًا مع أن لكل الرسل الحق في ذلك. لأنه أراد أن يكون مستقلاً (١كو ٩). وظهرت أيضًا في عدم خشيته أو محاباته لأي انسان حتى ولو كان بطرس أو برنابا اللذين وبخهما بشدة لموقفهما من الأكل مع الأمم (غل ٢: ١١- ١٣). ومع ذلك نراه يعمل مع أنواع كثيرة من الناس برضى واختيار. مثل برنابا – رغم إنهما انفصلا بعد ذلك – وسيلا وتيطس وتيموثاوس ولوقا الذي كرَّس الأصحاحات الثلاثة عشر الأخيرة من سفر الأعمال ليصف إرسالية صديقه الرسول بولس.

الرسول بولس وكنيسة أورشليم:

يمكن للدارس أن يرى مدى اهتمام الرسول بولس المستمر بكنيسة أورشليم. وكيف كان يؤكد مرارًا على ضرورة الجمع للقديسين في أورشليم. ولم يكن هذا من قبيل فعل الخير فقط. ولكنه كان لإظهار وحدة اليهود والأمم في إسرائيل الجديد (رو ١٥: ٢٥- ٢٧؛ ٢كو ٩). ورغم عدم اتفاقه مع المتطرفين من أعضاء الكنيسة في أورشليم إلا أنه عاد الى هناك مرة أخرى ليحمل العطاء إليهم بنفسه. وأكثر من ذلك فقد رضى أن يمارس طقس التطهير بل ودفع تكاليف هذا الطقس لأربعة آخرين لكي

يبرهن على يهوديته (أع ٢١: ٢٣، ٢٤). وكان الدافع الحقيقي وراء كل ذلك هو رغبته في تقدم الإنجيل ووحدة الكنيسة. فلكي يحقق هذا الهدف أراد: أن يكون «للكل كل شيء» (١كو ٩: ٢٠ – ٢٢).

مواعظ الرسول بولس:

كل مواعظ الرسول بولس المسجَّلة في سفر الأعمال تعتبر مثالية في تقديم الإنجيل لكل الناس في عصره. ولكم ظهرت الشجاعة والهمة والإقناع في كلماته، وعلى الخصوص عندما يكون أمام سامعين معادين له سواء أكانوا يهودًا أم حكامًا كفيلكس، والملك أغريباس أو فلاسفة يونانيين في آريوس باغوس. وكانت رسائله تختلف بحسب حياة وثقافة سامعيه. وهكذا صار الرسول كل شيء لكل إنسان لكي يخلِّص على كل حال قومًا.

الرسول بولس الكاتب:

وهنا لا نستطيع أن ننسى عمق كتابته وتأثيراتها. ولقد كتب رسائل عديدة للكنائس ذات قيمة عظمى، وذلك في عصر كعصره كانت الاتصالات فيه صعبة للغاية. وكان أحيانًا يعالج مشاكل محلية خاصة، ولكنه يطبق عليها نظرياته اللاهوتية العظيمة، ولهذا فرسائله نافعة لكل الكنائس في كل العصور. وقد استخدم الرسول اسم الكنيسة بكثرة فجاءت هذه الكلمة في كتاباته ٦٣ مرة، بينما وردت في كل كتابات العهد الجديد الباقية ٤٦ مرة فقط (سواء كنيسة أم كنائس). وبينما يتحدث عنها القديس لوقا في عبارات عملية فإن الرسول بولس يتكلم عنها في مفهوم لاهوتي كامل بصورة فريدة في الكتاب المقدس.

الكنيسة في مفهوم الرسول بولس:

تعتبر الكنيسة في مفهوم الرسول كائنًا عضويًا كالجسم البشري لا ينقسم، رغم ما فيه من أعضاء متنوِّعة: رأسها المسيح بل عقلها والمركز العصبي لها بل قلبها النابض بلد مصدر حياتها. لقد دعا المسيح إلى كنيسته كل الناس يهودًا وأممًا، عبيدًا وأحرارًا، ذكرًا وأنثى دون أي تمييز أو تفضيل. وقد أعطى عن طريق الروح القدس مواهب متعددة ليستخدمها الأعضاء في بنيان الكنيسة، ولتكون شركتهم في الخدمة الكاملة لذاك الذي من أجله خسر الرسول كل الأشياء.

وشرح الرسول هذه النظرية عندما تكلم عن الكنيسة وقال: «جسد واحد وروح واحد كما دعيتم أيضًا في رجاء دعوتكم الواحد. رب واحد إيمان واحد معمودية واحدة إله وآب واحد للكل الذي على الكل وبالكل وفي كلكم» (أف ٤: ٤- ٧). لقد كانت رؤيا الرسول عن وحدة الكنيسة تمتد إلى ما بعد الفرد الواحد، أو الكنيسة المحلية الواحدة، إنها تمتد إلى كل الكنيسة في كل زمان ومكان «فإننا نحن الكثيرين خبز واحد جسد واحد لأننا جميعنا نشترك في الخبز الواحد» (١كو ١٠: ١٦، ١٧).

الرسول بولس والانقسامات في الكنيسة:

ولكن الرسول لم يتألم لشيء قدر ألمه عندما كان يرى انقسامًا في الكنيسة. وهناك مثال واضح لذلك في رسالته الأولى إلى كورنثوس، عندما روِّع بانقسام تلك الكنيسة إلى أربعة أحزاب. وكان موضوع الانقسام والدافع له هو فاعلية المعمودية من مختلف الرسل، ويلوح أن أبلوس قد أوجد بعض الأفكار غير الصحيحة، إذ يؤخذ من بعض

الإشارات أنه كان يمزج في تعاليمه المسيحية بعضًا من الحكمة الوثنية، ربما نوعًا من الغنوسية أو بعض الفلسفات اليونانية.

ولعل مفهومه عن المعمودية لم يكن مكتملاً بل كان ناقصًا، وهذا ما دفع أكيلا وبريسكلا أن يأخذاه «ويشرحا له طريق الرب بأكثر تدقيق» (أع ١٨: ٢٦). على كل حال فقد ظهرت على الرسول بولس كل دلائل الألم والحزن لأن، سببًا ما قد أوجد انقسامًا في كنيسته المحبوبة: «هل انقسم المسيح؟ ألعل بولس صلب لأجلكم؟ أم باسم بولس اعتمدتم؟.. لأني لم أعزم أن أعرف شيئًا بينكم إلا يسوع المسيح وإياه مصلوبًا... إذًا لا يفتخرن أحد بالناس فإن كل شيء لكم أبولس أو أبلوس أم صفا أم العالم أم الحياة أم الموت أم الأشياء الحاضرة أم المستقبلة، كل شيء لكم وأما أنتم فللمسيح والمسيح لله» (١كو ١: ١٣؛ ٢: ٢؛ ٣: ٢١-٢٣).

٢- الرسول بولس والتهوديون

نأتي الآن إلى مشكلة حادة في الكنيسة الأولى، وهي مشكلة التهوديين، ومع أنها ظهرت من قبل، إلا أنها عولجت وبكل حسم عن طريق الرسول بولس، الذي لولاه ولولا معرفته الحقيقية الواضحة بكل الحقائق، ونضاله الجاد لإيجاد الحل الصحيح، لما كانت هناك فرصة كبيرة أمام الكنيسة الناشئة لأن تعيش، بل كانت تصبح مجرد شيعة يهودية صغيرة، يلقى بها المؤرخون الرومان في زاوية النسيان.

خبرة الرسول بطرس:

كانت مشكلة التهود هذه (أي الحياة كيهودي) قد بدأت تظهر عندما ابتدأ المسيحيون الذين من أصل يهودي يوناني يبشرون بين الأمم. ومن المرجح أن فيلبس لم يعرف شيئًا عن هذه القضية عندما بدأ يقدم الإنجيل لغير اليهود، لكن الأمر مع الرسول بطرس كان على غير ذلك، فقد أرشده الرب بتلك الرؤيا على السطح، أن يذهب إلى بيت كرنيليوس الأممي ليبشره، ولكن كان يوجد في أورشليم البعض من أهل الختان ذلك الحزب المتزمت الذي تحدى الرسول بطرس فيما فعل، ولكن لأن هذا الأخير رأى الملاءة التي تحمل أشياء غير طاهرة، فقد تمكن أن يدافع عن نفسه بقوة ونجاح. لقد جاء السؤال أولاً لليهود المسيحيين: ألم يتمموا ناموس موسى ومازالوا يتممونه؟ أليسوا يحملون في أجسادهم علامة الختان؟ وعندما يطلب الأممي أن يصبح يهوديًا، ألا يطلب منه أن يقوم بكل مطاليب الناموس؟ فلماذا لا يطلب اذًا من الأممي الذي يريد أن يكون مسيحيًا؟

أهمية «ضرورة الفرد يهوديًا»:

يعتقد بعض العلماء أن الذين ألحوا على هذا الاتجاه هم جماعة من الأمم صاروا يهودًا ثم تغيروا إلى مسيحيين. آخرون ظنوا أن «حزب الختان» هذا كان أصلاً من الغيورين. فقد كان ذلك الوقت يتميز بالنشاط السياسي المركز، ولابد أن يظهر المسيحي اليهودي علامات الولاء للمجتمع اليهودي الكبير ضد الحكم الروماني. أما المسيحيون الأمم فلم يختبروا ذلك الإحساس إلا إذا كانوا قد تغيروا قبلاً إلى اليهودية ومنها إلى المسيحية.

مجمع أورشليم:

ومهما كانت أسباب الانقسام، فقد بقيت هذه القضية ـ قضية التهودية ـ تثار من آن لآخر بواسطة الجماعة المحافظة في كنيسة أورشليم، وظلت هذه الجماعة تثير الجدل حول هذه القضية

حتى ٦٦ م. حين فرت إلى بيلا (pella) (ومع ذلك فلم يكن هذا الموضوع يُثار) دائمًا في أورشليم. ويذكر الرسول أنه أخذ معه تيطس الأممي إلى أورشليم، ولكنه لم يضطر أن يختنه (غل ٢: ١- ١٠). ولكن عندما زاد الانقسام صار من الضروري أن يبحث الأمر في مجمع للكنيسة في أورشليم ليتخذ فيها قرارًا حاسمًا. ويذكر لوقا في أعمال ١٥ قصة هذا الاجتماع، وكيف استطاع الرسول بطرس بعد مباحثة طويلة أن يقنع الحاضرين من الرسل والمشايخ ألا يضعوا «على عنق التلاميذ نيرًا لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله». ولعل القوات والآيات التي جرت على يدي بولس وبرنابا بين الأمم، كان لها أثر كبير في اقناع السامعين. وهكذا جاء حكم يعقوب الرسول الذي رأس الاجتماع حاسمًا ومؤيدًا لموقف بولس، غير أنهم أضافوا أمرًا بسيطًا وهو أنه ينبغي على المسيحيين الأمم أن يتجنبوا «ما ذبح للأصنام[1] والزنا والمخنوق والدم» (أع ١٥: ٢٩).

نتائج قرار أورشليم:

ظهرت لهذا القرار التاريخي نتائج متعددة: أصبح بولس وبرنابا رسولَين للأمم خاصة، وصار بطرس لليهود. وأخذ بولس على عاتقه أن يقدم المعونات للكنيسة في أورشليم حتى وهو بعيد عنها. ولكن أهم من ذلك كله: صار لحفظ الناموس معنى آخر بالنسبة للمسيحيين، فلم يعد ذلك بعد وسيلة للخلاص ولكنه علامة على أن الخلاص منح بدون أية شروط.

ناموس الطعام لليهود والأمم:

ومن المهم أن نلاحظ أن الرسول بولس لا يذكر مطلقًا هذا القرار في رسائله إلى الأمم، والأرجح أن ذلك لم يكن عن تجاهل لذلك القرار، بل لوصوله إلى تفاهم كامل، فيما يتعلق بهذا الأمر، مع المتجددين من الأمم. ولقد ظن أحد العلماء أن الأمم الملمّين بقواعد الأطعمة اليهودية، قد راعوا هذه الممارسات عند مشاركتهم لليهود في الطعام، دليلاً على المودة، وليس كشرط للخلاص.

وتدل الكتابات اليهودية أن هناك كثيرًا من «الأمم الأتقياء» كانوا يحضرون خدمات المجمع، وكان يطلب منهم أن يتمسكوا بحد أدنى من القوانين، كتلك التي رسمها مجمع أورشليم.

استمرار مشكلة التهودين:

ولكن مما يؤسف له أن هذه المشكلة استمرت مصدر قلق للكنيسة حتى بعد مجمع أورشليم. لأن ذلك الحزب المحافظ المتزمت في أورشليم استمر في موقفه المتعنت حتى اضطر الرسول نفسه أن يختن تيموثاوس رفيقه ليسكتهم (أع ١٦: ٣). بالطبع كانت أم تيموثاوس يهودية. وكان الرسول بولس كمعبّر عن الكنيسة يريد أن يكون فوق مستوى الشبهات، ومع ذلك بقي الشد والجذب بين الرأيين على أشده. فظهر بقوة في كنيسة أنطاكية عندما جاء رجال «من عند يعقوب» وفاجأوا بطرس وبرنابا يأكلان مع الأمم المسيحيين، فارتبك الرسولان وانسحبا من مائدة الطعام. فانزعج الرسول بولس وغضب حتى أنه تكلم بشدة ضدهما في رسالته الى غلاطية حيث كانت

---

(١) هذا الاجتماع المسيحي التشريعي الأول جرى غالبا عام ٤٩م.

هذه المشكلة محتدمة. واستخدم الرسول تلك الحادثة لكي يكتب عن عقيدته الواضحة: «فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ» (غل ٢: ٢٠). واتخذ إبراهيم مثالاً. فهو أول من أخذ العهد الذي تتضمن الختان (تك ١٧: ٩- ١٤). ولكنه مع ذلك «آمن بالله فحسب له برًا» (تك ١٥: ٦). وأظهر الرسول في خطابه الهدف الأساسي لاعطاء الناموس «لكي يكون مؤدبنا إلى المسيح لكي نتبرر بالإيمان» ويقول أيضًا: إن «غاية الناموس هي المسيح» (رو ١٠: ٤).

انحسار مشكلة التهوديين:

لا نعرف من العهد الجديد طول المدة التي استمرت فيها قضية التهوديين مشتعلة داخل الكنيسة. ولكن ما نعرفه هو أن الرسول بولس هو الذي حارب واستطاع أن يعيد التوازن إلى الكنيسة كمؤسسة لا يحتاج من يدخل فيها وينضم إليها سوى الإيمان بالمسيح يسوع. ومما ساعد على انتهاء هذه الحركة التهودية أفول نجم الكنيسة في أورشليم وارتفاع نجم كنائس الأمم وازديادهم في العدد والأهمية والتأثير[٢]. نعم لقد كانت هذه القضية ترفع رأسها بصورة أو بأخرى من آن لآخر لتمنع تقدم الإنجيل. ومع ذلك فقد كان التغلب على تأثيرها مبكرًا عاملاً على تمكن الكنيسة من توسيع نطاقها عالميًا وازدياد تأثيرها.

٣. طبيعة الكنيسة الرسولية الأولى

الوظائف في الكنيسة الرسولية:

لم يُظهر الرسول بولس، مثله في ذلك مثل كل الرسل الآخرين، أي اهتمام بالمركز أو اللقب، مع أنه كان من الناحية العملية، أسقفًا قوي الإرادة. ولكنه يذكر عدة وظائف في رسائله، وهي الرسل، الأنبياء، المعلمون وأيضًا المبشرون والرعاة، وكلهم يعملون في خدمة وبناء الكنيسة، وهو يؤكد أن الذين وُضعوا في هذه المراكز لهم حقوق وسلطات طبيعية، ولكنه لم يكن هو نفسه مهتمًا بمراكز كهذه. كما كتب إلى كنيسة تسالونيكي: «ثم نسألكم أيها الإخوة أن تعرفوا الذين يتعبون بينكم ويدبرونكم في الرب وينذرونكم، وأن تعتبروهم كثيرًا جدًا في المحبة من أجل عملهم» (اتس ٥: ١٢- ١٣). وفي الرسائل الرعوية يعطي رأيه في المؤهلات التي تحتاجها كل وظيفة، ولكنه أيضًا لا يبدي اهتمامًا كبيرًا بالامتيازات التي لها. أما هو فيذكر عن نفسه ومعه تيموثاوس في تحيته لكنيسة فيلبي أنهما عبدان للرب، ولكنه يخاطب أولاً «جميع القديسين» أي كل المؤمنين ثم الأساقفة والشمامسة، ولابد أنه كان هناك عدد من الأساقفة في الكنيسة مع عدد آخر من الشمامسة مما يدل على أن هؤلاء الأساقفة في مسئولياتهم الإشرافية كانوا بمثابة شيوخ.

الديداخي أو تعليم الرسل:

ومن أهم الوثائق التي ظهرت إما في القرن الأول أو الثاني كتاب الديداكي (أو تعليم الرسل الاثني عشر)، وهو مرشد للمسيحيين يعطيهم معلومات أخرى عن الوظائف الكنسية. ويظهر فيه أن الرسل والمبشرين (أو المبشرين) هم قادة الإيمان الأوائل الذين لم يمكثوا في مكان واحد بل

(٢) يبدو أن المجتمع اليهودي لم يستجب إلى الدعوة المسيحية إلا في الأيام الأولى، ولم تعد كنيسة أورشليم كنيسة مرسلة، وكانت لغتها الآرامية وثقافتها يهودية.

جالوا يبشرون في كل مكان. أما الأنبياء فكانوا يمكثون في مكان واحد يعملون فيه يقودون الخدمة. ويعملون عمل الرعاة المقيمين في مكان واحد يهتمون بكنيسة واحدة. أما المعلمون فهم الذين كانوا يفسرون الكتب المقدسة ويدربون المسيحيين الجدد في الإيمان. وكل هؤلاء الذين يعملون في هذه الوظائف كانت تهتم بمعيشتهم الكنائس التي يخدمون فيها. وفي هذا الكتاب أيضًا نرى تمييزًا بين الذين دعاهم الروح القدس مباشرة وجهزهم بمواهب روحية وبين الذين انتخبهم أعضاء الكنيسة للقيام بخدمات تدبيرية كما كان الحال مع الأساقفة والشمامسة.

العبادة في الكنيسة الرسولية:

سبقت الاشارة إلى أن المسيحيين الأوائل تمسكوا بالطريقة اليهودية في العبادة. ويتضح لنا جليًا أن الرسل وخاصة بطرس وبولس كانوا منشغلين جدًا بالوعظ والتعليم حتى أنهم لم يهتموا كثيرًا بشكلية العبادة. باستثناء ممارسة عشاء الرب. ويلوح أيضًا أن أشكال العبادة اليهودية كانت أمرًا عاديًا عندهم حتى أنهم لم يفكروا في أن يذكروا شيئًا عنها في كتاباتهم. في مقابل اهتمامهم الزائد بالقضايا اللاهوتية والسلوك الاجتماعي. أما أنماط العبادة التي تبعوها فكانت بسيطة من تسبيح وتمجيد الرب وبالطبع الصلاة الربانية. وإلى جانب ذلك ربما كانوا يرتلون بعض المزامير اليهودية. والترنيمة التي نطقت بها العذراء مريم وترنيمة زكريا وسمعان الشيخ كما ذكرت في إنجيل لوقا (لاحظ إشارة الرسول بولس إلى مزامير وتسابيح وأغاني روحية (أف ٥: ١٩؛ كو ٣: ١٦). وكان وقت العبادة أيضًا هو الوقت الذي تظهر فيه مواهب الروح القدس مثل التنبؤ والتكلم بألسنة مع تفسيرها. وكانت تصحبها صلاة شكر خاصة وصلاة من أجل الآخرين سواء أكان المصلون واقفين أو ساجدين أو رافعين أيديهم. ونرى في رومية ٨: ٢٦ أن الصلاة الخاصة كان يظهر فيها الروح القدس معينًا بكيفية روحية عميقة.

المعمودية وعشاء الرب:

ولكن يجب ألا نتسرع ونظن أن الرسول بولس كان لا يهتم بالعبادة. بل يبدو أنه كان يعتبر أن العبادة لا يمكن أن تنفصل عن الحياة ذاتها. فالشهادة المسيحية والخدمة هما في ذاتهما نوع من العبادة: «قدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادتكم العقلية» (رو ١٢: ١). وكذلك كان يعتبر المعمودية اعتبارًا خاصًا كختم للإيمان تأخذ مكان الختان كعهد مع الرب (كو ٢: ١٢). أما عشاء الرب الذي عبَّر عنه لكل الكنيسة في كلمات الرب نفسه. وحاول كل جهده أن يحميه من الفوضى وتحويله الى طعام عادي. فقد كان يعتبره الفريضة الكاملة التي تعلن الاتحاد العضوي بين الرب وكنيسته وبين أعضاء الكنيسة بعضهم مع البعض (١ كو ١١: ١٧ـ ١٩). لقد كان عشاء الرب يضع أمام المؤمنين حياة وموت المسيح على الأرض وحضوره المستمر في جسده أي الكنيسة. والرجاء في إتمام وعده إتمامًا كاملاً عند رجوعه مرة أخرى.

السلوك الاجتماعي المسيحي في الفترة الرسولية:

اقتبس الرسول قول النبي إشعياء (٥٢: ١١) «اخرجوا من وسطهم واعتزلوا» وطبَّقه على الحياة (٢ كو ٦: ١٧). لقد وجد المسيحيون أنفسهم ينعزلون. ليس فقط عن المجتمع اليهودي المعادي لهم والذي كانوا ينتمون إليه انتماءً جزئيًا. بل

أيضًا عن المجتمع الواسع، وذلك بسبب طبيعة معتقداتهم، فبينما كان سهلاً على الروماني واليوناني اللذين كانا يعبدان آلهة عديدة، أن يتبنَّيا ديانة جديدة ويضيفانها على ديانتهما المتعددة، كان من المستحيل على المسيحي أن يشارك الوثني في ممارساته، وأمامه مثل هذا التحذير الشديد لأنه «أيه خلطة للبر والإثم؟ وأية شركة للنور مع الظلمة؟ وأي اتفاق للمسيح مع بليعال؟ .... فإنكم أنتم هيكل الله الحي» (٢ كو ٦: ١٤-١٦). فقد رأى الرسول بثاقب نظره خطر الحرية من الناموس، التي قد تصير فرصة للجسد ولذلك يقول في رومية ٦ إن حريتهم من الناموس جعلتهم الآن يستطيعون أن يسلكوا في جدة الحياة، فقد «اعتقتم من الخطية وصرتم عبيدًا للبر»، لهذا كان عليهم أن يعيشوا حياة البساطة والاعتدال مترفعين عن الشهوات، تاركين الخطية ولابسين الفضيلة، وأن يحيوا ساهرين ... إلخ. لقد صارت حياتهم نقية وبريئة بصورة جعلتهم منفصلين عن العالم. لقد صاروا مختلفين لأنهم لبسوا المسيح وقبلوه ربًا لهم ولهذا يجب أن يسلكوا فيه (كو ٢: ٦).

توافق المجتمع المسيحي:

أما داخل الكنيسة نفسها فقد سادت روح المحبة والتعاون المتبادل، التي ظهرت لكل الناس، رغم وجود الكثير من الاختلافات والصعوبات، ولأنهم كانوا يحيون في المسيح فقد قادهم ذلك لأن يعيشوا معًا في روح التوافق التي يظهر فيها ثمر الروح القدس من: المحبة والفرح والسلام وطول الأناة (غل ٥: ٢٢، ٢٣). فلم يكن غريبًا إذن أن يشهد لهم أحد الكُتَّاب الوثنيين عندما رآهم يعيشون معًا هكذا فيقول: «انظروا كم يحبون بعضهم البعض».

المساواة في المجتمع المسيحي:

أما بخصوص المراكز الاجتماعية للمسيحيين فيلوح أنهم جاءوا، إن لم يكن كلهم فمعظمهم، من الطبقات الفقيرة العاملة: كالحرفيين مثل الصباغ وصانع الخيام، وبياعة الأرجوان، والسجان والخدام بل والعبيد كما يقول الرسول بولس: «ليس كثيرون حكماء ... ليس كثيرون أقوياء ليس كثيرون شرفاء» (١ كو ١: ٢٦).

لكن الكنيسة أضفت عليهم الاحترام رغم أن العمل اليدوي كان في ذلك الوقت محتقرًا لدى الطبقات العليا من المجتمع. أما داخل الكنيسة نفسها فكانت كل الطبقات تجلس معًا، ومع أنه كان بينهم المثقف والغني إلى حد ما، إلا أنهم جميعًا اشتركوا في حياة واحدة كتلاميذ للمسيح. لقد نصح الرسول بولس السادة والعبيد أن يحتفظ كل منهم بوضعه (١كو ٧: ٢٢-٢٤)، ربما لأنهم كانوا ينتظرون سرعة المجيء الثاني للرب الذي سوف يزيل تلك الفوارق. أما في رسالته إلى فيلمون فإنه ينصحه أن يقبل عبده الهارب أنسيمس كأخ لا كعبد، ولكنه لا ينتهز الفرصة ويهاجم نظام الرق. ومع ذلك ففي أمور الكنيسة لم يكن هناك تفريق بين دنيوي ومقدس، بين رجل دين وعلماني. كانوا كلهم قديسين، كلهم أعضاء في الجسد الواحد، كلهم رعية الراعي الواحد، كلهم عبيد لسيد واحد.

Recommended English Readings

Chadwick, Henry *The Early Church,* pp. 18- 23.

Davies, J. G. *The Early Christian Church,* pp. 41- 67.

Danielou- Marrou *The Christian Centuries. Vol. I.,* pp. 29- 38.

Filson, F. V. *A New Testament History,* pp. 197- 291.

Foster, John *The First Advance* (Church History I, TEF Study Guide) pp. 35- 40.

Latourette. K.S. *A History of Christianity,* pp. 68- 75, 114-116,120- 122.

Lietzmann Hans *A History of the Early Church,* pp. 104- 153.

Walker, Williston *A History of the Christian Church,* pp. 24- 29.



الفصل الخامس
النصف الثاني من القرن الأول



المصادر المحدودة للمعلومات التاريخية:

هذه الحقبة هي أكثر الحقبات غموضًا في تاريخ الكنيسة. وهي تبدأ من الوقت الذي ينتهي به سجل سفر الأعمال، اذ يتركنا مع الرسول بولس في روما، وتنتهي بانتهاء القرن الأول عندما بدأ الآباء الرسوليين في الكتابة. فقد مات الرسل الذين رأوا المسيح وعرفوه في أيام جسده، والمؤرخون خارج الكنيسة لا يعرفون إلا القليل جدًا عنها وعن عقائدها، وحتى لو عرفوا عنها شيئًا فإنهم ما كانوا يعيرونها التفاتًا لعدم أهميتها لهم. أما المؤرخ المسيحي الشهير يوسابيوس القيصري (٢٦٠- ٣٤٠م.) فقد كتب عن حياة الرسل في كتابه «تاريخ الكنيسة»، ولكنه اعتمد كثيرًا على بعض الأساطير، أو على تقاليد نُسبت إلى كُتَّاب آخرين في القرن الثاني. وفي تلك الحقبة كُتبت بعض أسفار العهد الجديد وعلى الأخص الأناجيل والرسائل الرعوية ورسالة العبرانيين ويعقوب وسفر الرؤيا، وفيها تظهر بعض المعلومات المتفرقة عن تقدم الكنيسة وامتدادها.

وعلى وجه العموم فكمية المعلومات التي يمكن أن نثق فيها عن هذه الحقبة تعتبر صغيرة جدًا إذا قيست بالسجلات التي كُتبت في القرون اللاحقة. ومن هذه المعلومات أن الكنيسة كانت تنتشر بسرعة وخاصة بين الأمم واليهود اليونانيين، وكذلك كانت القيادة في الكنيسة، مع أنه لم يتبلور شكل معين في إدارة الكنيسة. أما في العبادة والتفكير اللاهوتي فقد بدأ الأمر يأخذ أنماطًا محددة.

ولقد شهدت تلك الحقبة حوادث مهمة جديدة يمكن أن ندرسها عن طريق نسبتها إلى عصور القياصرة المعروفين، والجدول الآتي يعطينا فكرة عامة ويساعدنا على تفهم المناقشات ما سيأتي:

الإمبراطور	التاريخ	الحوادث
نيرون	٥٤ - ٦٨ م.	٦٤ م. اضطهاد المسيحيين ٦٦ م. ثورة اليهود في اليهودية
جاليا، أوتو، فتيليوس	٦٨- ٦٩ م.	
فسباسيان	٦٩ - ٧٩ م.	٧٠م. سقوط أورشليم
تيطس	٧٩ – ٨١م.	
دوميتيان	٨١ – ٩٦م.	٩٥ م. اضطهاد المسيحيين
نيرفا	٩٦ – ٩٨م.	
تراجان	٩٨ – ١١٧ م.	١١٧م امتدت الإمبراطورية إلى العربية وما بين النهرين
هادريان	١١٧ – ١٣٨م.	١٣٠عاليا كابيتولينا بُنيت على أنقاض أورشليم ١٣٠ - ١٣٥ ثورة باركوكبا في أورشليم

١- مدى انتشار الكنيسة جغرافيًا في القرن الأول

عندما خرج الرسل والمبشرون من أورشليم إلى الأمم ركزوا جهودهم بين اليهود اليونانيين. فذهبوا إلى المراكز اليهودية، عبدوا ووعظوا في الجامع اليهودية، وربحوا الكثيرين من هذه المجتمعات سواء من الذين وُلدوا يهودًا أو من الدخلاء أو من المتعاطفين مع الديانة اليهودية. ولذلك فلم يكن غريبًا أن اعتبرت المسيحية لمدة طويلة جزءًا من اليهودية، واستمر المسيحيون يتمتعون بامتيازات اليهود ويقاسون الآمهم في الدولة الرومانية. ولكن الكنيسة لم تقف عند هذا الحد بل نمت وانتشرت وبدأت تشعر بشخصيتها المستقلة وإرساليتها. ولم ينتهِ القرن الأول حتى صارت حركة لها استقلالها وطابعها المميز.

الكنيسة في فلسطين وسوريا:

مر بنا من قبل أن كنيسة أورشليم كانت القاعدة القوية التي منها خرج الإنجيل في حركة سريعة إلى السامرة وما بعدها. فكانت هناك كنائس في قيصرية وفي الجليل. أما خارج حدود فلسطين فيذكر لوقا أن كنيسة كانت في دمشق (أع ٩: ١٩). وأخرى مهمة في أنطاكية (أع ١: ٢٥، ٢٦). بل سرعان ما فاقت كنيسة أورشليم نفسها في الأهمية، فهي الكنيسة التي جمعت بين اليهود والأمم يأكلون معًا (وهو شيء لم يكن معروفًا في ذلك العصر). ولقد حاولت كنيسة أورشليم في السنوات الأولى لكنيسة أنطاكية أن تشرف عليها، ولكن أنطاكية أعلنت استقلالها وشخصيتها عندما أرسلت شاول (بولس) وبرنابا إلى الأمم.

الكنيسة في مصر (المعروفة بكنيسة الأسكندرية):

عرفنا أن المسيحية جاءت الى مصر بواسطة مرقس الرسول، ولكن هناك إشارات تدل على أن المسيحية جاءت مبكرًا إليها. ففي يوم الخميس كان هناك في أورشليم يهود من مصر (أع ٢: ١٠).

وكذلك جاء من الأسكندرية أبولس الأسكندري (أع ١٨: ٢٤- ٢٨) الذي غالبًا ماعرف عن المسيحية في مصر. وعندما انتشرت الثقافة الهلينية في مصر الوثنية، كان مركزها في الأسكندرية، مما جعل المناخ ملائمًا جدًا لتقبُّل المسيحية. ولابد أن بعض المسيحيين الذين هربوا من اليهودية عندما قامت الثورة هناك اتجهوا إلى مصر (٦٦م)، واحضروا معهم إيمانهم الجديد الذي تمسكوا به. ومما يدلنا على أن الإنجيل قد وجد طريقه مبكرًا إلى مصر، هو أن الغنوسية بدأت في مصر في وقت لاحق.

الكنيسة في آسيا الصغرى (وتُعرف بكنيسة أنطاكية):

تركز سجلات العهد الجديد على انطلاق المبشرين المسيحيين الأوائل، إلى الشمال والغرب فذهبوا إلى قبرص وآسيا الصغرى واليونان ومكدونية وروما. وهكذا يوجه سفر الرؤيا (في أواخر القرن الأول) رسائله الى السبع الكنائس في آسيا: فيلادلفيا، لاودكية، أفسس، سميرنا، برغامس، ثياتيرا، ساردس (رؤ ١: ١١). وفي هذه الرسائل يذكر شيئًا عن الاضطهادات. ولكنه يذكر أيضًا كنائس مثل أفسس لم تكن مخلصة، فهو يوبخها (رؤ ٢: ١- ٣)، وكنائس لم تقف موقفًا حازمًا ضد الضلالات، مثل أفسس وبرغامس وثياتيرا. وكنائس فاترة أو ميتة كساردس ولاودكية. ولكنه مدح كنائس أخرى لتمسكها بالإيمان، وهي سميرنا وفيلادلفيا (رؤ ٢، ٣). ومن الناحية الأخرى كتب أغناطيوس الأنطاكي أحد الآباء المعاصرين لكتابة سفر الرؤيا فذكر أفسس ومغنيسيا وتراليس وروما وفيلادلفيا وسميرنا، وكان يحذِّر من خطر التهوديين والغنوسيين ويشجع المسيحيين على أن يثبتوا في وجه الاضطهاد. ومن مثل هذا المكتوب الذي فيه يذكر أغناطيوس أسماء أخرى لكنائس أخرى، نستنتج أن الكنيسة كانت تنتشر وتنمو بسرعة في كافة الاتجاهات.

الاضطهاد في بيثينيا:

في عام ١١٢م، كتب بلني حاكم بيثينيا يشكو إلى الإمبراطور تراجان في روما من أن العبادة الوثنية قد أُهملت نظرًا لتأثير المسيحيين. ثم يصف له المجهود الضخم الذي بذله مع المسيحيين حتى يرجعوا لعبادة آلهة روما. ومع ذلك لا يذكر كم كان عدد المسيحيين، ولكن لابد أنهم كانوا من الكثرة بحيث كانوا تهديدًا للديانة الرسمية[1]. وتقع بثينيا هذه في شمال آسيا الصغرى في المنطقة التي تحيط بالقسطنطينية. ولا نقرأ في أي سجل آخر عن وجود مسيحيين هناك. ولكن هذا الخطاب يؤكد أنهم كانوا جماعة كبيرة ونامية، وهذا يدل على أن الكنيسة في شرق البحر الأبيض المتوسط كانت تنمو بسرعة.

الكنيسة في روما:

تنبع معرفتنا بكنيسة روما من الكتاب المقدس، فلقد ظهرت في الوجود قبل أن يذهب إليها الرسول

(١) كان رد تراجان على بلني: لا يمكن أن نضع قانونًا عامًا يمكن أن يكون صالحًا لكل الحالات التي من هذا النوع. ولأجل ذلك لم يكن هناك قانون محدد لإدانة المسيحيين ... «ولكن إذا اتهم المسيحيون بجريمة محددة ويثبت عليهم الذنب حقًا فليعطوا الفرصة لكي يتقربوا ويرجعوا لعبادة آلهتنا ولكن يجب ألا نطاردهم»

(Frend, W, H.C.- Martyrdom and Persecution in the Early Church. p. 164.)

بولس. ولقد استقبله بعض أعضائها في بوطيولي – بالقرب من نابولي عندما كان في طريقه إلى روما (أع ٢٨: ١٤). ويلوح أن بعضًا آخر من الأعضاء لم يكن واثقًا فيه حتى تقابلوا معه وسمعوه يعظ. ومع ذلك استمر بعضهم في شكهم فيه. وكانت الكنيسة تتألف من مسيحيين من أصل يهودي وآخرين من أصل أممي. بل وكان هناك مؤمنون من بيت قيصر (في ٤: ٢٢). وبين أفراد الحرس (في ١: ١٣). ويؤخذ أيضًا من الرسالة إلى فليبى (ص١) أن روما مثلها مثل كل كنيسة أخرى كانت تعاني من الانقسام فيها. بقى أن نذكر أن التقليد الذي يذكر أن الرسولين بولس وبطرس استُشهِدا في مدينة روما في عهد نيرون تؤيده كتابات الكتاب الأولين.

وهكذا يمكننا أن نقول بدون تردد. إن الحركة المسيحية في أواخر القرن الأول كانت قوية. ومنتشرة بشكل واضح في كل المراكز الكبرى في الإمبراطورية.

سقوط أورشليم والكنيسة «اليهودية»:

مر بنا أن المسيحيين تركوا مدينة أورشليم عندما بدأت ثورة اليهود عام ٦٦م. ويقول يوسابيوس في كتابه (التاريخ الكنسي الجزء الثاني ٢٣: ١-٢٥) أن صوتًا إلهيًا حذرهم من أن الثورة ستبدأ وأنهم يجب أن يلجأوا إلى بيلا[٢] ليحتموا فيها.

ويقولون: إن الحوادث التي جرت فيما بين ٦٠-٧٠م. كان لها أكبر الأثر في الكنيسة المسيحية. فقبل ذلك كانت الكنيسة في أورشليم هي المرجع في كل القرارات الكنسية. فكانت الكنيسة «يهودية» بالهوية. حتى الرسول بولس نفسه لم يستطع أن يتعامل مع قضية التهوديين إلا بالرجوع إلى أورشليم. ومع ذلك فقد ظلت هذه القضية سببًا في خلق جو التوتر في الكنيسة حتى بعد مجمع أورشليم نفسه. ولهذا فقد تأثرت الكنيسة في كل العالم عندما سقطت أورشليم. اذ لم يعد لها الأهمية ولا السلطان السابقان. ولكن هذا كان لخير الكنيسة نفسها. فقد تحررت لتؤدي رسالتها إذ تحطمت قبضة التهوديين عنها. وصارت الكنيسة ذاتها التي أرادها يسوع. حرة لتقدم الإنجيل لليهودي واليوناني للعبد والحر للذكر والأنثى في كل الأرض.

انظر:

The Fall of Jerusalem& the Christian Church by S.C.F. Brandon

المسيحية اليهودية اللاحقة:

يستطيع الدارس أن يلمس أن انعزال الكنيسة في اليهودية بدأ يزداد سنة بعد سنة. فلم تستطع أن تتحلل من المطالبة بحفظ الناموس كشرط أساسي للانضمام إليها. وتذكر بعض السجلات اللاحقة أن هذه الكنيسة أو جزءًا منها قد تحول إلى ما عُرف بعد ذلك بالكنيسة الأبيونية بمعنى فقير Ebionite. وقد تغيَّرت عقيدتهم الأولى: فقد سموا أنفسهم مسيحيين مع أنهم أنكروا ميلاد المسيح العذراوي. ولم يقبلوا إلا إنجيل متى من الأناجيل الأربعة. وأنكروا بشدة كتابات الرسول بولس. وكانوا يولُّون وجوههم نحو أورشليم في صلاتهم. وفي كل الأشياء كانوا يتبعون حرفية

(٢) كانت بيلا إحدى المدن العشر الهلينية. وتشير الحفريات أنها ظلت مركزًا كبيرًا للمسيحية إلى أواخر القرن السادس الميلادي.

الناموس الموسوي. وفي النهاية صارت هذه الاختلافات والانعزال والانغلاق سببًا في زوال تلك الجماعة من الوجود.

٢- المسيحية واليهودية في القرن الأول

وهنا يجب أن نلاحظ النمو المعاصر لليهودية. فالسجلات التاريخية تذكر أنها احتفظت بحيويتها الأصلية، وردَّت على تحدي المسيحية لها بالانعزال عنها، وتأكيد المميزات الأساسية لليهودية.

تزايد العداء اليهودي:

انخفض عدد اليهود في فلسطين انخفاضًا كبيرًا بسبب المذبحة المروعة التي حدثت عند سقوط أورشليم عام ٧٠م. أما يهود الشتات فقد كثر عددهم، ونجحوا في البلاد التي سكنوا فيها، وقد اشتهرت منهم شخصيات كثيرة في كل الإمبراطورية مثل يوسيفوس المؤرخ الكبير (٣٧-١٠٠م). وكانت اليهودية ديانة قانونية في كل الإمبراطورية (ولم تكن المسيحية كذلك). حتى ان الرومان أطلقوا على غمالائيل الثاني الزعيم الديني لقب «أمير اليهودية». أما المسيحيون فقد ازدادت كراهية اليهود لهم فطردوهم من المجمع، ثم كتبوا صلاة ضدهم، يرددونها في عبادتهم. وبالطبع لم يكن ممكنا أن يردد المسيحي هذا الجزء في صلاته[٣]. وفي عام ٩٠م، اتخذ اليهود خطوة أخرى باتخاذهم التوراة العبرية فقط كالكتاب المقدس لهم، وتخللوا من النسخة السبعينية التي كان المسيحيون يستخدمونها في الكنيسة الأولى[٤]. وقيل أيضًا أن باركوكبا قائد الثورة اليهودية (١٣٢- ١٣٥) كان يضطهد المسيحيين في كل فلسطين.

رد فعل المسيحيين ضد اليهود:

وكان رد فعل المسيحيين ضد اليهود هو الشك والخوف والكراهية، وانعكس بعض هذا في العبارات القاسية التي تظهر في الكتابات المتأخرة في العهد الجديد ضد اليهود. فالرسالة إلى تيطس تظهر أن اليهود مصدر الفساد وتحذر المسيحيين ضد خرافاتهم (١: ١٤- ١٦). وسفر الرؤيا يفرق بين اليهودي الحقيقي واليهودي الكاذب ويتكلم عن مجمع الشيطان (٢: ٩؛ ٣: ٩). ورسالة برنابا (غير الكتابية) كانت ضد اليهود، وكذلك أغناطيوس الذي كتب في حوالي آخر القرن الأول قائلاً: «إنه من الجنون أن تتكلم عن المسيح يسوع، وتكون في نفس الوقت يهوديًا». وهكذا اشترك الطرفان في تعميق العداوة بين هاتين «الديانتين الشقيقتين» إلى يومنا هذا.

(٣) هذه «الصلاة» كتبها «صموئيل هاكاتون» بأمر من غمالائيل الثاني وكانت تسمى «بركات هامنيهم» (ضد الهراطقة) وتقول: لينقطع رجاء النمامين، وليفن الأشرار في لحظة. لينقطع كل أعدائك. وامحِ سريعًا المتكبرين وزعزعهم وأسقطهم سريعًا في أيامنا. لتتبارك أنت يارب الذي تضرب أعداءنا وتذل المتكبرين - دائرة المعارف اليهودية ج ١١ ص ٢٧١ .

(٤) لأن المسيحيين اتخذوا السبعينية - وهي الترجمة اليونانية للعهد القديم، ككتابهم المقدس، رفضها اليهود سنة ١٣٠م، حتى ينفصلوا بتاتًا عن المسيحية، وعملوا ترجمة يونانية أخرى لليهود اليونانيين - ج. ١ ص. ٥١١.
(Interpreter's Dictionary of the Bible)

٣- الإيمان والنظام في القرن الأول

الفكر اللاهوتي لكنيسة القرن الأول:

يتفق غالبية العلماء على أن الكنيسة كانت في أيامها الأولى بدون «صياغات لاهوتية». ومع ذلك كانت كلمات المسيح وأعماله التي كان الرسل يعظون بها ويكررونها يومًا بعد يوم، هي التي تقدم للكنيسة الناشئة كل ما تحتاج إليه في غذائها الروحي[٥] ولكن سرعان ما ظهرت رسائل الرسول بولس التي امتلأت بصياغات الإيمان، وانتقلت من كنيسة إلى أخرى، وعُملت منها نسخ متعددة وحُفظت، ولكن بسبب صعوبة المواصلات والاتصالات في تلك العهود لم يكن ممكنًا لكثير من الكنائس أن تقتني كل هذه الرسائل.

أهمية العهد القديم في الكنيسة الأولى:

ومن الأهمية بمكان أن يعرف الدارس أن الكنيسة - ولغتها الأساسية اليونانية - كانت تحتفظ بالترجمة السبعينية للعهد القديم في العبادة والدراسة، مما جعل الروابط اللاهوتية مع اليهودية تستمر قوية. ومما يؤكد أهمية العهد القديم للكنيسة، أن مواعظ بطرس واستفانوس وبولس المسجَّلة في سفر أعمال مبنية عليه تمامًا. ويقول أكليمندس الروماني في رسالة معاصرة لتلك الحقبة أن الترجمة السبعينية هي الرمز أو المثال للكنيسة الرومانية. ولابد أن هذا القول كان يعبِّر عن تفكير كنائس نشأت في التربة الهلينية اليهودية.

الأناجيل والكنيسة الأولى:

كان لظهور الأناجيل الأربعة، واحدًا تلو الآخر، أكبر الأثر في تكوين التفكير اللاهوتي للكنيسة. فلقد شعرت الكنيسة أنه يجب أن يكون لها سجل خاص بها، حيث أن الرسل الذين كانوا مع السيد بدأوا يموتون قبل أن يأتي المسيح ثانية. ولقد نسبت الأناجيل إلى تواريخ متعددة ومختلفة لا يسعنا أن ندخل في بحثها، اذ ليس من هدف هذا الكتاب أن يدخل في مناقشات العلماء بهذا الخصوص. ومع ذلك فيمكن أن يُقال أن إنجيل مرقس هو الذي ظهر أولاً، وكان ذلك بعد منتصف القرن الأول بقليل، وتبعه إنجيل لوقا وسفر الأعمال، وبعد ذلك إنجيل متى، وآخر الكل ظهر إنجيل يوحنا.

ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن الوثائق الأولى كانت رسائل الرسول بولس، وقد ركزت أساسًا على أمور لاهوتية وتعاليم خاصة بالسلوك الشخصي والأمور الدينية، ولم يكن بها شيء يُذكر عن حياة المسيح، أو أية اقتباسات من تعليمه أو صلواته أو أمثاله. ومع أن التقليد الشفوي الذي كان يجمع كل هذه الأقوال كان محفوظًا بعناية فائقة في ذاكرة المؤمنين، الا أن الحاجة إلى تدوينه بدأت تظهر بإلحاح، وبخاصة أثناء وجود الذين كانوا مع الرب في أيام جسده. وهكذا ظهرت أربع قصص تاريخية مُفصَّلة كتبها أربعة من الرجال، كما فهموها واختبروها، ثم نقلوا مفهومهم هذا عن المسيح إلى الكنيسة. هذه الكتب الأربعة هي:

(٥) أما بالنسبة للأعضاء الأفراد فكان يكفي أن يكرر المؤمن قول الرسول بطرس: «أنت المسيح ابن الله الحي» (مت ١٦: ١٦).

مرقس:

قصة دقيقة تنطلق الى الهدف مباشرة عن يسوع ابن الإنسان.

لوقا ـ الأعمال:

موجهان إلى جماعة المثقفين، يمتلئان بالتفاصيل وينوّهان بعمومية الإنجيل ويساعدان الكنيسة على أن تحيا الحق الذي أُعلن في يسوع، ثم تم تبشير العالم به.

متى:

قصة تربط حياة السيد وعمله بالعهد القديم والنبوات، وتعطي العالم مجموعة من تعاليم يسوع وأعماله.

يوحنا:

يتكلم عن يسوع التاريخي بكيفية يفهمها اليهودي واليوناني. أما وصفه الدقيق لحياة يسوع البشرية، وكيف كان يتعب ويعطش ويبكي، فقد أصبحت هذه الحقائق سلاحًا ذا قيمة بالغة في وجه الغنوسية، وهي الهرطقة التي ظهرت حالاً بعد كتابة الإنجيل. وكما قال البروفسور فيلسون[1]. «لقد كتبت الأناجيل لتعبر عن إيمان الكنيسة. ولتصبح لها وسيلة العبادة والكرازة والتعليم والدراسة. إنها وثائق التاريخ ..... وثائق الإيمان الذي نبع من حياة تاريخية فيها كان يعمل الله بطريقة فدائية فريدة».

وكانت هناك «أناجيل أخرى» كإنجيل الناصريين وإنجيل الأبيونيين (الفقراء)، وإنجيل العبرانيين، وإنجيل المصريين، وإنجيل بطرس وغيرها مما كُتب في القرن الثاني الميلادي. ولكن الكنيسة في ذلك الوقت، حكمت ـ بكل فطنة ـ بأن الأناجيل الأربعة متى ومرقس ولوقا ويوحنا هي وحدها التي تعطي القصة الصحيحة لحياة المسيح.

العبارات العقائدية الأولى:

وهكذا رأى المسيحيون في القرن الأول أن الوثائق السالفة الذكر هي التي تستطيع ان تشبع حاجاتهم اللاهوتية. ويرى البعض أن الكنيسة في السنوات اللاحقة كان يمكن لها أن تتجنب كثيرًا من المناقشات والكفاح والمعارك لو أنها أدركت مثل الكنيسة الأولى كفاية هذه الوثائق ولم تبحث عن أخرى. ربما كان ذلك، ولكن تغير الظروف، وظهور شخصيات بارزة قد تطلب غير ذلك.

العبارات العقائدية في العهد الجديد:

ولكن ليس معنى هذا أن الكنيسة الأولى لم تكن لها عقائد. بالعكس، فكل العناصر التي تكونت منها العقائد العظمى في المسيحية بعد ذلك، موجودة في الكتب المقدسة. وتوجد عبارات مصوغة هي في الحقيقة إقرارات إيمان مثلاً: «المسيح الرب» (١كو ١٢: ٣). «ربًا ومسيحًا» (أع ٢: ٣٦). «المسيح ابن الله الحي» (مت ١٦: ١٦). «حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو ١: ٢٩). «يسوع المسيح مخلصنا» (تي ١: ٤). والعبارة الرائعة عن إخلاء المسيح نفسه في فيلبي ٢: ٥- ١١ تعتبر من أعظم ما كُتب في إقرارات الإيمان في تاريخ الكنيسة. وهكذا وُجدت تعاليم كثيرة متفرقة في تلك

(٦) F.V. Filson : تاريخ العهد الجديد ص. ٣٨٠.

الأيام الأولى للكنيسة، ولكنها لم تكن قد جُمعت بعد في إقرارات منظمّة رسمية تسمى «عقائد».

العقائد في كتاب تعليم الرسل: (Didache)

لا يوجد خارج الأناجيل أي نوع من العقائد الرسمية سوى في كتاب «الديداك» (تعليم الرسل الاثني عشر)، الذي قد يرجع تاريخه إلى نهاية القرن الأول الميلادي. وفي هذا الكتاب جاءت بعض التعاليم عن المعمودية: «أما بخصوص المعمودية فعمّد بالكيفية التالية: بعد إتمام كل هذه الأمور، عمّد باسم الآب والابن والروح القدس في ماء جار. وإن لم يتيسر لك الماء الجاري فعمّد في أي ماء. واذا لم تستطع في ماء بارد، فعمّد في ماء ساخن. واذا لم تجد ماءً كافيًا فاسكب الماء ثلاث مرات على الرأس في اسم... وقبل المعمودية يجب أن يصوم المعمَّد والمعمِّد، ومعهما آخرون إن أمكن ذلك».

(اقتبسها من الديداك هنري بيتنسون H. Bettenson، وثائق الكنيسة المسيحية، مطبعة أكسفورد ١٩٤٧ ص. ٩٠).

تحديات الهراطقة:

هناك أشياء أخرى لها صبغة لاهوتية هي الهرطقات. فقد مر بنا ذكر الصراع ضد التهوديين وضد النفوذ اليهودي عامة، ولكن هناك شواهد تدل على أن الدوسيتية[٧] (Docetism) بدأت تظهر في تعاليم بعض الغنوسيين. لاحظ العبارة في رسالة يوحنا الثانية ٧ «لأنه قد دخل الى العالم مضلون كثيرون لا يعترفون بيسوع المسيح آتيا في الجسد». هذه التحديات أجبرت الكنيسة على أن تدرس وتحدد عقائدها، حتى تفصل مابين العقائد الصحيحة والباطلة.

المجيء الثاني:

وظهر أيضًا تغير ملحوظ في موقف الكنيسة من مجيء المسيح الثاني. فبينما كان المسيحيون الأوائل واثقين أن المسيح سيرجع في أيامهم، بدأ مؤمنو السنوات الأخيرة من القرن الأول، يتقبّلون حقيقة تأخير مجيء الرب ثانية إلى وقت لا يعلمونه، علمًا بأنهم لم يفقدوا الرجاء في هذا المجيء.

الوظائف الكنسية في القرن الأول:

درسنا من قبل الأوضاع في كنيسة العهد الجديد بالنسبة لإدارة شئون الكنيسة، ولمسنا صعوبة تمييز وجود هيئات إدارية أو رتب دينية في الكنيسة. ولعل أبرز مثال على ذلك الغموض هو استعمال الكلمة «أسقف» Episkopos مرادفة للكلمة «شيخ» Presbuteros لكي تعنيا شيئًا واحدًا أو وظيفة واحدة (أع ٢٠: ١٧، ٢٨؛ تي ١: ٥، ٧). ففي تلك الأيام كان ينظر إلى الأسقف على أنه «ناظر» أو كاهن، ولكنه لم يكن يفوق الشيخ في رتبته، لأن هذا الأخير كان يخدم الكنيسة بنفس الإمكانية والدرجة. ومع ذلك، فمن السهولة بمكان أن نفسر ظهور نظام كنسي أكثر تنظيمًا ووضوحًا بعد أن اتسعت الكنيسة جغرافيًا وتنوعت أنشطتها.

---

(٧) وهي الهرطقة التي تزعم أن جسد المسيح كان مظهرًا فقط وليس حقيقيًا. وهكذا صلبه وتألمه في الظاهر فقط وليس حقيقيًا.

وقد استنتج المؤرخون من دراستهم أن دور الخدام المتجوّلين من الأنبياء والمعلمين المذكورين في العهد الجديد (١ كو ١٢: ٢٧، ٢٨) قد بدأ يختفي بالتدريج، وأن السلطة انتقلت إلى أيدي السلطات المحلية من الأساقفة والشيوخ وبخاصة في كنائس المدن الكبيرة (يذكر الديداك الأساقفة والأنبياء والمعلمين بدون تمييز بينهم).

ولما كانت الكنيسة تتبنّى نظام المجمع اليهودي، كما فعلت في أمور كثيرة أخرى، فمن المعقول أن نفترض أن يتكون مجلس في كل كنيسة من الأساقفة والشيوخ، يختارون من بينهم رئيسًا، ولأسباب كثيرة نجهلها كانوا يسمون هذا الرئيس «أسقفًا».

أكليمندس الروماني والخلافة الرسولية:

في سنة ٩٥م، كتب أكليمندس الروماني[٨] رسالته إلى كورنثوس، وفيها ظهرت قضية الخلافة الرسولية بكل وضوح. ومع أنه لا يفرّق بين الأساقفة والشيوخ، ولكنه يبني مناقشة على هذا المنطق: حيث إن الله أرسل المسيح، والمسيح اختار الرسل، والرسل اختاروا خلفاءهم من الشيوخ والأساقفة، فإن هؤلاء الخلفاء يستطيعون تعيين خلفاء لهم (بدلاً من أن يختارهم الشعب) يستمرون في المنصب كل حياتهم، حيث إن هذا التعيين هبة من الروح القدس، ولا يمكن أن تؤخذ هذه الهبة من هذا الشخص المعين. وبهذه الكيفية رسم أكليمندس الطريق التي سارت فيها الكنيسة بعد ذلك وهو فصل رجال الدين عن بقية أعضاء الكنيسة.

أغناطيوس[٩] والأساقفة الملكيون[١٠]:

ولقد اتخذ الخطوة التالية أغناطيوس الأنطاكي في رسالته الموجهة إلى كنائس آسيا. يقول في تلك الرسالة أن الكنيسة المحلية يجب أن يكون فيها أسقف واحد يشرف على أمورها، ويبني عقيدته هذه على أسس لاهوتية: «اتبعوا الأسقف كما اتبع يسوع المسيح الآب، واتبعوا مجمع المشيخة كالرسل، واحترموا الشمامسة كما تقول وصية الله. ولا يفعل أحد منكم أي أمر في الكنيسة إلا بموافقة الأسقف»[١١].

هذه الرسائل تبين أن هناك ثلاثة أنواع من الخدمات: خدمة الأسقف والشيخ والشماس مرتبّة ترتيبًا تنازليًا، وصارت بالتالي السند الذي تستند عليه الكنيسة الكاثوليكية في ترتيب كهنوتها.

لا يُعرف بالضبط المدى الذي ذهبت إليه الكنيسة

---

(٨) أكليمندس هذا مؤلف رسالة من كنيسة روما إلى كنيسة كورنثوس، ولا يُعرف عنه سوى أن إيريناؤس كان يعتبره أسقفًا لروما.

(٩) أغناطيوس (٣٥- ١٠٧) هو أحد الآباء الرسوليين، وأسقف أنطاكية، واستشهد في روما إبان حكم تراجان. وفي رحلته إلى روما للاستشهاد تمكن من زيارة بعض الكنائس والمراكز المسيحية في أسيا الصغرى. ومن سيمرنا وترواس كتب خمس رسائل إلى كنائس أسيوية، وواحدة إلى كنيسة رومية وأخرى إلى بوليكاربوس أسقف سميرنا.

(The Westminster Dictionary of Church history p. 423)

(١٠) هو تكوين أسقفي له السلطة العليا في الكنيسة وعلى الأساقفة في المراكز المسيحية الكبيرة وأنطاكية، إسكندرية إلخ (الأول بين متساويين، أو ملكي).

(١١) أغناطيوس، رسالة سميرنا، الأصحاح الثامن.

في ذلك العصر في الأخذ بنصيحة أغناطيوس. ومع ذلك فقد استحدث اتجاهًا كان له الأثر البالغ في نظام الكنيسة في القرون اللاحقة. ففي وقت قصير نسبيًا بدأ هؤلاء الأساقفة يصبحون حكام الكنيسة في كل المسيحية، وصارت الخلافة الرسولية هي الأساس لكل سلطانهم فيها.

٤- الاضطهاد المبكر

المسيحيون كجماعة مميزة عن اليهود:

واضح من سفر الأعمال أن الاضطهاد الأول الذي جاء على المسيحيين كان من اليهود. وكان من أبرز قادة الاضطهاد، شاول الطرسوسي قبل تجديده. ولكن حالما انتشرت المسيحية، عرفت السلطات الرومانية أن المسيحيين ليسوا شيعة يهودية، ولا تنطبق عليهم المعاملات الخاصة التي كانوا يعاملون بها اليهود[١٢]. وعندما سمى المسيحيون أنفسهم «إسرائيل الجديد» كانوا يحاولون أن يعترف بهم الرومان ويعاملونهم بالقبول الذي عومل به اليهود. ولكنهم اكتشفوا أخيرًا أنهم لا يمكن أن يبقوا هكذا لأن هناك ميزات خاصة تميزهم عن اليهود. زد على ذلك أن اليهود أنفسهم وقد كانوا أكثر نفوذًا من المسيحيين، حاولوا جهدهم أن يتبرأوا منهم «كشيعة ضالة».

أسباب الاضطهاد:

كان من الأسباب الأولية لاضطهاد الرومان للمسيحيين أن السلطات الرومانية لم تعرف بالضبط هدف الطقوس والعقائد المسيحية، وثانيًا لأنهم رأوا في عدم عبادتهم للأباطرة خيانة للدولة، فهذه العبادة هي الطريقة المثلى لتوحيد الإمبراطورية المترامية الأطراف وغير المتجانسة، لا حضاريًا ولا دينيًا ولا لغويًا.

المسيحيون كأعداء للناس:

كان المسيحيون على وجه العموم من الطبقات الفقيرة التي لا نفوذ لها في الطبقات العليا. كما كان تبشيرهم عثرة لمن كانوا يعبدون آلهة كثيرة، كما أنهم هاجموا عبادة الإمبراطور، وأحيانًا أضروا بالاقتصاد (كبولس وهو يضر بصناعة الفضة في أفسس (أع ١٩: ٢٣- ٢٥)، وإلى جانب ذلك لم تكن لهم أشياء ملموسة يمارسون بها عبادتهم، فلا هياكل ولا مذابح أو أمكنة مقدسة ولا تماثيل. وأكثر من هذا كله كانت عبادتهم التي تجرى بالليل في الأماكن المغلقة سببًا لإثارة إشاعات ضارة، فقالوا إنهم يمارسون أكل لحوم البشر (cannibal-ism) ويقتلون الأطفال ويشربون الدم، كما أن اجتماع الجنسين معًا، الرجال والنساء، وقيامهم بالقبلة المقدسة، جعلهم يزعمون أن الجنس جزء من عبادتهم. وعلى هذا فقد نظر الناس اليهم كأعداء للناس.

المسيحيون يستعدون للاضطهاد:

تظهر في بعض كتابات العهد الجديد شواهد تدل على أن المسيحيين كانوا يعرفون أن وقت التجربة قريب: فالرسول بولس يحث المؤمنين على أن يكونوا مواطنين صالحين مطيعين للحكام (تي ٣: ١). وينصحهم الرسول بطرس بأن يكرموا الملك، كما يطلب منهم: «أن تكون سيرتكم بين الأمم

---

(١٢) لقد سبق القول بأن الرومان كانوا متسامحين مع اليهود حتى في تعصبهم كيهود، فمثلاً كان لليهود الحق القانوني في أن يقتلوا أي إنسان غير يهودي يتعدى دار الأمم في الهيكل.

حسنة لكي يكونوا في ما يفترون عليكم كفاعلي شر يمجدون الله في يوم الافتقاد من أجل أعمالكم الحسنة التي يلاحظونها» (١ بط ٢: ١٢).

قد تكون هذه النصائح ردًا على الإشاعات الكاذبة ضد المسيحيين، ولكنهم مع ذلك موقنين من مجيء الاضطهاد عليهم. فالشواهد على ذلك كانت متعددة، إذ تقول رسالة بطرس: «أيها الأحباء لا تستغربوا البلوى المحرقة التي بينكم حادثة لأجل امتحانكم.....» (١ بط ٤: ١٢).

اضطهاد نيرون سنة ٦٤م.:

تعتبر وثيقة اضطهاد نيرون للمسيحيين أول إشارة تأتي من وسط غير مسيحي وفيها يظهر جماعة دينية قائمة بنفسها. أما ظروف الاضطهاد فكانت كالآتي: في يوليو ٦٤م. شب حريق هائل في روما ظل ستة أيام ودمر الجزء الأكبر من تلك «المدينة الخالدة». ولم يعرف للآن بالضبط السبب الذي كان وراء ذلك الحريق، ولكن الإشاعات تحوم حول الإمبراطور نفسه الذي قيل إنه كان يريد الإعداد لمشروع ضخم. وكان من الطبيعي أن يجد نيرون كبشًا للفداء يلقي عليه بالتهمة، وفي هذا يقول المؤرخ الروماني تاسيتوس (١١٥م.): «لكي يتخلص الإمبراطور من هذه الإشاعات ألقى بالتهمة[١٣] على جماعة من الناس مكروهة لأجل نجاستهم يُطلق عليهم عادة اسم المسيحيين، وأوقع بهم العقاب على هذه التهمة. وقد سُموا كذلك نسبة للمسيح (Christus) الذي صُلب على عهد بيلاطس البنطي، وبعد أن أوقفت -لحد ما- تلك الخرافة الشريرة، بدأت تنتشر مرة أخرى ليس في اليهودية فحسب بل في روما أيضًا. فأُلقي القبض على الذين اعترفوا بمسيحيتهم وبناء على شهادتهم أدينوا، ليس لأنهم أحرقوا روما، ولكن لأنهم كانوا مكروهين من الناس. ولم يكتف بقتلهم فقط بل استخدموا وسيلة لتسلية أهل روما، فأُلبسوا جلود حيوانات وحبسوا في أقفاص الكلاب المتوحشة ففتكت بهم، وصُلب البعض، وأُحرق البعض ليضيئوا حدائق روما ليلاً.... وقد فتح نيرون أبواب حدائقه ليرى الناس كل هذا واختلط هو بينهم في ملابس سائق عربة... كل هذا التعذيب قاد كثيرين الى الشفقة عليهم.... لأنهم عرفوا أن هؤلاء المساكين يعذبون لا للمصلحة العامة بل لإشباع شهوة القتل في إنسان واحد» (تاسيتوس: Annales XV ص ٤٤).

دوميتيان:

كان اضطهاد نيرون للمسيحيين وحشيًا ولكنه كان قاصرًا على روما، وكان لإشباع رغبة الإمبراطور الدموية. ولم تكن هناك محاولة لتوسيع نطاقه ليصل إلى المسيحيين في كل الإمبراطورية. ومع ذلك فقد بدأ الشك يحوم حول المسيحيين وبدأت العيون تراقبهم. وفي سنة ٩٥م. ألقى الإمبراطور دوميتيان القبض على ابن عمه وزوجته وشخص آخر بتهمة «إنكار الآلهة» فأعدم الرجلان ونُفيت المرأة، والمعتقد أنهم كانوا مسيحيين، ولو أن السجلات لا تذكر ذلك بوضوح.

بلني والاضطهاد في بيثينية:

سبق أن ذكرنا شيئًا عن تلك الرسالة التي

(١٣) الكلمة اللاتينية المستعملة تدل على أن تاسيتوس لم يعترف بأنهم مذنبون.

أرسلها بلني إلى تراجان سنة ١١٢م. عن وجود مسيحيين في بيثينية. ولقد اعتبر هذا الأمر في غاية الخطورة لأن العبادة الوثنية قد أُهملت. مما سبّب الفزع لبلني فأرسل خطابًا إلى الإمبراطور لكي يزكيه في سياسته ضد المسيحيين. وقد قال في هذه الرسالة: «إن شر هذه الخرافات قد انتشر ليس في المدن فقط. بل في القرى والمناطق الريفية أيضًا حتى أن المعابد قد خلت من العابدين»... وقد كنت أسأل المتهمين: «هل أنتم مسيحيون»؟ فإذا قالوا «نعم» كنت أحذرهم وأسألهم مرة ثانية وثالثة فإذا قالوا «نعم» حكمت عليهم بالإعدام وأعدمتهم. أما كل من أنكروا أنهم مسيحيون أو أنهم كانوا كذلك. أفرجت عنهم لأنهم دعوا باسم الآلهة كما أمرتهم وأظهروا الخشوع والاحترام لصورتكم وقدموا لهم البخور. ولأنهم لعنوا المسيح. وهذا شيء لا يستطيع المسيحي الحقيقي أن يفعله.. وقد فكرت أنه من الضروري أن أصل إلى الحقيقة وذلك بتعذيب اثنين من الشماسات. ولكني لم أجد شيئًا إلا الخرافات المروعة الممقوتة».

ويقول بلني بعد ذلك أن أسلوبه هذا قد لاقى نجاحًا. فكثيرون من المسيحيين قد رجعوا لعبادتهم القديمة وبدأت المعابد تمتلئ مرة أخرى. وقد أجاب عليه تراجان بالموافقة على سياسته. ولكنه نصحه بألا يتصيَّد المسيحيين بل يحاكمهم فقط إذا أُبلغ عنهم وثبتت عليهم التهمة.

استشهاد أغناطيوس:

من الشواهد السابقة تظهر المسيحية كمشكلة محلية عند الرومانيين. ولم تكن هناك سياسة عامة للقضاء عليهم على مستوى الإمبراطورية. ولكن هذا أدى. بدون شك. الى أن يصبح المسيحيون موضوعًا للشك. وكل مسيحي يعلن بكل بصراحة أنه كذلك كان يلاقي عذابًا قاسيًا. ولعل إغناطيوس الأنطاكي هو خير مثال على ذلك. وقد كتب عدة رسائل وهو في طريقه إلى روما لكي يستشهد سنة ١٠٧م. وأظهر فيها رغبته العارمة في الاستشهاد. وفي أن تمزقه الوحوش من أجل المسيح. ويود ألا يتدخل المسيحيون في روما لدى السلطات لإنقاذه. وهذا مثال على «شهوة الاستشهاد» التي تملَّكت بعض المسيحيين في ذلك الوقت فعملوا بكل همة - بدون داع - على دفع السلطات لقتلهم لكي يموتوا شهداء. وفي ذلك يكتب أغناطيوس.

«إنني أعرف ماهو الخير لي.....

لقد بدأت الآن أن أكون تلميذًا حقيقيًا....

لتأت النيران أو الصليب أو لتأت الوحوش فتحطم كل جسدي...

فقط دعني أذهب إلى يسوع المسيح.....

دعني أتمثَّل بإلهي في آلامه» (رسالة أغناطيوس إلى رومية: ٥)

الاضطهاد كما هو مدوَّن في سفر الرؤيا:

فسر العلماء بعض الأجزاء من سفر الرؤيا على أنه نبوة عن التهديد الروماني بإثارة الاضطهاد. والخوف الذي تملَّك المسيحيين في نهاية القرن الأول. ومع أن روما لم تُذكر بالاسم في السفر. ولكن ربما فُهم ذلك من صورة المرأة الجالسة على الوحش «على جبهتها اسم مكتوب سر «بابل» العظيمة (وهو اسم يطلق على روما) أم الزواني ورجاسات الأرض. ورأيت المرأة سكرى من دم القديسين

ومن دم شهداء يسوع (رؤ ١٧: ٣- ٦). والصورة الثانية التي قد تعني روما هي صورة الوحش ذوالرؤوس السبعة. فقد بُنيت المدينة على سبعة تلال. وهكذا عرفت الكنيسة واستعدت لمواجهة الاضطهاد وجهزت أعضاءها ليقابلوا هذه الآلام بكل بسالة وشجاعة.

سياسة هادريان: (Hadrian)

ومع ذلك كله فقد كان الرومان يهتمون بنشر النظام والقانون. ومع أنهم كانوا يُنزلون بالمجرمين أقسى أنواع العقاب. إلا أنهم لم ينسوا أن يجعلوا القانون يأخذ مجراه. ولذلك حتم الإمبراطور هادريان (سنة ١٢٥م.) على حكام الأقاليم ألا يوجهوا إلى المسيحيين إلا التهم الحقيقية. وأن يعطوهم الحق في الدفاع عن أنفسهم لكي يظهروا الاتهامات الكاذبة. ومع أنه لا يظهر من السجلات أن مسيحيًا واحدًا تمكن من دفع التهمة عن نفسه. ولكن على الأقل. بدأ الحكام يسمعون دفاعهم عن أنفسهم في وقت لم يكونوا فيه أعضاء في ديانة معترف بها في الإمبراطورية.

Recommended English Readings

Danielou – Marrou. ***The Christian Centuries, Volume I. The First Six Hundred Years,*** pp. 81- 85.

Filson, F. V. ***A New Testament History,*** pp. 295 – 380.

Foster, John, ***The First A dvance – Church History I. TEF Study Guide,*** 5, pp. 66- 74.

Frend, W. H. C. ***The Early Church,*** pp. 40- 59.

Latourette, K. S. ***A History of Christianity,*** pp. 74, 75, 80- 86.

Leitzmann, Hans ***A History of the Early Church, Vol. 1,*** pp. 177 – 236 – 249.

McGiffert, A. C. ***A History of Christian Thought, Vol. I,*** pp. 30 – 44 – 67 – 95.

الباب الثاني

القرن الثاني



الفصل الأول

المدافعون



الأخطار التي أحاطت بالمسيحيين في الإمبراطورية:

لقد بدأ الاضطهاد المنظم الرسمي ضد المسيحيين في القرن الثالث الميلادي. ومع ذلك فلم يكن هناك وقت قبل ذلك لم يُواجَهوا فيه بالشك والسب والاحتقار والأخطار الجسدية من الغالبية الساحقة في الإمبراطورية الرومانية. وكانت هذه العداوة تُبنى على شيء من الحقيقة. ولكنها في غالب الأحيان كانت شائعات كاذبة ضدهم. مثل اتهامهم زورًا بأنهم يقومون بطقوس سرية وخاصة جدًا. وبأعمال منافية للأخلاق. وأنهم ملحدون (لأنهم كانوا ينكرون الآلهة الوثنية) ويتمسكون بعقائد خرافية لا يقبلها العقل. ولا يخلصون للإمبراطور.

ومن المحتمل أيضًا أن يكون الرومان قد خلطوا بين انتظار المسيحيين القوى لمجيء المسيح وبين عقائد الغيورين اليهود في انتهاء العالم (وفي ذلك يتشابه سفر الرؤيا مع سفر عزرا الرابع من الكتابات اليهودية). وكان اليهود والمسيحيون معًا يرهبون روما لأن حكومتها كانت حازمة وقاسية في ضرب كل نشاط يهدد أو يبدو أنه يهدد النظام العام.

والحقيقة أن المسيحيين صاروا عرضة للاضطهاد لأنهم كانوا فريسة سهلة لا يدافع عنهم أحد. وكانت الكنيسة لا تزال منظمة سرية. وكان المسيحيون أقلية ضئيلة في المجتمع كله. ولم يحن الوقت الذي فيه يعتبرون تهديدًا خطيرًا. كانوا معروفين ولكنهم محتقرون. ولهذا كانوا من أوائل الناس الذين يُلقى بهم للوحوش المفترسة أو النيران الملتهبة لكي يتسلى الجمهور بمنظرهم وذلك في أيام الأعياد العامة إرضاء للجمهور.

١- المدافعون كحماة للعقيدة:

في ذلك الوقت بالذات ارتفعت أصوات من المجتمع المسيحي لتدافع عن المسيحيين كمجتمع وكأفراد. وعُرف هؤلاء الرجال باسم «المدافعين» لأنهم كتبوا رسائل أو خطابات مفتوحة إلى الأباطرة ليشرحوا لهم ماهية المسيحية ويدافعوا عنها. وحاولوا كل جهدهم أن يوجدوا مكانًا للمسيحية وسط المجتمع وأن يكسبوا لها الاحترام والتسامح الديني بانين ذلك على ما يأتي: إن المسيحيين يقبلون العالم الذي يعيشون فيه ولا يختلفون في عاداتهم وحياتهم اليومية عن بقية

الناس، بل هم في الحقيقة مواطنون أكثر إخلاصًا للإمبراطورية من الآخرين، لأنهم مسيحيون. وهكذا خطا المدافعون المسيحيون بالفكر المسيحي خطوة إلى الأمام من حيث إنهم بيَّنوا أن هناك بعضًا من التوافق بين الفكرين المسيحي واليوناني. وكان هدفهم الأساسي من ذلك أن يظهروا أن المسيحيين هم في الحقيقة الورثة للحضارة الرومانية اليونانية لأنهم يتمسكون بالمثل اليونانية أو يحققونها جيدًا.

المدافعون العظام:

كان يوستينوس الشهيد (Justin Martyr) (١٠٠ - ١٦٥) من أشهر المدافعين (وسندرس أفكاره فيما بعد) ولكن إلى جانبه كان هناك جماعة آخرون يستحقون الذكر لعظمتهم، فقد كتب كوادراتوس (Quadratus من أثينا) إلى الإمبراطور هادريان سنة ١٣٠م.، ثم أرستيدس (Aristides من أثينا) سنة ١٤٠م. إلى الإمبراطور أنطونيوس بيوس مبرهنًا على سمو المسيحية على اليهودية وكل الديانات الأممية. ثم تاتيان (Tatian السرياني ١١٠ - ١٧٢) وهو تلميذ ليوستينوس الشهيد، وقد ألف خطابًا إلى اليونانيين سنة ١٦٠ هاجم فيه الفلسفة اليونانية وحاول أن يثبت أن المسيحية هي الفلسفة الصحيحة الوحيدة. ثم ميليتو (Melito من ساردس وقد توفي سنة ١٨٠م.) كتب سنة ١٧٦ إلى الإمبراطور مرقس أوريليوس قائلاً إن المسيحية التي نبتت بين البرابرة أزهرت وأثمرت في وسط الإمبراطورية. ثم أثيناجوراس (من أثينا) كتب في سنة ١٨٠م. إلى نفس الإمبراطور السابق ليبرهن له عقليًا على خلود النفس.

٢- يوستينوس الشهيد: (Justin Martyr)

عاش يوستينوس الشهيد في النصف الأول من القرن الثاني الميلادى. فقد وُلد من والدين غير مسيحيين في بلدة شكيم بالسامرة، ولكنه انتقل في صغره إلى أفسس وعاش فيها ودرس الفلسفة اليونانية دراسة عميقة، وصار محبًا لفلسفة أفلاطون، ولكنه كان يقرأ أيضًا التوراة العبرية. ولقد وجد في دراسة الأنبياء أن «تفسيرهم لبداية ونهاية الأشياء هو أقدم وأصدق تفسير، فلقد كانوا مملوئين بالروح القدس فمجدوا الله الخالق والآب لكل الأشياء، وأعلنوا ابنه المسيح.... وسرعان ما اشتعلت روحي بلهيب المحبة لأولئك الأنبياء والرجال الذين كانوا أصدقاء للمسيح... فوجدت أن هذه الفلسفة وحدها هي النافعة والآمنة»[١].

وهكذا صار يوستينوس الشهيد مسيحيًا من خلال دراسته للفلسفة، ثم ذهب بعد ذلك إلى روما حيث مات شهيدًا سنة ١٦٥م.، وأشهر مؤلفاته هي: الدفاع ١ و٢ وقد كتبه سنه ١٥٣م. إلى الإمبراطور أنطونيوس بيوس ليدافع عن المسيحية ويقدمها إلى الحكام. الحوار مع تريفو اليهودي، وقد كتب يوستينوس الشهيد إليه ليثبت له أن المسيحية حلت محل اليهودية.

دفاع يوستينوس الشهيد عن المسيحية:

يجدر أن نذكر شيئًا عن دفاع يوستينوس الشهيد عن المسيحية في كتابه «إلى الإمبراطور».

(١) مقتبسة من «حوار مع تريفو» ليوستينوس الشهيد. (Dialogue With Trypho).

لقد اعتبر نفسه فيلسوفًا. ولذلك بيّن أن المسيحية قريبة من الفلسفة اليونانية. واعتقد أن كل فلسفة وكل ديانة يجب أن تبرهن نفسها برهنة عقلية. وأعظم ما ينطبق عليها البرهان العقلي انطباقًا كاملاً هي المسيحية. وهكذا وضع لكل من لحقوه من المفكرين المسيحيين منهجًا عقليًا للمسيحية حتى يستطيعوا أن يشرحوا ديانتهم في عبارات معقولة منطقية متوازنة. وعلى هذا الأساس أعلن للإمبراطور أن كل المسيحيين فلاسفة بالحق. ويستحقون أن يعاملوا معاملة الفلاسفة الآخرين باحترام وتقدير على غير ما كانوا يلقون من معاملة الدولة لهم. فقد امتلأت من نحوهم بالغضب غير المعقول. ولذلك لم تكن عادلة معهم.

ويستمر يوستينوس الشهيد في دفاعة فيقول: إن الأباطرة يكرمون التقوى والعقل. فلماذا لم يستحسنوا هذه الفضائل في المسيحيين؟ إن هؤلاء المسيحيين على عكس ما يُشاع بالكذب عنهم. هم أسمى الناس أخلاقا في الإمبراطورية. فإذا حدث أن عصى بعض المسيحيين قانون الدولة فليعاقبوا بحسب هذا القانون عينه. ولكن يجب ألا يُعاقب شخص لمجرد أنه مسيحي. لقد اتهموا المسيحيين بالالحاد. ولم يكن ذلك الا لأنهم أنكروا الآلهة الوثنية. أو لأنهم يعبدون الاله الواحد الحق. ولأنهم يؤمنون بالله فانهم يسلكون بكل فضيلة كمواطنين صالحين يدفعون الضرائب ويخدمون الدولة بكل الطرق الممكنة بل إنهم يصلُّون من أجل الإمبراطور.

يوستينوس الشهيد ولاهوت الكلمة:

ولكي يدافع يوستينوس الشهيد عن المسيحية فإنه أتخذ واحدًا من عناصر الفلسفة الأفلاطونية وطوره وجعله عنصرًا مسيحيًا ترك أثره على كل الأجيال المقبلة. هذا العنصر أو الفكرة سُميت عقيدة المسيح ككلمة (Logos Christology) أو «لاهوت الكلمة» (Logos Theology). ولكن «لاهوت الكلمة» لم يأت في كتابات يوستينوس الشهيد لأن العهد الجديد سبقه في ذلك في إنجيل يوحنا «في البدء كان الكلمة» (يو ١: ١-٥).

يقول يوستينوس الشهيد أن الإنسان يحتاج إلى إعلان أسمى من ملكاته العقلية حتى يستطيع أن يجعل فلسفته كاملة. فالفلاسفة الحقيقيون هم جماعة مستعدون لأن يموتوا من أجل الحق. وهذا ما يجعلهم نوعًا من المسيحيين إلى حد ما. وكل من عاش «حياة عقلية» وكان فيه الإلهام الإلهي (الكلمة) كسقراط وهيركليتس مثلاً. كانوا مسيحيين. فالمسيح هو الفيلسوف الكامل لأن «الكلمة» أو الإلهام الإلهي حل فيه بكل كماله وسموه. «فالكلمة» من أجلنا صار المسيح جسدًا وعقلاً وروحًا[٢]. ولم يكن هدف يوستينوس الشهيد من ذلك تعظيم الفلسفة اليونانية بقدر ما كان يريد أن يبين مدى سلطة وأهمية المسيح.

ولكن يوستينوس الشهيد طبَّق «لاهوت الكلمة» في اتجاهات متعددة بدون تمييز: فهو القوة التي عمل بها إله العبرانيين السماء والأرض. وهو الواسطة الإلهية في تاريخ الإعلان. وهو العقل العام

(٢) من دفاع يوستينوس الشهيد.

الذي قامت عليه الفلسفة الرواقية والأفلاطونية. إنه الحق الذي يعلن نفسه في قلب كل إنسان كحقيقة مطلقة. ولكنه في الأساس هو يسوع المسيح الناصري. هذا هو مفهوم «اللوجوس» الذي شغل المركز الأول في فلسفة يوستينوس الشهيد وغيره من لحقوه.

٣- قيمة المدافعين

هؤلاء الرجال الذين نسميهم «بالمدافعين» لم يكونوا مدرسة لاهوتية. ولكنهم كانوا أصواتًا منفردة ارتفعت إبان القرن الثاني المسيحي للدفاع عن الكنيسة في وقت الشدة والاضطراب. وبذلك فهم يمثِّلون اتجاهًا حيًا فعَّالاً في التفكير المسيحي. فقد نبهوا الحكام الذين في روما إلى وجود الكنيسة بواسطة دعواهم القوية عندما كانوا يدافعون عنها. إنهم لم يطلبوا التسامح الديني فقط بل أظهروا التحالف بين المسيحية والفلسفة. أو بالأحرى الكنيسة والإمبراطورية. ولكن أكثر من كل ذلك «فإن المدافعين أخذوا خطوة حاسمة نحو فتح العالم بواسطة المسيحية. لقد استخدموا روح العلم اليوناني لكي يساند رسالة الكنيسة»[٣].

٤- المدافعون وكتاباتهم المعروفة

كوادراتس	: Quadratus	الدفاع .
يوستينوس الشهيد	: justin Martyr	الدفاع ١ و٢ . وحوار مع تريفو .
أريستيدس	: Aristides	الدفاع
تاتيان	: Tatian	عن الحيوان (فُقِد). خطاب ضد اليونان. الدياتسارون (توافق الأناجيل). الكمال بحسب المخلص (فُقِد).
ميليتو	:	الدفاع. عظة الفصح. المعمودية.
أثيناغوراس	:	الدفاع. عن القيامة الجسد.

(3) Lietzmann. Hans, *A History of the Early Church*, Vol. 2, p. 177.

Recommended English Readings

Carrington, Philip, ***The Early Christian Church,*** Vol, II.pp. 189_ 221.

Danielou, Jean and Marrou, Henri, ***The Christian Centuries.***

Vol. I, ***The First Six Hundred Years,*** pp. 81_ 95

Frend, W. H. C. ***The Early Church,*** pp. 72_ 77.

Lietzmann, Hans, ***A History or the Early Church,*** Vol. II. PP. 173_188.

McGiffert, A.C. ***A History of Christian Thought,*** Vol.I. PP.96_ 131.

Walker, Williston, ***A History of the Christian Church,*** pp. 45_ 47.

الفصل الثاني
هراطقة القرن الثاني



١. عصر الهرطقات

يقولون إن عصر الإمبراطور هادريان Hadrian (١١٧ ـ ١٣٨ م.) هو العصر الذهبي للهرطقات. ففي تلك الفترة ظهرت داخل الكنيسة وخارجها بعض الاتجاهات الخاصة التي شكلّت تحديًا خطيرًا للعقائد المسيحية وللسلام في الكنيسة. فمن الناحية الأولى، حدث فراغ في حياة الكنيسة باختفاء الرسل فافتقدت حضورهم المؤثر روحيًا وكنسيًا. نعم كانت هناك كتاباتهم، ولكن هذه لم تكن وحدها، فقد كانت كتابات أخرى زعمت بأنها مسيحية، ولم يكن في تلك الفترة أصوات المدافعين.

ولا عجب إذا أن ظهرت بدع ومبتدعون يخلطون آراءهم الهرطقية بالفكر المسيحي، ولعل القديس لوقا كان يشير إلى ذلك عندما يكتب عن لسان الرسول بولس قائلاً: «سيدخل بينكم ذئاب خاطفة لا تشفق على الرعية» (أع ٢٠: ٢٩).

٢. الدوسيتية (Docetism)

وكانت الدوسيتية واحدة من تلك الهرطقات المبكرة (وهي تأتي من الكلمة Dokeo ومعناها يظهر) ونادت هذه البدعة بأن المسيح لم يكن بشرًا حقيقيًا ولكنه بدا كذلك. وقد جاء هذا المفهوم من التراث الفلسفي اليوناني والشرقي الذي نفر بشدة من فكرة أن الإله قد يختلط بالعالم المادي بأية كيفية. ولهذا فالمسيح - كما يقول هؤلاء - ظهر لتلاميذه كأن له عظامًا ولحمًا، كأنه يجوع ويعطش، يشعر بالألم والحزن، وهو لم يكن كذلك. ويقول بعضهم إن الذي صُلب بدلاً عن المسيح هو سمعان القيرواني.

٣. الغنوسية (Gnosticism)

أ. أصل الغنوسية:

كانت هذه الفلسفة العجيبة المسماة بالغنوسية هي أهم ما تحدى الكنيسة من هرطقات. والغموض يحيط بكيفية ظهورها. ففيها عناصر من الفكر الفارسي والمصري والأفلاطوني، فكانت بذلك فلسفة تركيبية (Syncretistic) تنبع من مصادر كثيرة. ظهرت الغنوسية قبل المسيحية ومنفصلة عنها، ومن الصعوبة بمكان أن نصفها نظرًا لكثرة التفاسير التي وضعت لها، ولكثرة الصور التي ظهرت فيها.

ولقد كانت معرفتنا بالفلسفة الغنوسية، إلى عدة سنوات قليلة مضت، مشتقة من كتابات المفكرين المسيحيين عنها من أمثال يوستينوس وإيريناوس (Ireneaus) اللذين هاجماها. أما الآن أصبحت في أيدينا كتابات الغنوسيين الأصلية بعد اكتشاف المخطوطات الغنوسية الكثيرة في نجع حمادي سنة ١٩٤٥م التي حُفظت ورُممت وتُرجمت وأُعدت للنشر في المتحف القبطي بالقاهرة. وبعض هذه الكتابات أصبحت في متناول اليد وسنقتبس منها فيما يلي.

ب- تعاليم الغنوسية:

يمكن تلخيص تعاليم الغنوسية في عدة جمل: فهي فلسفة ثنائية تقول إن العالم الملموس المادي شر ولا يمكن أن يكون الله هو خالقه، بل خلقته كائنات أقل مركزًا تسمى «ديمارج» (Demi- urge)، أما الله فهو يحيا منفصلاً انفصالاً تامًا عن العالم المادي الشرير ويسكن في عالم الروح النوراني. أما خلاص الإنسان فهو بهروب الإنسان من العالم المادي إلى عالم الروح بواسطة المعرفة التي لا يمكن أن ينالها الإنسان إلا عن طريق معجزي، يعطيها رسول إلى جماعة لها وعي روحي.

ج- أمثلة من الفكر الغنوسي :

الغنوسية المصرية:

هناك عناصر غنوسية يمكن أن تُدرك بسهولة في أساطير مصر القديمة، وفي هذا المجال يجدر بنا أن نقتبس ما كتبه جاك شامبليون (J. Champollion) في كتابه «عالم المصريين» ص ٦٤ حيث يقول: «بناء على التاريخ المقدس لمصر فإن توت (Thoth)... هو الذي كتب كل الكتب بأمر من الله... وتوت الأول هذا هو العقل الالهي المتجسِّد... هو الشخص الأوحد بين الكائنات الإلهية الذي استطاع أن يفهم جوهر الله. وتقول هذه الأساطير المقدسة المصرية أن توت قد سجل هذه المعرفة الجليلة في كتب بقيت غير معروفة إلى أن خلقت الديمرج (الكائنات الأقل مرتبة) أرواح البشر... والعالم المادي... وقد كتبها توت في لغة مقدسة، ... ولكن بعد أن حدثت الفوضى عندما انتظم العالم المادي الشرير... أشفق الله على الناس لأنهم كانوا يحيون بلا شرائع، ويحتاجون إلى القوانين فأعطاهم الذكاء... حتى يتبعوا الطريق الذي يقودهم إلى حضنه...»

الغنوسية اليونانية:

وهاك أيضًا اقتباسًا آخر من كتابات راعي هرمس، كتبها شخص يدعي بوماندرس لكي يصف هروب الروح البشرية من العالم المادي إلى عالم الروح النقي: «أولاً يتحلل الجسد المادي... فيختفي الشكل الظاهري الذي نراه فيه الآن، فتذهب الحواس الجسدية إلى مصادرها. فيذهب الجسد والشهوة إلى الطبيعة غير العاقلة، وعندئذ يطير الإنسان الى أعلى عبر السموات السبع المتوافقة:

«في المنطقة الأولى يتخلى عن قوة النمو والنقصان.

وفي الثانية يهجر الحيل الشريرة.

أما في الثالثة فيبطل خداع الشهوة.

وفي الرابعة تكف الرغبة في إظهار العضلات والقوة.

وفي الخامسة بترك التهور الشرير وطرقه الظالمة.

وفي السادسة تصبح الأساليب الشريرة لاكتساب المال عديمة الجدوى.

وفي السابعة يهجر الإنسان شراك الكذب»

«وعندما يقف عاريًا من كل ذلك... يلبس الطبيعة (الكاملة)، ويمتلك قوته هو، وسيغني حمدًا للآب مع كل الموجودين (الكائنات الصادقة غير المتغيرة). وسوف يصعد كل هؤلاء إلى الآب مرتبة بعد مرتبة.. وعندما يصبحون سيادات، يصبحون الله نفسه الذي هو هدف كل من يمتلك المعرفة gnosis إيمانهم يصبحون آلهة[1].

الغنوسية والمسيحية:

أما كيف أثرت الغنوسية في المسيحية، فهذا سؤال لا يمكن الإجابة عليه إجابة شافية. فلربما أصبح المسيحيون مهتمين بالغنوسية، وربما اهتم الغنوسيون بالمسيحية، فهناك تشابه بين الاثنتين في مواطن كثيرة سنكشفها فيما يلي:

التأثير الغنوسي في اليهود:

هناك شواهد تدل على أن الغنوسية كان لها تأثيرها في المجتمع اليهودي. فبعض اليهود هجروا العهد القديم وإله العهد القديم، بعد فشل ثورة باركوكبا في سنة ١٣٥م، لأنهم ظنوه قد فشل في أن يأتي بالعصر الجديد، وبدأوا يفتشون عن إله كامل يحيا بعيدًا عن العالم المادي. ويبدو أنه قد تأثر بهذا النوع من التفكير المجتمعات «المسيحية اليهودية» في فلسطين وشرق الأردن، وهم الذين كانوا يتمسكون بالممارسات اليهودية، ومع ذلك فلهم مسيحيتهم الخاصة بهم، ومنهم من وصل به الاعتقاد أنه لم يكن من اللائق بالله أن يخلص هذا العالم الشرير.

سيمون المجوسي أو الساحر:

يقول آباء الكنيسة إن أول مسيحي غنوسي هو سيمون الساحر الذي من السامرة، والذي أراد أن يشتري قوة الروح القدس من بطرس ويوحنا (أع ٨: ٩ـ ٢٤). ومع أن العهد الجديد لا يذكر شيئًا عنه، إلا أن خرافات كثيرة ارتبطت باسمه. ويذكر يوستينوس الشهيد أن «كل السامريين تقريبًا يمجدون سيمون الساحر ويعتقدون أنه هو الله وأنه مرتبط بما يسمى «هيلن» (Helen) وهي «فكرة الأول» (الدفاع ١: ٢٦).

ويقول يوستينوس الشهيد أيضًا إن سيمون أعلن نفسه بأنه «القوة العظمى» واستخدم قوته السحرية بطرق كثيرة، ولكن كانت هزيمته على يدي الرسول بطرس الذي أهدر مركز ذلك الساحر في روما.

ولقد قيل إنه إذا لم يكن سيمون الساحر نفسه غنوسيًا، فمن المؤكد أن تلاميذه كانوا كذلك. فمثلاً يقول أريناوس عن شخص اسمه ميناندر الأنطاكي (Menander) «ادعى ميناندر أنه هو المخلص الذي أرسله العالم العلوي غير المنظور ليخلِّص الناس (ضد الهراطقة الجزء الأول ٢٣: ٨).

دعوة الغنوسية:

من السهولة بمكان أن نعرف ماذا كان يجذب المسيحيين إلى الغنوسية. فهذه الأخيرة كانت في حقيقتها ديانة مع أنها كانت تستخدم أسلحة الفلسفة. وكما يقول ماكجفرت: «يوجد في

---

(١) اقتبست من هـ. س. كي: أصول المسيحية ص ٢٤٢- ٢٤٣.

Kee. H. C., The Origins of Christianity pp. 242- 243.

تعاليم الغنوسية بعض التشابه مع تعاليم بولس ويوحنا وحتى مع بعض أقوال يسوع نفسه... وثنائيتهم وجدت سندًا في تعليم بولس عن الروح والجسد. وعقيدة الدوسيتية التي يعتنقونها... وجدت أيضًا سندًا في القول بأن المسيح كان كائنًا إلهيًا جاء من السماء. ورفضهم للعهد القديم وللإله الذي أعطاه. يستند على حوار بولس ضد الناموس. وتقسيمهم البشر إلى طبقتين الذين يستطيعون الخلاص والذين لا يستطيعونه. بنوه على التمييز الذي وضعه يسوع بين أبناء الله وأبناء إبليس»[٢] (يو ٨: ٣٧- ٤٧) زد على ذلك تلك المحاولة التي بذلتها الغنوسية لتفسير بعض الظواهر التي كان من الصعب على المسيحيين أن يجدوا لها جوابًا. مثل أصل الشر.

وفي الوقت الذي لم يكن فيه اللاهوت المسيحي قد وُضع في تركيب منظم كامل. كانت الغنوسية في تعاليمها ونظمها تستهوي أولئك الذين يريدون أجوبة على قضايا لاهوتية أساسية.

د. الغنوسيون المسيحيون:

ولعل أهم طريقة نفهم بها الغنوسية المسيحية هي أن ندرس بعضًا من تعاليم الغنوسيين الذين اعتقدوا في أنفسهم واعتقد معهم الآخرون أيضًا أنهم مسيحيون. ولقد كان لبعضهم شأن كبير في الكنيسة. وكان لهم أتباع كثيرون. مع أن واحدًا منهم لم يبذل أية محاولة لتأسيس كنائس منفصلة. ويمكن أن نختار من ضمن الأسماء اللامعة: ساترنينوس (Saturninus) الأنطاكي. كربوكراتس (Carpocrates) وباسيليدس (Basi-lides) من الأسكندرية. فالنتينوس (Valentinus) من الأسكندرية وروما. وكل هؤلاء عاشوا تقريبًا في القرن الثاني الميلادي.

ساترنينوس

وقد سمَّاه يوستينوس الشهيد «الغنوسي الكبير الأول» وهو يمثِّل تأثير الغنوسية على المجتمعات «اليهودية المسيحية» في آسيا. ويصف إيريناوس غنوسية ساترنينوس في كتابه «ضد الهراطقة» (الجزء الأول ٢٤: ٢) فيقول: «وَضع الملائكة السبعة الذين يرأسهم إله اليهود في موقف العداوة من الإله المحتجب. وقد خلق هؤلاء الملائكة الإنسان. ولكن هذا الإنسان بدأ يتخبط في الأرض حتى أعطاه الإله المحتجب قبسًا من النور الذي يصدره... وقد أنكر ساترنينوس الزواج ووصفه بأنه جاء من الشيطان. وبعض تلاميذه امتنعوا عن أكل اللحم...» «وقد ميز بين جنسين من الناس: أولئك الذين لهم شركة في النور السماوي وأولئك الذين حُرموا منه»

باسيليدس

وكان باسيليدس الإسكندري يرى الأمور أيضًا من وجهة النظر اليهودية - المسيحية. ومع ذلك فكان ينادي بالحرية من الناموس. واعتبر نفسه وسيطًا بين المسيحيين واليهود. وتظهر عناصر الغنوسية الأساسية في تعليمه عن التوتر بين عالم المادة وعالم الروح الخالصة. ولكي يفصل الله عن المادة قال إن الله خلق «العقل» (nous). ومن هذا العقل خرجت الملائكة والسماوات وعددها ٣٦٥ في ترتيب تنازلي إلى أن وصلت إلى إله العهد

(٢) ماكجفرت McGiffert تاريخ الفكر المسيحي جزء ١ ص ١٥١.
McGiffert, H. C. – **A History of Christian Thought,** Vol. I, p. 151.

القديم «يهوه» الذي خلق آخر الأشياء، وهو العالم المادي الذي يعيش فيه الجنس البشري. أما الله الآب فيرى الجنسَ البشري في حالة اليأس فيرسل «العقل» وهو الابن لكي يعطي «المعرفة» (Gno-sis) للخلاص لجماعة الروحيين المختارين. ويقول باسيليدس إن المسيح ظهر كإنسان ظاهريًا فقط، ولكنه لم يتألم أو يمت، ولكن سمعان القيرواني قُتل مكانه. (انظر ما قيل عن الدوسيتية).

فالنتينوس

يُعتبر من أهم الغنوسيين الذين كان لهم أثرهم الكبير، وقد عمل في روما، وعاش فيها وكان مبجلاً من الجميع. وقيل إنه رُشح للأسقفية، ولكنها أُعطيت لشخص آخر ممن تحملوا الاضطهادات. وفي كتابات فالنتينوس نجد الغنوسية في أهم مظهرها متحدية للمسيحية: «فليست المعمودية فقط هي التي تحرر الإنسان... ولكن المعرفة، معرفة من نحن ولماذا وُجدنا هكذا وأين نحن، وفي أي مركز وُضعنا في هذا الكون، وإلى أين نحن مسرعين، ومن أي شيء خلصنا، وما هو الميلاد والميلاد الثاني» (من فالنتينوس في خطاب إلى ريجينوس، اقتبسها و. هـ. ك. فرند: الكنيسة الأولى ص ٦١).

ومع أننا لا نملك شيئًا من كتابات فالنتينوس نفسه إلا أن الرأي الغالب هو أن كتاب «إنجيل الحق» الذي وُجد في نجع حمادي هو من ضمن كتاباته. ولكن توجد كتابات كثيرة كتبها أتباعه نجد تعاليمه واضحة فيها. والمادة التالية من تعاليم فالنتينوس مقتبسة من كتاب: تاريخ مختصر للكنيسة الأولى للمؤرخ هاري بوير[٣].

حوادث داخل الملء: (Pleroma)

تبدأ الغنوسية بالاعتقاد بإله كان موجودًا بنفسه ولوحده وتُطلق عليه عدة أسماء: الآب غير المعروف، الهاوية، غير المولود.

هذا الإله لم يرض أن يظل وحيدًا فخلق اثنين من الأيونات (Aeons) (وهي كائنات إلهية) اسمهما «العقل» وهو ذَكَر «والحق» وهي أنثى. وهذان بدورهما انتجا زوجين آخرين «الحياة العالمية» (World Life) «وكنيسة الإنسان» (Man - Church) هؤلاء جميعًا مع الآب... يكونون الملء، أو ملء اللاهوت. «الحياة العالمية» أنتجت عشرة أيونات فأصبح الجميع ثمانية عشر. أما «كنيسة الإنسان» فأنتجت ١٢ أيونًا فصار الجميع ثلاثين. ولقد حاول الغنوسيون إثبات وجود هذه الثلاثين أيونًا من العهد الجديد، ففي مَثَل الكرامين أرسل بعضهم في الساعة الأولى وآخرون في الثالثة وآخرون في السادسة والتاسعة ثم الحادية عشرة. ومجموع هذه الأعداد هو ٣٠، كما أن يسوع قد بدأ خدمته وهو في سن الثلاثين.. إلخ.

والأيون الأخير الذي ولدته «كنيسة الإنسان» كان أنثى واسمها «صوفيا» (Sophia) أي الحكمة، وكان لها رغبة أن تعرف الآب غير المعروف (مع أن الغنوسيين يقولون إنه لا يمكن أن يعرف). ولما لم تستطع ذلك أصابها الحزن الشديد. وفي حزنها وبدون مشاركة من زوجها أنجبت مولودة أسمتها أخاموث (Achamoth) (ومعناها غير مؤكد)، ولكنها لم تستطع أن تمكث في ملء اللاهوت نظرًا لولادتها غير الطبيعية فسقطت من هناك.

(3) Harry R. Boer: *A short History of the Early Church* (Eerdmans, 1976) p. 57.

فلما رأت الحكمة ما فعلته، ازداد حزنها وأضحت لا تتعزى مطلقًا، فحزن معها سائر الأيونات وقدموا رجاء إلى «العقل» و«الحق» لمساعدتها، فما كان من هذين إلا أن أنتجا أيونيين آخرين لإنقاذ الحكمة من حزنها هما «المسيح والروح القدس». وفعلاً أعادا الانسجام للبليروما فأراد الأيونات الثلاثون أن يظهروا امتنانهم لذلك، فأنتجوا أيونًا آخر اسمه «يسوع». هذه هي الأحداث التي حدثت داخل الملء أو البليروما».

حوادث حدثت خارج الملء (Pleroma) في العالم المادي:

«أنجبت أخاموث التي سقطت من الملء، مولودًا اسمه ديمرج (Demiurge)

(وتأتي من كلمة يونانية تعني عامل، وعلى الأخص صانع العالم أو الخالق) وبهذا صارت أخاموث أمًا لكل المادة، وهذه المادة شريرة لأنها من أصل دنئ وأخلاق غير سامية. ولقد أعطى الديمرج هذه المادة أشكالها المختلفة فهو في الحقيقة الخالق لكل شيء، ومنه جاءت أنفس البشر.

وتتحكم الحكمة في الديمرج من مكانها في الملء لأنه ينتسب إليها عن طريق أخاموث، ولكن الديمرج يجهل ذلك. ونتيجة لهذا التأثير للحكمة، يستطيع الديمرج أن يخلق أناسًا بهم عناصر روحية صالحة. ولقد كانت الحكمة وراء ميلاد الأيون «يسوع» من العذراء مريم. وفي أثناء حياته استطاع يسوع أن يعلن هذه المعرفة لجماعة اختارهم، وهؤلاء أوصلوها بدورهم إلى الأجيال الصالحة التي جاءت بعدهم. وعند الصلب انفصل الأيون السماوي من الجسم الترابي الذي عاش فيه، وهكذا لم يصلب الأيون يسوع فعلًا».

«هؤلاء الذين يأخذون المعرفة هم جماعة المختارين الذين سوف يتخلصون من المادة الشريرة التي تحتوي أجسادهم عند الموت، فيرجعون إلى الملء الذي منه استمدوا وجودهم الروحي. وبعد ذلك تنحدر كل الأشياء المادية إلى الفوضى ثم إلى العدم».

هناك مدارس غنوسية أخرى تحاول جميعها بمختلف الأساليب أن تبعد الله عن الشر وفي نفس الوقت تقدم للإنسان طريق النجاة إلى الخلاص الأبدي. ولكن اتباع فالنتينوس كانوا - كما يظهر - أكثر الجميع جاذبيةً للطبقة المثقفة بسبب تفكيرهم الجيد واعتدال خيالهم ودراستهم.

هـ- خطر الغنوسية على المسيحية:

لم يكمن خطر الغنوسية على المسيحية في كونها ديانة منافسة، ولكن خطرها كان في محاولة الغنوسيين أن يفسروا المسيحية والفكر المسيحي بأسلوب غنوسي. فقد استخدموا الكتب المقدسة ولكنهم أهملوا العهد القديم وركزوا على الأناجيل ورسائل الرسول بولس. وكانوا يفسرون أجزاء منها بطريقتهم المجازية. فمثلًا أعطى أحدهم التفسير التالي لقصة يسوع والمرأه السامرية على البئر (يو ٤): «إن الشرارة الإلهية التي كانت في المرأة جعلتها لا ترضى بالمعرفة القديمة التي تتمثَّل في بئر يعقوب، وكانت تتطلع إلى المعرفة الجديدة (الغنوسية) التي يهبها المسيح وحده. هذا التفسير يظهر في عين الذين لا يعرفون الغنوسية، بريئًا لا ضرر منه.

أما الناحية التي جاء منها أخطر الأسلحة ضد المسيحية من الغنوسية فهي نظمها الفكرية التي وضعت المسيح مركزًا لحوادث العالم، ولكن

بحسب المفهوم الغنوسي الغريب، وهو كالآتي: «مرّات نقرأ عن المسيح وقد تحوّل إلى شبح خفي غير منظور، مرّات في جسد ومرّات بغير جسد، فيظهر كصبي أو رجل أو عجوز أو كبديل للرسول، يظهر ثم يختفي، مظهرًا طبيعته في صليب من نور، وهو الكلمة الإلهي الذي هو في نفس الوقت الآب والابن والروح القدس، والذي لم يُعلق أبدًا على صليب خشبي[4] ويذكر إيرينايوس أن بعض الغنوسيين يقسمون طبيعة المسيح، فالمسيح جاء إلى يسوع فلما مات يسوع لم يمت المسيح، أو أن المسيح لم يمت بل مات بدله سمعان القيرواني، بينما وقف يسوع يضحك من غباوة اليهود[5].

و- أخطاء الغنوسية:

وأخيرًا يمكن أن نعرض النقاط الكثيرة التي فيها حاولت الغنوسية أن تمسخ المسيحية: فقد أبعدت الله عن العالم، كما علّمت الثنائية التي ساوت العالم المادي بالبشر، ولم تستطع أن تعطي حلًا لمشكلة الشر بإبعادها الله عن الزمان والمكان، جردت المسيح من بشريته، التوت بمعاني الكتب المقدسة وأهملت جزءًا كبيرًا منها، وقسمت الجنس البشري إلى ثلاث طبقات، إحداها معيَّنة للهلاك لأنها محرومة من أن تنال الشرارة الإلهية، كما شجعت القدرية من ناحية، ومن الناحية الأخرى شجعت التحرر.

وبطريقة جانبية أخرى ألحقت الغنوسية ضررًا بالكنيسة لأنها تركت طابعها على المفكرين الذين جاؤا بعد ذلك، كماركيون الذي أعلن أن إله العهد القديم لا يمكن أن يكون هو إله المسيح، والهرطقة الدوسيتية التي سبق ذكرها، والتي أنكرت بشرية المسيح، وميل الكثيرون من المفكرين الكنسيين لتفسير الكتاب المقدس تفسيرًا رمزيًا.

ومن الناحية الأخرى أجبر التحدي الغنوسي المفكرين المسيحيين على أن يجيبوا على أسئلة ويوضحوا مواقف لم يفكروا فيها من قبل، فالغنوسية كان لها نظمها الفلسفية واللاهوتية، فكان على المسيحية أن تضع نظمها لتحامي عن الإيمان المسلم مرة لها. فضغط الغنوسية نتج عنه عصر ذهبي في التفكير والمناقشات اللاهوتية...

---

(٤) هـ. ليتزمان (H. Leitzmann) تاريخ الكنيسة الأولى ج. ٢ ص. ٨٧ مقتبسًا من أعمال توما ويوحنا وبطرس وهي كتابات غنوسية.

(٥) يلوح أن كتّاب الأناجيل أنفسهم كانوا يعرفون خطورة التفسير الغنوسي الخاطئ لطبيعة المسيح. انظر مثلاً ما قاله يوحنا الرسول في ١ يوحنا ٤: ١- ٣: «أيها الأحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هي من عند الله لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم. بهذا تعرفون روح الله. كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله. وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله» (انظر أيضًا يوحنا ١: ١- ٣).

Recommended English Readings

Carrington, Philip ***The Early Christian Church, Vol. II,*** pp. 71- 80.

Danielou, J. and Marrou, H. ***The First Six Hundred Years, Vol. I of The Chirsitian Centuries,*** pp. 55 - 66, 98 -100.

Foster, John ***The First Advance. Vol. I of Church History,*** TEF Study Guide 5, 57 - 61.

Frend, W.H.C ***The Early Church,*** pp.60 - 66.

Kee, H.C. ***The Origins of Christianity,*** pp. 238_257. (for quotations from Gnostic Writings)

Leitzmann, Hans, ***A History of the Early Church, Vol. I,*** pp.264 - 295.

Marty, Martin E. ***A Short History of Christianity,*** pp. 78 - 80.

McGiffert, A.C. ***A History of Christian Thought, Vol I,*** pp.45 - 58.

Walker, Williston ***A History of the Christian Church,*** pp. 51 - 53.

٤- الماركيونية (Marcionism)

كان ماركيون واحدًا من أكثر الهراطقة أهمية الذين أتعبوا الكنيسة في القرن الثاني الميلادي. ومع أن الكنيسة قطعته من عضويتها إلا أن معارضيه ظلوا يحترمونه بل هناك من اعتبره واحدًا من المصلحين.

حوادث حياة ماركيون:

وُلد ماركيون في مدينة سينوب (Sinope) التي تقع على الشاطئ الجنوبي للبحر الأسود بآسيا الصغرى سنة ٨٥ م. وكان أبوه أسقفًا.

وكان ماركيون تاجرًا وصاحب مراكب. فكان واسع الثراء. وفي سنة ١٣٩ م ذهب إلى روما وانضم لجماعة من جماعات الكنيسة المسيحية هناك. ثم تبرع لهم بمبلغ مائتي ألف سسترسز (Sesterces أي حوالي عشرة آلاف دولار). ولكنه بدأ يهتم بمشكلة الشر الذي يملأ العالم. ثم يتشكك في قيمة العهد القديم. وعلى الأخص في الطريقة الرمزية التي كانوا يفسرونه بها. ثم كوّن تفكيره اللاهوتي الخاص به متأثرًا بالتيار الغنوسي المنتشر في ذلك العصر. فكان كل ذلك دافعًا للكنيسة على قطعه من شركتها سنة ١٤٤ م. وأعادوا له عطيته المالية التي دفعها لها. وعندما تقابل مع القديس بوليكاربوس أسقف سميرنا في روما (أو في سميرنا) سأله: «هل تعرفني»؟ فأجاب القديس: «نعم أنت الابن الأكبر للشيطان» وهذا يدل على قوة رفض الكنيسة للبدعة الماركيونية في ذلك العصر.

كنيسة ماركيون:

ومع ذلك فقد كان لماركيون أتباع كثيرون واستطاع أن يؤسس كنيسة ضمت في عضويتها كثيرون في أرجاء الإمبراطورية. كان طابعها التقشف فلا خمر ولا لحم ولا معاشرة نساء ولا زواج. ولقد قال ماركيون: «إذا أنجبت أطفالًا فإنك تكثر اتباع إله (Deminurge) هذا العالم». ولهذا كانت كنيسة ماركيون تنمو عن طريق من يدخلونها من الخارج وليس عن طريق تكاثر أعضائها طبيعيًا:

ولكننا لا نعرف كثيرًا عن الحياة داخل هذه الكنيسة. فأعضاؤها تقوقعوا داخلها ولم يتركوا أية وثائق تعرِّف العالم بهم. أما ما نعرفه عن ماركيون نفسه فهو مأخوذ من كتب ترتليان الخمسة التي تحمل عنوانًا واحدًا: «ضد ماركيون». وقد مات ماركيون سنة ١٦٠ م. ولكن كنيستة بقيت ـ بحسب الشواهد المتاحة ـ إلى القرن الخامس الميلادي.

تعاليم ماركيون عن إله العهد القديم:

نبعت أفكار ماركيون اللاهوتية من عدم رضائه عن الطريقة العامة التى كانت متبعة في تفسير العهد القديم. وهي الطريقة المجازية. فقصص العهد القديم لم تبق على معناها التاريخي بل أعطوها معنى روحيًا لا يمكن أن يُفهم إلا في نور العهد الجديد. بعكس ما كان ينادي به ماركيون من أن يفسروه تفسيرًا حرفيًا تاريخيًا. وأن يأخذوه كما هو. وعندما بدأ يدرس العهد القديم هاله ما رأى وهو أن العهد القديم ما هو إلا تاريخ الأمة اليهودية. ولا يمكن أن يرقى إلى مستوى العهد الجديد. ولعل أخطر ما وصل إليه فكره هو أن إله العهد القديم كان على الأقل ضعيفًا. وليس في المستوى الإلهي المطلوب. إن لم يكن شريرًا. وعلى أفضل الأحوال كان إله

العدل الذي يبني حكمه على أساس الشريعة الموسوية: «عين بعين وسن بسن» وقد يكون بارًا، ولكنه كان قاسيًا ودكتاتورًا. خلق البشر ودفعهم دفعًا إلى الخطية ثم عاقبهم عليها. ولعله كان متحيزًا يتجاوز عن خطايا وسقطات مريديه، ولكنه يعاقب الأبرياء دون سبب ما. وإلا فكيف يقول: «أنا ... مصور النور وخالق الظلمة صانع السلام وخالق الشر أنا الرب صانع كل هذه» (إش ٤٥: ٧). وهل يمكن أن يكون هو نفس إله يسوع الذي قال: «هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارًا جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارًا ردية لا تقدر شجرة جيدة ان تصنع أثمارًا ردية ولا شجرة ردية أن تصنع أثمارًا جيدة» (مت ٧: ١٧). ولا يعقل أن يكون الإله الذي جعل الدبتين تفترسان الصبية الصغار الذين عيروا أليشع بأنه أقرع (٢ مل ٢: ٢٣- ٢٥) هو نفس الإله الذي تكلم في المسيح قائلًا: «دعوا الأولاد يأتون إليّ .. لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات» (مت ١٩: ١٤).

وهكذا استنتج ماركيون بمنطقه هذا أن الإله القاسي الشرس لابد وأن يكون كائنًا أقل وأحط في مستواه من إله المحبة والرحمة الذي أعلنه يسوع المسيح، ولابد أن إله العهد القديم هو الكائن الإلهي الذي خلق هذا العالم المادي (كما يعتقد الغنوسيون). فالعالم الشرير الذي أحاط بماركيون، بكل ما فيه من قسوة وسقوط وعداوة، جعله يتمسك بقوة بأن المادة شر وأن الإله الحقيقي لابد وأن يكون منفصلًا انفصالًا تامًا عن أي شيء مادي.

أما الإله الحقيقي بحسب تفكير ماركيون – فهو في الحقيقة إله محتجب، وهو الإله المجهول الذي نادى به الرسول بولس في أريوس باغوس (أع ١٧: ٢٣)، والذي ظهر في شخص يسوع المسيح ليخلص الناس من الإله اليهودي «يهوه». فقبل يسوع لم يعرف الناس شيئًا عن هذا الإله لأنه لم يربط نفسه بتاتًا بالعالم أو بالبشر، بل كان يسكن كغريب في السماء الثالثه (٢ كو ١٢: ٢) بعيدًا عن العالم المادي. إنه إله المحبة الخالصة والرحمة وليس القاضي. «ويكفيه ذلك العمل الذي قام به في تخليص الإنسان دلالة على صلاحه وسموه المتناهي» (مقتبسة من كتاب ترتليان «ضد ماركيون»).

وهكذا قارن ماركيون بين إله العهد القديم، الإله الخالق، وإله العهد الجديد الإله الفادي، بين العدل والمحبة، الناموس والإنجيل. ولم يستطع أن يفهم أن هذه الصفات المتناقضة يمكن أن تجتمع معًا في كائن واحد أبدي.

المسيح في نظر ماركيون:

لقد كان المسيح هو المركز الأساسي للفكر اللاهوتي لماركيون ففيه وحده يستطيع الله أن يقوم بعمله الفدائي. وكان ماركيون مغرمًا باقتباس قول المسيح: «ليس أحد يعرف .... الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له» (لو ١٠: ٢٢). ولم يكن ماركيون يميز بين الله والمسيح. فالله ظهر في هيئة المسيح الذي كان جسده شبحًا لم يولد أبدًا من امرأة، بل ظهر فجأة وبطريقة إعجازية كإنسان كامل، ولم يمت على الصليب ولم يُدفن ولم يُقم من القبر، ولكنه اختفى فجأة ليبشر الموتى في الهاوية ثم رجع بعد ذلك ليقوم بعمله كالآب المحتجب في السماء.

الكتاب المقدس عند ماركيون:

ولكي يبرهن على تفكيره هذا لم يتردد ماركيون لحظة في الاقتباس من الكتب المقدسة وتفسيرها على هواه، ومع ذلك فقد طرح العهد القديم جانبًا،

ولم يقبل سوى إنجيل واحد من الأناجيل الأربعة هو إنجيل لوقا بعد أن اقتطع منه الأربعة الأصحاحات الأولى إلى ٤: ٣١ حتى يتفادى نسب يسوع إلى اليهود. واعتقد أن أعمال الرسل كتبه جماعة التهوديين فرفضه. وبالإجمال رفض كل كتاب رأى فيه أي تأثير لليهود. أما الرسول بولس فكان الكاتب المفضل لديه فقبل كل رسائله ما عدا تيموثاوس الأولى والثانية وتيطس. ومع ذلك فقد تجرأ على القيام بأي تغيير يراه مناسبًا لتفكيره في الرسائل المقبولة لديه. فمثلًا غيَّر قول السيد في لوقا ١٦: ١٧: «لكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس» إلى «.... أيسر من تسقط نقطة واحدة من كلمات الرب». ثم أساء تفسير قول الرسول في غلاطية ١: ٩: «إن بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم فليكن أناثيما» ليبرهن على أن إنجيل لوقا هو الإنجيل الوحيد الصحيح. وأن الأناجيل الثلاثة الأخرى أضافتها الكنيسة خطأ تحت تأثير التهوديين.

وكان ماركيون يعتقد أن رسالة غلاطية هي الدفاع الأساسي ضد المسيحية اليهودية. ففي غلاطية ظهر بطرس ملومًا لأنه لم يسلك باستقامة حسب إنجيل الحق (غل ٢: ١٤). وكما حارب الرسول بولس ضد الإخوة والأنبياء الكذبة. هكذا يحارب هو - حسب زعمه - لينقي الإنجيل من كل إشارة إلى إله اليهود. ولهذا قال عنه ترتليان: «إن ماركيون يعلِّم الكتاب المقدس لا بقلمه بل بمشرطه ليقطع منه كل ما لا يوافق تفكيره».

ملاحظات على ماركيون:

سبق القول إن الكنيسة المسيحية هاجمت ماركيون بكل شدة. فقد كتب إيريناوس (Irenaeus) عنه قائلًا: «لقد جدف ماركيون على الله وأهمل كثيرًا من تعاليم المسيح. ووضع نفسه في مرتبة أعلى من الرسل الذين سلموا الإنجيل إلينا».

ويجب أن نتفق مع هؤلاء الذين انتقدوه في الكنيسة القديمة إلى حد كبير. فقد كان واحدًا من الدوستيين عدوًا للسامية. ثنائي العقيدة ومحرِّفًا للكتب المقدسة. ومع ذلك فيجب أن نقرر هنا أنه لم يكن غنوسيًا بالمعنى الكامل للكلمة رغم تأثره بهم كثيرًا. فلم يستخدم الأساطير أو المجازات التي تتميز بها الغنوسية. لم يستخدم الألفاظ مثل الأيونات والملء ونظام الديمارج أي الآلهة المتتابعة. لم يعلِّم أسرار كالديانات السرية ولم يشجع الفرائض السرية. والخلاص بالنسبة له هو بالإيمان وليس بالمعرفة. وكان خلاصًا للجميع وليس لمجموعة صغيرة غنوسية. ولم تكن هنا جماعة مختارة لديها كفاءات روحية خاصة... ولعل ما يجب أن نذكره له هو أمانته لتعاليم الرسول بولس عن إله المحبة والرحمة الذي يخلِّص أبناءه الذين أخطأوا خلاصًا مجانيًا لا يتوقف على أي امتياز أو استحقاق لربهم. سوى أنهم يرجعون إليه في توبة وإيمان. ولقد تميز أتباعه بنقاوة الحياة والتقوى. ولقد استُشهد كثيرون منهم في موجات الاضطهاد الروماني.

ومع الكنيسة كانت تتمنى لو لم يولد ماركيون. لكن يجب أن نشكر الله لظهوره لأنه وضع أمام الكنيسة قضايا أساسية ماكانت لتفكر فيها أو تجيب عليها. كطبيعة الله وصلة الله والمسيح. وتفسير الكتب المقدسة. وأهمها جميعًا حصر الكتب المقدسة القانونية. ففي هذا المعنى السلبي يمكننا أن نعتبر ماركيون مصلحًا.

Recommended English Readings

Foster, John *The First Advance (Voll I of Church History),* pp. 53- 57.

Frend, W.H.C. *The Early Church,* pp. 66- 68.

Latourette, K.S. *A History of Christianity,* pp. 125- 128.

Lietzmann, Hans *A History of the Early Church, Vol I,* pp. 249- 263.

Walker, Williston *A History of the Christian Church,* pp. 54, 55.

Megiffert. A.C. *A History of Christian Thought, Vol I.* pp. 54, 55.

٥- المونتانية (Montanism)

ظهرت المونتانية في فريجية بأسيا الصغرى بعد منتصف القرن الثاني الميلادي بقليل كإحدى الحركات الهرطقية التي حكم عليها آباء الكنيسة. ومع أنها لا تعتبر هرطقة بالمعنى المفهوم للكلمة كما هو الحال في الماركيونية والغنوسية، إلا أنها كانت تحديًا خطيرًا للكهنوت الكنسي مما سبب انقسامًا في الكنائس الشرقية.

أصل المونتانية:

ترجع حركة المونتانية إلى شخص اسمه مونتانس (Montanus) أعلن عند معموديته أنه قد نال تدبيرًا خاصًا (Dispensation) من الروح القدس وتنبأ عن رجوع المسيح إلى الأرض. ولقد رحب كثيرون بكل قوة بهذا الإعلان لأن الانتظار كان قد ضعف منذ نهاية القرن الأول الميلادي. ولقد ساعد على ذلك الأمر الإحساس العام بعدم الرضى عن الكنيسة التي فقدت روح النبوة والملء الروحي الذي كان يميزها في الابتداء، كما كان هناك اعتقاد عام بأن نهاية العالم قد قربت.

ولقد كانت فريجية في الأيام السالفة مركزًا لعبادة الإلهة اليونانية سيبيل (Cybele) التي تميزت عبادتها بالأحاسيس المتطرفة المتشنجة والرقصات المتوحشة وخصى الذات والاستحمام في دماء الثور الذي يُقدم ذبيحة لها. ولكن لما جاءت المسيحية فقدت العقائد الوثنية سلطتها على الناس الذين تحولوا إلى المسيحية لكنهم حملوا معهم «حماستهم»[1]. ولقد تميزت المسيحية في أسيا باهتمامها القوي بمواهب الروح القدس والنبوة وعقيدة الحكم الألفي للمسيح. ولربما كان ذلك لأنها انقطعت بعض الشيء عن المسيحية العالمية، وبقيت تحت تأثير التفكير الرؤي اليهودي.

ولقد كان إنجيل يوحنا هو المفضل لدى المونتانيين لكثرة إشاراته إلى البارقليط (الروح القدس) وكذلك كان سفر الرؤيا نسبة لكثرة ما جاد به من أجزاء نبوية وخصوصًا تلك التي تقارن روما (كرسي الشيطان) بأورشليم الجديدة (مسكن الله).

نبوة مونتانوس:

أعلن مونتانوس سنة ١٥٦م. أن الروح القدس يتكلم إليه وحده مباشرة. وكان ينطق بعبارات مثل هذه: «هوذا الإنسان وكأنه قيثارة وأنا (الله) ألعب على أوتارها». «الإنسان ينام وأنا أستيقظ، هوذا الرب، لا ملاك .. لا رسول ... إما أنا آتي بنفسي» وقد تظهر هنا شواهد على وجود عناصر من لاهوت الملكيين التي انتشرت في ذلك الوقت ونادى بها نويتس (Noetus) وبراكسياس (Braxeas). وملخصها أن الله الآب والمسيح الابن متطابقان فهما شخصية واحدة.

وخلاصة القول أن مونتانوس اعتبر نفسه القناة الوحيدة لإعلان الله. ربما أعطى الله بعض الناس مواهب خاصة، ولكن سلطان النبوة المطلق أعطي لشخص واحد هو نفسه (مونتانوس).

بريسكا وماكسيميلا (Prisca, Maximilla) والمجيء الثاني:

انضمت إلى مونتانوس نبيتان، اسم الأولى بريسكا (أو بريسكلا) وماكسيميلا اللتان أعلنتا نهاية العالم ورجوع المسيح السريع إلى فريجيا.

(١) حماسة ترجمة لكلمة (Enthusiasm) التي ترجع إلى الكلمة اليونانية (Entheos) ومعناها «ملهم من الله».

وأن أورشليم الجديدة سوف تنزل من السماء على القرية الصغيرة بيبوزا (Pepuza). وذكرت بريسكلا قصة الرؤيا التي جاءت إليها. فقالت: «في هيئة امرأة جاء إلى المسيح في لباس بهي. وغرس الحكمة فيّ. وأعلن لي أن هذا المكان مقدس. وأن ها هنا سوف تنزل أورشليم الجديدة من السماء» (اقتبسها أبيفانيوس).

(Panation 49. Epiphanius)

ولكي يستعد المسيحيون لهذا الجيء الثاني أمرتهم النبيتان بالكف عن الزواج. وأن يزيدوا من أوقات الصيام ويمتنعوا عن شرب الخمر والأطعمة الشهية. واجتمع جمع غفير منهم في فريجيا انتظارًا لرجوع الرب. حتى أنه قيل إن أسقفًا من سوريا قاد كل أعضاء كنيسته ليقابلوا المسيح في الصحراء. ولكنهم ضلوا طريقهم وكانوا على شفا الموت جوعًا لولا أنقذتهم السلطات. ومن الغريب حقًا أن المونتانية ظلت باقية لم تمت كما كان متوقعًا عندما لم تأت نهاية العالم التي تنبأت بها. بل على العكس من ذلك. فقد ازدهرت وانتشرت حتى بعد موت منتانوس والنبيتين. وفي سنة ٢٠٠ م. امتدت المونتانية إلى الغرب حيث قوبلت بترحاب في أوساط كنائس كثيرة. واحترم الناس أتباعها لما تحلّوا به من حياة الزهد والتقشف والاستعداد لمواجهة الاستشهاد بكل شجاعة.

والدليل على ذلك أن ترتليان القرطاجني أحد الأباء اللاتين انضم إلى المونتانية فحذا حذوه الكثيرون. وهكذا عاشت المونتانية كحركة نبوية حتى بعد أن برهنت الأيام كذب نبواتها مثلها في ذلك مثل حركات نبوية كثيرة مع أن ذلك ضد منطق الأمور.

الكنيسة المونتانية:

ولقد تنظمت الكنيسة المونتانية ككل الكنائس المعاصرة الأخرى فكان لها أساقفتها وشيوخها وشمامستها. ولقد خطت خطوة جريئة لم تقبلها الكنيسة العامة فرسمت بعض النساء للوظائف الكنسية لما كان لهن من مواهب. ولكن كان أكثر ما ركزت عليه الكنيسة الأولى في حياتها الروحية. هو القوة الخاصة التي للقادة الأنبياء. ولقد حفظ المجتمع المونتاني نبوات هؤلاء القادة. ومع ذلك فلسوء الحظ لا يزال المصدر الوحيد لمعرفتنا بهم هو كتابات أولئك الذين كتبوا ضدهم.

المعارضة المونتانية:

ارتبك قادة الكنيسة ولم يعرفوا كيف يوقفون انتشار المونتانية. فلم يستطيعوا أن يسمُّوها بالهرطقة لأنها لم تعلّم تعاليم منحرفة مثل الدوسيتية. بل على العكس فإنها أحيت الكثير من عناصر الإيمان المسيحي التي اعترفوا بأنهم أهملوها. زد على ذلك أن المونتانية كانت تمثل تهديدًا خطيرًا بالنسبة لسلطان الأساقفة فقد رفعت صوت النبوة في وجه السلطان الكهنوتي. وادعت لنفسها الحق في أن تتكلم عن الله بفم واحد أو اثنين من الشخصيات التي امتلأت بالروح. بينما كانت الكنيسة في كل تاريخها تصل إلى قراراتها وسياستها بواسطة الاجماع الانتخابي والمجتمع الكنسي. ولهذا فلم يكن في يد السلطات أي سلاح لمحاربتها سوى التشكيك في النبوات التي قالها أبناؤها والتشكيك في أخلاقهم. فأطلقوا الإشاعات الكاذبة عنهم. واجتمع الأساقفة

الأسيويون سنة ١٦٠م. في سنودسات متعددة وحرموا مونتانوس وكل أتباعه. ثم اضطهدوهم بعد أن سموهم «الكنيسة الفريجية» ثم طردوهم من المدن فانتشرت المونتانية في القرى والريف حيث استمرت إلى القرن الخامس.

٦- الرؤى

من المستحسن أن نشير في هذا المقام أن كتابات رؤوية كثيرة يهودية ومسيحية ظهرت فيما بين ٢٠٠ ق.م. إلى ١٥٠ م. هذه الكتابات كانت تركز على النبوات التي تتعلق بنهاية الأيام وعلامات مجيئها وتتميز بامتلائها بالرموز والأعداد والكتابات السرية. وهناك كتابات رؤوية في الكتب المقدسة وهي إشعياء ٢٤ ـ ٢٧، حزقيال ٣٨ و٣٩، دانيال ٧ ـ ١٢، يوئيل ٣ : ٩ ـ ١٢، زكريا ٩ ـ ١٤، متى ٢٤، مرقس ١٣ ثم رؤيا يوحنا اللاهوتي. وتوجد كتابات رؤوية لا تعتبر من الكتب المقدسة وهذه قائمة بأهم هذه الكتابات:

اليهودية:

أخنوخ الأول والثاني. كتاب اليوبيل. دعوات موسى. رؤى باروخ. حروب أبناء النور ضد أبناء الظلام.

المسيحية:

رؤى نُسبت إلى الرسل: بطرس، بولس، استفانوس، توما، ويوحنا. عدة رؤى نُسبت إلى العذراء مريم. ثم راعي هرمس.

Recommended English Readings

Carrington, Philip- **The Early Christian Church,** ***Vol II,*** pp. 139 – 145.

Danielou, J. & Marrou. H. - ***The Christian Centuries, Vol. I,*** **The First Six Hundred Years,** pp. 100 – 103.

Foster, John – **The First Advance – Church History I,** pp. 61 – 64.

Frend, W.H.C. – **The Early Church,** pp. 88 – 82.

McGiffert, A. C. – **A History of Christian Thought,** ***Vol I,*** pp. 166 – 174.

Lietzmann, Hans – **A History of the Early Church.** ***Vol. II,*** pp. 192 – 203.

Latourette. K.S. – **A History of Christianity,** pp. 128, 129.

Walker, Williston **A History of the Christian** Church, pp.55,56.

الفصل الثالث
الاضطهاد في القرن الثاني



تحدي المسيحيين للعالم الوثني:

مع أن المسيحية لم تقبلها الإمبراطورية الرومانية وتحترمها كديانة، لكن المسيحيين كسبوا احترام الناس بسلوكهم في حياتهم اليومية، ولسمو مستواهم الأخلاقي، ولاهتمامهم بعضهم بالبعض ومساعدتهم بعضهم البعض في وقت الحاجة، والمساواة بين الفقراء والأغنياء والعبيد والأرامل واليتامى، فلم يكن هناك تمييز اجتماعي بينهم. هذه الصفات جذبت الأنظار إليهم، حتى في وقت الاضطهادات لاحظ كل الناس شجاعتهم العجيبة في تحمل العذابات المروعة، فبدلًا من القدرية المفجعة التي تتملك الديانات الوثنية، أظهر المسيحيون الرجاء الكامل في مواجهة الموت، وكان المسيحيون أقوياء... في نفس الوقت الذي ظهر فيه ضعف الوثنية، وبدلًا من القدرية والتسليم الخانع، كانت لهم العقيدة الشجاعة والمحرِّرة، بشارة تستحق الموت لأجلها.

(Wh. C. Frend, Martyrdom and Persecution in the Early Church page 193).

وقد وصف أحد الكتاب المسيحيين (أرستيدس Aristides) تأثير حياة المسيحيين في العالم الوثني فقال: «كان المسيحيون يحفظون وصايا المسيح التي كُتبت على قلوبهم، ناظرين إلى حياة الدهر الآتي... حاولوا أن يردوا على شر أعدائهم بالخير... وكانت زوجاتهم تقيّات، وبناتهم محتشمات أما عبيدهم فقد دعوهم لقبول المسيح، ودعوهم إخوة لهم دون أي تمييز. لم يوجد فيهم كذب وخداع وكانوا يحبون بعضهم البعض. كان المسيحي الذي له، يعطي من ليس له بسخاء... ولأنهم كانوا يعترفون بصلاح الله من أجلهم... فمنهم ينبثق كل جمال في العالم [1].

كانت الطريقة التي واجه بها المسيحيون العالم تمتلئ بشموخ التحدي رغم كل الأخطار التي واجهتهم. وكما قال ترتليان: «دماء المسيحيين هي

(١) اقتبسها John Foster: في Church History ج. ١ ص. ٤٩.

(٢) اقتبسها Foster في الكتاب السابق ص ٥٠.

البذار. فكلما زاد اضطهادكم لنا، كلما زدنا عددًا. ولقد علّم كُتّابكم الناس أن يواجهوا الألم والموت بشجاعة. ومع ذلك فلم يستطيعوا أن يكسبوا لهم تلاميذ وأتباع كما يحدث مع المسيحيين. فالتعليم لا يكون بالكلام بل بالعمل والمثال»[2].

هجوم الفلاسفة على المسيحية:

أما المثقفون والعلماء في ذلك العصر فكانوا ينظرون إلى المسيحية بعين الشك والريبة. وكانوا كثيرًا ما يخلطون بينها وبين اليهودية. واتهموا المسيحيين بالإلحاد لأنهم لم يؤمنوا بآلهة اليونان. واعتبروهم عبيدًا للخرافات والتعصب. ومن ثم تهديدًا للنظام القائم.

سيلسوس (Celsus) ١٧٨م.:

وهو من أقسى نقاد المسيحية. وكان فيلسوفًا قام بدراسة جادة للمسيحية واليهودية. وقد هاله أن الكنيسة رغم ما تتمسك به من عقائد سخيفة. تنمو وتزداد. وكان أكثر ما يغيظه فيها فكرة «الشعب المختار» التي جعلت منهم. بحسب تفكيره. جماعة من المواطنين غير الصالحين الذين يهددون سلام الإمبراطورية كلها. أو ليس من السخف. كما يقول هو. أن يخلق الله البشر على صورته؟ «فالله ليس كذلك. ولا يمكن أن ينزل إلى الأرض ليأخذ صورة المسيح». ويكتب سيلسوس في كتابه (ألثوس لوجوس Alethos Logos) بكل احتقار عن المسيحيين واليهود على السواء. قائلًا: «لأن جنس اليهود والمسيحيين يجتمعون مثل الخفافيش أو النمل الخارج من أعشاشه أو مثل الضفادع التي تجتمع حول المستنقع. أو مثل الديدان التي تتكوم في ركن قذر. يتبارون معًا على من منهم أشر الخطاة. أنهم يدعون أن الله يعلن لهم كل شيء قبل حدوثه. بل وصل به الأمر إلى حد أنه هجر العالمين. وحركة السماوات. وأغمض عينيه عن كل الأرض. لينتبه لهم فقط. ويرسل رسلًا لهم وحدهم بدون أي توقف لأنه يريدهم أن يكونوا معه دائمًا»

أسباب تجدد الاضطهاد:

وهكذا كان الفلاسفة ينتقدون المسيحية. وظلت الريبة تحيط بهم في الرأي العام منذ السنوات الأولى. أما الحكومة فقد اتخذت بعض الخطوات تجاههم لتشجيع تجدد الاضطهادات. وقد حدث ذلك إبان حكم الإمبراطور مرقس أوريليوس (Marcus Aurelius ١٢١ – ١٨٠) الذي اعتنق الفلسفة الرواقية. وكان يبني حياته على العقل والمنطق. وأقلقه أن يسمع عن اليهودية والمسيحية أنهما ديانتان ملوثتان بالخرافات ولذلك كرههما. وأصدر أمرًا أن كل جماعة بما فيهم المسيحيون يشجعون البدع والاضطرابات يجب أن يُضيّق عليهم الخناق ويوقف نشاطهم. ومع أن هذا الأمر لم يكن يعني بدء الاضطهاد. ولكن الذين كرهوا المسيحيين اعتبروه إشارة من أعلى سلطة في الإمبراطورية. تسمح لهم بتصيد المسيحيين وقتلهم. أما العامل الثاني فكان الوباء المروع الذي انتشر في شرق البحر الأبيض المتوسط. والذي اعتبره بعض المسيحيين علامة على نهاية العالم. هذا الموقف المسيحي من الوباء حوّل شك الناس فيهم إلى كراهية شديدة لهم ورغبة شديدة في الانتقام منهم. فانفجر الاضطهاد فجأة في بعض المناطق لعل أهمها وأكثرها تحققًا. ذلك الذي حدث في سميرنا في

أسيا الصغرى سنة ١٥٥ م. وسنة ١٥٦. والثاني في ليون بفرنسا سنة ١٧٧ م.

استشهاد بوليكاربوس (Polycarp):

كان بوليكاربوس أسقف سميرنا واحدًا من أعظم قديسي كنيسة القرن الثاني الميلادي. وكان يُعرف باسم «بوليكاربوس المبارك» لأنه كان يمثِّل حلقة الوصل مع العصر الرسولي. فقد عرف الرسول يوحنا.

أما الوثنيون فكانوا يطلقون عليه لقب «معلم آسيا. أب المسيحيين. محطم الآلهة. لأنه يعلِّم الناس ألا يذبحوا لها أو يعبدوها. ولهذا فلم يكن مستغربًا أن يبدأ الاضطهاد في سميرنا بهذه الشخصية العظيمة الوقورة. وقد دوَّن قصة استشهاده شخص اسمه مارسيانوس (Marcianus) وتعتبر هذه القصة إحدى السجلات القليلة الكاملة التي وصلتنا من ذلك التاريخ المبكر عن مثل هذه الحوادث.

التطرف في الاستشهاد:

من الملاحظ أن مارسيانوس هذا. وهو يكتب قصة استشهاد بوليكاربوس. كان يقارن موقفه مع موقف كثيرين من شهداء ذلك العصر.

فبعضهم كان يعمل جاهدًا على نوال الاستشهاد. أما بوليكاربوس فقد انتظر في هدوء حتى اكتشفته السلطات وقتلته. ولم يحبذ مارسيانوس الروح التي كانت تمتلك هؤلاء المتطرفين. فمثلًا اختارت السلطات ١٢ مسيحيًا لتقدمهم ذبيحة في يوم عيد وثني في سميرنا. فلم يكد يسمع بعضهم ذلك حتى سلَّموا أنفسهم بسرعة فرحين أن يموتوا لأجل إيمانهم.

ويقول هذا المؤرخ أنه جميل أن يموت الشخص من أجل إيمانه. ولكن بقاء الكنيسة وثباتها في العالم هو أيضًا أمر مهم. ويجب على المسيحي أن يحافظ على حياته. إن أمكنه أن يفعل ذلك بضمير صالح. أما إذا جاء الاستشهاد فلا فرار منه.

الاضطهاد في سميرنا:

لقد جاز المسيحيون في سميرنا. إن كرهًا أو طوعًا. أقسى العذابات: فقد جُلدوا بسياط جلدية في أطرافها قطع من الرصاص المدبَّب لكي يمزق جلودهم. وقُطِّع لحمهم بآلات حديدية حادة حتى ظهرت العظام. وأُلقي ببعضهم إلى الوحوش الكاسرة. ورُبطوا في أعمدة وأُحرقوا. وعندما ازداد تعطش الجماهير إلى الدم. طلبوا بوليكاربوس الذي كان يصلي بصفة دائمة ومستمرة من أجل الذين يجوزون العذاب.

هروب بوليكاربوس والقبض عليه:

وعندما سمع بوليكاربوس بأنهم يطلبون نفسه. ترك المنزل وذهب إلى مزرعة مع جمع من أصدقائه. فلما اقتربوا منه ترك المزرعة إلى مزرعة أخرى. ولكنه حلم في الليل أن وسادته تشتعل بالنيران فأخبر أصدقائه في الصباح أنه سوف يحرق حيًا. وحالما عرف العساكر مخبأه عن طريق عبد مسيحي عذبوه حتى يبوح لهم عن مكان اختفاء القديس. ذهبوا إليه فلما رآهم دعاهم إلى الطعام والشراب واستأذنهم في أن يذهب ليصلي. ومكث ساعتين في الصلاة. وبعدها سلَّم نفسه لهم فأخذوه إلى استاد المدينة. وبينما هم يسيرون في طريقهم حاول العساكر مرافقوه أن يغروه بإنكار المسيح وتقديم الولاء والعبادة لقيصر. وكانوا يعتبرونه فخرًا لهم أن يتغلبوا على إرادة

بطل الكنيسة هذا. ولكن بوليكاربوس قال لهم: «لا يمكنني أن أفعل ما أنتم تنصحوني به».

شهادة بوليكاربوس:

وفي الاستاد أوقفوه أمام الحاكم الذي بدأ يحثه على أن يظهر بعض الاهتمام لسنّه المتقدم. وأن يحلف بعَظَمة قيصر. وأن يتوب ويقول: «سحقًا لهؤلاء الكفرة» (ويقصد بهم المسيحيين).

ولكن بوليكاربوس أبى ونظر إلى السماء وأشار بيده إلى الجموع الهادرة المتوحشة وقال: «سحقًا للكفرة».

فقال الحاكم: «أقسم وأنا أتركك. العن المسيح».

فأجاب بوليكاربوس بعبارته الشهيرة: «ستة وثمانين سنة خدمته فلم يفعل لي شيئًا رديئًا. فكيف أجدف على ملكي الذي افتداني؟)

أخيرًا قال الحاكم: «احلف بعظمة القيصر» :

فقال بوليكاربوس: «إذا كنتم أغبياء وتظنون أني أقسم بعظمة القيصر. وتتظاهرون بأنكم لا تعرفون من أنا. فاسمعوها بوضوح. أنا مسيحي. وإذا كنتم تريدون أن تعرفوا العقيدة المسيحية. فاختاروا يومًا أسمعكم فيه ذلك».

فقال الحاكم: «حاول أن تحث الناس على ذلك».

قال بوليكاربوس: «إنني أعتبر أني مدين لك بهذا الشرح. لأننا تعلمنا أن نكرم القوات والسلاطين التي أقامها الله. ولكني لا أرى سببًا لأجله أدافع عن مسيحيتي أو أشرحها لهم».

- فقال الحاكم: «لدي وحوش كاسرة سألقي بك إليها إذا لم تغير رأيك».

- «نادي على هذه الوحوش. لأن تغيير الفكر من الحسن إلى الرديء عمل لا نستطيعه. ولكن التغيير من الشر إلى الصلاح عمل عظيم».

ولكن الحاكم قال له: «سألقي بك إلى النار لتأكلك. إن كنت تحتقر الوحوش. وإذا بقيت على عنادك».

فأجابه بوليكاربوس: «أنت تهدد بالنار التي تحرق الجسد بسرعة ثم تخمد. لأنك لا تعرف النار التي تنتظر الأشرار في يوم الدينونة كعقاب أبدي لهم. ولماذا تنتظر؟ أفعل ما بدا لك».

فلما رأى الحاكم أن بوليكاربوس أقوى من كل المغريات أرسل مناديًا للناس يعلن لهم ثلاث مرات: «بوليكاربوس اعترف بأنه مسيحي» ورد الناس على ذلك بصيحات الغضب مطالبين بموته.

آلام بوليكاربوس:

بدأت الجموع الهائجة تجمع الحطب للنيران. وكان من بينهم بعض اليهود. أما بوليكاربوس فخلع عباءته وحذاءه. فربطوه في العمود لأنه رفض أن يسمِّروه فيه وقال لهم: «إن إلهنا الذي سيعطيني القوة لأحتمل النيران. سيقويني أيضًا لأبقى ثابتًا في النيران ولن أتحرك حتى بدون المسامير». واتقدت النيران وتصاعد لهيبها في شكل شراع ضخم كأنها لا تريد أن تمسه. وكان هو في وسطها كالفضة أو الذهب للتحميص أو كالخبز الذي يوضع في الفرن. وانتشرت رائحة عطرة كالبخور. ولما رأوا جسده يقاوم النار دون أن يحترق أرسلوا جنديًا ليقتله بخنجر. فلما طعنه في قلبه خرج دم غزير أطفأ النيران. وقد منعوا المسيحيين من أن يأخذوا الجسد الذي أحرق. ولكنهم تمكنوا من أن يحصلوا

على بعض العظام وحفظوها كوديعة ثمينة»[٣].

شهداء غالة:

ما أن مرت عشرون سنة على الاضطهاد سالف الذكر حتى انفجر اضطهاد آخر (سنة ١٧٧ أو ١٧٨ م.). ولكن ذلك كان في مدينتيّ ليون وفينا على ضفاف نهر الرون في جنوب فرنسا. كان ذلك في موسم أحد الأعياد، وعندما قدم شخص روماني كبير إلى تلك المنطقة، هب الجمهور دون أي رادع يتصيدون المسيحيين ليقدموهم محرقات في الحلبة. وكان الإجراء العادي هو أن يأخذوا الضحية ليقف أمام الحاكم ليسألوه: «هل أنت مسيحي؟» فإذا أجاب بالإيجاب، ألقوه في السجن في انتظار يوم القتل. وكانوا يعذبونهم لينكروا مسيحيتهم، أو ليعترفوا على إخوانهم من المسيحيين. ومرة استخدموا الأسياخ المحماة في النار ليكووا أجسادهم، ويذكر التاريخ أحد المسيحيين الذي كان يهتف باستمرار «أنا مسيحي»، بينما كان جسده يُكوى بالنيران وقد قال شهود العيان إن هذا الرجل «قد قبل ندى التحمل والقوة من الينبوع السماوي للماء الحي الذي ينبع من جنب المسيح». ثم أطلقوه لفترة بسيطة ثم أرجعوه مرة أخرى لتكرار هذا العذاب، ولكنهم وجدوا أن جسده قد شُفي بطريقة إعجازية ورجع إلى حالته الطبيعية.

الفتاتان الخادمتان:

وكان من ضمن الذين جازوا هذا الاضطهاد المر فتاتان خادمتان، اسم إحداهما «بلاندينا» (Blandina) واسم الأخرى «ببلياس» (Biblias) ولم يكن أحد يصدق أن جسديهما يمكن أن يتحمل العذاب.

تعرضت بلاندينا للعذاب من الصباح إلى المساء حتى صار جسدها كله جرحًا واحدًا ينزف دمًا، ولكنها استمرت ثابتة تشهد وتقول: «أنا مسيحية، وبيننا لا يوجد شر ما». وكما تحملت ببلياس نفس العذاب ولم تستسلم.

الأسقف بوثينوس (Pothinus):

تجمع عدد من الشهداء في أحد السجون الضيقة المنعدمة التهوية، ولكن أكثرهم اختنق ومات، وكان بينهم أسقف شيخ يبلغ التسعين من عمره اسمه بوثينوس، من أسيا الصغرى وكان تلميذًا لبوليكاربوس.

هذا الأسقف أجاب على سؤال الحاكم: «من إله المسيحيين» بقوله: لو كنت تستحق لعرفت هذا الإله. وما أن نطق بذلك حتى جرُّوه على الأرض وركلوه وضربوه ثم رجموه. فلما أشرف على الموت ألقوا به في السجن حيث بقى حيًا لمدة يومين ثم أسلم الروح.

تكميل الشهداء:

ولقد لاحظ الجميع أن هناك فرقًا شاسعًا بين أولئك الشجعان الذين اعترفوا بمسيحيتهم، وبين أولئك الذين ضعفوا وأنكروها. فالجماعة الأولى ملأهم فرح الشهادة ورجاء الموعد الأبدي، أما الآخرون فامتلأوا خجلاً وحزنًا. «الجماعة الأولى كان فرحهم باديًا على وجوههم، حملوا قيودهم بفرحة كما تحمل العروس زينتها، وكانت تفوح منهم رائحة المسيح الزكية». ومع ذلك فقد كانوا

(٣) أهم مصدر لقصة استشهاد بوليكاربوس هو كتاب يوسابيوس (Historia Ecclessiastica) جزء ٤ فصل ١٥: ١٨- ٢٤.

متواضعين ولم يستحسنوا أن يُطلق عليهم لقب «الشهداء». كانوا لطفاء من نحو الذين ضعفوا وأنكروا المسيح، وحثوا بعضهم على أن يتشجعوا ويعترفوا بمسيحهم. وكما صلَّى استفانوس، فعلوا هم أيضًا كذلك من أجل مضطهديهم. وهكذا كانوا ينمون في قوتهم الروحية مكملين حياتهم المسيحية في الضيق، وأضحوا مؤهلين بشكل فريد أن يكونوا ممثلين للكنيسة أمام العالم الذي كان يحمل لهم الضغينة والحقد.

الاضطهاد يستمر:

أرسل الشهداء إلى الحلبة التي امتلأت بالجماهير التي كانت تصرخ طالبة دماءهم. وكان يسوقهم إليها أناس ممسكين بسياط قاسية، وحالاً هجمت عليهم وحوش مفترسة جائعة، وآخرون أجلسوهم على كراسي ملتهبة بالنار لدرجة الإحمرار. أما الفتاة بلاندينا، وكانت لا تزال حيَّة، فربطوها إلى عمود وسلَّطوا عليها الوحوش فلم تقترب إليها، فحلوها لكي يحضروها في اليوم التالي. وفي اليوم الأخير أجلسوا رجلاً على الكرسي الملتهب وكان جسمه يدخن ورائحة لحمه المشوي تفوح، ولكنه نظر حوله وقال: «انظروا ماذا تفعلون الآن إنكم تشوون الرجال، أما نحن فلسنا أكلة بشر ولا نصنع شرًا». أما بلاندينا وكانت آخر مسيحي يحضرونه للاستشهاد، فعذبوها بكل أنواع التعذيب، ولكنها كانت تهتم بمن كانوا يموتون حولها، وأخيرًا بعد أن عذبوها بالسياط، وبعد أن مزقت أعضاءها الوحوش، وبعد أن وضعوها في الكرسي المحمَّي، لفوها في شبكة وألقوا بها إلى ثور فأخذوها وطوح بها في الهواء عدة مرات إلى أن فقدت الوعي وماتت. وهكذا صارت بلاندينا القديسة العظيمة عند الفرنسيين[٤].

شهيد مصري:

بنى الإمبراطور جاستنيان كاتدرائية القسطنطينية العظمى في القرن السادس الميلادي وسماها «أيا صوفيا» باسم القديسة المصرية التي جاءت من ممفيس، وهناك دفنت. استشهدت في أثناء حكم الإمبراطور هادريان (١١٧ – ١٣٨). وقد نقل الإمبراطور قسطنطين جسدها إلى القسطنطينية (انظر عزيز عطية سوريال: تاريخ المسيحية الشرقية ص. ٣١ و٣٢).

انتصار الشهداء:

كانت المقابلة بين المسيحيين ومضطهديهم واضحة للجميع. فقد تحولت مدينة عظيمة (الرومانية) إلى نوع من الوحشية والقسوة بواسطة شيطان لا يرضيه إلا الدماء المسفوكة. وفي مواجهتهم وقف المسيحيون في عبادتهم الجديدة وتواضعهم وشجاعتهم الباسلة ومحبتهم – يقويهم الروح القدس، ليتحدوا ذلك الشيطان المتوحش الذي كان يحطم مجد روما واليونان. ولكن الروح القدس هو الذي ضمن لهؤلاء الشهداء النصرة إلى النهاية.

---

(٤) مصدر هذا الجزء «الرسالة إلى كنائس غالية» المسجلة في كتاب يوسابيوس السابق ٥: ١.

Recommended English Readings

Carrington, Philip _ ***The Early Christian Church, Vol. II,*** pp. 122 – 138 ; 239 – 253.

Frend, W.H.C. – ***Martyrdom and Persecution in the Early Church,*** pp. 197 – 222.

Foster, John – ***The First Advance – Church History, Vol. I,*** pp. 49 – 51 ; 66 – 77.

الفصل الرابع

إيريـنايوس (Irenaeus)



يعتبر إيرينايوس أعظم من ظهر من آباء الكنيسة الأوائل وكان له تأثيره الضخم في تشكيل الفكر الكنسي لسنين طويلة نظرًا لمقدرته الفذة في الربط بين عناصر الفكر المسيحي مختلفة، ووضعها في مفاهيم موحدة.

فقد حارب ضد الهراطقة، وعمل جاهدًا على توضيح المعنى الحقيقي للكنيسة، وبذلك وضع الأساس الكامل للكاثوليكية التاريخية، وساعد على تثبيت الكتب القانونية للعهد الجديد وفسر الكتاب المقدس ليلقي ضوءًا غزيرًا على معنى عقيدة الخلاص.

حياة إيرينايوس وعمله:

ولد إيرينايوس في أوائل القرن الثاني الميلادي في أسيا الصغرى، تربى في سميرنا حيث تعرف على بوليكاربوس، ثم ذهب إلى روما وقضى وقتًا بها، وأخيرًا اختير شيخًا في ليون بعد استشهاد بوثينوس ثم مات حوالي سنة ٢٠٠ م. أما عن كتاباته فلا يوجد لدينا منها سوى عملين: الأول «ضد الهرطقات (Against Heresies) وهو في ٥ أجزاء (وقد كُتب أصلاً في اليونانية، ولكن لم يبق منه سوى ترجمة لاتينية له).

والثاني «إعلان التعليم الرسولي» (The demonstration of Apostolic Teaching) (لم يبق منه سوى ترجمة أرمينية).

لم يكن إيرينايوس لاهوتيًا بقدر ما كان مفسرًا للكتب المقدسة، ولم يكن لديه طموح بأن يصير فيلسوفًا عظيمًا، ولكن كما قال هو: «إنه يفضل أن يكون بسيطًا غير متعلم ولكن قريبًا إلى الله في المحبة، من أن يكون منتفخًا بالمعرفة» (ضد الهرطقات جزء ٢، ٢٦: ١). ومع ذلك فقد استطاع أن يحلل ويكشف الروابط الأساسية في الفكر المسيحي، وهذا أعظم ما قدمه للمسيحية.

إيرينايوس والكتاب المقدس:

في ذلك العصر كان ماركيون الهرطوقي ينشر أفكاره بخصوص الكتب المقدسة، ما يجب أن يكون قانونًا وما يجب أن ينبذ، فتصدى له إيرينايوس بكل قوة وبرهن على الحاجة الملحة لكل الأناجيل الأربعة مؤكدًا وحدة اليهودية والمسيحية، فالله الذي خلق العالم وأعلن نفسه لليهود هو نفسه إله المسيحيين، فإعلانه مستمر ويسوع المسيح هو ابنه، والرسل لم يعلنوا عن إله مغاير، والكتب المقدسة التي يحتفظ بها اليهود هي نفسها

التي يبني عليها المسيحيون إيمانهم. وهكذا كان إيرينايوس الصوت القوي المؤثر الذي دافع عن وحدة واستمرارية العهدين القديم والجديد.

سلطة الكنيسة ووحدتها:

كان إيرينايوس كذلك واحدًا من أقوى المدافعين عن الخلافة الرسولية.

وكانت حجته هي أن الأفراد والمدارس الفكرية (ويعني بها: الماركيونية، الغنوسية، المونتانية وغيرها) ليس لهم سوى خيالهم الجامح يعتمدون عليه، بينما يعتمد الأساقفة على سلطة الأساقفة في المراكز العظمى للكنيسة وهؤلاء بدورهم يستمدون سلطانهم من الرسل مباشرة. فسميرنا مثلاً يرجع سلطان أسقفها إلى يوحنا الرسول عن طريق بوليكاربوس. أما أفسس فسلطانها يرجع إلى الرسول بولس، وروما إلى الرسولين بطرس وبولس، والإسكندرية إلى مرقس. وهكذا يصبح للمراكز المسيحية العظمى سلطانها الذي أخذته من الرسل الذين ارتبطوا بها. ثم يذكر إيرينايوس قائمة كاملة بأسماء أساقفة روما مبينًا أن السلطان الذي جاء من المسيح عن طريق بطرس قد اتصل دون أي نوع من الانقطاع. هكذا أقر أن لدى الأساقفة نفس السلطة التي لدى الرسل، وبهذه الكيفية أسست الهيئة الكنسية في وحدتها وكمالها في كل العالم المسيحي.

ناموس المسيح:

ولقد وصف إيرينايوس الناموس الطبيعي في قلب الإنسان، وكذلك الوصايا العشر بأنهما مؤديان يقودان الناس إلى المسيح حيث يتعلمون الطاعة الكاملة. وهكذا عندما يصل الإنسان إلى ناموس المسيح فإنه يكون قد تخطى حدود الحاجة إلى تلك القوانين الطبيعية الداخلية. وتبدو طاعة المسيح الكاملة في أمجد إعلان لها في حياة الكنيسة التي هي جماعة المفديين الأمناء.

هذا ولم يشدد إيرينايوس كثيرًا على التمييز الذي اشتهر به الرسول بولس بين الإيمان والأعمال.

الفرائض:

واهتم إيرينايوس أيضًا بفريضتّي الكنيسة: المعمودية وعشاء الرب كواسطتين لحياة الاتحاد السري مع الله: «فأجسادنا عندما تتغذى بسر الشكر لا يمكن أن تكون فانية، ولكن يصبح لها الرجاء في القيامة للحياة الأبدية». وبهذا ربط في تفكيره الاتجاه الأخلاقي العملي للبر مع الاختيار السري للفرائض بحيث يتحقق هذا الاندماج بصفة فريدة في الكنيسة.

ومن ذلك الوقت (بعد إيرينايوس) أصبح معروفًا أن الاشتراك في الفرائض مع الطاعة التي تربط الإيمان الصحيح بالسلوك الكامل، أمر ضروري للخلاص. فلابد أن ترتبط النعمة الإلهية بالجهود البشري»[1]. وعلى هذه المبادئ بنى المفهوم الأساسي لسلطان ووحدة الكنيسة العامة.

فكر إيرينايوس اللاهوتي عن اللوغوس (الكلمة):

أما عن مجئ المسيح فقد كان إيرينايوس واحدًا من لاهوتيي عصره في تفسيره ذلك بما سمي: «التفكير اللاهوتي عن الكلمة». فكلمة الله

(١) أ. س. ماكجفرت (McGiffert) تاريخ الفكر المسيحي جزء ١ ص. ١٤٧- ١٤٨.

تجسد في يسوع المسيح ابن الله، أي فكر الله.

فعند إيريناوس، الكلمة والله مترادفان تمامًا، فالكلمة هو الله نفسه. وإذا كان هناك تمييز بينهما، فيكمن في العلاقة بينهما، ولكن ليس في الجوهر، فالآب هو الابن غير المنظور، والابن هو الآب منظورًا» (ضد الهرطقات جزء ٤ فصل ٦:٦).

قد تظهر بعض الشواهد التي تكشف عن أن إيريناوس قد وقع تحت تأثير عقيدة الموناركية (Monarchianism)[٢] التي كانت المشكلة العويصة في التفكير اللاهوتي في ذلك العصر، لأن بعض المفكرين تطرفوا في التطابق بين الآب والابن لدرجة أن التمييز بينهما قد اختفى.

فكر إيريناوس اللاهوتي عن الخلاص:

ولكن عندما أراد إيريناوس أن يصوغ عقيدته عن الخلاص فإنه اتجه إلى الرسول بولس وخصوصًا في مفهومه للمسيح كالإنسان الجديد أو آدم الأخير (١ كو ١٥: ٤٥ - ٤٧).

ويقول إيريناوس إن العمل الأساسي للمسيح هو التجسد الذي فيه سار في المنحدر الذي هبط إليه آدم في سقوطه، ثم حوله إلى عمل فدائي مجيد «فما فقدناه في آدم، أي أن نكون على صورة الله وشبهه، قد كسبناه في يسوع المسيح» (ضد الهرطقات جزء ٣ فصل ١٨: ١). «نحن نتبع المعلم الصالح الكامل الوحيد، كلمة الله، ربنا يسوع المسيح الذي لفرط محبته لنا أخذ مكاننا لكي يرفعنا إلى مستواه» (ضد الهرطقات جزء ٤ فصل ١٨:٥).

ففي تجسده ربط طبيعة الله بطبيعة الانسان وبذلك مجَّد هذه الطبيعة الأخيرة، فأصبح الناس آلهة بالمعنى الحرفي، اذ أن الخلاص في مفهوم إيريناوس يحوّل الطبيعة البشرية إلى طبيعة إلهية. «فنحن لم نُخلق آلهة منذ البدء، ولكننا خُلقنا بشرًا، ثم صرنا (بالمسيح يسوع) آلهة» (ضد الهرطقات جزء ٤ فصل ٣٨: ٤).

وقد طبق إيريناوس هذا المبدأ على العذراء مريم فقال عنها إنها سارت في خطوات حياة حواء كما فعل ابنها بالنسبة لآدم، «وانحلت عقدة عصيان حواء بطاعة العذراء» ولذلك أصبحت العذراء تُعرف في الكنائس الشرقية «كحواء الثانية» نتيجة لطاعتها الكاملة.

إيريناوس المنسق:

اذا أراد دارس أن يلخص دور إيريناوس في تاريخ الفكر المسيحي فلا يمكن أن تكون هناك كلمة مثل كلمة «المنسق» لتؤدي ذلك بكل دقة.

نعم إنه لم يكن مفكرًا أصيلاً له رأيه الأساسي، ولكنه استطاع أن يوحد وينسق عناصر التفكير المسيحي في خطوط واضحة ومفهومة في عصر ساده الارتباك والتذبذب. فقد أظهر وحدة الكتب المقدسة، وحدة التعليم المسيحي اليهودي، وحدة الكنيسة في فرائضها وسلوكها الصالح والخلافة الرسولية، والوحدة اللاهوتية للآب والابن، ثم الوحدة النهائية للإنسان مع الله بواسطة تجسد المسيح. وكما قال هو نفسه: «ومع أن الكنيسة تنتشر في كل

---

(٢) الموناركية التى سنتكلم عنها في الجزء الثاني من هذه الدراسة، كانت الفكرة المسيطرة في اللاهوت على مدى القرنين الثاني والثالث الميلاديين، قبل أن يكتمل الفكر اللاهوتي عن التثليث. هذه الفكرة تتلخص في تبعية الابن والروح القدس للآب.

مكان في العالم. فإنها تحمي هذا الايمان، وكأنها تعيش في منزل واحد. وتؤمن إيمان عقل واحد، وتعلّم وتعظ وتسلّم هذه الأمور كأن لها فمًا واحدًا. ومع أن لغات العالم مختلفة ولكن قوة التعليم هي هي بذاتها لا تتغير... فالكنيسة التي غُرست في ألمانيا لم تؤمن أو تعلّم تعليمًا يختلف عن تلك التي نمت في أسبانيا أو غالة أو الشرق أو مصر أو ليبيا أو في الأقاليم الوسطى من العالم. فالايمان هو واحد لا يتغير» (ضد الهرطقات ١: ١٠).

Recommended English Readings

Carrington, Philip _ *The Early Christian Church, Vol. II,* pp. 307 – 328.

Danielou, J. and Marrou. H., *The First Six Hundred Years, The Christian Centuries, Vol. I,* pp. 110 – 113.

Frend, W.H.C. - *The Early Church,* pp. 77 – 80.

Latourette, K. S. - *A History of Christianity,* pp. 131 – 133.

Leitzmann, Hans - *A History of the Early Church, Vol. II,* pp. 204 – 215.

McGiffert, A. C. - *A History of Christian Thought, Vol. I,* pp. 132 – 148.

Walker, Williston - *A History of the Christian Church,* pp. 62 – 64.

الفصل الخامس
الربع الأخير من القرن الثاني
امتداد الكنيسة في الإمبراطورية



١- تحسن أحوال المسيحيين

استمرار المسيحيون أقلية صغيرة في وسط الإمبراطورية المترامية الأطراف إلى قرب نهاية القرن الثاني الميلادي، وكان المثقفون ينظرون إليهم باحتقار. أما عامة الشعب فكانوا يرتابون فيهم ويكرهونهم.

ولم يكن الاضطهاد قد كف بتاتًا بل كان ينفجر من حين لآخر. ولهذا تقول السجلات إن عبادتهم كانت سرية ولم يجرؤوا على أن يبنوا كنائس ظاهرة للعبادة.

ومع ذلك فكانت فترة تمتع فيها المسيحيون نسبيًا بالأمان والسلام. وقد يكون السبب في ذلك هو نجاح الإمبراطورية نفسها وانتشار الرخاء والسلام في ربوعها. فقد كانت تكاليف المعيشة قليلة، وكثرت المشروعات العامة وشيدت الطرق والجسور الجديدة. ويصف إيريناؤس ذلك قائلاً: «انتشر السلام في العالم ويرجع الفضل في ذلك إلى الرومان، حتى نحن المسيحيين يمكننا أن نسير في الطرقات بدون خوف، ونسافر إلى أي مكان نقصده» (ضد الهرطقات جزء ٤: فصل ٣٠: ٣).

ويقول هيبوليتس (Hipplytus) وهو كاتب مسيحي أيضًا، أن المسيحيين قد سمح لهم بأن يشتروا قبورًا في روما ليدفنوا فيها أساقفتهم[١]. ويؤيد يوسابيوس (المؤرخ المسيحي) ذلك قائلاً: «تغيرت معاملة السلطات لنا وصارت أحسن حالاً في عهد كومودوس (Commodus – ١٧٧ – ١٩٢ م)، وعم السلام على الكنيسة في العالم كله بفضل نعمة الله» (يوسابيوس، التاريخ الكنسي ٥: ٢١).

(١) كان المسيحيون قبل ذلك يعتمدون على عطف بعض العائلات الغنية عليهم فيعطونهم قطعة أرض أو كهفًا يستخدمونه كمقبرة، ولربما تمكن المسيحيون من أن ينالوا حق ملكية مقبرة لا بالطرق القانونية، بل باعتبارهم طائفة يهودية، لأن اليهود كان لهم الحق في امتلاك مدافن خاصة بهم.

٢- حالة الكنيسة الداخلية

يقول و.هـ. س. فرند (Frend) وبحق: «كانت الكنيسة في سنة ١٨٠ م أكثر ترابطًا واتحادًا من أي وقت سابق أو لاحق» (الاستشهاد والاضطهاد في الكنيسة الأولى ص ٢٢٣).

فقد كانت لغتها واحدة وهي اليونانية حتى في الغرب. أما الفكر اللاهوتي والتقاليد فقد اصطبغت بالصبغة الهلينية حيث نمت الكنيسة وامتدت. وتمكنت الجماعات المسيحية من الاتصال بعضها ببعض رغم تبعثرها الواسع في حوض البحر الأبيض المتوسط. ويرجع الفضل في ذلك إلى السلام الذي حققه الحكم الروماني.

وبدأت تظهر شخصيات قوية قيادية في الكنيسة، وعلى الأخص في المدن الكبرى مثل فيكتور (Victor) في روما، وديمتريوس (Demetrius) في الإسكندرية، وسيرابيون (Serapion) في أنطاكية وغيرهم.

وتمكن هؤلاء القادة عن طريق المراسلات أن يوحدوا جهودهم في نشر النظام والوحدة في كل الكنيسة. وكما سنرى في الفصول التالية، كانت هذه الفترة هي التي قبلت فيها الكنيسة التحدي الضخم الذي وضعته الهرطقات الكثيرة أمامها وقامت بالأمور التالية:

١ – تقوية سلطان الأسقفيات التي تركزت فيها إدارة الكنيسة.

٢ – اتفقت على قانونية الكتب المقدسة كأساس لإيمان الكنيسة.

٣ – وضع العقائد في عبارات مقبولة لدى الجميع في كل البلدان.

٣- قضية الفصح

ومع ذلك فقد كانت للكنيسة متاعبها الكثيرة. ففي نفس هذه الحقبة التي بدأ فيها المسيحيون يحسون بالهدوء والراحة، بدأت بوادر الاختلافات والمناقشات تظهر. ويرجع ذلك إلى الاختلاف الحضاري الذي كان ينمو تدريجيًا بين الغرب والشرق. فالكنائس الغربية بدأت تترجم نصوص الصلاة والعبادة اليونانية إلى اللغة اللاتينية للاستعمال العام. أما المشاكل الكنسية واللاهوتية العميقة فلم تكن قد ظهرت بعد...

في ذلك الوقت بدأت الكنيسة تجاهد لتحديد التاريخ الحقيقي لعيد القيامة الذي كان أهم الأعياد بالنسبة للمسيحيين في العصور الأولى. فكان الاتفاق على تاريخ واحد له أهمية حيوية. ولقد كان من عادة الكنائس في أسيا أن تعيّد هذا العيد في الرابع من نيسان الشهر اليهودي (اليوم الذي كانوا يذبحون فيه خروف الفصح) دون الالتفات إلى موقع اليوم من الأسبوع. في حين كانت الكنائس الغربية تعيّده في يوم الأحد الذي يأتي مباشرة بعد الرابع عشر من نيسان، قائلة إن هذا أقرب إلى ما جاء بالأناجيل. ويظهر من إحدى رسائل بوليكاربوس أن هذه المناقشة بدأت منذ سنة ١٥٥ م. ومن الأمور المؤسفة أن الأسقف فيكتور أسقف روما (١٨٨ – ١٩٩) دعا إلى مؤتمر لكل أساقفة الكنيسة وطلب منهم قبول رأي روما، ولكن أساقفة الكنيسة في أسيا قاوموا هذا، فما كان من فيكتور إلا أن حرمهم. وكان هذا صدمة مروعة حتى الذين وافقوه على موقفه. أما إيريناؤس فقد كتب إليه خطابًا ليعرض وساطته في الأمر ومن المحتمل أن فيكتور سحب قرار حرمانه.

ولكن اختلاف الرأي استمر سنوات عديدة، ولم تتزحزح الكنائس الأسيوية عن موقفها إلى سنة ٣٢٥ م عندما انعقد مجمع نيقية حيث قبلت الرأي الآخر وصارت الكنيسة تعيِّد عيد القيامة في يوم الأحد للشرق والغرب معًا، مع أن الفرق في بعض الأحيان كان يصل إلى خمسة أسابيع، رغم تبني نفس المبدأ في تحديد التاريخ، وذلك كله لاختلاف التقويم الشرقي عن التقويم الغربي.

٤- ازدياد أهمية روما

وقد ظهر أمر آخر كانت له شواهده الواضحة وهو ازدياد سلطان المجتمع المسيحي في روما إلى درجة أن الكنيسة المسيحية هناك صارت أرفع شأنًا، وأكثر أهمية من أية كنيسة أخرى في العالم، فكان يُنظر إلى كنيسة روما هذه النظرة الخاصة من قبل عصر الأسقف فيكتور الأول وادعائه الحق في أن يدعو إلى مجامع عامة وجرأته على إصدار قرارات حرمان ضد الكنائس الأخرى. فقد كتب أكليمندس الروماني (Clement) في القرن الأول إلى كنيسة كورنثوس وهو يتوقع أن تطيع أوامره. أما أغناطيوس الأنطاكي (Ignatius) فقد كتب عن روما فيقول: «إن لها رئاسة المحبة».

وبعد ذلك قال إيريناؤس: «إنه من الأمور المهمة أن كل الكنائس تتفق مع كنيسة روما» (ضد الهرطقات، جزء ٣، فصل ٣: ٢).

لقد كانت روما بالطبع عاصمة الإمبراطورية وبالتبعية كانت عاصمة الكنيسة المسيحية كلها. فقد كان لها - حتى في السنوات الأولى - الموارد المالية التي جعلتها ترسل المعونات إلى الكنائس الأخرى، ولكن أهم من هذا كله أنها كانت المدينة التي اُستشهد فيها بطرس وبولس وصارت أيضًا ملاذًا لكل من عنده رسالة خاصة، منحرفة أو مستقيمة، فقد جاء إليها مارسيون وفالنتينوس والغنوسيون ثم جاستن والمونتانيون، كلهم كانت لهم مدارسهم في روما.

وسواء أكانوا أسيويين، أو سوريين، أو يونانيين، أو قرطاجينيين، أو مصريين، فقد كانوا يعرفون أنهم سيكسبون لهم أتباعًا اذا ما أصغت إليهم كنيسة روما.

وعلى هذا فقد أصبحت روما المركز الحقيقي للحكم في القضايا الكنسية العظمى سواء أكانت نظام إدارة الكنيسة أم تقنين الكتب المقدسة أم عقائد كنسية.

Recommended English Readings

Carrington, Philip - *The Early Christian Church, Vol. I*, pp. 381 – 382.

Frend, W.H.C. - ***The Early Church***, pp. 84 – 88.

- Martydom and Persecution in the ***Early*** *Church*, pp. 223 – 253.

Goguel, Maurice - ***The Primtive*** *Church*, pp. 386 – 412.

Walker, Williston - ***A History of the*** *Christian Church*, pp. 60 – 61.

الفصل السادس

الخدمة - الكتب القانونية - العقيدة



كان من أهم إنجازات القرن الثاني التكوين الرسمي للكنيسة بطريقة استمرت ثابتة إلى عصرنا الحاضر. فقد كان على قادة الكنيسة أن يواجهوا القضايا الأساسية الخاصة بطبيعة التركيب الكنسي، والكتب التي يجب قبولها كأسفار مقدسة، والعبارات العقائدية التي يُمتحن بواسطتها إيمان الشخص المسيحي ثم يتمسك بها كتعبير عن عقائده وإيمانه. هذه الأسئلة ظهرت في سنوات سابقة ولكن بطريقة أولية. وكما يقول الكاتب الألماني هيوس (Heussi): «في سنة ٥٠ م. كان المسيحي هو من يعتمد بالماء ويقبل الروح القدس ويدعو يسوع ربًا. أما في سنة ١٨٠ م. فكان على المسيحي أن يعترف بقانون الإيمان، وأسفار العهد الجديد وسلطان الأساقفة» (اقتبسها و. ووكر W. Walker في الكتاب السابق ص. ٥٧).

١- الخدمة الكنسية

حكام الكنيسة:

مر بنا أن لقبيَّ أساقفة وشيوخ في سفر الأعمال، مترادفان. فقد كانت السلطة العليا في يد الرسل لأنهم كانوا أول من عرف يسوع المسيح، ثم عينوا موظفين ووضعوا عليهم واجبات ومسئوليات وأعطوهم سلطانًا للقيام بها في الكنيسة، ولكن بدون أدنى تمييز بالنسبة للرتب.

ولكن القرن الثاني شهد تطورًا، فصار الأسقف هو اللقب الذي يُعطى لمن له المركز الأسمى في الكنيسة المحلية والذي دائمًا يرأس الاجتماعات.

ارتفاع شأن الأساقفة – تطور طبيعي:

لقد كان ارتقاء الأساقفة إلى ذلك المركز السامي يبدو تطورًا طبيعيًا للأمور. فقد كانت المسيحية تنتشر من المراكز الكنسية الكبرى إلى الأرياف والقرى وكان الأساقفة يرسلون الشيوخ والشمامسة ليخدموا في تلك الكنائس الناشئة، وبالتدريج يصبح الأسقف المدير الفعلي والمشرف عليهم، وبدون شك، الرئيس في كل اجتماعات اللجان.

وفي سنة ١٤٠ م. ظهرت عبارة مجمع الشيوخ (College of Presbyters)، ولكن الأساقفة كانوا

إلى ذلك الوقت يخاطبونهم بعبارة: «زملاؤنا الشيوخ» ولكن ما أن انتهى القرن الثاني حتى كان الأسقف هو الرئيس الفعلي الذي لا ينافسه أحد. في كنيسة واحدة أو عدة كنائس.

تحدي الهرطقات:

ولعل ظهور الهرطقات المتعددة كالغنوسية والمونتانية وتحديها للكنيسة كان عاملاً على ازدياد سلطة الأسقفية. فقد كان مونتانوس وادعاؤه أن له الحق في الاتصال المباشر بالروح القدس أكبر تهديد يسلب الأساقفة حقوقهم في التكلم عن الله. ولم يكن أمام الكنيسة لترد به على هذا الادعاء سوى أن تعلن أنها القناة الوحيدة الرسمية للروح القدس، وأن الأساقفة هم القادة دون غيرهم الذين يستقبلون إرشادات الروح القدس ويفسرونها (أما الأمور الإدارية الأقل شأنًا والمتصلة بالناس فقد تُركت للشيوخ والشمامسة). وصار واضحًا لدى الكنيسة أن الروح القدس لم يعد الآن يتكلم في أي شخص دون النظر إلى رتبة أو مكانة، بل اقتصر في كلامه وإرشاده على الأساقفة. وتغير المثل القائل «الكنيسة توجد حيث يوجد الروح القدس» إلى «الكنيسة توجد حيث يوجد الأسقف».

الخلافة الرسولية:

ولا يقل أهمية عن ذلك، ذلك الادعاء المتزايد من أن هؤلاء الأساقفة هم خلفاء الرسل، وأن السلطان الذي أعطاه المسيح للرسول بطرس قد انتقل إليهم في سلسلة متصلة من الأساقفة. ويتضح ذلك في كتابات إيريناوس الذي يقول إن الرسل قد استؤمنوا على كنوز الإنجيل، وهم بدورهم سلّموها نقية تامة الكمال إلى الكنيسة التي يرأسها الأساقفة وهكذا «أضحى التوافق مع الأساقفة ضرورة حتمية». وكان هدف إيريناوس من هذا أن يكشف كذب الغنوسيين الذين ادعوا لأنفسهم معرفة سرية من الله قاصرة عليهم، فهو يقول إن المعرفة الوحيدة التي من الله هي تلك التي أعلنها المسيح للرسل جهارًا، والكنيسة لا تعترف إلا بها. وعلى ذلك فيجب على المسيحي الذي يريد أن يتعلم أن يأتي إلى الأساقفة ورجال الدين الذين أقاموهم، حيث إنهم هم وحدهم الذين استؤمنوا على هذه التعاليم بنقاوتها الكاملة، وأن التسلسل المتصل للأساقفة من أيام الرسل هو الضامن الأعظم لبقاء هذه التعاليم ثابتة نقية. «اذهب إذًا إلى روما أو إلى سميرنا أو أفسس، وتعلم ما يعلمونه هناك وسوف لا تجد أي عنصر غنوسي فيه» (ضد الهراطقة.. اقتبسها و. ووكر في الكتاب السابق، ص. ٥٨) وترى الكنائس التقليدية أن خير مثال على انتقال السلطان الرسولي إلى الكنيسة تجده في كلمات العشاء الرباني التي يذكرها الرسول بولس في ١ كورنثوس ١١: ٢٣ «لأنني تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضًا...».

انتخاب الأساقفة وسيامتهم:

يعطينا هيبوليتوس (Hippolytus) (أحد شيوخ روما – توفي سنة ٢٣٦) في كتابه «التقليد الرسولي» وصفًا يساعدنا على معرفة كيفية اختيار ورسامة الأساقفة في تلك الحقبة. «يتم اختيار الأسقف بواسطة كل الشعب... ويرسمه الأساقفة الآخرون فيضعون أيديهم على رأسه. أما الشيوخ فإنهم يقفون إلى جوارهم فقط. ثم تتخلل ذلك فترة من الصمت يصلي فيها كل المجتمعين في قلوبهم. ثم يضع أحد الأساقفة يده على رأس الأسقف الجديد المنتخب ثم يصلي صلاة التكريس... وحالما يرتسم الأسقف الجديد فإن

كل الحاضرين يقبّلونه قبلة السلام. ثم يتقدم إلى خدمة عشاء الرب» (تلخيص كارجتون في الكتاب السابق. ص. ٢٣٦).

التنسيق في السلطان الأسقفي:

كان الأساقفة في العصر الذي تلا عصر الرسل مباشرة. يستقلون في أبروشياتهم لا يشاركهم أحد من الأساقفة الآخرين. ولكن بمرور الزمن بدأوا يجتمعون معًا في سنودسات محلية ليناقشوا الأمور التي تهم الكنيسة كلها. وقد وضح ذلك كما مر بنا في قضيتي المونتانيين وموعد عيد القيامة. وسرعان ما بدأ الأساقفة في المراكز الكنسية الكبرى يدعون دور البطاركة وسلطانهم الذي امتد إلى ما وراء حدود أبروشياتهم. فمثلاً جمع سيرابيون (Serapion) أسقف أنطاكية توقيعات من كل العالم المسيحي ضد المونتانيين. أما فيكتور أسقف روما فقد دعا كل الأساقفة الآخرين لدراسة قضية تاريخ عيد القيامة. ومهما كانت نقط الخلاف بينهم فقد كان الأساقفة يعاملون بعضهم البعض كزملاء ويحاولون الوصول إلى قرار جماعي. ولقد ساند إيريناوس هذا النظام الأسقفي كما يتضح من قوله: «إن الهراطقة جاوءا متأخرين عن الأساقفة الذين سلم إليهم الرسل الكنائس. وأن بيانات عقائدهم مختلفة وتعتبر نشازًا حقيقيًا. أما طريق أولئك الذين ينتمون إلى الكنيسة. ويعيشون في وسط العالم متمسكين بتقاليد الرسل «فبرهان على أن لهم نفس الإيمان ونفس النوع من التنظيم» (ضد الهرطقات. جزء ٥. فصل ٢٠: ١).

٢- قانونية الكتب المقدسة[1]

الكتب المقدسة في عصر ما بعد الرسل:

كانت الترجمة السبعينية للعهد القديم معترفًا بها من أيام المسيح. واستخدمتها الكنيسة في التعليم والعبادة بها. ثم بعد ذلك شعر قادة الكنيسة بالحاجة إلى تقنين كتب أخرى كانت موجودة. وجمعها في مجلد واحد اسمه العهد الجديد. فرسائل الرسول بولس والأناجيل الأربعة وبعض الكتب الأخرى كانت في حوزة الكنيسة تتداولها وتستعملها. ولكنها لم تكن تقبل كل الكتب ككتب قانونية. وهناك أمثلة لبعض الكتب التي لم تُقبل ضمن الأسفار القانونية: رسالة أكليمندس إلى كورنثوس. وراعي هرمس ورسالة برنابا. ولقد كان على الكنيسة أن تقرر. وبصفة نهائية عدد الكتب القانونية وماهيتها لكي تجابه الهرطقات المتعددة وادعاءاتها في القرن الثاني الميلادي. ولعل ماركيون بآرائه المتطرفة في رفضه العهد القديم وكل الإناجيل ما عدا إنجيل لوقا. كان العامل الحاسم الذي جعل الكنيسة تواجه هذه القضية وتقرر أيا من الكتب هو الموحى به من الله[2].

الأسس التي بني عليها قبول الكنيسة للكتب القانونية:

لقد بدأت الكنيسة تقبل كتبها القانونية المقدسة بالاتفاق العام بين كل الكنائس. وعلى مدى

(١) الكلمة الإنجليزية (Canon) مشتقة من الكلمة اليونانية (Kanoon) معناها «حكم أو مقياس». فهذه الكتب التي قبلت ككتب مقدسة كان يجب أن تثبت مطابقتها لبعض المقاييس التي وضعتها الكنيسة.

سنوات الخبرة الطويلة والمقارنة أدرك المسيحيون القيم التي ميزت الكتب الموحاة من الكتب الأخرى التي لم تكن سوى كتب نافعة ومساعدة للأعضاء في قراءتها. وكان أهم مقياس يعرفون بها الكتب المقدسة هو صلتها بالرسل (مثل بولس ويوحنا وبطرس) أو بتلاميذ مرافقين للرسل (مثل مرقس ولوقا). ومن الطبيعي لم تعترف الكنيسة بكل الكتب التي نسبت إلى تلميذ من التلاميذ أو رسول من الرسل، والسبب في ذلك هو ظهور عديد من الكتب ادعت لنفسها هذه النسبة، ولكن ثبت أن ادعاءها ذلك كان كاذبًا. وهكذا صار الرسل أساسًا لقانونية الكتب المقدسة، كما كانوا أساس السلطان الأسقفي.

مصادر معرفتنا بالكتب القانونية:

لم تصلنا إلى الآن معرفة وافية عن الكيفية التي اعتبرت بها الكتب المقدسة كتبًا قانونية، وذلك لندرة الكتابات التي بقيت من تلك الحقبة. فمثلا يشير يوسابيوس (في التاريخ الكنسي) إلى شخص يدعى باباس (Papias) أسقف هيرابوليس (١٣٠ م.) الذي كتب عن الأناجيل الأربعة ورسالة بطرس. أما إيرينايوس فيذكر الأناجيل الأربعة. أما تاشيان السوري (١٨٠ م.) فقد قام بجمع كتاب واحد من الأناجيل الأربعة وسماه «الدياتسارون». هذا الكتاب الواحد المأخوذ عن الأناجيل الأربعة في شكل قصة متكاملة تُرجم إلى اللاتينية والعربية، ويُستعمل في الكنيسة السريانية إلى هذا اليوم. أما القائمة التي تكاد تكون كاملة، بالكتب القانونية فهي «القائمة الموراتورية» Muratorian Fragment ويرجع تاريخها إلى ٢٠٠ م وهي تحتوي على ٢٤ سفرًا من أسفار العهد الجديد، ومعها بعض الكتب التي رُفضت فيما بعد. ولابد أنه كانت هناك قوائم أخرى لكنها لم تصل إلينا. ولكن القائمة الكاملة بالسبعة والعشرين سفرًا في العهد الجديد فترجع إلى سنة ٣٦٧ م. في خطاب للقديس أثناسيوس أسقف اسكندرية.

٣- قانون الإيمان

كيف تطورت العقائد:

(٢) من المناسب أن نذكر كلمة مختصرة هنا عن الكتب الأبوكريفا (غير القانونية) التي كانت تظهر من وقت لآخر في القرنين الأول والثاني. فلم تكن هذه الكتب مجموعة خاصة مثل أبوكريفا العهد القديم (التي قبلتها بعض الكنائس ككتب قانونية). ولكنها ظهرت مفردات متفرقة لتقلد كتب العهد الجديد القانونية. بعض هذه الكتب ظهرت في شكل «أناجيل» كإنجيل بطرس وإنجيل توما وإنجيل فيلبس وإنجيل الحق وإنجيل المصريين. وكان أهم هدف لهذه الكتب الأبوكريفية أن تعتبر امتدادًا للأناجيل الحقيقة فأضافوا تفاصيل خيالية لقصة ميلاد يسوع وطفولته. أما إنجيل نيقوديموس فهو يختص باستكمال قصة بيلاطس البنطي. وكان لها هدف آخر وهو نشر هرطقة تحت قناع الكتب المقدسة. فكم من أفكار وعقائد غنوسية نُسبت إلى يسوع في «أبوكريفا يوحنا» و «وحكمة يسوع المسيح». وهناك أيضًا مجموعة كبيرة من كتابات الأبوكريفا في هيئة رسائل من الرسل: كورنثوس الثالثة، والرسالة إلى اللاودكيين ورسالة تيطس.

وهناك أيضًا نوع آخر من كتب الأبوكريفا هي كتب الرؤية هي كتب الرؤية المنسوبة إلى بطرس، بولس، وتوما وغيرهم. ومع أن كتب الأبوكريفا كانت معروفة لدى المسيحيين، وبعضها انضم إلى الكتب القانونية إلى حين، ولكن قادة الكنيسة نجحوا في استبعادها عن حق عندما عُقد مجمع نيقية.

هذا الجزء مبني على ما جاء في:

The New International Dictionary of The Christian Church, J. D. Douglas, (Ed., 1978; p. 54, 55)..

رأينا كيف تطور مفهوم الكنيسة لرسالتها، وكذلك كيف تقدمت في طريق تحديد كتبها المقدسة وسنرى هنا كيف قامت بوضع إيمانها في صيغ عقائدية. وبعض هذه الصيغ موجودة في العهد الجديد (كما ذكرنا من قبل) وقد حدث ذلك لمواجهة بعض الظروف الخارجية. في ذلك العصر كان مألوفًا أن يضع معتنقو الديانات الوثنية عقائدهم في صور طقسية، كما حدث في أفسس عندما هبوا يعارضون وعظ الرسول بولس حيث قيل عنهم: «صار صوت واحد من الجميع صارخين نحو مدة ساعتين: عظيمة هي أرطاميس الأفسسيين» (أع ١٩: ٣٤). وقد قام المسيحيون بنفس العمل فكانوا يهتفون في عبادتهم بصوت واحد: «يسوع رب» كتحد صارخ ومباشر لديانة عبادة الإمبراطور التي كانت تتطلب من كل مواطن صالح أن يعترف أن «الإمبراطور رب». بل لعل الرسول بولس قال، كرد فعل لتعاليم الديانات الوثنية تلك الآية الشهيرة:

«لأنه وإن وجد ما يسمى آلهة سواء كان في السماء أو على الأرض كما يوجد آلهة كثيرون وأرباب كثيرون، لكن لنا إله واحد الآب الذي منه جميع الأشياء ونحن له. ورب واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به» (١ كو ٨: ٥، ١٦)[٣].

إختيوس Ichthus علامة السمكة:

العبارة العقائدية «ابن الله» أضيفت إلى العبارة «يسوع رب». فكونت واحدة من أول الصيغ العقائدية المسيحية وظهرت هكذا «يسوع المسيح ابن الله المخلص» فإذا أخذت الحروف الأولى للخمس كلمات الرئيسية في اللغة اليونانية فإنها تكون كلمة «سمك».

إ	إيسوس	يسوع
خ	خريستوس	المسيح
ث	ثيوس	الله

(٣) أمثلة من عقائد العهد الجديد:

أشهر العبارات العقائدية الموجودة في العهد الجديد هي التي تختص بالاعتراف بأن يسوع المسيح هو رب:

(أع ٨: ٣٧): «أنا أؤمن أن يسوع المسيح هو ابن الله».

(أع ١٦: ٣١): «آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص».

(رو ١٠: ٩) «لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع، وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات، خلصت».

(١ كو ١٥: ٣، ٤): «فإنني سلمت إليكم في الأول ما قبلته أنا أيضًا: أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب، وأنه دفن وأنه قام في اليوم الثالث حسب الكتب». (لاحظ أهمية السلطان الرسولي في هذه العبارة).

هناك نوع آخر من العبارات العقائدية تتصل بالله الآب وهي قليلة نوعًا ما:

(١ كو ٨: ٦): «لكن لنا إله واحد الآب الذي فيه جميع الأشياء ونحن له. ورب واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به».

(١ تي ٢: ٥، ٦): «لأنه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس، الإنسان يسوع المسيح الذي بذل نفسه فدية لأجل الجميع».

وهناك نوع ثالث من العقائد الي تتصل بالأقانيم الثلاثة:

(مت ٢٨: ١٩): «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس».

(٢كو ١٣: ١٤): «نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم».

انظر:

Harry A. Boer, *A Short History of The Early Church;* p. 74, 75.

و	ايوس	ابن
س	سوتير	مخلص

وهكذا صارت السمكة رمزًا للمسيحية يعرفه كل المؤمنين. وبعد مدة أُضيف إليها الحرف «T» اليوناني الذي يمثل شكل الصليب والمخلِّص المصلوب. ومن الأمور العجيبة أن هذا الحرف «T» في اللغة المصرية القديمة يعطي معنى «المعطي» أو «الذي بذل نفسه ذبيحة».

صيغ وُضعت للدفاع عن الايمان:

ولكن في عصر أغناطيوس (Ignatius ١١٠ م.) ظهرت صيغ وعبارات عقائدية للرد على الهرطقة الدوستية. ويقول أغناطيوس في رسالته إلى المسيحيين في تراليس (Tralles) (٩: ٤): «سدوا آذانكم عن سماع أي واحد يتكلم عن غير يسوع المسيح الذي من نسل داود الذي من العذراء مريم الذي وُلد بالحق. وأكل وشرب واضطُهد حقيقة في عهد بيلاطس البنطي ثم صُلب ومات أمام أنظار الكائنات التي في الأرض والسماء وتحت الأرض. وأُقيم حقا من بين الأموات. أقامه أبوه السماوي». هذه عبارة لاهوتية عقائدية تحذر المسيحيين من أخطار الهرطقة. وهكذا فعل يوستينوس الشهيد عندما وقف أمام متهميه قائلاً: «نحن نعبد إله المسيحيين الإله الواحد الذي نؤمن بأنه هو الخالق الأصلي لكل العالم ولكل الأشياء المنظورة وغير المنظورة. والرب يسوع المسيح عبد الرب الذي تنبأ عنه الأنبياء كنبي الخلاص لكل البشرية ومعلم المعرفة السامية».

صيغ عقائد وقت المعمودية:

لكن إلى جانب هذه العقائد الدفاعية توجد صيغ عقائدية بسيطة صارت جزءًا من عبادة الكنيسة وصلاتها خصوصًا وقت المعمودية وكانت تقال في صيغة قانون ايمان:

«هل تؤمن بالله الآب القادر على كل شيء؟»

«هل تؤمن بيسوع المسيح ابن الله الذي وُلد بالروح القدس من مريم العذراء. والذي صُلب في عهد بيلاطس البنطي ومات وقام حيًا في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب وسيأتي ليدين الأحياء والأموات؟»

«هل تؤمن بالروح القدس والكنيسة المقدسة وقيامة الجسد؟»

(مقتبسة من هيبوليتس – التقليد الرسولي ٢١: ١٢ – ١٤).

هذه الأسئلة تعرف باسم «الصيغة الرومانية أو الرموز الرومانية (أي كلمة السر أو علامة واختبار للعضوية في الكنيسة) التي انتشرت في الكنيسة في القرن الثاني الميلادي. ويعتبر التأكيد على الأقنوم الثاني الرب يسوع المسيح دليلاً على الحاجة الماسة إلى تحديد وتقنين الإيمان المسيحي في وجه الهرطقات المختلفة. لقد أرادوا أن يؤكدوا لاهوت السيد وناسوته. ولعل هذه العبارات كانت النواة لتلك الصيغة الأكمل التي ظهرت في القرن الرابع وأُطلق عليها قانون الإيمان الرسولي».

كانت هناك صيغ عقائدية أخرى ظهرت في ذلك العصر. ولكنها لم تكن تختلف عن هذه الصيغ التي سبقت. فمن الواضح أن الكنيسة وبها أولئك الأساقفة الأقوياء كانت مهتمة أن تكون جبهة واحدة متحدة في وجه العالم المعادي لها.

Recommended English Readings

Carrington, Philip – ***The Early Christian Church, Vol. II,*** pp. 329 – 339.

Danielou – Marrou – ***The Christian Centuries. Vol. II,*** pp. 108 – 110.

Foster, John – Church History I – ***The First Advance,*** pp. 53 – 64.

Frend, W.H.C. – ***The Early Church*** – PP. 84 – 88.

Leitzmann, Hans – ***A History of the Early Church, Vol. II,*** pp. 48 – 123.

Latourette, K.S. – ***A History of Christianity,*** pp. 131 – 136.

Walker, Williston – ***A History of the Christian Church,*** pp. 57 – 60.

ملحق رقم (١)

قادة الكنيسة خلال القرن الأول والثاني

بطريركية الإسكندرية (١) - الاسم	التاريخ	بطريركية روما (٢) - الاسم	التاريخ	البطريركية البيزنطية (٣) - الاسم	التاريخ
القديس مرقس	٦٣ م.	القديس بطرس	٦٤ م.	القديس أندراوس	٣٨ م.
				استاخيس Stachys	٣٨–٥٤
أنانياس Ananius	٦٣-٨٣	لينس Linus	٦٧–٧٦	أنسيموس Onesimus	٥٤–٦٨
أبيليوس Abilius	٨٣-٩٥	أناكليتس Anacletus	٧٦–٨٨	بوليكاريوس الأول Polycarous I	٧١–٨٩
سيردون Cerdon	٩٥-١٠٦	أكليمندس Clement	٨٨–٩٧	بلوتارخس Plutarchus	٨٩-١٠٥
		ايفاريستوس Evaristus	٩٧-١٠٥		
بريموس Primus	١٠٦–١١٨	إسكندر الأول Alexander I	١٠٥-١١٥	سيديكيون Sedekion	١٠٥-١١٤
جستوس Justus	١١٨–١٢٩	سيكتوس الأول Sixtus I	١١٥-١٢٥	ديوجنيس	١١٤-١٢٩
يومينوس Eumenios	١٢٩–١٤١	تليسفورس Telesphorus	١٢٥-١٣٦	اليوثيريوس Eleutheris	١٢٩-١٣٦
مرقس الثاني Marcos II	١٤٢–١٥٢	هاجينوس Hgginus	١٣٦-١٤٠	فيلكس Felix	١٣٦-١٤١
		بيوس الأول Pius I	١٤٠-١٥٥	بوليكاربوس الثاني Polycarpus II	١٤١-١٤٤
				أثينودورس Athenodorus	١٤٤-١٤٨
				ايوزيوس Euzios	١٤٨-١٥٤

بطريركية الاسكندرية (١)		بطريركية روما (٢)		البطريركية البيزنطية (٣)	
الاسم	التاريخ	الاسم	التاريخ	الاسم	التاريخ
سيلاديون Celadion	١٦٦-١٥٢	أنيستوس Anicetus	١٦٦-١٥٥	لورنتيوس Laurentius	١٦٦-١٥٤
أجريبينوس Agrippinos	١٧٨-١٦٦	سوتير Soter	١٧٥-١٦٦	بيرتيناكس Pertinax	١٨٧-١٦٩
جوليانوس Julianos	١٨٩-١٧٨	اليوثيريوس Eleutherios	١٨٩-١٧٥	أوليمبيانوس Olympianos	١٩٨-١٨٧
ديمتريوس Demetrios	٢٣٠-١٨٩	فيكتور الأول Victor I	١٩٩-١٨٩	ماركوس Marcos	٢١١-١٩٨
		زفرينوس Zephrynus	٢١٧-١٩٩		

١- إيريس حبيب المصري. **قصة الأقباط. مجلس الكنائس الشرقية.** القاهرة ١٩٧٨ ص ٥٨٣.

٢- ميناردس اوتو: **مصر المسيحية. قديمًا وحديثًا.** القاهرة ١٩٦٥ و١٩٧٧ – ص ٢٢ – ٢٣.

٣- **موسوعة المعلومات.** نيويورك. مطبعة فيكنج – ١٩٧٩ – ص: ٤٤١.

٤- **كوبهام. بطاركة القسطنطينية:** مطبعة جامعة كمبردج - ١٩١١- ص: ٨٩- ٩٦.

ملحق رقم ٢
تاريخ الحوادث الرئيسية إلى سنة ٢٠٠ م.

حوادث سياسية	التاريخ	حوادث دينية
موت أغسطس، الإمبراطور طيباريوس (أسرة يوليوس- كلوديوس ١٤ – ٦٨) بيلاطس والي اليهودية	١٤ م.	
	٢٧ – ٢٩	ظهور يوحنا المعمدان ومناداته
	٣٠	موت المسيح وقيامته
	٣٦	
بيلاطس البنطي يترك اليهودية	٣٦ / ٣٧	استشهاد اسطفانوس
موت طيباريوس، وتولي غايس (كاليجولا)	٣٧	
	٣٨	تجديد بولس
كلوديوس يصبح امبراطورا	٤١	
	٤٣ / ٤٤	استشهاد يعقوب أخي يوحنا
	٤٩	مجمع أورشليم
اليهود يُطردون من روما	٥٠	
	٥١ / ٥٢	بولس في كورنثوس
موت كلوديوس، نيرون يصبح إمبراطورًا	٥٤	
	٥٨	القبض على بولس في أورشليم
		رجم يعقوب أخي الرب
	٦٢	الاضطهاد الأول
حرق روما	٦٤	
ثورة اليهودية	٦٦	
انتحار نيرون وتولي الأباطرة جالبا واوتو وفيتاليوس	٦٨	
تيطس يستولى على أورشليم	٧٠	
تولي نيرفا الإمبراطور	٩٥	رسالة أكليمندس الروماخي إلى كورنثوس
الامبراطور تراجان	٩٨	
	١٠٠ م.	موت يوحنا

حوادث سياسية	التاريخ	حوادث دينية
بلني الأصغر يحكم بيثينية	١١١	
موت تراجان. وتولي هادريان	١١٧	
ثورة اليهود بقيادة باركوكبا	١٣٢	
موت هادريان وتولي انطونيوس بيوس الإمبراطورية	١٣٨	
ماركوس أوريليوس يتولى عرش الإمبراطورية	١٦١	
	١٦١ / ١٦٩	استشهاد بوليكاربوس أسقف سميرنا
	١٦٣ / ١٦٧	استشهاد يوستينوس الشهيد في روما
	١٧٠	ظهور المونتانية
	١٧٥ / ١٧٧	شهداء ليون. إيريناوس
تولي كومودويوس ويسمى نفسه أغسطس	١٧٧	يصبى أسقف ليون
موت ماركس أوريليوس. فيصبح كومودويوس الإمبراطور الوحيد	١٨٠	
	١٨٩ / ١٩٠	ظهور المناقشة حول تحديد تاريخ عيد القيامة
اغتيال كومودويوس	١٩٣	
سبتموس سافيروس يصبح الإمبراطور الوحيد	١٩٤	
	١٩٧	ترتليان وحركة الدفاع
	١٩٧	قرار سافيروس بمنع الدخول في اليهودية أو المسيحية
	٢٠٣	هيبوليتس وتفسير سفر دانيآل
	٢٠٧ / ٢٠٨	ترتليان يصبح مونتانيا

* مقتبسة من: Danielou – Marrou: The Christian Centuries, Vol. I. The first six hundred years

الباب الثالث

النصف الأول من القرن الثالث



الفصل الأول
الكنائس المسيحية خارج حدود الإمبراطورية



قبل أن نسترسل في دراسة التاريخ العام للكنيسة المسيحية يجب أن نلاحظ أن رسالة المسيح وصلت أمكنة أخرى أقل شهرة من البلاد الواقعة في حدود الإمبراطورية الرومانية، وقبلتها الشعوب وآمنت بها وتأسست فيها الكنائس. أما سفر الأعمال فقد اقتصر علي ذكر تأسيس الكنيسة في أسيا الصغرى واليونان وإيطاليا. ولكن وجدت كنائس أخرى تطلق علي نفسها أسماء الكنيسة الأرمينية والآشورية والكلدانية ومار توما .. إلخ. مما يدل علي أنها بدأت في عصور مبكرة جدًا، ومما يدل علي ذلك أن سفر الأعمال (٢:٩) يذكر أنه في يوم الخمسين كان هناك أناس من الفرتيين والماديين والعيلاميين وسكان مابين النهرين. وإلى جانب ذلك فقد ذكر التقليد أن كل واحد من التلاميذ ذهب إلى أمة خاصة ليبشرها فذهب أندراوس إلى سكيثيا وأخائية، ومتى إلى الحبشة، ويعقوب إلى أسبانيا، وتداوس إلى اديسا، وفيلبس إلى بلاد فارس، وتوما إلى الهند. ومع أن الشواهد على ذلك غير مترابطة وأحيانًا متناقضة ، إلا أنه يجدر بنا أن نعرف ماتقوله كل كنيسة من هذه الكنائس عن أصلها وكيف ظهرت في الوجود.

١- الكنيسة فيما بين النهرين

المسيحيون العرب:

كانت الأرامية هي اللغة التي يتكلمها سكان فلسطين (وهي لغة يسوع)، أما سكان ما بين النهرين (سوريا والعراق) فكانت لغتهم السريانية، وهاتان اللغتان أختان للغة العربية، وكانت العربية في عصر العهد الجديد تشمل الهلال الخصيب. وكان العرب بين الحاضرين في يوم الخمسين (أع ٢:١٠). ويبدو أن شاول الطرسوسي بعد أن ظهر له السيد على طريق دمشق وذهب إلى العربية (غل ١:١٧). كان يقصد أنه ذهب إلى الصحراء السورية شرقي دمشق، بل لعله وجد جماعة من المسيحيين العرب، فعاش بينهم في عزلته الاختيارية، فإذا كنا لا نفهم الكنيسة العربية بهذا الشكل، فلا يمكن أن ننكر أنه كانت هناك جماعة من العرب المسيحيين.

الرسائل التي كانت بين الملك أبجر ويسوع:

كانت أديسا عاصمة مملكة أوسرين (osrhoene) تقع على شاطئ نهر الفرات. ويذكر المؤرخ يوسابيوس أنه زار هذه المدينة في القرن الرابع الميلادي. واكتشف الرسائل التي كانت بين أبجر ملك أديسا ويسوع. فقد كتب الملك يقول:

«لقد سمعت عنك أنك تشفي بدون أعشاب أو دواء. فتعطي البصر للأعمى وتجعل الأعرج يمشي والأبرص يطهر. إني أتوسل إليك أن تأتي وتشفيني. وقد سمعت أيضًا أن اليهود يريدون بك الشر فمدينتي هذه مع أنها صغيرة ولكنها دولة منظمة وراقية وهي تكفي لك ولي» .

فكتب له يسوع قائلاً:

«طوبى لكم أنتم الذين تؤمنون بي مع أنكم لم تروني. ينبغي أن أكمل كل ما أرسلت لأعمله ثم أرجع إلى من أرسلني. ولكني بعد ذلك سأرسل واحدًا من تلاميذي ليشفيك ويمنح الحياه لك ولكل من معك» .

ويضيف يوسابيوس أن الرسول توما أرسل تداوس أحد السبعين (لو ١٠: ١، ١٧) إلى الملك فشفاه وكثيرين آخرين في المدينة. وعمل عجائب وبشر بكلمة الله.

المسيحيون يعبدون في أديسا:

ومع أن هذه القصة مشكوك فيها ويصعب تصديقها إلا أنه توجد قطعة من النقود في المتحف البريطاني يرجع تاريخها إلى القرن الثاني الميلادي. وعليها صورة الملك أبجر الثامن ويزين تاجه صليب. ولعله كان أول ملك مسيحي. ويروي التاريخ عن فيضان حدث في أديسا ٢٠١ م. ودمر كنيسة مسيحية مما يدل على أن المسيحيين شعروا بالأمان تحت حكم الملك أبجر فبنوا كنيسة قريبًا من القصر الملكي وكانوا يعبدون فيها. بينما استحال على المسيحيين ذلك في أمكنه آخرى من الإمبراطورية الرومانية خوفًا من الاضطهادات.

الكتابات السريانية :

كانت أديسا مركزًا حضاريًا وعلميًا وكانت لغتها السريانية. ففي القرن الثاني الميلادي نقل المسيحيين في أديسا الأداب اليونانية إلى اللغة السريانة. وترجموا العهد الجديد نفسه من اليونانية إلى السريانية قبل ٢٠٠ م. وربما كانت أول ترجمة لكتاب العهد الجديد اليوناني.

تاتيان:

كان تاتيان أبرز القادة في الكنيسة السريانية (١١٠ - ١٧٢ م). وكان من مواطني سوريا. وكان واسع المعرفة. وعندما كان يفتش لنفسه عن ديانة ترضيه. ذهب إلى روما وهناك تقابل مع بعض المسيحيين وبخاصة يوستينوس الشهيد الذي صار معلمًا له وعرفه بالكتاب المقدس. ويشرح تاتيان إحساسه هكذا:

«وضعت ثقتي في هذه الكتب المقدسة لأن أسلوبها لم يكن خياليًا أو متكلفًا. والمتكلمين فيها صادقون. والجمل سهلة ومفهومة. وتخبر عن حوادث في المستقبل (يقصد النبوات عن مجيء المسيح) والرسائل أكثر مما يتوقع الأنسان وأن الكون كله يسير علي مبدأ واحد. «ولقد علمني الله. فأدركت أن هذه ديانه تحررنا من العبودية التي في العالم وتختطفنا من تحت نير طغاة كثيرين. أكثر من عشرة آلاف من الطغاة»

(من خطاب تاتيان إلى اليونانيين)

الدياتسرون:

ولعل أعظم مآثر تاتيان هي كتابة «توافق الأناجيل الأربعة»[1] المسمي «الدياتسرون» الذي كتبه ١٧٢ م. وفي جوهره كانت هذا الدياتسرون عبارة عن قصة حياة يسوع مأخوذة من الأناجيل الأربعه مكتوبة في السريانية أو اليونانية. وصار الوثيقة الأساسية في التعليم والعبادة في الكنيسة السريانية حتي القرن الخامس الميلادي.

باردياسان (Bardaisan) (١٥٤ – ٢٢٢ م.) :

كان باردياسان من مواطني أديسا وصار مسيحيًا في نفس الوقت الذي صار فية الملك أبجر الثامن مسيحيًا. ورغم أنه تأثر بالغنوسية إلا أنه كان أول كاتب مسيحي للترانيم في اللغة السريانية. وكان أيضًا المفكر المعروف في الكنيسة السريانية الصغيرة. وقد كتب مرة يقول: «إن الجنس الجديد هو نحن المسيحيين وقد زرعنا المسيح في كل أمة. وأينما ذهبنا يطلق علينا اسم واحد هو «مسيحيون»... وقد هجر إخواننا كل العادات التي لا تتفق مع إيماننا المسيحي (سجلها تلميذه في كتاب يسمي «بخصوص القدر») ·

ومع ذلك فقد اعتبرت الكنيسة العربية كل من تاتيان وباردياسان من الهراطقة على الرغم من أنه لولاهما لما وجدت المسيحية مكانًا لها في المناطق العربية.

الشهداء العرب:

تنتشر في سوريا والأردن وفلسطين مقابر كثيرة كتب عليها «شهيد» يرجع تاريخها إلى عصر الاضطهاد الروماني القاسي في القرن الثالث.

٢- المسيحية في جنوب الجزيرة العربية

لا توجد إلا دلائل محدودة على دخول المسيحية إلى شبه الجزيرة العربية. ولكن هناك مجموعة من القصص عن ذلك من القرن الرابع الميلادي:

قيل عن رجل اسمه موسي أنه «عمل مصالحه بين الرومانيين والعرب وهدى كثيرين من العرب إلى الإيمان (المسيحية) . أيضًا: رجل عربي مسيحي كان يسكن البادية قال لأحد شيوخ العرب أنه سيرزق ولدًا إن هو صارمسيحيًا. وعندما ولد الولد صارت القبيلة كلها مسيحية. وفي ٣٦٤ م. عندما أنعقد مجمع أنطاكية كان في قائمة الحضور أسقف عربي اسمه ثيوتينوس (Theotinus). وقيل أيضًا أن أسقفًا اسمه ثيوفيلس أرسل إلى اليمين وحدث ملكها على قبول الإيمان المسيحي. واليهود هناك عارضوه بشدة. ولكن الملك قبل الإيمان وبنى ثلاث كنائس مسيحية.

استشهاد المسيحيين في اليمن

هناك قصة اخرى عن اضطهاد جاز فيه المسيحيون في اليمن على يدي ملك يهودي اسمه «مسروق» (Masruq) في القرن السادس الميلادي كانت في مدينة نجران جماعة مسيحية. فأمر الملك بقتل كل الرجال وحرق الكنيسة. ولما جاءت امرأة اسمها «زاروبا» (Zaruba) لترثي الرجال أحرقوها أيضًا. ثم بعد ثلاثة أيام جمع كل النساء في مكان وأمروهن أن يبصقن على الصليب. وينكرن المسيح

(١) توافق الأناجيل هو ترتيب قصص الأناجيل الأربعة في أعمدة متوازية بحيث تظهر كل الحوادث والأقوال كما هي مسجلة في كل إنجيل جنبًا إلى جنب.

فلما رفضن قتلوهن بالسهام. وهذه هي الصلاة التي قدمنها ساعة استشهادهن:

«يا الله أسرع إلى نجدتنا

أيها الرب يسوع المسيح انظر إلى مذلتنا

ولاتبعدنا عنك بل امنحنا القوة

أن نسير في طرق الاستشهاد وحتى نلحق

برجالنا الذين استشهدوا في سبيلك اغفرلنا

خطايانا واقبل حياتنا ذبيحة

مرضية في عينيك» .

فيلبس الأول الإمبراطور المسيحي العربي:

يعتقد يوسابيوس وجيروم أن فيلبس الأول (٢٤٤ – ٢٤٩ م.) كان امبراطورًا مسيحيًا. ولكننا لا نملك دليلاً آخر على ذلك الأمر. وكان معروفًا عنه أيضًا أنه عربي وكان معاصرًا للأسقف العربي الأول لمدينه أورشليم[2].

معظم الكنائس التي ظهرت فيما بين النهرين والجزيرة العربية أصبحت فيما بعد ما أتباع نسطور الذي اقترن اسمه في القرن الخامس الميلادي بالانحراف في عقيدته عن المسيح.

٣- الكنيسة في أرمينية

كانت المنطقه التي تسمى أرمينية واسعة الأرجاء تغطي واحة تشمل الجزء الشرقي من أسيا الصغرى (تركيا حاليًا) والجزء الشمالي من وادي نهري دجلة والفرات. وبذلك كانت تقع بين الإمبراطوريات القديمة القوية. فكانت تحت رحمة اليونانيين أو الفرس أو الرومانيين. فكانت الأمة التي ذاقت الكثير من الهوان منذ الأيام القديمة وحتى القرن العشرين.

دخول المسيحية إلى أرمينية:

يقول تقليد عندهم أن المسيحية دخلت إليهم على يدي الرسول تداوس وهو نفسه الذي شفى الملك أبجر. وبعد مدة لحق به برثلماوس وعمل الرسولان معًا إلى أن استشهد كلاهما هناك. وهناك روايات عديدة عن الاضطهادات التي وقعت على المسيحيين في أرمينية. فيوسابيوس يذكر أن كثيرين من المسيحيين في أرمينية استشهدوا في الاضطهاد الذي حدث في حكم الإمبراطور مكسيمان (٣١١ – ٣١٣ م.) (يوسابيوس H. E. VI:46). يقول المؤرخون الأرمينيون أن ترتليان ذكر استشهاد كثيرين في أيام ملوك فارس (١١٠م. – ٢٣٠ م.) . أما المؤرخ اليوناني «سوزومني» (Sozomen) فقد كتب حوالي ٤٥٠م. يقول:

أصبح تردات (Tirdat) ملك أرمينية مسيحيًا عندما رأى علامة من الله في أسرته. وأعلن ذلك لشعبه ليصيروا مسيحيين. فكانت أرمينية على ما أعلم – أول أمة تصبح كلها مسيحية.

وفي نفس العصر الذي كتب فيه سوزومني، كتب مؤرخ أرمني اسمه «أجاثانجيلوس» (Agathangelos) قصة رسولهم المحبوب غريغوريوس المنير (٢٤٠-٣٣٢م.) الذي يسمى القداس الأرمني باسمه.

(2) Trimingham, J.S., *Christianity among the Arabs in Pre-Islamic Times*. (London, 1979). P. 59, quoting Jerome, ***De Viris Illust 54 & Eusebius,*** H. E. II:3.

الملك تردات والقديس غريغوري:

في منتصف القرن الثالث الميلادي دبر الفرس مكيدة لاغتيال «خسروف» (Khosrov) ملك أرمينية. ثم اغتيل القاتل هو وكل أسرته ولم ينج منها إلا طفل واحد هو غريغوريوس الذي أخذ إلى كبدوكية وتربى فيها تربية مسيحية. أما ابن الملك المقتول وكان اسمه تردات فقد هرب من يد الفرس وصار جنديًا في جيش الإمبراطور الروماني دقلديانوس (Diocletian) الذي ساعده على استرداد عرش أبيه ٢٨٦ م . ورجع غريغوريوس أيضًا إلى بلاده وصار موظفًا عظيمًا في بلاط ترادات. ولكن سرعان ما اكتشفوا أن غريغوريوس هو ابن قاتل الملك خسروف، وأنه نشيط جدًا في التبشير بالمسيحية فألقاه الملك تردات في السجن وأمر بتعذيبه وقتله. ولكن خادمة أنقذت حياته. وفي نفس الوقت بدأت الأحلام تعذب الملك تردات وهو يصب جام غضبه على المسيحيين في كل البلاد ويضطهدهم. وفي أحد الأيام ذهبت إليه أخته وأخبرته عن حلم حلمته مضمونه أن رجلاً ذا طلعة بهية جاء إليها وأخبرها أن الملك يجب أن يكف عن الاضطهاد، وأن يطلق سراح غريغوريوس من السجن لأنه «لديه وحده الدواء بكل علل المتفشية في البلاد».

حينئذ قبل الملك نصيحة أخته وأطلق سراح غريغوريوس من السجن فشفي الملك من عذابه وسرعان ما اعتنق المسيحية واعتمد هو وكل أهل بيته.

وازيلت الأصنام من كل أرمينية وتطهرت المعابد وحولت إلى كنائس، ثم تجدد الكثيرون من كهنة الأوثان وأصبحوا خدامًا مسيحيين. أما غريغوريوس فقد رسمه أسقف قيصرية في كبدوكية أول أسقف على أرمينية ٢٩٤ م باسم «غريغوريوس المنير».

٤- الكنيسة في بارثيا وبلاد فارس

كانت بارثيا تقع بين بلاد فارس وأديسا، وكانت تشمل معظم أراضي إيران الحديثة. واعتنقت الكنيسة هناك عقيدة نسطور، وتعرف في العصر الحديث بالكنيسة الأشورية. وقد أشار يوسابيوس المؤرخ إلى مقاطعة «أديابين» (Adiabene) وعاصمتها «أربل» ولكنه لم يذكر أنه كانت هناك كنيسة مسيحية.

باكيدا «Pagida» أول مسيحي:

في إحدى الكتابات القليلة جدًا التي تخبرنا عن المسيحية في أديابين وتسمى «أخبار أربل» تذكر قصة باكيدا الذي قابل الرسول تداوس عندما أعلن نيسته في أن يصير مسيحيًا، سجنه والداه في المنزل، ولكنه هرب وصار تلميذًا لتداوس. «ويقولون أنه بعد خمس سنوات كرسه تداوس وأرسله إلى وطنه وشعبه. وهكذا صار الأسقف الأول لأديابين وقد رسمه الرسول تداوس نفسه».

سمسون أول شهيد:

توفي باكيدا سنة ١١٤م، وكان قد اختار شخصًا اسمه سمسون شماسًا وتلميذًا له. وقد صار سمسون فيما بعد أسقفا، وكان ينادي بالإنجيل في طول البلاد وعرضها. وكان السكان المؤمنون بالزرادشتية (Zoroastrian) يبعدون النار، وكانوا يقدمون الأطفال قرابين للآلهة. ولكن عندما بدأ الإيمان المسيحي ينتشر في البلاد، ذعر الكهنة وقبضوا على سمسون وعذبوه وقتلوه. وهكذا صار سمسون أول شهيد هناك.

راكباخت «Raqbakhit» الحاكم المسيحي الأول:

كان راكباخت حاكما شديدًا وغنيًا لأديابين (١٤٠م) . هذا الرجل اعتنق المسيحية سرًا خوفًا من الإمبراطور. ولقد حاول الكهنة الزرادشتيون أن يكيدوا له ويقتلوه. ولكنه نجا منهم وشجع انتشار المسيحية في كل المنطقة. ولكنه أخيرًا قتل في معركة. وقد ورد اسمه في كتاب «أخبار أربل» على أنه «رجل الله وقسطنطين عصره» .

أساقفة في بارثيا:

في النصف الأخير من القرن الثاني الميلادي اشتدت الاضطهادات وبدأت الكنيسة في بارثيا في الضعف. ولكن أخبار أربل تذكر أنه في سنة ٢٢٥م. كانت هناك سبع عشرة أسقفية (ومعظمها فيما بين النهرين) وتقول «لكن كان هناك أساقفة في مدن أخرى أيضًا نصيبين والمدائن (العاصمة) فلم يكن فيهما أساقفة خوفًا من الوثنيين» .

٥- المسيحيون تحت حكم الساسانديين

فارس تغزو بارثيا:

ومن الأخبار المذكورة في كتاب أخبار أربل أنه في سنة ٢٢٥م. سقطت كل بارثيا في يد أسرة الساسانيين التي كانت تحكم فارس وجعلوا من المدائن عاصمة بارثيا على نهر دجلة عاصمة لهم.

الإمبراطور قسطنطين يطلب حماية المسيحيين في فارس:

لقد سمح للأقلية المسيحية أن تعيش في سلام في بادئ الأمر مع الأكثرية الزرادشتية التي كانت الديانة الرسمية للبلاد. ولكن بدأت حروب طويلة مستمرة بين الرومان والفارس. وفي أول الأمر لم يتأثر المسيحيون بهذه الحروب حيث أنهم كانوا موضوع الاضطهاد في الإمبراطورية الرومانية. ولكن لما أوقف قسطنطين العظيم اضطهادهم ٣١٢م وبدأ يساندهم بدأ الفرس يرتابون في إخلاص المسيحيين لهم وزاد الطين بلة أن الإمبراطور قسطنطين كتب إلى إمبراطور فارس خطابًا يمتدح فيه الإيمان المسيحي. ونجده يذكر كيف أن إله المسيحيين ساعده على هزيمة أعدائه. ثم أضاف: «تصور مقدار اغتباطي عندما سمعت أن أجمل مناطق فارس قد امتلأت بأولئك الرجال المسيحيين الذين أتكلم عنهم .. وإنني أصلي طالبًا النجاح لك ولهم. ولأن سلطانك عظيم فأرجوك أن تحميهم» (أخبار أربل. اقتباس فوستر «Foster» في كتابه السابق ص ٩٧).

الاضطهاد المرير الذي وقع على المسيحيين في فارس:

في ٣٣٧ جرد قسطنطين حملة عظيمة ضد الفرس واصطحب معه أساقفة مسيحيين لكي يصلوا من أجل فوزه في المعركه. ولم يكن غريبًا بعد ذلك أن يواجه المسيحيون في فارس الاضطهاد العنيف. وكانت الخطوة الأولى هي مضاعفة الضريبة عليهم. وأعقب ذلك هدم الكنائس. ومصادرة الأموال. وقتل الكهنة. ولقد استدعى الأسقف شمعون أسقف المدائن ليمثل أمام الإمبراطور الذي سأله «لماذا لاتركع أمامي كما كنت تفعل دائمًا» ؟ فأجابه الأسقف «لأني لم أكن مكبلاً بالسلاسل. كما أنك لم تكن تطلب مني أن أترك حق الله» واستشهد شيمون في اليوم التالي. الذي صادف يوم جمعة الصلب بعد أن أجبروه على أن يشاهد إعدام مئة من الأساقفة والشيوخ ورجال دين آخرين.

استمر الاضطهاد مدة ٤٠ سنة. ويذكر المؤرخ اليوناني سوتزومن أن ١٦٠٠٠ شخص معروفين بالاسم قد قتلوا. ولكنه يقول انه متأكد من أن عددًا آخر أكبر من أن يحصي لم تظهر أسماؤهم في قائمة القتلى هذه. قد استشهدوا أيضًا.

ولكن الكنيسة في فارس لم تنته بل بقيت. ولكن كأقلية وقد تسامح معها الأباطرة الذين جأوا بعد ذلك وفي القرن الخامس الميلادي صارت هذه الكنيسة من مؤيدي النسطورية وقبلوها عقيدة لهم.

٦- الكنيسة في إثيوبيا (الحبشة)

التاريخ المبكر لإثيوبيا:

كانت إثيوبيا معروفة لدى المصريين منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد. وذلك عندما أرسلت الملكة حتشبسوت بعثة بحرية لاكتشاف المنطقة التي كانت معروفة باسم بلاد البونت. بعد ذلك جرى الاتصال بين الملك سليمان وملكة سبأ (١ مل ١٠: ١-١٣). ومن هنا جاء التقليد الذي يؤكد أن الملوك الذين تعاقبوا على عرش الحبشة يرجع نسبهم إلى سليمان. ومن المعروف أيضًا أن جماعة من اليهود التجأوا إلى الحبشة بعد خراب الهيكل وظلوا يمارسون عبادتهم اليهودية إلى ان دخلت المسيحية إلى البلاد.

الحبشة أقدم دولة مسيحية:

يمكننا القول بأن الحبشة هي أقدم أمة اعتنقت المسيحية ولازالت تتكون من غالبية مسيحية. ولعل أول شخص من أصل غير يهودي تعمد وصار مسيحيًا هو الخصي الحبشي الذي كان وزير الخزانة لكنداكة ملكة الحبشة. وقد عمده فيلبس (أع ٨: ٢٦-٣٩). ويعتقد بعض آباء الكنيسة أن هذا الوزير هو الذي حمل الإنجيل إلى بلاده.

روفينوس المؤرخ (Rufinus):

ولقد سجل قصة بداية الكنيسة الحبشية مؤرخ الكنيسة الإيطالي روفينوس الذي عاش على جبل الزيتون سنة ٤٠٠م. كما سمعها من إدسيوس (Edesius) وهو أخو مؤسس الكنيسة نفسه واسمه فرومنتيوس (Frumentius).

إدسيوس وفرومنتيوس:

هذان الأخوان كانا مسافرين في صباهما على ظهر سفينة مع معلمها. ورست السفينة في ميناء أدوليس (Adulis) وهي ميناء أثيوبي على البحر الأحمر. ولكن لما رأى الأثيوبيون العلم الروماني يرفرف على السفينة اعتبروها سفينة معادية فهاجموها وقتلوا كل ركابها ماعدا هذين الصبيين اللذين اخذوهما أسيرين ثم احضروهما إلى الملك في أكسوم العاصمة. فلما رأى الملك مقدرتهما وثقافتهما جعلهما يخدمان في البلاط الملكي. وعندما مات الملك طلب من الأخوين أن يعاونا الملكة في الحكم لأن ابنها كان مازال طفلاً. وكان فرومنتيوس المصري المسيحي هو المتقدم فصار يشجع المسيحيين الأجانب الذين كانوا يعيشون في الحبشة. أما إدسيوس فقد رجع بعد ذلك إلى بلاده بينما مكث أخوه في إثيوبيا حاكمًا عليها وقد زار الإسكندرية وقابل أثناسيوس العظيم وأخبرة فرومنتيوس عما فعله الرب وطلب منه ان يكرس أسقفًا يرعى المسيحيين المتكاثرين والكنائس التي تقام في تلك البلاد الأجنبية. فأجابه أثناسيوس بعد تفكير طويل ودقيق: «ومن هو أحق منك بذلك» وهكذا صار فرومنتيوس

المصري أول أسقف لإثيوبيا (٣٤٠م.) وقد سماه الملك والشعب «أبا سلامة» ومن الوقت إلى ١٩٥٥ كل أساقفة الكنيسة في إثيوبيا يرسمون في مصر على يدي بطريرك الإسكندرية وكان هذا هو الرباط المتين الذي ربط كنيسة الحبشة بكنيسة مصر فأطلق على كل منها الكنيسة القبطية (المصرية أو الحبشية).

الملك إيزانا (Ezana):

في أكسوم توجد كتابات على الأحجار يرجع تاريخها إلى عصر الملك إيزانا (٣٢٥ – ٣٥٠م) تبين أن هذا الملك قد تحول من عبادة الأوثان إلى ديانة المسيح. كما أن عملة ذلك العهد تحمل علامة الصليب. وإيزانا هذا هو الملك الطفل الذي حكم فرومنتيوس البلاد باسمه.

٧- الكنيسة في الهند

القديس توما في الهند:

ينتسب سكان ملابار المسيحيون (وهي ولاية كيرالا الحديثة) في جنوب غرب الهند إلى الكنيسة السريانية الأرثوذكسية، وهم يرجعون بأصولهم إلى القديس توما الذي جاء إلى الهند – كما يظنون ٥٢م. وهناك تقاليد كثيرة تربط هذه الكنيسة بالقديس توما، وتدل على أن المسيحية وصلت إلى هناك منذ عصرها الأول.

الشواهد على انتشار المسيحية في الهند:

يذكر كتاب «أعمال توما» (وهو واحد من كتب الأبوكريفا) أن التلاميذ ألقوا فيما بينهم قرعة ليعرف كل واحد البلاد التي ينبغي أن يذهب إليها وليبشرها، وكان من نصيب القديس توما أن يذهب إلى الهند، فذهب وأسس فيها كنيسة. ومن المعروف أن الطريق إلى الهند كانت مألوفة في ذلك الوقت وتستغرق ثلاثة أشهر. ويذكر يوسابيوس أن مرسلاً من الإسكندرية ذهب إلى الهند في القرن الثاني الميلادي وكان اسمة بانتينوس (Pantaenus) الذي صار فيما بعد رئيسًا لمدرسة الإسكندرية اللاهوتية العظيمة. وفي وثيقة مكتوبة باللغة السريانية يرجع تاريخها إلى القرن السابع الميلادي يذكر أن داود أسقف البصرة على الخليج الفارسي ذهب إلى الهند وكرز هناك ٣٠٠م. ثم يظهر توقيع يوحنا الفارسي مع توقيعات جميع الأساقفة على قرارات مجمع نيقية. ويقول أمام اسمه «عن الكنائس في كل فارس وفي الهند العظيمة».

توما التاجر:

وتذكر تقاليد كنيسة مار توما الهندية شخصًا آخر اسمه توما كان تاجرًا وذهب إلى الهند ٣٤٥م. في رفقة ٤٠٠ شخص مسيحي هاجروا من فارس. ويؤيد هذا التقليد إعلان رسمي ببعض الامتيازات منحه حاكم هندي لهذه الجماعة. رد على ذلك أنه في ذلك الوقت وقع الاضطهاد الشديد على المسيحيين في فارس، ولم يكن غير الهند ملجأ يلجأون إليه.

كوزموس الإسكندري:

يعتبر كتاب «كوزموس» (Cosmos) التاجر الإسكندري «الطبوغرافيا المسيحية» الذي كتبه ٥٤٧م أهم دليل على وجود المسيحية في جنوب أسيا فقد كتب يقول:

«لقد كرز بالإنجيل في كل العالم «وإنني إدون هذه الحقيقة كما رأيتها وسمعتها في أماكن كثيرة... في سيلان (سريلانكا) توجد كنيسة فيها رعاة وجماعة من المؤمنين...وكذلك الحال

في البلاد التي تسمى مالابار (الآن كيرالا) وفي كاليانا (بالقرب من بومباي) وكان لها أسقف تنتخبه فارس. وكذلك في سومطرة حيث يوجد كهنة من فارس وجماعة كبيرة من المسيحيين... وكذلك كل بلاد فارس بكنائسها التي تفوق الحصر بجماعتها الكبيرة وشهدائها... ثم الحبشة وأكسيوم... واليمن والجزيرة العربية[٣].

Recommended English Readings

1. Atiya Aziz S. ***A History of Eastern Christianity.*** Mathuen and Co., London 1968.
2. Bruce, F. F. ***The Spreading Flame.*** (Paternoster Church History, Volume 1). Paternoster press, Editor 1958, pp. 283289-.
3. Foster, John. ***Church History I. The First Advance.*** (TE F Study Guide No. 5). London: SPCK, 1972. pp. 84115-.
4. Trimingham, J. S. ***Christianity Among The Arabs in Pre-Islamic Times.*** London: Longman, 1979.

(٣) يجب ملاحظة أن المصدر الرئيسي لهذه المعلومات هو كتاب فوستر «الانتشار الأول» ***(The First Advance)*** وأي اقتباس لايذكر مصدره يرجع فيه إلى هذا الكتاب.

الفصل الثاني
المسيحية في شمال أفريقيا



المجتمع المسيحي الأول في قرطاجنة:

كانت مدينة قرطاجنة (الآن تونس) في شمال أفريقية مشهورة بالتجارة والصناعة ومع أن تأثير الحضارة اليونانية كان واضحًا فيها، إلا أنها كانت أهم مركز ثقافي للغة اللاتينية في ذلك الوقت. وكانت اللاتينية هي لغة روما التي كانت تحكم غرب البحر الأبيض المتوسط. أما دخول الإنجيل إلى تلك المدينة فالأرجح أنه تم بواسطة جماعة من يهود الشتات الساكنين في أواخر القرن الأول. ويؤخذ من كتابات ترتليان في أواخر القرن الثاني أن مجتمعًا مسيحيًا كبيرًا كان موجودًا في قرطاجنة بل إن أحد المجامع الكنسية عقد فيها ٢١٦م . حضرة ٧١ أسقفًا من أفريقية. ولقد ترجمت القداسات اليونانية إلى اللغة اللاتينية نظرًا لأهمية اللغة اللاتينية في تلك البلاد. بل إن ترتليان يقول أنه كانت هناك ترجمة كاملة للكتاب المقدس باللغة اللاتينية.

١- الإمبراطور سبتميوس سفيروس (Septimius Severus)

ولد الإمبراطور سبتميوس سفيروس (١٤٦ – ٢١١م.) في مدينة ليبتيس ماجنا (ليبتس العظيمة) في شمال أفريقية بالقرب من طرابلس ليبيا، وكان جنرالاً في جيش روما ولكن الجنود الذين كانوا تحت أمرته انتخبوه إمبراطورًا، فهزم كل من وقف في وجهه، وأرادوا اغتصاب السلطة، وبعد ذلك جرد حملة على البلاد ما بين النهرين. وفي ٢٠٢ أصدر مرسومًا يمنع الرعية من الدخول في اليهودية أو المسيحية لأنه كان وثنيًا. وكان السبب في ذلك هو أن اليهود بدأوا ثورة تشبه ثورة باركوكبا، أما المسيحيون فقد اعتبرهم غير أهل للثقة (لأن كثيرين منهم لم يكونوا متحمسين للمعارك لأنهم كانوا ينتظرون المجيء السريع للمسيح). وأعقب ذلك الاضطهاد والاستشهاد.

الاضطهاد المسكوني الأول:

كان هذا الاضطهاد هو الأول من نوعه، إذ وقع على اليهود والمسيحيين معًا وشمل كل العالم وامتد إلى الإسكندرية وأنطاكية وكورنثوس وروما وقرطاجنة. فقد رفض اتباع الديانتين أن يقدموا ذبائح لتماثيل الإمبراطور، فتعرضوا للحرق والضرب وقطع الرقاب. ولقد انتشر «جنون الاستشهاد» بين الناس حيث كانوا يندفعون إلى ساحات الإعدام، واعتبرها أوريجانوس فترة

من الفترات الجيدة في تاريخ الكنيسة. ففي ذلك الوقت «كان المؤمن يظهر على حقيقته فيذهب بشجاعة إلى الاستشهاد في الكنيسة. وعندما كنا نرجع من المدافن بعد أن نكون قد رأينا جثث الشهداء. كانت الكنيسة تجتمع كلها دون أن يحدث فيها اي تصدع ... ولكن مع ذلك كنا نرى العجائب. نعم كان المؤمنون الأمناء أقلية ولكنهم كانوا أمناء يتقدمون في الطريق الضيق الذي يؤدي إلى الحياة» (أوريجانوس في العظة الرابعة عن سفر إرميا)[1].

سفيروس يعطف على المسيحيين:

كان الاضطهاد منتشرًا وعنيفًا ولكنة استمر سنة واحدة فقط. والحق يقال أنه لو حذفنا فترة الاضطهاد هذه. لقلنا أن هذا الإمبراطور كان منحازًا للمسيحيين لا ضدهم. ويذكر ترتليان أنه كان يعاملهم معاملة حسنة. وفي مرة «طلب من أحد المسيحيين أن يشفيه من أحد الأمراض واستخدم إحدى المرضات المسيحيات لترعى الأمير الصغير كاراكلا (Caracalla). وقد كان هناك رجال ونساء في أرفع المناصب. وكان لهم مطلق الحرية في ممارسة شعائر دينهم وليس ذلك فقط بل أن الإمبراطور نفسه تدخل لإنقاذ جماعة من المسيحيين من أيدي الغوغاء الثائرين[*] ويذكر جيروم أيضًا كثيرًا عن صداقة سفيروس وكاراكلا للمسيحيين.

٢ - ترتليان (Tertullian)

كان ترتليان واحدًا من أبرز الشخصيات في الكنيسة المسيحية الأولى واول قائد عظيم في الكنيسة في شمال أفريقية. ولد في قرطاجنة حوالي ١٦٠م. وكان والداه من الأثرياء ولكنهما لم يكونا مسيحيين وقد أرسلاه إلى روما لدراسة القانون. وقد نال أعظم قسط من التعليم في الفلسفة والتاريخ. وكان يكتب باليونانية واللاتينية على حد سواء. أما عن اعتناقة للمسيحية فقد حدث حوالي ١٩٠م. في روما على الأرجح ومنذ ذلك الوقت كرس وقته وجهده لدراسة الكتابات المسيحية كما فعل من قبل مع القانون. ثم رجع إلى قرطاجنة حيث رسم شيخًا واستمر هناك إلى يوم وفاته ٢٢٤م.

ترتليان الكاتب:

كانت كتابات ترتليان هي أعظم ما قدمه للكنيسة. وقد كتب معظمها باللغة اللاتينية وكرس حياته لشرح العقائد المسيحية والدفاع عنها. وكانت كتابات حية مشوقة حتى في مناقشة المواضيع اللاهوتية العويصة كانت له القدرة على الوضوح والمتابعات المنطقية وكانت لدراسته القانون. وعمله كمحام الفضل الأول في صقل موهبته الكتابية الرائعة. وإلى جانب ذلك كانت معرفته بالفلسفة الرواقية معينًا له على اقناع المثقفين في عصره. فكان يكتب

(١) انظر Frend, W. H. C., *Martyrdom and Persecution in the Earty Church*. P. 241

(*) انظر نفس المرجع Ibid., P. 242

بحرارة موجهًا كلامه إلى شخص أو إلى موقف مستعينًا بالفلسفة والفطرة السليمة، وأصول التفسير كما كان يفعل المحامون في عصره لتأييد قضاياهم ولم يكن ثراء معرفة ترتليان قاصرًا على ذلك فقط، بل تعداه إلى الاقتصاد والصحة والفلسفة والتاريخ بل تناول الملابس وعادات العصر. ولولاه ولولا كتابه «ضد ماركيون» لكانت معرفتنا لهذا الهرطوقي ضئيلة جدًا، وليس ماركيون فقط بل كل الغنوسيين والدوستيين والمونتانيين الذين عاصرهم وكتب عنهم جميعًا.

ترتليان أبو الفكر اللاهوتي اللاتيني:

سمي ترتليان بحق أبا الفكر اللاهوتي اللاتيني لأنه كان المفكر الرئيسي الذي صاغ المصطلحات والتعبيرات التي سادت في الكنيسة الغربية. وقد اجتمعت في صفحات كتبه البلاغة والقانون والفكر اللاهوتي بل إن كل المصطلحات التي استخدمتها الكنيسة الغربية أو اللاتينية لأجيال طويلة، كان مصدرها ترتليان. وخير مثال على ذلك مصطلحات «سر» (sacramentum)، «الثالوث» (trinitas)، «الجوهر» (substantia) وغيرها من المصطلحات التي يستخدمها علم اللاهوت في وقتنا الحاضر، هي من ابتكاره.

ترتليان يشرح علم اللاهوت:

كان فكر ترتليان اللاهوتي امتدادًا لفكر المدافعين الأوائل وإيريناوس (Irenaeus) فإذا لم نستطع أن نقول أنه «مفكر لاهوتي مبتكر» فلا أقل من أن يوصف بأنه الرجل الذي يستطيع أن يشرح القضايا اللاهوتية ويقدمها بصورة مقنعة ببلاغته ومقدرته في استخدام المنطق استطاع أن يعمق مفهوم وعقيدة «المسيح الكلمة» التي كان لها تأثيرها البالغ في القرن الثاني الميلادي.

مبادئ فكر ترتليان اللاهوتي :

وصف ترتليان اللاهوت والناسوت في المسيح بأنه شخص واحد له طبيعتان تحتفظ كل منهما بخصائصها، طبيعة واحدة، جوهر واحد، قوة واحدة. ولكنه كان يعتقد أن الأقنومين الثاني والثالث في الثالوث المقدس خاضعان للآب، الأقنوم الأول يدافع عن عقيدة الخضوع هكذا:

«كيف يمكن تصور أن الله كلي القدرة غير المنظور الذي لم يره إنسان ولا يقدرأن يراه الذي يسكن في نور لا يدنى منه والذي لا يسكن في هياكل صنعة أيدي الإنسان، الذي ترتعد الأرض أمام هيبته والجبال تذوب كالشمع، الذي يمسك بكل العالم في قبضة يده الذي السماء كرسيه والأرض موطئ قدميه، الذي يحيط بكل حيز وهو لا يتحيز الذي يحيط بالحدود النهائية لكل الكون، أقول كيف أن العظيم المتعالي يسير عند هبوب ريح النهار في الجنة يفتش عن آدم... ويجلس تحت بلوطة إبراهيم من حرارة القيظ، وينادي على موسى من عليقة تحترق، ويظهر كرابع في أتون النار الذي أوقده ملك بابل... مالم تكن هذه الأمور صورة أو مثالاً أو مجازًا؟ وما كنا لنصدق أن هذه الأوامر تحدث حتى مع ابن الله ما لم تكن في الكتب المقدسة، لأن أولئك الهراطقة». ينزلون (الآب) إلى بطن مريم العذراء، ويوقفونه أمام كرسي بيلاطس، ويدفنونه في قبر يوسف... هذا كله لأنهم جهلوا أن كل تدبيرات الله منذ البدء قد اتخذت مجراها بواسطة الابن، أنهم يعتقدون أن الآب نفسه هو الذي رآه الناس وتكلموا معه وتعب وعانى من الجوع والعطش، بالرغم من قول النبي «لأن الإله الأبدي

لايجوع ولا يعطش» وبالأحرى وأنه لا يموت ولا يدفن. وهكذا يعتقدون أنه لم يوجد إلا إله واحد هو الآب. وهو الذي عمل الأشياء التي لم يقم بها – في الحق – إلا الابن[٢].

عقيدة ترتليان في المسيح:

عرف ترتليان المسيحية بأنها انبثاق المعرفة الدينية التي ترقد في أعماق النفس البشرية فلا يوجد إلا إله واحد هو إله بار. ومع أن العالم مملؤ بالشياطين التي تجذب الناس إلى الشر. إلا أن الكنيسة تعلن لنا عن طريق الخلاص. كل السلطان قد منح للكنيسة التي لها وحدها الحق كما توضحه عقائدها. ولها وحدها الحق في تفسير الكتب المقدسة. المسيحية هي ناموس جديد. فقد أعلن يسوع المسيح هذا الناموس الجديد والمواعيد الجديدة لملكوت السموات.

رأي ترتليان في الأخلاق:

لقد عالج ترتليان كثيرًا من القضايا الأخلاقية وترك لنا صورة من أوضح ما يكون عن تعاليم الكنيسة في السلوك الاجتماعي. كتب ضد الملاهي العالمية «فتلك الألعاب الرياضية في المصارعات التي كانت تقام تكريمًا للآلهة الوثنية. وكانت تثير المنازعات والغضب والمرارة والحزن وتشجع على الشر. ومن خلال هذه الألعاب لم تقترف الجريمة فقط. بل كانوا يعلمونها للغير»[٣].

رأي ترتليان في الإحسان:

أما من ناحية الإيجابية فقد أظهر ترتليان مدى اهتمام الكنيسة بأعضائها «عندنا خزينة الكنيسة يتبرع لها ويدفع فيها كل من يقدر مرة كل شهر. وهذه الأموال لا تستعمل في الحفلات والشراب بل لمساعدة الفقراء واليتامى والعجزة والمسيحيين الذين تحطمت سفنهم في البحر فأرسلوا إلى المناجم وسخروا في العمل هناك.أو نفوا إلى الجزائر أو وضعوا في السجون. ولهذا السبب يشير الناس إلينا ويقولون: «انظروا كيف يحب المسيحيون بعضهم بعضًا»[٤].

ترتليان وكتابة ضد الهراطقة:

أما أبلغ كتب ترتليان فهو رأيه فيما يجب أن يكون عليه موقف الكنيسة ضد الوثنية والهراطقة «لقد أدرنا ظهورنا للنظم الوثنية التي اعتنقها آباؤنا لأنه أي صلة بين أثينا وأورشليم؟ وماذا يربط الهراطقة بالمسيحيين؟ سحقًا لتلك المحاولات التي تحول المسيحية إلى مسيحية رواقية. أو أفلاطونية أو جدلية. فنحن لسنا في حاجة إلى تلك المجادلات بعد أن امتلكنا يسوع المسيح[٥].

وكانت ظروف هجوم ترتليان على الهراطقة واضحة فاتهمهم بأنهم اخترعوا أفكارهم. بينما

---

(٢) انظر *Terullian against Praxaeus*. Chap. 16, as quoted in H. C. McGiffert, *A History of Christian Thought*, Volume I, pp. 235-236.

(3) Latourette, *A History of Christianity*, P.244.

(4) John Foster, *Church History I, The First Advance*, (London, 1972), pp. 27-28 .

(5) Tertullin, *De Praescriptione*, 7, as quoted in W. H. C. frend, The Early Church, p.93.

الإيمان المُسلَّم مرة للقديسين هو إيمان مُسلَّم وليس مخترعًا. ورغم أنه كان فيلسوفًا إلا أن هجومه على الفلسفة ودورها في تشجيع الهراطقة كان قاسيًا: «لقد انخدع الهراطقة بالفلسفة. فهي المصدر الذي جاء فيه الأيون (aeons) . ولست أدري ما هي الأشكال والتركيبات الثلاثية في الإنسان التي يقوم بها فالنتينوس (Valentinus). (انظر صفحة.... الجزء الأول). ومنها أيضًا ظهر إله ماركيون. هذا الإله الذي تنبثق عظمته من عدم إحساسه بالآلام. لأنه جاء من تفكير الرواقيين. ولقد جاءت عقيدة فناء الروح من الأبيقوريين. وإنكار القيامة أصبح أمرًا عامًا بين الفلاسفة من كافة المدارس. وجاء الرأي بمساواة المادة بالله من تعليم زينو. أما أرسطو الحقير فهو معلمهم جميعًا في الجدليات في البناء والهدم. وتقلب الأفكار والمناقشات المتحجرة التي هي لعنة حتى إلى نفسها. مثيرة لكل قضية لئلا تعتبر قد أقفلت إلى الأبد. وإن شئت الحق فإن الفلاسفة هم الآباء الحقيقيون والأصليون للهراطقة[٦].

ترتليان يدافع عن الكنيسة ضد الدولة:

لقد أحس المسيحيون بضغوط السلطات السياسية الرسمية والشكوك التي تحوم حولهم رغم إن أقسى الاضطهادات كانت لاتزال طي المستقبل. لقد كانوا أقلية ينظر إليهم نظرة الارتياب والشك. وكان ترتليان من أفصح من احتج على تلك المعاملة الجائرة التي عوملوا بها: «إن كلمة المؤامرة يجب ألا تنسب إلينا. بل يجب أن تلصق بأولئك المتآمرين الذين ينفثون الكراهية ضد الناس الصالحين الطيبين. ويصرخون طالبين دم الأبرياء. وينسجون الخزعبلات تبريرًا لكراهيتهم فيتهمون ببلاهة المسيحيين بأنهم أصل المصائب القومية. وكل بلوى تصيب الناس. فإن فاض نهر التيبر فغطى الأراضي. وإذا لم يفض النيل ليروي الحقول. وإذا منعت السماء أمطارها. إذا حدثت الزلازل أو المجاعات أو الأوبئة. إذا حدث شيء من ذلك. صاح أولئك المؤتمرون: ألقوا بالمسيحيين إلى الأسود»[٧].

دماء الشهداء بذار الكنيسة:

ولكن إذا كان لابد من الاضطهاد. وأن ترتليان يواجه الخطر بكل شجاعة: «إلى الأمام. إلى الأمام أيها القضاة الطيبون فأنكم سوف تنالون تهليل ومديح الجموع الهائجة عندما تقدموننا على مذبح شهواتهم. اقتلونا. عذبونا. احكموا علينا اطحنوا عظامنا... ولكن كلما أردتم محونا ازددنا عددًا. فدماء الشهداء هي نوع من البذار[٨].

المسيحيون في كل مكان:

لقد تحدى ترتليان الكل وبرهن على أن المسيحيين يعظم أنتصارهم بالمسيح: «نحن لسنا إلا أبناء الأمس. ولكننا قد ملأنا كل الأمكنة التي تخصكم: المدن والجزائر والحصون والبلاد الصغيرة. والثكنات العسكرية ذاتها والقبائل ومجالس المدن

(6) Tretullin, ***Deanima 3***, XXX, p. 3.2, and Adversus Hermogenes 8, XLVIII, p. 135, as quoted by Turner in H. E. W. ***The pattern of Christian Truth***, pp. 217, 218.

(7) Tertullin, ***Apology 4.: 1-2***, as quoted by F. F. Bruce, *The Spreading Flame*, p. 18.

(8) Tertullian, ***Apology 50***, as, quoted by Philip Carrington, ***The Early Christian Church***, Vol. II, p. 398.

ومجلس الشيوخ والأسواق.. إننا لم نترك لكم إلا معابدكم»[9].

المسيحيون مواطنون صالحون:

ومع ذلك فقد جاهد ترتليان مع غيره من الكتّاب المسيحيين ليبرهنوا على أن المسيحيين مواطنون مخلصون بل هم أكثر إخلاصا من الآخرين لسبب واحد وهو لأنهم مسيحيون «نحن نصلي دائمًا للأباطرة. نطلب لهم عمرًا طويلاً. وحكمًا آمنًا. وبيتًا محروسًا. وجيوشًا باسلة. ومجلس شيوخ مخلصًا. وشعبًا أمينًا. وعالمًا هادئًا. وكل ما يتمناه القيصر أو أي إنسان آخر...

إننا نعلم علم اليقين أنه لولا الإمبراطورية الرومانية لانطلقت القوى الشريرة التي تهدد العالم ولانتهت الدنيا بما يتهددها من أخطار رهيبة... فعندما نصلي من أجل تأجيل هذه الكوارث. فأننا نصلي من أجل بقاء روما... أن لي الحق في أن اقول أن القيصر هو لنا أكثر مما لكم. وقد أقامه إلهنا في مركزه[10].

ترتليان يصبح واحدًا من المونتانيين:

قيل عن ترتليان بأنه واحد من الخوارج في التاريخ. فقد خرج على أهله. وعلى تراثه الديني الوثني. وعلى الثقافة الرومانية – اليونانية. وأخيرًا عندما تقدم به العمر خرج على كنيسته نفسها. التي استبسل في الدفاع عنها في سني حياته الأولى. لقد حزن على ما انتابها من التحلل الخلقي والطريقة التي قلدت بها العالم. وهذا الأمر جعله يقتنع بعقيدة المونتانيين الذين نادوا بمجيء المسيح ثانية سريعًا. ووجوب الاستعداد الصارم لهذا الرجوع. وبذلك صار ذلك الرجل الذي دفع بكل فصاحة وحماس عن سلطان الكنيسة ضد المونتانيين. وكان يبرهن بكل قوة على أن الكتب المقدسة. والتقليد هما الأساس الوحيد للحياة المسيحية. هذا الرجل أدار ظهره لكل ذلك. ونادى بالدور الحاسم للروح القدس في إرشاد الإنسان حتى في أعماله وقراراته اليومية: «وطالما بقي حكم الإيمان ثابتا. فما بقي بعد ذلك مما يختص بنظام الحياة وكيفيتها ينبغي أن يقبل التجديد والتصحيح بواسطة عمل نعمة الله إلى النهاية. لقد أرسل الرب الروح المرشد» Paraclete «لأن الحكمة البشرية لايمكن أن تفهم كل شيء فهمًا نهائيًا. ولذلك فهو يرشد التلاميذ ويتحكم في حياتهم ويكملها بواسطة الروح القدس نائب الرب»[11].

آداب ترتليان المونتاني:

كان مفهوم ترتليان للمونتانية يتلخص في أنها انسكاب للروح القدس يتمثل في الأحلام والرؤى والرسائل. انسكاب على مجموعة صغيرة من المؤمنين. وبذلك كان ينتقد المسيحيين الذين لم يدققوا في ملابسهم. وأقوالهم وسلوكهم. ثم نادى بأنه يجب أن توضع قوانين جديدة. تنفذ بالقوة بطريقة بيوريتانية (puritanical). وأنه

(9) ***Apology 37:4,*** quoted by F. F. Bruce, p, 181.

(10) Paul Johnson, ***A History of Christianity***, p. 70.

(11) Tertullian, ***De Virginibus Velandis I, P.L. 11:889*** as quoted by H. E. W. Turner, ***The pattern of Christian Truth***. P.314.

لاتوجد توبة لعبدة الأصنام والقتلة والزناة كلها خطايا للموت، ولا غفران لها حتى الزواج بدأ يتساءل فيه (مع أن ترتليان كان متزوجًا)، أما الزواج الثانى فهو ممنوع منعًا باتًا. وقد كتب خطابًا الى زوجته يحذرها من أن تتزوج مرة أخرى بعد موته. أما الصوم فيجب أن يكون أكثر مرارًا وأطول مدة، وأشد قسوة. والحياة يجب أن تكون تدريبًا على الاستشهاد، وانتظار نهاية الدهر الآتية سريعًا.

وبدأ ترتليان ينفصل تدريجيًا مع أتباعه عن الكنيسة الأم، وفي سنة ٢٢٠م اختفى، ولم يعرف عنه شيء، وقيل أنه مات في سنة ٢٤٠م وهو شيخ في الأيام.

Recommended English Readings

1. Boer Harry R. **A Short History of The Early Church,** pp.85 -87.
2. Carrington, Philip. **The Early Christian Church,** Vol. II, PP. 392- 399, 428- 429.
3. Danielou, Jean, and Marrou Henri, **The Christian Centuries, *Vol. I,* The First Six Hundred Years,** pp. 151 - 157.
4. Frend, W. H. C. , **The Early Church,** p. 92 - 94.
5. Lietzmann, Hans. , **A History of The Early Church, *Vol. II,*** pp. 216 - 225.
6. Walker, Williston. **A History of The Christian Church,** pp. 64 - 66.

الفصل الثالث
المشاكل الأخلاقية التي واجهت المسيحيين في القرنين الثاني والثالث



المسيحيون يعيشون كغرباء في العالم:

عندما بدأت الكنيسة تكبر وتنمو في العدد وتنتشر في كل مستويات المجتمع الروماني، بدأ المسيحيون كأفراد يواجهون اتخاذ قرارات حاسمة في علاقاتهم بذلك المجتمع. فكيف يتعاملون يوميًا مع الناس الذين يعيشون في مملكة أرضية بينما هم يعتبرون أنفسهم رعية ملكوت سماوي؟ وقد عبر أحد الكتّاب عن حالتهم فقال: «كل بلد أجنبي هو بلدهم هو بلد أجنبي لهم» .

الأحكام التي وضعت للمسيحيين:

كان معظم المسيحيين يسكنون المدن في تلك الأيام، وبالتالي فقد واجهوا على الدوام تحديات يومية الأسلوب الذي اختاروه لحياتهم:

١- فهل يشترون اللحم الذي في الأسواق وهم يعلمون أنه ذبح للاوثان؟

٢- هل يقلدون المجتمع في ملبسه وطريقة كلامه؟

٣- أين يذهبون لأجل التسلية؟ هل إلى حلبات المصارعة حيث تسيل الدماء أم إلى الملاعب العامة حيث الحديث البذئ الفاجر أم إلى البيوت العامة حيث السكر والعربدة؟

التجارب التي واجهت المسيحيين في المدن:

لم يتفق قادة الكنيسة دائمًا على تحديد الحلال والحرام في الحياة الاجتماعية، ولكن كانت هناك عدة أمور يجب على المسيحي أن يتجنبها، علاوة على التجارب العالمية الواضحة: فمثلاً:

١- لايستطيع النحات المسيحي أن يعمل في تزيين المعابد الوثنية ولا أن يصنع تمثالاً لإله وثني.

٢- لا يستطيع الأطفال المسيحيون أن يتعلموا في المدارس العامة حيث يعلمون الفلسفة الوثنية.

٣- كان من المشكوك فيه أن يذهبوا إلى المستشفيات العامة حيث كان الكاهن يصلي لأسكولابيوس إله الشفاء عند اليونان.

٤- كل مظاهر الفخفخة والزينة الشخصية رفضوها. فالنساء يجب ألا يكحلن عيونهم أو يصبغن خدودهن بالأحمر أو يتعطرن بالعطور. يجب أن تكون الملابس غير ملونة بل مجرد رداء أبيض للرجال والنساء على حد سواء

«غطاء السرير الناعم لايجلب النوم. الطاولة لاتحتاج إلى أرجل من العاج. ولا السكين إلى مقبض مرصع بالجواهر. فالرب يسوع لم يأت من السماء بطشت فضية ليغسل أرجل التلاميذ»[١].

المسيحيون يعارضون الحرب والقتل:

كانت الخدمة في الجيش الروماني من أعظم المشاكل التي واجهها المسيحيون ابتداء من نهاية القرن الثاني الميلادي. فكثيرون من الجنود الرومانيين قبلوا المسيحية. كثيرون من الشباب المسيحي ذهبوا إلى الجيش. أما قادة الكنيسة في ذلك العصر فلم يبد منهم ما يدل على أنهم كانوا يعارضون الخدمة العسكرية بهذا المعنى (ليست ثمة أدلة محددة لمعارضة الحرب). ولكنهم اعتبروا سفك الدم تحت أي ظرف من الظروف شيء فظيع مقيت. فالحرب كما رأوها تتعارض مع وصية الرب يسوع بأن يحبوا أعداءهم. وفي هذا الصدد قال يوستينوس الشهيد: «الكنيسة لاتعرف الحرب» و«المسيحيون مستعدون أن يستشهدوا ويقاسوا الآلام في سبيل شهادتهم للحق. ولكنهم لايقتلون الآخرين»[٢].

وقال ترتليان: «عندما آمر السيد بطرس أن يرد سيفه إلى غمده. فإنه جرد كل جندي سلاحه»[٣].

اما هيبوليتس (Hippolytus) في القرن الثالث في كتابه «التعليم الرسولي» (Apostolic Tradition) فقد شجب الخدمة العسكرية بقوة. وقال إن أي مسيحي معتمد. إذا دخل الخدمة العسكرية فإنه يحتقر الله. ويجب أن يطرد من الكنيسة. وإلى جانب ذلك فإن الجندي المسيحي لا يشترك في تنفيذ الإعدام في أحد. وإذا صدر إليه الأمر فيجب ألا يخضع له.

الحرب شيء لابد منه حتى المسيحيين:

ومع ذلك فقد اعتبر الحرب شيئًا لابد منه مادمنا في العالم الشرير. ولقد كتب أكليمندس يطلب من كل مسيحي أن يبقى في الحالة التي دعي فيها. وهذا ينطبق على الجنود أيضًا[٤]. وقد سبق أن ذكرنا أن ترتليان وعد بالصلاة من أجل الأباطرة لكي يعطيهم الله «جيوشًا باسلة». ووجود المسيحيين في الجندية كان يعتبر بركة للجيش الروماني. وقد ذكر يوسابيوس أنه في ١٧٣م وقعت فرقة من جيش مرقس أوريليوس في حصار من الأعداء قرب نهر الدانوب. فصلى الجنود المسيحيون في الجيش فثارت زوبعة رعدية ممطرة. فكان المطر سببًا في تجديد نشاط الرومانيين. لكن البرق جعل الأعداء يهربون. وهكذا سميت الفرقة «فرقة الرعديين».

(1) R. H. Bainton. *The Horizon History of Christianity,* pp. 63.66.

(2) Justin Martyr. *Dialogus with Trypho,* 11. and *Apology* 1.39

(3) .Tertullian, *De Corona Militus*.

(4) .Clement, *al Paed I,* 12.

الخدمة العسكرية كعبادة الأصنام:

أما أعظم مشكلة واجهت الجنود المسيحيين فكانت مشكلة الولاء. فالقسم العسكري كان يربط الجندي بالإمبراطور كالقائد الأعلى رباطًا غير مشروط. وهذا القسم كان وعدًا من الجندي بألايهرب من الجيش وأن يطيع كل أوامر رؤسائه وأن يموت في سبيل الإمبراطورية. وكان هذا القسم يكرر في ثلاثة مواقف:

١- يوم التحاق الجندي رسميًا بالجيش.

٢- في أول كل سنة.

٣- في عيد جلوس الإمبراطور على العرش.

وكان الجنود أيضًا يحرصون بشدة على الحفاظ على الرسميات[٥]. وكانت هذه الرسميات ترتبط بعبادة مثرا أحب العبادات إلى الجنود. وكان المسيحيون يعتبرونها عبادة أصنام.

ترتليان يشجب الخدمة العسكرية:

رأى آباء الكنيسة أن هذه الممارسات هي عبادة أوثان وإنكار للمسيح. ووجدوا أن الدور الذي تلعبه الديانة الوثنية في ممارسات الجيش كلها. دور مخيف فشجبها ترتليان بأسلوبه المعهود: «لايمكن أن يتفق عهد الولاء لله وعهد الولاء للبشر. المستوى الذي يتطلبه الله ومستوى الشيطان. معسكر النور ومعسكر الظلمة. كل الملابس الرسمية ممنوعة علينا لأنها علامة على دعوة ممنوعة بالنسبة لنا»[٦].

جندي شهيد:

في يوم ٢١ يوليو سنة ٢٩٨م وهو يوم عيد ذكرى إعلان ألوهية دقلديانوس وماكسيمان. أعلن جندي مسيحي اسمه مارسيليوس (Marcellus) أنه لن يستمر في خدمة الجيش. وأعلن ذلك بالبقاء منطقته العسكرية وحزام سيفه وعصاه وهو واقف أمام الرموز الرسمية ثم أشار إلى هذه الرموز العسكرية على أنها آلهة من أحجار وخشب. ثم أعلن أنه ما دام قد دخل في عهد مع المسيح فإنه لن يحتمل مرة أخرى الوقوف أمام تلك الرموز. فما كان من رؤسائه إلا أن اتهموه بإهانة المقدسات وحكموا عليه بقطع رأسه.

سيلسوس (celsus) ينتقد المسيحيين وأوريجانوس يرد عليه:

لم يكن استعفاء المسيحيين من الخدمة العسكرية بالأمر الهين في أعين الرومانيين فكتب سيلسوس الناقد الوثني يقول: «المسيحيون من الناحية السياسية. يعتبرون طفيليين لأنهم يرفضون أن يقدموا للحكام الذين يقومون بشئون الإمبراطورية ويدافعون عن سلامها. ليس فقط التكريم الذي يستحقونه بل الخدمة الواجبة أيضًا[٧].

وقال سيلسوس أيضًا أنه سلك كل الناس مسلك المسيحيين لانهارت الإمبراطورية أمام الذين ليحكمهم أي قانون. وقد أجاب أوريجانوس على نقده بقوله:

(٥) الرسميات أو الرموز الرسمية يقصد بها العلم أو الشارة معلقة في عصي كان يحملها الجنود باسم الأباطرة أمام الجيش في ميدان القتال.

(6) Tertullian ***De Corona Militus II***.

(7) Origen , ***Contra Celsus,*** VIII. 55.

بينما يذهب الناس الآخرون إلى الحرب، فإننا نحن النادرون فيها، لأننا ككهنة وكعبيد لله نحفظ أيدينا نظيفة. ونصلي لله من أجل الهدف النبيل والملك الشرعي... إننا بصلاتنا نكون جيشًا حقيقيًا جيش التقوى الذي يقدم خدمة للإمبراطور أشرف من كل مايقدمه له جنودة الآخرون»[٨].

Recommended English Readings

1. Bainton, Roiand H. ***The Horizon Hestory of Christianity,*** pp. 63-66

2. Danielou, Jean, and Henri Marrou. ***The Christian Centuries, Vol. I, The First Six Hundred Years,*** pp. 173-180.

3. Helgeland, John. «Christians and the Roman Army – AD 173-337» ***Church History Quarterly,*** (June 1947) pp. 151-154.

4. Latourette, K. S. ***A History of Christianity,*** pp.242-245.

5. Von Campenhausen, Hans. ***Tradition and Life in the Church.***ch. 7, ***«Christians and Military Service in The Early Chuech ,»*** pp. 160-170. London: Collins, 1968.

(٨) المرجع السابق ٧٣.

الفصل الرابع

النضال بين عقيدة المسيح الكلمة وبين اللاهوت الملكي



التفكير اللاهوتي الملكي (Manarchian):

العلاقة بين الله الآب والمسيح الابن:

حوالي نهاية القرن الثاني الميلادي وابتداء القرن الثالث كان علماء اللاهوت يدرسون بتعمق أكثر ذلك السؤال الشائك الذي واجههم والمختص بالعلاقة بين الله الآب والمسيح الابن. فالعقيدة الثابتة الراسخة عند المسيحيين هي أن يسوع هو المسيح ابن الله مخلص العالم. ولكن الرسل وكل من عرفوا يسوع في الجسد وتكلموا معه ولمسوه قد ماتوا. وابتدأ بعض الناس في أماكن مختلفة يتساءلون كيف يمكن هذا؟ هل بقي الله في السماء بينما يسوع يقوم بعمله على الارض؟ هل كان يسوع أزليًا وفي مساواة مطلقة بالله في سلطانه ومجده؟ هل كان الاثنان منفصلين ومتحدين في نفس الوقت؟ واذا كان المسيح مساويًا لله الآب فكيف ترك المسيح السماء إلى الأرض؟

عقيدة المسيح الكلمة (Logos Christology):

إحدى الإجابات على تلك الأسئلة تعرف «بعقيدة المسيح الكلمة». هذه العقيدة كما وردت في كتابات المدافعين[1] ترتليان وهيبوليتس وصفت المسيح بالوصف الذي جاء في الإنجيل الرابع بأنه كلمة الله صار جسدًا. وقالوا أن الذي تجسد في يسوع لم يكن هو الآب الأزلي، ولكنه الكلمة أو العقل الأبدي الذي ولد في عقل الآب. وكان يسكن أساسًا في ذاته ثم عمل في الخليقة. لقد انطلق من عند الآب كما ينطلق المجرى من الينبوع أو شعاع الضوء من الشمس. وهو مثل الآب ولكنه مختلف عنه وهذا هو السر الأعظم»[2].

---

(١) المدافعون هم آباء الكنيسة الذين ظهروا في القرن الثاني ليدافعوا عن الإيمان المسيحي أمام الرومانيين وضد الهراطقة.

(2) Philip Carrington *The Early Church, Vol. II*, p. 414.

الخضوع (Subordination):

ولكن جماعة أخرى من المفكرين بدأوا ينتقدون هذه العقيدة لأنها جعلت الابن في درجة أقل من الآب أي خاضع له. واعتقدوا أن المخلص لابد أن يكون مساويًا للخالق. واهتموا كثيرًا بأن يبرزوا لاهوت المسيح الكامل لأن هذا «عقيدة المسيح الكلمة»... انتقصت بكيفية ما من لاهوت المسيح الابن.

التفكير اللاهوتي الملكي (Monarchian Theology):

لهذا ظهرت مدرستان فكريتان حاولتا أن تجدا تفسيرًا أوفق للعلاقة بين الآب والابن وقد أطلق على المدرستين «الملكيين» بمعنى أن هذه العلاقة يسيطر عليها الله الآب ولكنها تحاول أن تسمو بأهمية الابن.

الملكية الديناميكية (Dynamic Monarchianism):

والتي يطلق عليها أيضًا «التبني» (Adoptionism) بدأها وحدد معناها رجل اسمه ثيودوتس (Theodotus) من بيزنطة ولكنه رحل إلى روما سنة ١٩٠م. ونادى بأن يسوع كان إنسانًا ولد من العذراء. وكانت حياته مقدسة. وحل عليه المسيح الإلهي (أو الروح القدس) عند المعمودية. ولكن بعض الذين يعتنقون هذه العقيدة يقولون أن يسوع نفسه صار إلها بعد قيامته. لقد أظهر يسوع في حياته الصفات الإلهية بكيفية فائقة جعلت الله يتبناه. لقد بدأ كإنسان. ولكن كانت له الصفات الخاصة. فكانت إرادته في توافق تام مع إرادة الله حتى أنه تقوى وتمجد بطريقة إلهية وصار ابن الله. وعند الملكية الديناميكية كان يسوع انسانًا وصار إلهًا وليس الله صار إنسانًا.

بولس الساموساتي (Paul of Samosata):

لم يحظ ثيودوتس وأتباعه بأي قبول عند الكنيسة الغربية نظرًا لاعتناقه عقيدة «التبني» (Adoptionism). ولكن بولس الساموساتي الذي كان ينادي بنفس العقيدة (وهو أسقف أنطاكية ٢٦٠- ٢٧٣). فقد كان أكثر منه توفيقًا في الكنيسة الشرقية. ذلك فقد فحصت أراؤه أمام ثلاثة مجامع. وأخيرًا رفضت واعتبرت هرطقة.

الملكية الانتحالية (Modalistic Monarchianism)

وتسمى أيضًا (Patra Passionism) (معناها «الآب يتألم») والسابليانية (من اسم سابليوس). هذه الجماعة كادت تضع الابن على قدم المساواة مع الآب تقريبًا وشرحوا العلاقة بين الله والابن والروح القدس بقولهم أن الآب قام بعمله في ثلاث صور أووظائف مختلفة. مثله في ذلك مثل الممثل الذي (يلبس على خشبة المسرح ثلاثة أقنعة مختلفة حسب الدور الذي يؤديه. وقد استخدموا الكلمة اليونانية (Prosopon) والتي تعني قناع الوجه على المسرح). فالله يعلن نفسه بطرق مختلفة حسب الظروف فكان هو المعطي الناموس في العهد القديم. وكابن تجسد وكالروح فهو ملهم الرسل. فعند الانتحاليين» كان يسوع الله صار انسانًا وليس انسانًا صار إلهًا.

أما الخطأ في عقيدة الملكيين الانتحاليين. وبخاصة فيما يتعلق بالمسيح فكان خطيرًا فهي تعني أن الله الأسمى خالق الكون قد ولد من عذراء. وعاش كإنسان بين الناس وتألم ومات على الصليب. ولقد كتب ترتليان يصف واحدًا من هذه الجماعة اسمه براكسياس (Praxeas) قائلاً «لقد قام براكسياس بعملين من أعمال الشيطان في

روما. فقد طرد النبوة وأتى بدلاً منها بالهرطقة. لقد طرد الروح القدس وصلب الآب»[3]. ومن الناحية الأخرى كتب هيبولتيس (١٧٠- ٢٣٦). وقد كان من أعنف المهاجمين لهذه الجماعة. كتب يقول عن شخص اسمه كليومينس» لقد أعلن كليومنس (Cleomenes) وأتباعه أن المسيح هو إله وأب الكون».

رفض الملكية الانتحالية:

استخدمت هذه الجماعة كثيرًا من الشواهد الكتابية للدفاع عن موقفهم مثل:» أنا والآب واحد» (يو ٣٠:١٠) «من رآني فقد رأى الآب» (يو ١٠:٠-٣٠) «من رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩) «الله كان في المسيح مصالحًا العالم لنفسه» (٢ كو ٥ : ١٩)..إلخ. ولكن النتائج التي وصلوا إليها كانت متطرفة رفضتها الكنيسة. وقيل عنهم أنهم أرادوا أن يدافعوا عن ألوهية المسيح على حساب ألوهية الآب.

ولقد نشب الصراع بين المدافعين عن عقيدة الكلمة (Logos)، والمدافعين عن الملكية في سبيل إيضاح هذا الموضوع الأساسي في الفكر اللاهوتي المسيحي، وبذلك دخلوا بالكنيسة إلى عصر جديد. كان ممكنًا أن تحل بعض المشاكل، ولكن الكنيسة انقسمت انقسامًا لم تتحد بعده أبدًا.

Recommended English Readings

1. Megiffert. A. C. ***A History of Christian Thought, Vol. l,*** pp. 232 - 245.
2. Walker, Williston. ***A History of the Christian Church***, pp. 67-71.

(3) Tertullian, ***Against praxias l. Hippolytus, Refutation of All Heresies,*** IX, 1.

الفصل الخامس
المسيحية في الإسكندرية



الإسكندرية مركز للحياة المسيحية:

كانت الإسكندرية واحدة من أعظم مدن البحر الأبيض المتوسط. وكانت أيضًا مركزًا للثقافة الهيلينية. كما كانت عاصمة عالمية جاء إليها أصحاب الفلسفات والعقائد المتنوعة ليدرسوا في مراكزها العلمية. وكانت مكتبتها الشهيرة لاتضارعها مكتبة أخرى في العالم. أما عن كنيستها فلا شك في أنها كانت كنيسة نشيطة رغم أن السجلات التاريخية صمتت صمتًا غريبًا عن ذكر شيء عن الحياه فيها. ولكن منذ نهاية القرن الثاني يظهر الكثير من الحياة والفكر المسيحي بدرجة تجعلنا نندهش لماذا لم يسجل المؤرخون تاريخ الفترة المبكرة التي تصل إلى قرنين. أو لماذا اندثرت كتابتهم عنها؟

المدرسة اللاهوتية:

في ذلك الوقت (نهاية القرن الثاني) ظهرت مدرسة لاهوتية يديرها ويرأسها شخص اسمه «بانتانيوس» (Pantaenus). يقول عنه تاريخ الكنيسة المصرية أنه كان مرسلاً إلى الهند. ولانعرف إلا القليل عن هذه المدرسة. والأرجح أن الكنيسة أقامتها لتواجه المدارس الوثنية والهرطوقية الأخرى. وبخاصة مدارس الغنوسيين. ولتواجه أيضًا الفكر الوثني والفلسفة اليونانية كما كان منتشرًا في الإسكندرية. ولقد لعبت هذه المدرسة دورًا هامًا في تطور الكنيسة ففيها تعلّم اثنان من أعظم مفكري المسيحية: أكليمندس الإسكندرى وأوريجانوس.

١- أكليمندس (Clement)
(١١٥-٢١٥م.)

حياة أكليمندس

ربما كان هذا الرجل أكليمندس الذي أطلق عليه لقب «الشيخ المبارك» من أصل أثيني. وكان وثنيًا في حياته ودرس فلسفة أفلاطون ولكنه تجدد وصار مسيحيًا في الإسكندرية. والتحق بالمدرسة اللاهوتية ثم أصبح بعد بانتانيوس رئيسًا لها. ولكن عندما بدأ الاضطهاد الذي شنه سبتيموس سفيروس (٢٠٢-٢٠٣) ترك أكليمندس الإسكندرية وسافر إلى أورشليم وأنطاكية ولعله ظل هناك إلى أن مات.

أكليمندس يربط الفلسفة باللاهوت:

كان أعظم ما أسداه أكليمندس في مجال الأبحاث اللاهوتية - مع أنه لم يكن صاحب مدرسة لاهوتية - أن الفلسفة والدين يتفقان ولا يتضادان. فلم يكن كترتليان الذي هاجم الفلاسفة. لكنه رأى في الفلسفة وسيلة لفهم الإيمان المسيحي وبخاصة معرفة الله. لقد قرأ وبحث في كل مجالات الفكر والآداب والبحوث العلمية اليونانية. وكان يؤمن بأنه يجب على المسيحيين أن يستطيعوا تفسير رسالتهم في أساليب وعبارات مفهومة للثقافة التي يعيشون في وسطها فيقول: «إذا أرادت المسيحية أن تنتشر في العالم اليوناني فيجب عليها أن تخلع لباسها السامي وتلبس لباسًا يونانيًا وتتكلم لغة أفلاطون وهوميروس»[1]. وقد فعل ذلك فوضع علم اللاهوت القويم في شكل وثوب جديد! وكان ضليعًا فأمكنه أن يفعل ذلك دون المساس بالعقائد الأصلية. فنجد في كتاباته النبوة اليهودية، والفكر اللاهوتي المبني على اللوجوس، وكتابات الرسل... إلخ. لذلك فقد اعتبره الكثيرون متأهلاً أو «متحررًا» إذ يربط الفلسفة بالإيمان فلم يضعوا اسمه في قوائم آباء الكنيسة الأوائل.

وأهم أعمال أكلميندس المعروفة هي: «بروتربتيكوس» (Protreptikos) - دعوة إلى الوثنيين - «باداجوجس» (Padagogos - المعلم أو المرشد الأبناء)، (ستروماتايس Stromateis- السجادة أو أفكار متنوعة).

موقف أكليمندس من الفلسفة:

لم يقبل أكليمندس الفلسفة بدون أن ينقدها ولكنه كثيرًا ما كان عنيفًا في نقده لبعض أتباع أفلاطون ومذهب المتعة عند الأبيقوريين. وقال مرة عن السفسطائيين «أنهم كالأحذية القديمة - بليت كلها ما عدا ألسنتها». وكان يفضل أن «يسخر» الفلسفة، بمعنى أنه لم يكن يقبل كل ما كان يبشر به الرواقيون والأفلاطونيون والأبيقوريون وأتباع أرسطو، ولكنه استخدم كل ما هو صالح من أقوال جميع المذاهب مما يدعو إلى البر والتقوى» (Strom 1:7).

قيمة الفلسفة

شرح أكليمندس قيمة الفلسفة فيما يأتي: «إن كانت الفلسفة اليونانية لاتستطيع أن تدرك الحق في كماله... لكنها - على الأقل - تمهد الطريق للتعليم الملكي... وذلك بأن تجعل الناس منضبطين وذلك بتشكيل أخلاقهم، وجعلهم مستعدين لقبول الحق». (ستروماتوس ١:٨٠). وكان يعتقد أن أفاضل الفلاسفة قد أخذوا معرفتهم من الله بطريقة العهد القديم، وقد شرح ذلك في «الأستروماتوس» (١:٥) بقوله: «الله هو مصدر كل الأشياء الصالحة، ولكن «أساسًا» لبعض منها كالعهد القديم والعهد الجديد. (وثانويًا) بعض الأشياء الأخرى كالفلسفة. فمثلاً أعطى الله الفلسفة لليونانيين أساسًا ومباشرة إلى أن يأتي الوقت الذي فيه يدعو الرب اليونانيين. فكانت الفلسفة لليونانيين كالناموس لليهود مؤديًا لهم إلى المسيح. وقد وصل أكليمندس إلى حد قوله: «

(1) Danielou & Marrou : *The Christian Centuries* vol.I, *The First Six Hundred Years*, p. 132.

لقد رأى أولئك الفلاسفة اليونانيين الله عن طريق الصور والرؤوس المباشرة» (إستروماتوس ١٩:١).

متوازيات فلسفية

وقد حاول أكليمندس أن يشرح عدم تناقض الفلسفة مع الدين بواسطة المتوازيات. فكان يستخرج من الأساطير اليونانية القصص التي تشابه قصص العهد القديم. مثل الخلق والسقوط والطوفان وبرج بابل. وكما كان «مينوس» (Menos) وسيط الشريعة للكريتيين. هكذا كان موسى لليهود. وكان أورفيوس يعزف على القيثارة قبل داود ورأى في قصة عوليس (Ulysses) في الأودسة الذي كان عليه أن يبحر مارًا بالجنيات المغنيات تشبيهًا لرحلة الإيمان فقال «تجلس جنيات البحر على الصخور وتغني أغاني العالم حتى تدعو للمتعة الدنيوية» ولكن المسيحي يجب أن يظل في السفينة التي يقودها «الكلمة» ويربط نفسه. كما فعل عوليس. بالصاري. وهكذا يصل سالمًا إلى الميناء السماوي[٢] بل لقد شبه الصلة بين الفلسفة اليونانية والعهد القديم بالصلة التي كانت بين زوجتي إبراهيم سارة وهاجر.

غنوسية أكليمندس المسيحية:

كانت أهم قضية تشغل بال أكليمندس هي تلك التي اختار أن يسميها «الغنوسية المسيحية» فكما سبق أن رأينا كانت الإسكندرية مركزًا للتعاليم الغنوسية. وكان موقف أكليمندس منها ليس رفض كل مفاهيمها ولكنه قال أن هناك غنوسية صحيحة تختص بيسوع المسيح. وكما يأخذ الإنسان نسمة روح الله عند خلقه. هكذا يستطيع أن يجد الطريق إلى معرفة الله المعرفة الكاملة باتباعه وطاعته ليسوع المسيح. هذا هو خلاص الانسان الذي يتطلب تدريبًا طويلاً وشاقًا في السيطرة على النفس بواسطة الصلاة والتأمل مدفوعًا بمحبة الله. فمحبة الله هي العلاقة المميزة للغنوسية المسيحية. هذه المحبة يجب أن تظهر بشكل ظاهر في الولاء لعضوية كنيسة الله. ولقد اعتقد أكليمندس أنه بواسطة معرفته الغنوسية. أن يفتح الطريق إلى السماء ويشارك الملائكة حول عرش الله. بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك بقوله: أن الغنوسي المسيحي يصبح مثل الله. عندما يسترجع صورة الله التي فقدها في جنة عدن. فالمعرفة تعطي الخلاص. فهما لاينفصلان ولو خير الغنوسي المسيحي الصادق بين الاثنين لاختار معرفة الله وليس الخلاص (إستروماتوس ١٧: ٢٢).

تأثير الأفلاطونية:

نستطيع أن نعرف تأثير الفكر الأفلاطوني والغنوسي على فكر أكليمندس اللاهوتي بصورة أكثر وضوحًا في هذه المقتطفات:

«إن الذبيحة المقبولة لدى الله هي التجرد الدائم من الجسد وشهواته فهذه هي التقوى الحقيقية. ولذلك ألم يكن سقراط محقًا عندما قال أن الفلسفة هي ممارسة الموت؟ لأن الذي لايستخدم بصره عندما يفكر ولا يستعين بشيء من الحواس الأخرى. بل يصل إلى الأشياء بالعقل المجرد. هو الذي يتبع الفلسفة الصحيحة» (إستروماتس VI:١١).

(2) H. Leitzmann. ***A History of The Early Church***. Vol II. p. 281.

نستطيع إذًا أن ندرك طريق التطهير بالاعتراف وطريق التأمل بالتحليل، فنزيل من الجسد امكاناته الطبيعية ونجرده من أبعاده: العمق ثم الاتساع ثم الطول... فاذا نمينا كل ما هو للجسد، حينئذ نلقي بأنفسنا في بحر المسيح الزاخر ثم بالطهارة نتعمق في الفضاء، فنستطيع بكيفية ما أن نصل إلى فهم القدير بمعرفة ما هو بل ماليس هو فلا الشكل ولا الحركة ولا الوقوف ولا العرش ولا الجلوس ولا اليمين ولا اليسار يمكن أن تنسب إلى الآب بتاتًا مع أنها مكتوبة. ولكن ماذا يعنيه كل من هذه الأشياء المكتوبة سوف يظهر في مكانه اللائق. فالمسبب الأول ليس في الفضاء بل يسمو على الزمان والمكان والاسم والفهم (إستروماتوس ٧ : ١١).

مكان الإيمان

كان أكليمندس يعترف بأن هناك مكانًا للإيمان، ولكنه اعتبره أقل منزلة من المعرفة فالذين لهم الإيمان دون المعرفة هم اقل شأنًا من الذين لهم المعرفة. ومع ذلك فقد قال إن هناك مكانًا في الكنيسة للناس ذوي الإيمان البسيط وعلى الآخرين الاحتراس من أن يعثروهم. ولقد كان أكلمينندس ينتقدهم بشدة ردًا على نقدهم هم له، وقد استخدم في الحديث عنهم أسطورة عوليس اليونانية فقال:

يلوح لي أن غالبية من يدعون أنهم مسيحيون يشابهون أصحاب عوليس. فهم يقتربون من العقيدة مثل الفلاحين الذين يخافون المرور بجنيات البحر (المغنيات المغويات) دون أن يقفلوا أذانهم لأنهم يعرفون ماذا يحدث لو أصغوا إلى دروس اليونان، فلا يمكن أن يرجعوا مرة أخرى إلى بيوتهم أنهم يدعون أنهم يمتلكون الإيمان - فقط وليس سوى الإيمان - وكأنهم يظنون أنهم يجتنون العنب دون أن يهتموا بالكرمة»

عقيدة أكليمندس في المسيح الكلمة:

تعتبر عقيدة المسيح الكلمة واحدة من ميزات فكر أكليمندس، فالمسيح هو المعلم الحقيقي الذي يعطي الناس «الكلمة» التي تقودهم إلى الحرية من الخطية، وإلى البر والخلود. والكلمة (المسيح) هو فوق عالم البشر وفي عالم البشر، فهو سماوي بل الله نفسه وليس أقل من الله أو تابعًا لله. فالكلمة «يخلق الله ويحكم ويعلن. والله في ذاته بعيد جدًا، ولايمكن الوصول إليه، ولكنه في «الكلمة» قريب ويحيا في كل كائن. ولقد قبل أكليمندس قصة الأناجيل عن مولد المسيح وحياته وموته وقيامته وصعوده، ولكنه لم يستطع أن يكوّن عقيدة واضحة للخلاص فيها تلعب آلام المسيح وموته دورًا فدائيًا، ولكنه اعتقد بأن «الكلمة» اتخذ له جسدًا وظهر في يسوع المسيح ليعلم الناس بأكثر وضوح واقناع وبواسطة المثال الذي يعطيه في حياته، يؤثر في الناس لكي يختاروا طريق الحياة بدلاً من الموت. وكان أكليمندس يضع أمامه مثالاً فلسفيًا لا يعرف الألم، وهذا ما جعله يتصور كمال المسيح بهذه الكيفية» فهو (المسيح) نفسه كان غير معرض للانفعال، ولم تدخله أية حركة عاطفية سواء سرورًا أو ألمًا (إستروماتوس VI). ولهذا السبب فلم يكن للعمل الفدائي الذي قام به المسيح على الصليب ولا للعبادة التي بنيت عليه مثل العشاء الرباني، وتقديم المسيح نفسه كفارة أي لم يكن لشيء من ذلك أهمية كبرى في فكر أكليمندس.

موقف أكليمندس من الكتاب المقدس:

كتب أكليمندس يقول إن الكتاب المقدس نافع لكل مسيحي، ولكن لا يعرف عمقه أو حقائقه بالكامل إلا المسيحي العارف (Gnostic). ولكي يفهم المعنى الأعمق للكتب المقدسة عليه أن يستخدم كل علوم الفلسفة والأخلاق وعلم النفس والطبيعة وماوراء الطبيعة. فهذه الوسائل يستطيع المسيحي العارف أن «يستخرج من الكتاب المقدس كل المعرفة. يعرف الماضي والحاضر والمستقبل، ويصل إلى كل هذه» (إستروماتوس VI) والمسيحي العارف «لايصغي فقط إلى كلمات الكتاب المقدس، ولكنه يفتح نفسه لما هو مستتر تحت الكلمات من حقائق يكتشفها وأعمال يقوم بها» (إستروماتوس VII) .

أكليمندس والصلاة:

ولقد كرر أكليمندس على حياة الصلاة فوصفها بأنها شركة مع الله: نعيش كل حياتنا كأننا في عيد. واذ نعرف أن الله حاضر في كل مكان، فاننا نسبح ونحن نعمل في الحقل ونرنم ونحن نبحر في البحر ... والمسيحى العارف (Gnostic) يعيش قريبا من الله... يسمع دائما كل أنات القلوب... المسيحى العارف (Gnostic) يصلى كل أيام حياته مجاهد في الصلاة لتكن له شركة مع الله.

أكليمندس والاستشهاد:

كان كل مسيحي في ذلك العصر يشعر بأنه يمكن أن يموت من أجل الإيمان مع أن أيام الاضطهاد المروع لم تكن قد حانت. وكانت الرغبة في الاستشهاد عند البعض قوية لدرجة أنهم قاموا بأفعال غير عادية حتى يقبض عليهم ويعترفون. ولكن أكليمندس كان شديد الانتقاد لهذا «الهوس الاستشهادي» «إننا نقول إن أولئك الذين يركضون إلى موتهم (...هناك جماعة يشاركوننا الاسم يسرعون إلى تسليم أنفسهم - أنهم يتسابقون إلى الموت لأنهم يكرهون الخالق)، نقول أنهم يتركون الحياة ليس كشهداء حتى ولو وقع بهم القصاص علنًا أمام الناس. إذ أنهم لا يحملون العلامة الصحيحة للاستشهاد لأنهم لايعرفون الله الحقيقي فيقدمون أنفسهم للموت الزؤام كما يفعل فقراء الهنود الذين يلقون بأنفسهم للنار الملتهبة» (إسترومانوس IV:٤).

وكان أكليمندس يؤمن بأن الاستشهاد الصحيح هو الذي يتحمله الإنسان عندما لايكون هناك مفر منه في نهاية حياة كرست بتمامها لمحبة الله. فالمحبة لله تتطلب الألم وفي نفس الوقت تتطلب حفظ وصاياه وتفهمها. ولهذا فالاستشهاد عند أكليمندس هو عمل يومي يتضمن الكلمات والحياة والسلوك، كل الإنسان. ومن السهل تمامًا أن ندرك أن هذه الكلمات كانت هي البذار الذي أنتج حياة الزهد والحركة الرهبانية التي أطلق عليها الاستشهاد الأبيض».

أكليمندس يربط الفلسفة الهلينية بالفكر السامي:

هناك بعض نقط الضعف في تفكير أكليمندس، كما أتضح لنا من قبل. ومن السهل أن ندرك لماذا لم يعتبر «أرثوذكسيًا» له فكر لاهوتي متكامل، ولكنه اهتم بمجموعة من الأفكار اللاهوتية قبل المعرفة والمحبة وكتب عنها بكل عواطفه كتابة رائعة، كان رجل زمانه لأنه استطاع أن يسخر الإمكانات

المعاصرة والفلسفة ليربط بين الفكر الهليني والفكر السامي في الأسفار المقدسة (Se-mitic) ووضع أسلوبًا في الفكر اللاهوتي تأثر به علماء الإسكندرية والشرق لسنوات طويلة لاحقة على الأخص. فتح طريقًا لرجل عظيم فاقه في العلم هو أوريجانوس.

Recommended English Readings

1. Al Masry, Iris Habib. ***The Story of the Copts***, pp.25.(also in Arabic).
2. Carrington, Philip. ***The Early Christian Church. Vol. ll,*** pp. 404-412.
3. Danielou, J. and Marrou, H. ***The Christian Centuries. Vol. 1, The First Six Hundred Years***, pp. 127-133.
4. Frend W. H. C. ***Martyrdom and Persecution in The Early Church,*** pp. 258-267.
5. Latourette K.S ***A History of Christianity.*** pp. 146-148.
6. Lietzmann Hans. ***A History of The Early Church, Vol. ll,*** pp. 274-294.
7. Mcgiffert, A. C. ***A History of Christian Thought, Vol. l,*** pp. 177-207.
8. Walker, Williston. ***A History of The Christian Church.*** pp.72-73.

٢- أوريجانوس

أ- حياة أوريجانوس

حياة أوريجانوس الأولى:

يرجع الفضل إلى المؤرخ يوسابيوس (في كتابه السادس من تاريخ الكنيسة) في أنه زودنا بمعلومات كثيرة عن حياة أوريجانوس تفوق ما نعرفه عن أكليمندس فقد ولد في عائلة مسيحية غنية في الإسكندرية سنة ١٨٥م. وأظهر تفوقه في سن مبكرة. وقد نال قسطًا وافرًا من التعليم في منزل والديه. ولكن أباه مات شهيدًا سنة ٢٠٢م. عندما شبت نيران اضطهاد سبتموس سفيروس ضد المسيحيين. وكان أوريجانوس يشجع أباه على الثبات على المبدأ. وبعد موته أراد أن يقتفي أثره ويلقي بنفسه في نار الاستشهاد. لولا أن أمه أخفت عنه ملابسه حتى لا يذهب الى الموت بقدميه وكان الخجل من الجري عاريًا في الشارع أقوى من خوف الموت. فمنعه من ذلك ومنذ ذلك الوقت نشأ أوريجانوس في بيت امرأة غنية لأن كل ممتلكات أبيه صودرت. وفي ذلك المكان بدأ يتعرف على الغنوسية وبدأ يتعلم كيف يحارب ضدها.

أوريجانوس المعلم:

كان أوريجانوس صغير السن عندما بدأ يتكسب عيشه من إعطاء دروس في كافة العلوم لطالبي العلم الذين كانو يأتون إليه في منزله. وفي نفس الوقت كان يعلم مبادىء المسيحية بالرغم من تهديدات الرؤساء. أما المدرسة اللاهوتية فقد أغلقت أبوابها بعد أن ترك أكليمندس البلاد. لهذا بدأ تلاميذها يتجمعون حول أوريجانوس. وبعد أن أعترف الأسقف ديمتريوس بمدرسة» أوريجانوس. كيف كف هذا المعلم الماهر من إعطاء الدروس في مواضيع أخرى. وانقطع للتعليم الديني. وكان مرتبه صغيرًا. فعاش عيشة الكفاف في كل شيء. وصار مثالاً في حياة الزهد. مكتفيًا بأقل القليل من الطعام واللباس وحرم على نفسه حتى النوم. وبلغت به حماسته المثالية جدًا جعله يفسر كلمات المسيح في متى ١٩:١٢ تفسيرًا عمليًا طبقه على نفسه. وحالاً صار أوريجانوس معروفًا معرفة كاملة في الإسكندرية نظرًا لبراعته في التعليم ولحياته الصارمة فأتخذ له مساعد اسمه «هيراكلاس».

أساتذة أوريجانوس:

يذكر يوسابيوس أن أوريجانوس كان تلميذًا لأكليمندس. ويبدو هذا أمرًا طبيعيًا لولا أن أوريجانوس لم يذكر اسم أكليمندس ولو مرة واحدة في كتاباته مع أنه بالتقدير «بانتينوس» (Pan-tainos). ويخص بالتقدير الكبير فيلسوفًا وثنيًا اسمه «أمونيوس سكاس» (Ammonios Sak-kas) لأنه علمه فلسفة أفلاطون. ولقد ساعده على التفقه في هذه الفلسفة الأفلاطونية التي كان لها أكبر الأثر في كتاباته اللاهوتية.

طريقة أوريجانوس في التعليم:

في تلك الأيام (قبل اختراع الطباعة بقرون كثيرة) كان التعليم عن طريق التلقين الشفوي كما كان يفعل سقراط. وكان أوريجانوس يفعل ذلك إذ أوتي موهبة الشرح المنطقي والإيضاحات المعبرة الحية التي تجعل الدرس ينبض بالحياة أمام التلاميذ المجتمعين عند قدميه. ولقد حفظ التاريخ تقديرًا كبيرًا له من شخص اسمه «جريجوري توماتورجس» (Gregory Thaumatourgus) الذي صار فيما بعد رسولاً لأرمينية) إذ يقول عنه في

وصف تدريسه إن أوريجانوس يقود تلميذه خطوة خطوة حتى يصل به إلى أعلى مستوى من التعليم الفلسفي. كان يبدأ بالتفكير الفلسفي البسيط ثم يستخدم طريقة سقراط في السؤال والجواب، ثم يدخل بالطالب إلى المنطق والحوار ومن ذلك الى العلوم والرياضة والهندسة والفلك وأخيرًا إلى الأخلاق واللاهوت، وكأن الأخلاق عند أوريجانوس أكثر من مناقشة قضايا أخلاقية، بل كانت كما يصفها «جريجورى» (Gregory) «تدريب النفس لتحقيق الفضائل الفلسفية» التي ظهرت بكل وضوح في حياة أوريجانوس نفسه التي تميزت بالزهد والتقشف وكذلك كانت الفلسفة عنده أكثر من مجرد تخمينات عقلية عن الحقيقة، ولكنها تركيز على الحق المطلق للكتاب المقدس حيث تصل الحكمة فيه إلى ذروتها في معرفة الله.

امتداح جريجوري لأوريجانوس:

ولقد وصل جريجوري الى أقصى حد في امتداح أوريجانوس كمعلم وكشخص:

«ولقد اشتعلت في نفسي شرارة المحبة من نحو الله أعظم ما تصبو اليه نفسي لجماله الذي لايوصف الكلمة القدوس الذي كله مشتهيات، وكذلك من نحو ذلك الإنسان (أوريجانوس) خليله ونبيه. وقد جعلتني محبته التي ملكت على كل شيء أن أنسى كل ما يختص بي: شئوني الخاصة، دراساتي حتى القانون الذي أحبه، البيت وأقربائي فيه، وكل من أعيش بينهم. هناك شيء واحد عزيز عليّ: الفلسفة ومعلمها، ذلك الإنسان السماوي» (أوريجانوس).

أوريجانوس في الجزيرة العربية:

في سنة ٢١٣م، سنحت الفرصة لأوريجانوس ليسافر إلى روما ثم إلى العربية، وقيل أن حاكم البصرة (العاصمة) العسكري أرسل كتيبة عسكرية لاستقباله، وهناك كانت له مناقشات مع الأسقف بيرلس (Beryllus) الذي كان يتمسك بعقيدة التبني، وقد استطاع أوريجانوس أن يقنع بيرلس بخطأه قبل رجوعه إلى الإسكندرية.

أوريجانوس في قيصرية:

وفي سنة ٢١٥م، حدث اضطهاد جديد بأمر الإمبراطور كاركالآ جعل أوريجانوس يلجأ إلى قيصرية، وهناك دعاه الأسقف ليحاضر قادة الكنيسة، فلما سمع الأسقف ديمتريوس أسقف الإسكندرية ذلك استدعاه إلى الإسكندرية، لأنه لم يكن لائقًا كما يقول الأسقف أن يعظ أوريجانوس العلماني للكهنة، وقيل أيضًا أن ديمتريوس كان يغار من أوريجانوس وشهرته فأراد أن يرجع ليسهل السيطرة عليه ومراقبة نشاطه.

ديمتريوس يطرد أوريجانوس:

بعد ذلك بخمسة عشر يومًا، مر أوريجانوس على قيصرية (فعينه أصدقاؤه هناك شيخًا) ولم يكن شائعًا أن يرتسم شخص بعيدًا عن الأبروشية التي يتبعها، وأكثر من ذلك لأنه كان خصيًا، وهو ما يمنعه عن تولي أي مركز كنسي لذلك رفض الأسقف ديمتريوس هذه الرسامة، ولم يعترف بها وحرمه وطرده من رياسة المدرسة اللاهوتية.

أوريجانوس والإمبراطورة:

وكان من سعة شهرة أوريجانوس عندما كان في قيصرية، أن دعته الإمبراطورة جوليا ماميا (Julia Mammaea) ليذهب إلى أنطاكية ويناقش معها بعض «القضايا اللاهوتية»، ولقد بلغ من

تأثر أوريجانوس بالإمبراطورة أنه أطلق عليها لقب «مفخرة الجميع» وفي مرة أخرى تسلم أوريجانوس خطابات مشجعة من الإمبراطور فيليبس (العربي) الذي كان يوسابيوس يعتبره مسيحيًا.

تعذيب أوريجانوس وموته:

اتخذ أوريجانوس قيصرية موطنًا له مكرسًا نفسه للتعليم والكتابة إلى ٢٤٩م. حينما حدث اضطهاد «ديشيان» (Decian). وأخيرًا قبض على هذا الرجل – الذي كان يشجع الكثيرين على مواجهة الاضطهاد – والاستشهاد – وتعرض للتعذيب. ويقول أن الرومانيين كانوا يتحاشون أن يقتلوا رجلاً مشهورًا جدًا كأوريجانوس، ولكن قوته خانته نظرًا لكبر سنه وللتعذيب الشديد الذي تعرض له بين ٢٥٣ أو ٢٥٤م. في تاير.

ب- أوريجانوس الكاتب ومفسر الكتب المقدسة:

اشتهر أوريجانوس بإنتاجه الأدبي، وقد وردت تقديرات مختلفة لعدد الكتب التي كتبها. فقد ذكر أبيفانيوس أنها «ستة آلاف» . أما بامفيلوس فيقول: «إنها ألفان» ولكن جيروم يقول «ثمانمائة» ويتساءل جيروم في استنكار: «من الذي استطاع أن يقرأ كل ماكتبه أوريجانوس؟» ولقد ساعد على حفظ حكمة أوريجانوس وتراثه رجل غنوسي صار مسيحيًا على يدي أوريجانوس اسمه «أمبروسيوس» (Ambrosius) فقد أنفق كثيرًا على أوريجانوس حتى أنه استأجر سبعة نساخ، أو أكثر، لكي يسجلوا محاضراته ثم بعد ذلك ينشرونها. ولقد كتب أوريجانوس – بخاصة في أواخر حياته – كتبًا كثيرة وضخمة. وكانت بعض كتاباته دفاعية، وبعضها تفسيرًا للكتاب المقدس، وبعضها من اللاهوت الكتابي. وكم نأسف لأنه لم يبق من كتاباته الأصلية سوى نتف صغيرة.

المبادئ:

هذا العمل العظيم لايوجد إلا في ترجمة لاتينية قام بها روفينوس (Rufinus) غير أنه غير بعض الأجزاء حتى تتفق مع فكره اللاهوتي. وهذا الكاتب «المبادئ يعتبر أول كتاب كتب يشرح الفكر اللاهوتي المسيحي دون أن يكون موجهًا ضد الهراطقة[1] بذلك خلق فرعًا جديدًا من العلم: «الفكر اللاهوتي الكتابي» بمعنى الفلسفة التي منها يمكن شرح كل جوانب العالم. وهكذا أعطى أوريجانوس للعالم أول نظرية للمعرفة مبنية فقط على المعتقدات المسيحية ومهيئة الطريق لظهور... الأبحاث الشاملة التي ظهرت في القرون الوسطى[2].

معرفة أوريجانوس بالكتب المقدسة:

لم يكن بين لاهوتي ذلك العصر من يضارع أوريجانوس في معرفة الكتب المقدسة، ويكتب عنه المؤخر الكنسي ليتزمان: «عاش أوريجانوس مع الكتاب المقدس بكيفية لم ينافسه فيها أحد إلا لوثر. وكل معرفة وصل إليها كانت عن طريق هذا الكتاب، ففيه وجد الوصايا التي بنى عليها

(1) Turner, H. E. W. *The patteren of Christian Truth*, p. 318.

(2) Johnson, paul. *A History of Christianity,* pp. 58-59.

حياته الأخلاقية. ووجد منه التعاليم التي قادته إلى طريق الكمال. وفيه يسمع صوت اللوغوس الذي أشبع جوعه اليوناني للمعرفة. والذي أعطاه وعد الحياة الأبدية»

(Lietzmann, H. A History of The Early Church, Vol. II. P. 316.)

الهكسابلا (The Hexapla) :

ليس لدينا دليل على مدى معرفة أوريجانوس باللغة العبرية. ولكنه اهتم بالعهد القديم اهتمامًا بالغًا. ودرس التفاسير اليهودية. واستشار العلماء اليهود. وكان نتيجة ذلك العمل الجبار والدراسة العالمية الفريدة ما لم يعهده عصره. وهو الهكسابلا الذي استمر في كتابته ١٤ سنة. والهكسابلا معناها «السداسية». فهي عبارة عن ترتيب عدة ترجمات للعهد القديم في ستة أعمدة كالآتي:

(١)	(٢)	(٣)
النص العبري الأصلي	العبري مكتوبًا بحروف يونانية	ترجمة أكيلا اليونانية
(٤)	(٥)	(٦)
ترجمة سيماخوس اليونانية	الترجمة السبعينية اليونانية	ترجمة تيوديوس اليونانية

ولقد لاحظ أوريجانوس الاختلافات وأشار إلى ما حذف من بعض النصوص ثم أضاف عمودًا آخر لترجمة أخرى لسفر المزامير. وبذلك كانت الهكسابلا أصدق دراسة قام بها عالم في ذلك العصر.

التفسير المثلث للكتاب المقدس:

كان تفسير أوريجانوس للكتاب المقدس تفسيرًا مثلثًا:

(١) التفسير الظاهري الحرفي وذلك للبسطاء وغير المتعلمين.

(٢) هناك تفسير أخلاقي يجب أن يستخلصه القارئ.

(٣) أما التفسير الثالث هو أسماها فهو التفسير الروحي المشتق من التفسير المجازي أو الرمزي.

وقد بنى أوريجانوس نظريته هذه على أساس بعض ما جاء في الترجمة السبعينية كما في أمثال ٢٢:٢٠،٢١. «ألم أكتب لك أمورًا شريفة من جهة مؤامرة ومعرفة لأعلمك فسلط كلام الحق لترد جواب الحق للذين أرسلوك» أو الثلاث طرق لتقديم القربان المذكورة في لاويين ٢:٤-٧. إذا قربت قربان تقدمة مخبوزة في تنور تكون أقراصًا من دقيق ملتوتة بزيت ورقاقًا فطيرًا مدهونة بزيت. وإذا كان قربانك تقدمة على الصاج تكون من دقيق ملتوتة بزيت فطيرًا. تفتها فتاتًا وتسكب عليها زيتًا إنها تقدمة. وإن كان قربانك تقدمة طاجن فمن دقيق بزيت تعملة. أو عصى هارون التي أفرخت: «أخرجت فروخًا وأزهرت زهرًا وأنضجت لوزًا» (عد ١٧:١-١١) أو الآبار الثلاث التي حفرها إسحق (تك ٢٦: ١٧-٢٢).

(هذة الأمثلة مأخوذة من مواعظ أوريجانوس V: IX, 0:V)

وفي كتاب المبادىء (IV. 2: 4) يكتب أوريجانوس: «كما أن الإنسان جسد ونفس وروح. هكذا الكتاب المقدس له المعنى الجسدي (الظاهري). والنفسي

(الأخلاقي) والروحي (الرمزي). وهذا المعنى الأخير هو أسماها جميعًا».

الفهم التدريجي للكتاب المقدس:

ويستخدم أوريجانوس الفهم التدريجي للكتاب المقدس لشرح هذه المعاني الثلاثة: «نحن نرتقي درجة درجة في معرفة الله. ولكن كل درجة هي المسيح. ففي الدرجة الأولى نعرفه كإنسان ثم كملاك وكائن سماوي. أولاً كرب وكراعي ثم كملك. أولاً هو الحمل الذي يرفع كل خطايانا ثم يصبح جسده طعامنا الحي. بهذه الطريقة فقط دون سواها نستطيع أن نصل إلى معرفة الآب» (من تفسيره لإنجيل يوحنا ١٩: ٣٥-٣٩). وفي تفسيره لسفر نشيد الأنشاد يتكلم عن الدرجات الثلاث: «في الأولى ندرب أنفسنا في حفظ الوصايا وفي السلوك الأخلاقي. وفي الثانية ننكر العالم وشهوته. وفي الثالثة نتطلع إلى رؤية غير المنظور الإله السرمدي هذا التطلع يجد كفايته عندما تشعل رحمة الله أنفسنا بمحبة جمال «الكلمة» «اللوجوس» وعندما يستجيب «الكلمة» لهذه المحبة.

طريقة التفسير المجازي:

كان استعمال المجاز شائعًا بين العلماء في عصر أوريجانوس فهو لم يخترعه. ولكنه سار في نفس الطريق الذي سلكه اليونانيون واليهود الذين طوروا هذه الطريقة التفسيرية من قبله بسنين طويلة. ولم يكن على أوريجانوس إلا أن يجلوها أكثر ليستخدمها في تنوير الكنيسة المسيحية وتعليم أعضائها. وإلى اليوم ينتشر استخدام التفسير المجازي في عظات الكنيسة الشرقية. ويستحسن أن نورد هنا تفسيرًا مجازيًا لأحد أمثال الرب يسوع. وهو مانسميه مثل السامري الصالح (لو ١٠: ٢٩- ٣٧) كما فسره أوريجانوس «الرجل الذي كان نازلاً إلى أريحا هو آدم.. أورشليم هي الفردوس وأريحا هي العالم. الكاهن هو الناموس. واللاوي يمثل الأنبياء... السامري هو ربنا.. الدابة تمثل جسد المسيح والفندق هو الكنيسة صاحب الفندق هو رئيس الكنيسة... والدرهمان هما الآب والابن. والوعد برجوع السامري هو إشارة مجيء المسيح ثانية (المواعظ ٣٤ – VI : ٢٠١،٢٠٢).

رأى أوريجانوس في المسيح:

يلخص (H. E. W. Turner) رأى أوريجانوس بأنه كان يشبه ناسوت المسيح بالمركبة التي تحمل «الكلمة» (اللوجوس) «الذي جاء إلى الأرض. وهكذا فإن المعنى الظاهري للكتاب المقدس لايزيد عن كونه مركبة تسكن فيها حكمة الله في سر «كما كان اللاهوت محتجبًا في الجسد هكذا المعنى الروحي لأقوال الله. يحتجب في الكلمات» Turner, The Pattern of Christian Truth, P. 285.

موقف أوريجانوس من التقليد الكنسي:

ركز أوريجانوس جهده الأكبر في دراسة «الكتاب المقدس» الذي كان أساس تفكيره اللاهوتي. ومع ذلك فقد كان يقدر النتاج الضخم لحكمة الكنيسة. كما قال: «حيث إن تعاليم الكنيسة التي تسلمت في تتابع منتظم من أيام الرسل مازالت باقية في الكنائس حتى الآن. فهي وحدها التي نؤمن بأنها صادقة بحيث لا تناقض مع التعليم الكنسي الرسولي (المبادئ .. المقدمة).

ج- الفكر اللاهوتي لأوريجانوس

كيفية استخدام الكتابات غير المسيحية:

كان أوريجانوس لايرفض أن يعتمد إلى حد كبير على كتابات اليونانيين، وبخاصة أفلاطون والرواقيين في أساليب الحوار والايضاح، بل كان مستعدًا أن يستعين بأي مصدر طالما كان يؤدي إلى تأييد الحق المسيحي: فإذا حدث ووجدنا شيئًا ضدنا فيما قاله الأمم (أي غير المسيحيين) فيجب أن نرفضه لأننا نرفض مؤلفه كما لا ينبغي أن ننتفخ كبرياء ونحتقر كلمات الحكماء لأن عندنا شريعة جاءت من الله، بل يجب أن نطيع قول الرسول: «امتحنوا كل شيء، تمسكوا بالحسن» (١ تس ٥ :٢١) (المواعظ XI : ٦) وكما سمح الكتاب للإسرائيلي أن يتزوج امرأة مسبية (تث ٢١: ١٠-١٤) هكذا «ما نجده من أقوال مبنية على أساس عقلي سليم من أقوال الأعداء يجب أن نأخذه وننقيه ونزيل عنه مايختص بهم، وأخيرًا نجعله زوجة لنا» (المواعظ VII: ٦) .

عقيدته في الله:

وبهذا نجد أوريجانوس يتقبل وصف أفلاطون بطبيعة الله بأنه لا يمكن أن يكون له جسد، فهو كروح بسيط لا ينقسم، لا يتكون من أجزاء مثل الأجساد، ولا يمكن أن ينقسم مثلما ينقسم الجسد ويقول: «لا يمكن أن نشبه الله بأي نوع من الأجسام، أو أن نقول انه كان في جسم بل هو طبيعة بسيطة عاقلة لايقبل أي نوع من الإضافة، ولايعقل أن هناك شيئًا أقل أو أكثر في ذاته، ولكنه واحد كامل، أو وحدة كاملة هي مصدر لكل طبيعة عاقلة أو عقل. وهو عندما يتحرك أو يفعل شيئًا فإنه لايحتاج إلى جسد أو مكان أو حجم ملموس أو أي صورة جسدية كالشكل أو اللون أو غير ذلك من الأمور الجسدية» (المبادئ I ١: ٦) .

الله خلق العالم لصالح الإنسان:

يرى أوريجانوس أنه من اللازم أن يعتبر الكون المخلوق من أنه خلق من العدم- أزليًا لكي يثبت قدرة الله الكلية: «لأنه لا يمكن أن يقال إن الله كلي القدرة ما لم يكن هناك من يمارس عليهم قوته» (المبادئ II ٢: ١٠) وكان «اللوغوس» ابن الله -وهو أيضًا أزلي- واسطة الله في الخلق. أما الكون نفسه فهو منقسم بين الوحي والزمني فهناك الأرواح الحرة العاقلة أي الملائكة، ثم البشر، والشياطين وهم أحرار في اتخاذ قراراتهم الأخلاقية إما لينحدروا إلى أعماق الجحيم أو يرتفعوا إلى أعلى السموات. أما الكون المادي فقد خلق ليكون مكانًا لتدريب الخلائق البشرية الذين أعطيت لهم أجساد مادية مع أن لهم أرواحًا كائنة من قبل، ووضعوا تحت نظم شديدة حتى يتعلموا كيف يختارون الخير ويرفضون الشر. لقد خلق العالم لخير البشر وليعمل على خلاصهم (المبادئ I : ٧، ١ و III : ٥ و١١ و٩ و I : ٨).

الخلاص العام للجميع:

لقد خلق الإنسان و له حرية إرادة كاملة، ومع ذلك فإن الله يجري حكم عنايته ويكمل خطته ليعد كل إنسان للرجوع إلى بيت الآب (المبادئ II، ١: ٣). وهذا يتضمن الإقرار بأن جميع الناس سينالون الخلاص، ولأن أوريجانوس كان يعتقد أن الإنسان «يشترك في الطبيعة الأزلية للنور الإلهي»، وأنه بالطبيعة خالد مثل الآب، لذلك سار في منطقه حتى وصل للنتيجة الآتية: إن الكل بطريقة أو بأخرى سوف يخلصون.

رحلة النفس:

في كتاب رحلة النفس البشرية يلاحظ القارئ التشابه مع فكر أكليمندس عن المسيحي العارف (الغنوسي) «فالنفس لا تمكث هنا في العالم السفلي، بل ترتفع في الهواء ولتكتشف هناك الأسرار وعندئذ تنفتح السماوات أمامها لتنطلق من منطقة إلى أخرى حتى تصل إلى يسوع. في هذه الحالة تنفتح أمامها معرفة طبيعة النجوم وتحركاتها ونظمها ويصبح الفضاء السماوي مفتوحًا أمامها وتؤدي بها الطريق إلى أعلى إلى العالم غير المنظور، وهي تتدرج في الروحانية وتنمو إلى المعرفة الكاملة إلى أن تكف عن أن تكون نفسًا بل تتحول إلى «عقل» (Nous) وروح، وتصبح قادرة على أن ترى وجهًا لوجه طبيعة الكون وجوهره (المبادئ II، ١٠: ٤، ١١: ٣-٧).

عقيدة أوريجانوس في المسيح:

يصف أوريجانوس المسيح بأنه «ابن الله المولود من الآب منذ الأزل كما يتولد البهاء من النور (وهو يشير إلى عبرانيين ١: ٣) «وهو بهاء مجد الله ورسم جوهره» «فالابن إذًا من ذات طبيعة الآب لأنه مولود من الله غير مخلوق...» (المبادئ I، ٢: ٤-٧). ويستخدم أوريجانوس عبارة «ابن الله» في معنيين

(١) للدلالة على اللوجوس الإلهي منذ الأزل.

(٢) النفس البشرية التي أصبحت إلهية بالحياة الخالية من الخطية. وعلى هذا فإن ابن الله الذي تألم ومات على الصليب هو الإنسان الكامل وليس اللوجوس الإلهي. وبواسطة هذا المسيح الإنسان جاء الخلاص إلى العالم بواسطة مثاله وتعاليمه أكثر مما بواسطة ذبيحته الكفارية على الصليب.

المسيح الوسيط:

ولقد عرف أوريجانوس أن المسيح جاء ليكون «فدية لأجل كثيرين» مع أنه لم يستطع أن يصل إلى المفهوم الكلاسيكي للكفارة. فالمسيح دفع الثمن للشيطان لكي يضمن تحرير الجنس البشري (تفسير متى ١٣: ٨، ٩). وفي مكان آخر يعتقد أوريجانوس أن الله أعطى نفس المسيح للشيطان في مقابل نفوس البشر وقبل الشيطان المقايضة غير عالم -كما كان الله يعلم- أنه عاجز عن أن يمسك المسيح بعد أن يصبح في قبضته (Mc-Giffert, A. C. *A History of Chistian Thought,* Vol. I. p. 226). الابن هو الوسيط بين الله والعالم وبمقدار ما نعرف الابن نستطيع أن نعرف الآب. (المبادئ I، ٢: ٦).

التثليث والروح القدس:

يتضمن فكر أوريجانوس اللاهوتي عقيدة التثليث مع أنه لا يذكر كثيرًا الروح القدس. وفي الحقيقة كان يميل إلى النظر في التثليث في علاقة مسلسلة: فالابن خاضع للآب، والروح خاضع للابن. ولقد نسب أوريجانوس معظم أعمال الروح إلى الابن. وكان يتكلم عن الروح «كذبيحة» فقط. ولكن نظرًا لأن للروح أهمية كبرى في الكتاب المقدس وفي إيمان الكنيسة فإن أوريجانوس وضعه مع الآب والابن، ولكنه لم يوضح وظيفته.

د- أعظم انجازات أوريجانوس

الكنيسة تصبح مركزًا للعلم:

كانت مآثر أوريجانوس عديدة، ولكن أعظم ما قام به هو رفع الفكر اللاهوتي المسيحي إلى مستوى جديد رفيع. فقد بنى فكرًا لاهوتيًا مبنيًا

على المصادر الفنية للفكر الفلسفي اليوناني فجعل من الكنيسة مركزًا علميًا رفيعًا بخدمة المسيحيين والوثنيين على حد سواء ويقول هـ.ي.و.ترنر في كتابة (The Pattern of Christian Truth, pp. 420- 432). إنه بعد أوريجانوس حدث ما يأتي:

زادت المدارس اللاهوتية في أرجاء الإمبراطورية.

صار من الضروري أن يكون الأساقفة مثقفين فإزداد شيئًا فشيئًا عدد الذين ينتخبون منهم من المدارس.

كثيرون من المثقفين الذين يعملون في الوظائف العلمانية (محامين ومعلمين) قبلوا الوظائف الكهنوية.

كان هناك اهتمام متزايد بالتعليم. وكما يقول ترنر: كانت الثقافة الوثنية مازالت قائمة، ولكن شعلة التعليم بدأت بالتدريج تنتقل إلى أحضان الكنيسة المسيحية. (ص٤٣٠).

الكنيسة الجامعة:

يكتب: (W.H.C. Frend, Martyrdom in The Early Christian Church)

«كانت حياة أويجانوس هي نقطة التحول في المسيحية من مجرد شيعة إلى كنيسة عامة عالمية. فقد عمل أوريجانوس عمل أكلميندس في ادماج الأفلاطونية والرواقية في الفكر المسيحي مهدًا الطريق للتوافق النهائي بين الكنيسة والإمبراطورية» (ص. ٢٨٨). ولقد أشار أوريجانوس نفسه إلى أهمية توحيد الإمبراطورية تحت حكم أوغسطس (٣٤-١٤ق.م.) كإطار لانتشار الإنجيل... فنظام الدويلات والحكام الكثيرين انتهى وصارت الدولة واحدة تحت حكم حاكم واحد. وتعدد الألسنة وتبلبلها أدى إلى لغة واحدة مما أدى إلى وصول رسالة المسيح إلى اقصى الأرض. لقد تطلع أوريجانوس إلى المستقبل. إلى عالم موحد في خدمة المسيح» (٢٩٢). كأنما كان أوريجانوس يتوقع التغيرات الثورية التي حدثت في أيام قسطنطين للكنيسة والدولة، بعد مائة سنة من عصر أوريجانوس.

٣- الأسقف ديمتريوس (١٩٠-٢٣٢م.)

لو قصرنا كلامنا عن ديمتريوس وحياته في إطار علاقته بأوريجانوس فحسب، لظلمناه. فالكنيسة تذكر فضله في رعايته للمدرسة اللاهوتية تحت عدة إدارات (بانتينوس، أكليمندس، أوريجانوس، وهيرقلاس). ومن الواضح أنه كان يترك لكل مدير الحرية لتشكيل البرنامج العلمي للمدرسة، وكان ديمتريوس أيضًا أول أسقف عمل على امتداد سلطان الكنيسة الإداري باختياره ثلاثة شيوخ لثلاث مدن مصرية، وقد حذا هيرقلاس الذي خلفه حذوه فعين عشرين شيخًا آخرين، وكان الشيوخ في تلك الفترة هم الرؤساء في الأبروشيات، ولكن لقب الأسقف صار- بالتدريج - هو المفضل، ونستنتج من ذلك أن اللقبين شيخ وأسقف كانا يستعملان بالتبادل في تلك الفترة، ولكن بمرور الوقت بدأ تشكيل السلطان الكنسي الكهنوتي يظهر عندما أصبح أسقف الإسكندرية هو الأسقف الملكي، أو صاحب السلطان الأول في الكنيسة المصرية فأصبح هيرقلاس يسمى «بطريركا»

(H. Lietzmann, A Hisitory of Early Church, Vol. II, P. 64).

ابباكت ويرجع التقليد الكنسي القبطي الفضل في اختراع «حساب الأبقطي» (أو الفرق بين السنتين القمرية والشمسية) لتحديد تاريخ عيد القيامة للكنائس الأرثوذكسية. فبربطه السنة اليهودية بالسنة المصرية، أمكنه تحديد تاريخ عيد القيامة لسنوات عديدة قادمة وبذلك صار تحديد تاريخ عيد القيامة أمرًا نهائيًا (لمعرفة شيء عن حساب الأبقطي، ارجع إلى كتاب:

(Iris Habib El Masry, The Story of The Copts, PP. 32, 43, 44).

٤- ديونيسيوس الكبير أسقف الإسكندرية (توفي ٢٦٤م.)

حياة ديونيسيوس:

إن اسم ديونيسيوس يلي اسمي أكليمندس وأوريجانوس في التقدير والاحترام في القرن الثالث في الإسكندرية وقد خلف ديونيسيوس هيرقلاس كرئيس للمدرسة اللاهوتية. وعندما مات هيرقلاس سنة ٢٤٨ خلفه أيضًا كأسقف للإسكندرية. وكانت المدة التي خدم فيها ديونيسيوس للكنيسة من أخطر الفترات التي مرت بالكنيسة فقد عاصر الاضطهاد في حكم ديسيوس ثم في زمن فاليريان، ولكنه نجا من الاستشهاد لأنه لجأ في بادئ الأمر إلى الصحراء لأنه اعتقد - كما فعل سبريان - أنه يستطيع أن يشجع ويعزي شعبه بهذه الطريقة. وقد حدث مرة أن قبض عليه في مريوط غرب الإسكندرية (وكانت تسمى تابوسيريس Tapo-siris)، لكن الشعب استطاع أن يقتحم البيت الذي سجن فيه وينقذه. أما في الاضطهاد الذي حدث في زمن فاليريان فقد استدعى أمام الوالي الروماني، فسأله هذا الوالي: «لماذا لا تعبد الآلهة التي تحفظ الإمبراطورية؟» أجابه ديونيسيوس: «ليس كل الناس يعبدون كل الآلهة، ولكن كل واحد يعرف بالتأكيد من هو إلهه الحقيقي، ولذلك فنحن نعبد ونجد الإله الذي صنع السماء والأرض وكل شيء، الذي أعطى حكم الإمبراطورية لأغسطس الإمبراطور، المحبوب الله، وأعطاه أيضًا لغاليريوس وجالينوس، ولذلك فنحن نصلي بلا انقطاع لهذا الإله لأجل الإمبراطورية حتى تبقى ثابتة لا تتزعزع «فقال له الوالي: ومن الذي يمنعك من عبادة هذا الإله إذا كان هو أيضًا إلهًا إلى جانب آلهة الطبيعة؟ لأننا أمرناك أن تعبد الآلهة التي نعرفها كلنا؟» فأجابه ديونيسيوس: «نحن لا نعبد إلهًا غيره» (يوسابيوس تاريخ الكنيسة: VII، ١٠: ٦-٩). فعاقبه على ذلك بأن نفاه إلى واحة الكفرة، وهناك بدأ ديونيسيوس يبشر الليبيين. ولم ينله شيء غير هذا من هذا الاضطهاد، فعاش حتى تسلم خطابًا من الإمبراطور غالينوس فيه يعلن إرجاع كل ممتلكات الكنيسة مرة أخرى وسماحه للمسيحيين بحرية العبادة.

كتابات ديونيسيوس:

كتب ديونيسيوس مجموعة من الرسائل وبعض المؤلفات اللاهوتية احتفظ لنا المؤرخ يوسابيوس بجزء منها، وكانت إحدى رسائله تسمى «في الطبيعة» يفند فيها الأبيقورية. وأخرى اسمها «في المواعيد» يفند فيها آراء بعض الألفيين الذين كانوا يعتقدون بالمجيء الثاني الفوري. ثم كتب إلى الكنيسة الأرمينية عن موضوع التوبة. ثم تعودعلى كتابة خطاب في كل عيد قيامة لكي يحقق فيه تاريخ العيد وليحث الناس على أن يعيدوه بكل أمانة وإخلاص. هذا الخطاب «خطاب

عيد الفصح» أصبح خطابًا دوريًا وعادة سنوية في كل من الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية.

ديونيسيوس صانع السلام:

ولقد كان من ضمن مآثر ديونيسيوس أنه كان وسيط صلح وسلام بين كنيستي روما وأنطاكية عندما احتدت بينهما المناقشات اللاهوتية في ذلك العصر. لقد كان يهتم بالدراسات اللاهوتية، ولكنه كان يهتم أيضًا بوحدة الكنيسة، ولذلك عمل جهده - في عصر ما قبل الجامع المسكونية - أن يشجع روح الوحدة بين كل الكنائس، وكان قائدًا كنسيًا ناجحًا في هذا المجال. وقد لاحظ جان دانيلو أن «روح الوساطة هذه صارت عادة وتقليدًا في الكنيسة المصرية في القرون اللاحقة»

(The Christian Centuries, Vol. I, P. 210)

الفكر اللاهوتي عند ديونيسيوس:

أما في التفكير اللاهوتي فكان ديونيسيوس تلميذًا مخلصًا لأوريجانوس. فقد أتخذ موقفًا قويًا ضد «الملكيين» (Monarshains) ولذلك أتهموا بهرطقة «خضوع الابن» ويؤخذ من رسائله إلى ديونيسيوس أسقف كنيسة روما، أنه كان هناك خطأ في فهم الكلمة «أقنوم» (Hypostases) أن ديونيسيوس الروماني كان يعني بها مادة أو طبيعة. أما ديونيسيوس الإسكندري فكان يستخدمها بمعنى شخص ويلوح أن الأخير غير في موقفه ليكون أقرب إلى روما. وحاول أن يبرهن تساوي الأقانيم (Hypostases) الآب والابن والروح القدس مبرهنًا بذلك على أن الابن أزلي غير مخلوق. مع ذلك فقد استخدم أسيون أقوال ديونيسيوس الإسكندري في المجادلات اللاهوتية القاسية التي تأثرت في القرن الرابع ضد أثناسيوس الذي كان يشك في أرثوذكسية ديونيسيوس الإسكندري.

روما والإسكندرية:

ظهرت الصلة الممتازة بين كنيستي روما والإسكندرية في هذه الأفكار اللاهوتية المتبادلة فقد كتب الذين لم يوافقوا على آراء ديونيسيوس الإسكندري من المصريين إلى ديونيسيوس في روما، فرد عليهم أسقف روما بكيفية تجعلهم يفهمون أنه هو الشخص الذي يمكنه أن يحكم في الأمر، ولم يعترض ديونيسيوس الإسكندري على ذلك، بل كتب إلى ديونيسيوس روما كأنه مسئول أمامه. وهذه شهادة واضحة على أن روما، كانت لها مكانة أسمى بالنسبة للإسكندرية في رأي ديونيسيوس على الأقل!

ديونيسيوس الراعي:

ويذكر التاريخ لديونيسيوس مآثره الرعوية خصوصًا عندما كانت الكنيسة ترزح تحت نير الاضطهاد. فقد كان نادر المثال في تواضعه وعطفه واستطاع أن ينشر هذه الفضائل بين رعيته، ووصف الفرق بين سلوك المسيحيين وسلوك الوثنيين في أثناء انتشار وباء الطاعون المروع في الإسكندرية (٢٦٠م.) فبينما لم يألوا المسيحيون جهدًا في تخفيف ويلات الناس، معرضين أنفسهم للخطر في أثناء اعتنائهم بالمرضى، كان الوثنيون يلقون بعيدًا عنهم أي شخص تظهر عليه أعراض المرض، وكانوا يهربون من أعز الأشخاص وأقربهم إليهم، بل يلقون بهم في الشوارع وهم يحتقرون أو يلقون بجثثهم بدون دفن (يوسابيوس VII، ٢٢: ١٠). لقد خدم ديونيسيوس الإسكندري الكنيسة خدمة جليلة، فقد كان قائدًا يتحلى بأسمى مواهب العقل والروح.

Recommended English Readings

1. Al Masry, Iris Habib. ***The Story of the Copts***, PP. 49-53, 56-59.
2. Atiya, A. S. ***A History of Eastern Christianity,*** PP. 34-38.
3. Boer, H. R. ***A Short History of The Early Church,*** PP. 92-94.
4. Carrington, Philip. ***The Early Christian Church, Vol. II,*** PP. 440-441, 451-453, 460-465.
5. Danielou, J. and Marrou, H. ***The Christian Centuries, Vol. l, The First Six Hundred Years,*** PP. 208-210.
6. Frend, W. H. C. ***The Early Curch,*** PP. 97-105.
7. Latourette, K. S. ***A History of Christianity,*** PP. 148-151.
8. Lietzmann, Hans. ***A History of The Early church, Vol. II,*** pp. 295-317. Vol. III, pp. 94-99.
9. Mcgiffert, A. C. ***A history of Christian Thought, vol. I,*** pp. 208-231.
10. Walker, Williston. ***A history of the Christian church,*** pp. 74-77.

الفصل السادس
اضطهاد ديسيوس
وفاليريان للمسيحيين



الاضطهاد الشامل للمسيحيين:

كان المسيحيون يعيشون في سلام بعد المذابح التي راح ضحيتها الكثيرون منهم في عهد سبتيموس سفيروس ٢٠٢م.، وكاراكالا ٢١٣م، فيما عدا بعض الحوادث المتفرقة. ولكن في منتصف ذلك القرن بدأ الشعور العام بالعداء نحوهم فقد أستمر العامة يعتبرونهم جماعة ملحدة تثير غضب الآلهة فتصيبهم بالكوارث الطبيعية. وقد بدأ ذلك سنة ٢٤٨م. بحوادث متفرقة في الإسكندرية حيث كانوا يجرون المسيحيين إلى المعابد ويجبرونهم على تقديم الذبائح للأوثان ثم سارت الغوغاء في الشوارع تحطم كل ممتلكات المسيحيين في غضب وعنف حتى أن امرأة عجوز رفضت أن تنطق بالعقيدة الوثنية، اضطرت من شدة الضرب إلى أن تلقي بنفسها في النيران.

أسباب اضطهاد ديسيوس للمسيحيين:

كان ذلك العصر يتميز بعدم الاستقرار في الإمبراطورية. وقد حدا ذلك بالإمبراطور ديسيوس الذي اختاره جنوده ليخلف الإمبراطور فيلبس سنة ٢٤٩م، أن يعزم على اتخاذ بعض الاجراءات الحاسمة لمواجهة ذلك. ويقول يوسابيوس بسبب عدائه للإمبراطور فيلبس (الذي يعتقد يوسابيوس أنة كان مسيحيًا) أثار ديسيوس الاضطهاد ضد الكنائس (التاريخ الكنسي VI -١:٣٩). وكان المسيحيون يزدادون في العدد والنفوذ حتى خشي البعض أن يقوموا بالثورة ضد الإمبراطور. ويذكر البعض أن ديسيوس قد قال أنه يفضل أن يسمع أن هناك منافسًا له على العرش من أن يسمع أن أسقفًا جديدًا قد قام في روما، وفي الواقع كانت هناك بعض المشاكل في الكنيسة مما أثار اهتمام السلطات مثل التنافس بين بعض الأساقفة على السلطان والمراكز الهامة. وكان ديسيوس نفسه يحاول بكل جهده أن يعيد الوحدة والنظام إلى الإمبراطورية لترجع لروما سمعتها. ولكن يفعل ذلك اتجه إلى الديانة كما فعل الأباطرة من قبل.

بدء اضطهاد ديسيوس:

أصدر ديسيوس مرسومًا ملكيًا بأنه على كل السكان الأحرار (غير العبيد) من رجال ونساء وأطفال أن يقدموا الذبائح لآلهة الإمبراطورية، وأن يسكبوا لها السكائب ويأكلوا من الذبائح، وعندما يقدم شخص ذبيحة كان يعطي شادة بذلك. ويصف ديونيسيوس أسقف الإسكندرية تأثير ذلك على المسيحيين في فيقول: «الجميع ارتعدوا من الخوف، وجاء بعض الذين كانوا في وظائف عامه اضطروا لفعل ذلك بحكم عملهم، وآخرون جرهم جيرانهم وأجبروهم على ذلك أيضًا. وعندما كان ينادي على أسمائهم كانوا يتقدمون إلى الذبائح النجسة في شحوب وارتعاد كأنهم يتقدمون للذبيحة بل ليكونوا هم أنفسهم الذبائح، ولذلك كان الجمع الواقف حولهم يسخر منهم، وهذا يدل على أنهم كانوا جبناء جبنًا طبيعيًا في كل شيء: جبناء أمام الموت، وأمام تقديم الذبيحة وخيانة سيدهم. ولكن كانت هناك جماعة أنطلقوا إلى الذبيحة بكل جرأة وسرور كأنهم لم يعرفوا المسيحية من قبل... أما الباقون فبعضهم هرب والبعض قبض عليه... ومنهم من كانوا ينكرون الإيمان بقسم حتي قبل أن يمثلوا للمحاكمة. أما الذين ثبتوا بعض الوقت، فقد أضطروا إلى التسليم تحت وطأة التعذيب الشديد» (اقتباس يوسابيوس VI ٤٠: ١٠-١٢).

مسيحي يستسلم:

يقتبس سيبريان كلمات أحد المسيحيين الذي استسلم تحت وطأة العذاب: «عقلي ثبت... وكان ايماني قويًا، وقاومت نفسي طويلاً دون انهيار تحت وطأة الألم الفظيع. ولكن عندما خارت قواي وتحطمت إذ كان السوط يقطع لحمي والعصي تكسر عظامي، والخلعة (أداة تعذيب قديمة يمدد عليها الجسد) تمزق جسمي والكلابات الحديدية تغوص في جسدي، والنيران تشويني، وعندئذ انهار جسدي في الصراع، ولم يستطع الصمود» .

شهادات الذبائح:

وقد تمكن بعض الناس من الحصول على شهادات تدل على تقديمهم للذبيحة دون أن يكونوا قد قدموا أي ذبيحة، وذلك برشوة بعض الكهنة المرتشين. وهذا نص إحدى الشهادات التي وجدت في الفيوم:

«إلى الجماعة التي عينت للإشراف على الذبائح في قرية جزيرة الإسكندر، من أوريليوس ديوجينوس بن ساتابس من جزيرة الإسكندر- العمر ٧٢ سنة، تميزه ندبة فوق حاجب العين اليمنى إنني دائمًا أقدم الذبائح إلى الآلهة، والآن في حضوركم وطاعة للأمر الملكي قد قدمت الذبائح، وسكبت السكائب، واشتركت في الطعام. ألتمس منكم أن توقعوا بذلك على هذه الشهادة والسلام. أنا أوريليوس ديوجينوس أقدم هذا الالتماس. أنا أوريليوس سيروس: رأيتك وأبنك تقدمان الذبائح».

قادة الكنيسة يستشهدون:

لقد أحس قادة الكنيسة بوطأة أضطهاد ديسيوس. ومن بين الذين استشهدوا كان البابا فابيان أسقف روما والأسقف ألكسندر أسقف أورشليم، وبابيلاس أسقف أنطاكية. أما أوريجانوس فقد سجن في قيصرية ومات من المعاملة السيئة. أما الأسقفان ديونيسيوس في الإسكندرية وسيبريان في قرطاجنة فقد أختبئا، ولكن آخرين استسلموا. ويروي سيبريان أن كنائس

محلية بأكملها قدمت الذبائح بل أن أسقف إحدى الكنائس تقدم جماعته في ذلك. وبلغ الأمر بالأسقف يوكتمون (Euctemon) أسقف سميرنا أنه «اقسم بمجد الإمبراطور وبالآلهة نيميسيس (Nemesis آلهة الانتقام) أنه لم يكن مسيحيًا».

فاليريان يعطف على المسيحيين:

بعد أن قتل ديسيوس في معركة ٢٥١م خلفه جاليوس (Gallus) الذي واصل الاضطهاد. ولكنه قتل أيضًا سنة ٢٥٣م وخلفه فالبريان. وكان يلوح على فالبريان هذا أنه لايشارك سابقيه في قسوتهما على المسيحيين بل كان يعطف عليهم. وبذلك كف عن الاضطهاد. وقد كتب عنه دينسيوس الإسكندري قائلاً:

«كان فالبريان متسامحًا وودودًا لشعب الله. ولم يسبقه أحد من الأباطرة في مثل شفقته وموقفه الصادق تجاههم. حتى أولئك الذين قيل عنهم أنهم كانوا مسيحيين... وكان يقابلهم في بدء حكمه بكل ترحاب ومودة. وكل بيته كان يمتلىء بالشخصيات التقية بل كان كنيسة الله» (أقتبسها يوسابيوس).

لماذا بدأ فاليريان الاضطهاد:

ولكن المشاكل بدأت تواجه فاليريان - مثله في ذلك مثل ديسيوس - فقد بلغت الحالة الاقتصادية غاية السوء. ووصل التضخم إلى حد مزعج. أصبحت حدود الإمباطورية مهددة. ففي الشمال كان البرابرة يحيطون بها. وفي الشرق كان يتهددها الفرس. واستمر المسيحيون في ازدياد ونجاح حتى قيل أن كنيسة روما كان لها أسقف واحد. ٤٦ شيخًا. ٧ شمامسة. ٧ في رتبة مساعد شماس ثم ٤٢ مساعد كاهن (قندلفت). ٥٢ من مخرجي الشياطين ثم قراء وبوابون. وكانت قائمة الأرامل واليتامى الذين تساعدهم الكنيسة حوالي ١٥٠٠. وفي سجلات الدولة ظهر أن إحدى الكنائس المحلية تمتلك طبقًا من الذهب وآخر من الفضة. وأدوات زينة. وملابس وأطعمة وثياب وكتب وأموال. ويقول البعض أنه كان وزير المالية المدعو ماكريانوس (Macrianus) كان يكره المسيحيين. ويسعى جاهدًا لاحياء العبادة الوثانية. فقد أوغر صدر الإمبراطور ضدهم.

مرسوم فاليريان الأول:

ومهما كانت الدوافع فإن فاليريان أصدر مرسومًا ٢٥٧م. ضد رجال الدين المسيحيين يمنع فيه العبادة المسيحية. ويأمر بتقديم الذبائح للآلهة. ودعى الأسقفة ليمثلوا أمام الحاكم الإمبراطورية صاغرين. وكان رد سيبريان ردًا مثاليًا إذ قال: «لايستطيع المسيحيون أن يعبدوا آلهة أخرى من آلهتهم. ولكنه يصلي مع كل شعبه إلى إله المسيحيين كلي القدرة من أجل الإمبراطور. ولكن الرومانيين لم يقبلوا ذلك. فحكموا على سيبريان وآخرين بالنفي.

المرسوم الثاني والاضطهاد القاسي:

لما ظهر المرسوم الأول لم يكن له مفعول شديد. أصدر فاليريان مرسومًا ثانيًا ٢٥٨م. أشد ضراوة وقسوة. ففيه يأمر بأن كل رجل دين مسيحي لايذعن لأمر الإمبراطور يجب أن يقتل. ويجرد رجال مجلس الشيوخ والفرسان من رتبهم. وتنفى السيدات الشريفات وتصادر أملاكهن. ويرسل عمال القصور الملكية إلى معسكرات العمل الشاق. ولكن بدلاً من أن يذعن المسيحيون للأمر تحت هذا التهديد ثبتوا. فمات كثيرون منهم. وكان سيبريان واحدًا منهم.

بعضهم قطعت رؤوسهم، وبعضهم أحرق، حتى أن ٣٠٠ منهم ألقي بهم إلى قمائن الجير المشتعلة، وهكذا ظهرت الرغبة العارمة في الاستشهاد. ويذكر يوسابيوس أن ثلاثة من المسيحيين سافروا في رحلة طويلة لكي يعترفوا بمسيحيتهم لحاكم مقاطعتهم حتى يمكنهم أن يستشهدوا (التاريخ الكنسي VII : ١٢) .

جالينوس يوقف الاضطهاد:

من رحمة الله بالمسيحيين أن هذا الاضطهاد توقف عندما خلع الإمبراطور عن العرش، وقد أسر فاليريان ثم قتل في حملته ضد الفرس ٢٦٠م، فخلفه في الحكم جالينوس الذي رأى أنه من الحكمة أن يصادق المسيحيين بدلاً من أن يضطهدهم. ولهذا أصدر أوامر مكتوبة يؤمن فيها العبادة في الكنائس ويعيد لهم مدافنهم، ثم كتب خطابًا إلى الأسقف ديونيسيوس الإسكندري الذي أصبح بعد موت سيبريان أعظم قائد في الكنيسة كلها.

خطاب جالينوس إلى أساقفة الإسكندرية:

«من الإمبراطور قيصر بوبليوس ليسينيوس جالينوس بيوس فيلكس أوغسطس إلى ديونيسيوس وبنياس وديمتريوس وبقية الأساقفة:

لقد أصدرت أوامري أن يعم إحساني كل العالم بقصد أن يتركوا أماكن عبادتكم فيمكنكم أن تنتفعوا أنتم بأوامري فلا يسيء إليكم أحد، وهذا الأمر المكتوب، وفي مقدوركم أن تحققوه، فقد منحته لكم منذ مدة، وسوف يتولى أورليوس كيرينيوس أمين الخزانة تنفيذ أوامري» (يوسابيوس VII ١: ٣).

الإمبراطور يعترف بالديانة المسيحية:

هذا القرار الذي صدر عن الإمبراطور كان نقطة تحول كبيرة في موقف الأباطرة من المسيحيين، كانت ومازالت أمامهم خطوة أخرى، وهي الاعتراف الرسمي بالمسيحية، ومع ذلك فقد تمتعوا ببعض التسامح، وكان عمل جالينوس هذا اعترافًا ضمنيًا بأن القسر والاضطهاد قد فشلا، وأنه يجب أن يوضع المسيحيون في الاعتبار كعامل سياسي في الإمبراطورية، وتمشيًا مع الاعتقاد الذي ساد في ذلك العصر، يبدو أن جالينوس بدأ يفكر أيضًا في أن إله المسيحيين إله قوي يمكن الاستعانة به لخير الإمبراطورية، فإن للكنيسة أن تستمتع بفترة من الراحة والسلام أكثر من أربعين سنة إلى أن جاء دقلديانوس، وقام بمحاولته الأخيرة اليائسة للقضاء على المسيحية.

Recommended English Readings

1. Bruce, F.F. ***The Spreading Flame,*** pp. 182 - 184.
2. Danielou and Marrou. ***The Christian Centuries, Vol. I, The First Six Hundred Years,*** pp. 205 - 208.
3. Foster, John. ***Church Histroy I, The First Advance,*** pp. 74 - 76.
4. Frend, W. H. C. ***The Early Church,*** pp. 107- 117. ***Martyrdom and Persecution in The Early Church,*** pp. 285 - 323.
5. Latourette, K. S. ***A History of Christianty,*** pp. 87 - 89.



الفصل السابع

سيبريان (٢٠٥ - ٢٥٨م.)

Cyprian



كان سيبريان هو القائد العظيم في الكنيسة في شمال أفريقية بعد ترتليان. وكان رجلاً حكيمًا ثاقب النظرة. تعلمت منه الكنيسة كيف تعالج ظروفها في المستقبل. فقد كانت الكنيسة في أيامه تناضل للوصول إلى إجابة للقضايا الأساسية المتعلقة بالسلطة. وليس ذلك فقط بل كان الاضطهاد قد أوشك أن يتجدد مرة أخرى. ولكن قيادة سيبريان للكنيسة كانت مشجعة للمسيحيين المعرضين للاضطهاد في تلك الفترة.

حياة سيبريان الأولى:

لانعرف إلا القليل عن حياة سيبريان الأولى. فقد ولد في قرطاجنة في أسرة مشهورة غير مسيحية وتعلم التعليم «الكلاسيكي» الذي يليق بتلك الأسرة. أما اعتناقه للمسيحية (٢٤٦م.). فقد وصفه في خطاب له لأحد أصدقائه. فقد سئم حياة الترف. فساد العدالة وقساوة الحياة في قرطاجنة بسبب الإباحية. وتطلع إلى حياة أخرى. فوجدها في يسوع المسيح. وعندما تعمد. أحس بأنه قد تطهر من الحياة القديمة. وبقوة الروح القدس عاش حياة طاهرة بلا خطية (إلى دوناتوس٤).

انتخاب سيبريان أسقفًا:

ظهرت قيادته الحكيمة للكنيسة فانتخبوه أسقفًا لقرطاجنة (٢٤٨/٢٤٩). «انتُخِب باختيار الناس وارادة الله». ومع ذلك فلم يكن كل الناس مسرورين بانتخابه. فقد عارضه شخص اسمه نوفاتوس (Novatus). الذي سبب له متاعب كثيرة عندما ثارت قضية قبول الأشخاص الذين أنكروا الإيمان أيام اضطهاد ديسيوس. ولكنهم أرادوا التوبة والرجوع مرة أخرى.

سيبريان تحت الاضطهاد:

وقف سيبريان في بادئ الأمر موقفًا متوازيًا حالما بدأ الاضطهاد الذي أثاره الإمبراطور ديسيوس فعمل على تخفيف حدة جنون الاستشهاد. ولكنه في ذات الوقت حزن لكثرة عدد المسيحيين الذين أسرعوا لتقديم الذبائح للإمبراطور. ليأخذوا الشهادات التي تعفيهم من الاضطهاد. أما هو نفسه

فقد التجأ إلى مكان خارج قرطاجنة. ولكنه ظل في صلة بالكنيسة عن طريق الرسائل والزائرين. وعندما وجهوا إليه النقد لتركه قرطاجنة. دافع عن نفسه بالقول بأن وجوده في قرطاجنة لابد أن يثير السلطات ويؤدي إلى زيادة حدة الاضطهاد. أما في مخبأه الأمين فقد كان قادرًا على تقديم النصح والتشجيع والتعزية لشعبه بكيفية أقوى وأفعل.

لا خلاص خارج الكنيسة:

أما ما اشتهر به سيبريان فهو نظرته العالمية إلى الأسقفية[1] والكنيسة. فهو الذي قال: «لا توجد إلا كنيسة واحدة. فالأسقفية التي أسسها المسيح على الصخرة هي في الكنيسة. والكنيسة هي الأسقف. ومن يعارض الأسقف فهو ليس من الكنيسة» (الرسائل ٥١-٥٥ . ٢٤). وذهب إلى أبعد من ذلك. فأعلن أن الذي ليس من الكنيسة لا يمكن أن يكون مسيحيًا. وأنه لا خلاص خارج الكنيسة التي يضفي عليها الشريعة وجود الأسقف. «ولا يمكن لأي إنسان أن يدعي أن الله أبوه. مالم تكن الكنيسة أمه» (وحدة الكنيسة ص ٦) .

السلطان الأسقفي:

نلاحظ أيضًا أن سيبريان يشير إلى الفقرات الكتابية التقليدية التي تؤيد ذلك مثل: أعمال ١٩. ٢٠: ١ كورنثوس ١٢: أفسس ٤: ١ بطرس ٥. ولكنه يفتش في كل الكتب لكي يبين أن الكتاب المقدس كله يؤيد السلطان الأسقفي. فمثلاً تثنية ١٧: ٢٠ «الرجل الذي يعمل بطغيان فلا يسمع للكاهن الواقف هناك ليخدم الرب إلهك... يقتل ذلك الرجل». ثم ا صموئيل ٨.

ودور صموئيل النبي في اختيار الملك. ثم متى ٨: ٤ بعد أن يشفي يسوع الأبرص يأمر بأن يذهب إلى الكاهن أولاً (أع ٢٣: ٣-٥). هناك يعترف بولس الرسول أمام حنانيا بأن من يتكلم ضد رئيس الكهنة فهو يخطئ إلى الناموس. وهكذا «من الواضح أن سيبريان يفسر الكتاب المقدس كله تفسيرًا مسيحيًا من البداية إلى النهاية. ويعتبره أمرًا مسلمًا عنده أن الخدمة المسيحية هي الوريث الطبيعي للسلطان الإلهي الموجود في العهد القديم. وخاصة في الكهنوت الإسرائيلي» (Turner, H. E. W. The Pattern of Christian Truth, P. 277).

الأسرار التي يمارسها الهراطقة:

ولقد صب سيبريان جام غضبه على الأسرار التي يمارسها الهراطقه. ولقد بدأت هذه الأزمة عندما عمد بعض الكنهة المتهمين بالهرطقة في أسبانيا. بعض الذين اعتنقوا المسيحية فهل يمكن أن تكون هذه المعمودية معمودية صحيحة؟ أم يجب أن يعاد هؤلاء قبل أن تقبلهم الكنيسة؟ في هذه الحالة أصر سيبريان على إعادة عماد هؤلاء لأن الكهنة الهراطقة كانوا – في اعتباره – في حالة النجاسة. ولكي يؤيد رأيه. استند على ما جاء في خروج ١٩: ٢٢؛ ٢٨: ٤٣؛ لاويين ٢١: ١٧. بل إن الجماعات التي تسمح للكاهن الهرطوقي أن يستمر في الخدمة هي جماعات منجسة أيضًا: ولا يجب أن يخدع الشعب نفسه ويظن أنه ليس شريكًا في الخطية عندما يشتركون مع الكاهن

(١) في ذلك الوقت كان النظام الأسقفي هو النظام السائد في الكنائس شرقا وغربًا. أما رتبة المسيحية فقد احتفظ بها كهنة الكنيسة المحلية. أما الأسقف فكان يشغل مكان القيادة.

الخاطئ». وكان الواجب عليهم «ألا يخالطوا هذا الكاهن الشرير ولا يشتركوا في ذبيحته» (خطاب ٦٧: ٤). فقد كان يعتقد مثلما اعتقد ترتليان بأن الأسرار الكنسية، التي هي واسطة حضور الروح القدس، لايمكن أن يمارسها شخص تركه الروح القدس.

الأسقف إسطفانوس يختلف مع سيبريان:

لكن سيبريان في وقفته هذه وجد نفسه في اختلاف مع الأسقف إسطفانوس (روما). فقد كان سيبريان يعتقد أن الأسرار التي يمارسها المونتانيون، أو الماركونيون يجب أن ترفضها الكنيسة، لكن إسطفانوس عارض هذا الرأي قائلاً إن قداسة الأسرار لاتتوقف على أرثوذكسية الكاهن، أو خلافه. لأن فاعلية السر تكمن في نفسه، وليس في الشخص الذي يقوم به. فالمعمودية إذا مارسها هرطوقي لايمكن أن يبطل مفعولها. ولقد نجح إسطفانوس في ذلك، وصار رأيه معمولاً به في الكنيسة[٢].

سيبريان ينكر رياسة أسقف روما على الجميع:

أختلف سيبريان وإسطفانوس أيضًا على الأولوية التي ادعاها أسقف روما على بقية الأساقفة فقد صارت روما - على مر السنوات ذكرناها سابقًا - مركزًا للكنيسة وبخاصة الجناح الغربي منها. ولذلك حاول بعض الأساقفة روما أن يرفضوا سلطانهم على بقية الأساقفة، ولكن سيبريان عارض ذلك الاتجاه بشدة حالما لاحظه في موقف إسطفانوس. فالكنيسة كما يراها هي وحدة، وهذه الوحدة تتضح في التعاون التام بين الأساقفة، وكما أن هناك كنيسة واحدة لكنها ممثلة في عدة جماعات محلية، هكذا لايوجد إلا سلطة واحدة موزعة بين عدة أساقفة. فكل أسقف يحاول أن يفصل نفسه من الدائرة الأسقفية هذه، فإنه إنما يفصل نفسه عن الكنيسة (وحدة الكنيسة ٥). هذه الوحدة كان يراها سيبريان حقيقة سرية (Mystical)، وأساسها أن الأساقفة كانوا خلفاء الرسل الذين كان لجميعهم نفس الرتبة ونفس السلطان. نعم لاننكر أن المسيح أفرز بطرس وقال عنه حجر الكنيسة. ولكن مع ذلك لم يمنح بطرس أفضلية عن الباقين، فكل الرسل ظلوا في مرتبة واحدة في نظر سيدهم (وحدة الكنيسة ٤). قد يوبخ أسقف أسقفًا آخر كأخ، ولكن ذلك لا يعطيه الحق بأن يسيطر عليه، ولكن على الأسقف أن لايحكم على أخية الأسقف كما يجب ألا يحكم عليه من أسقف آخر، ولكي يتم ذلك فلا يمكن أن يكون

---

(٢) لقد أتفق أساقفة الإسكندرية مع إسطفانوس في أنه لاتوجد إلا معمودية واحدة، وأنها صحيحة مهما كان الشخص الذي يقوم بها. وهناك قصة في السنكسار القبطي تلقي ضوءًا على ذلك (جزء VI ص ١٦١ وهي مأخوذة من Iris Habib Al Masry, *The Story of the Copts* pp. 77, 78 T

القصة أن امرأة مسيحية من أنطاكية هربت ابنيها إلى الإسكندرية بعدأن أرتد زوجها. وفي أثناء رحلتها هبت زوبعة في البحر. فلما خافت أن تغرق السفينة عمدت أبنيها بدمها. ولكن السفينة نجت من الزوبعة ووصلت سالمة إلى الإسكندرية. وعندئذ أخذت الأم طفليها لكي يعمدهما الأسقف بطرس. ولكن عندما أراد الأسقف أن يضع الولدين في الماء تحول الماء حالاً إلى حجر. وتكرر ذلك ثلاث مرات. وعندئذ سأل الأسقف المرأة عن السر وعرف أنها عمدت أبنيها من قبل. وحالما سمع الأسقف ذلك مجد الله وقال: «هذا ما أمرت به الكنيسة بأنه لاتوجد إلا معمودية واحدة».

هناك ما يسمى أسقف الأساقفة ولا أولوية لروما في ذلك. ويرينا التاريخ أن سيبريان لم يستطع أن ينجح في مفهومه هذا لا في الشرق ولا في الغرب.

الكنيسة والأخلاق:

ظهرت في الكنيسة في ذلك العصر مشكلة أخرى تتعلق بالمسيحيين المعمدين. ولكنهم يسقطون مرة أخرى في عبادة الأصنام أو القتل أو الزنى أو غير ذلك. فهل يمكن للكنيسة أن تقبلهم مرة أخرى على العشاء الرباني. كانت الكنيسة قبل ذلك تتبنى رأي ترتليان الذي يقول ان هؤلاء الذين يرتكبون هذه الخطايا «التي للموت» لايمكن أن تقبلهم الكنيسة مرة أخرى. وقد نسب ترتليان التسيب إلى الأسقف كالستوس (Callistus) أسقف روما لأنه سمح بقبول جماعة اتهموا بالإباحية الجنسية مرة أخرى بالكنيسة.

قبول جماعة اتهموا بالارتداد:

واجهت الكنيسة موقفًا حادًا بعد أن توقف اضطهاد ديسيوس لها: فماذا تفعل بأولئك الذين ارتدوا؟ هل يمكن قبولهم في الكنيسة مرة أخرى؟ كانت المشكلة معقدة نظرًا لتعدد المواقف فالبعض منهم استسلموا بعد عذاب مر، وبعضهم أسرعوا عند أول تهديد وقدموا ذبيحة حتى يأخذوا الشهادات المطلوبة. والبعض اشتروا شهادات دون أن يقدموا ذبيحة. وذلك عن طريق رشوة الكهنة الوثنيين. وبعضهم سامحهم آباء الاعتراف (Con-fessors) المسيحيون الذين اعترفوا لهم بذنبهم. وآباء الاعتراف (Confessors) هم الذين نجوا من العذاب الشديد وأصبح لهم المركز السامي. أمام هذه الحالات المختلفة أدرك سيبريان أنه لايمكن أن يطبق عليها جميعًا قانونًا واحدًا. وإلى جانب ذلك فلم يكن مستريحًا لآباء الاعتراف (Confessors). هؤلاء الذين حلوا محل الكهنة. واتخذوا من هذا العمل تجارة ومنحوا الغفران لكثيرين بلا تمييز.

سيبريان يهزم نوفاتيان:

أراد سيبريان أن يحفظ بحق الغفران على أيدي الكهنة فقط. ورأى أيضًا أن بعض المرتدين يمكن قبولهم بعد فحصهم بالتدقيق. وتوقيع العقاب الشديد عليهم. ولكنه رفض أن يقبل الكهنة الذين ارتدوا إلى وظائفهم الاصلية في الكنيسة. وفي هذا كان على وفاق مع رأى دانيوسيوس الكورنثي، وأكليمندس وأوريجانوس في الإسكندرية. وكذلك مع كالستوس وهرماس. ولكنه كان على خلاف حاد مع نوفاتيان الذي كان من روما. وكان في منافسة شديدة مع كورنيليوس على كرسي الأسقفية. وأخيرًا انتصر كورنيليوس وسيبريان. فما كان من نوفاتيان إلا أنه انسحب ليكون كنيسته أخرى. ولكنه – مع كنيسته – حكم عليهم بأنهم منشقون.

هل الكنيسة للجميع أم لقلة من الناس؟

كانت مشكلة النوفاتيين مهمة لمستقبل الكنيسة. كان هدف نوفاتيان يتفق مع هدف هيبوليتس وترتليان في تطهير الكنيسة وطرد الجميع منها والإبقاء فقط على أنقى وأفضل الناس لتكون كنيسة الأنبياء والقديسين والمعترفين والأبكار. في مقابل ذلك كان من رأي سيبريان وكرنيليوس وكثيرين آخرين أن الكنيسة يجب أن تكون لكل من يعترف بالمسيح مخلصًا. ويتعهد بأن يخدمه. نعم هناك مستويات روحية مختلفة. فهناك من أعطوا أنفسهم للمسيح بالحياة في الأديرة. وبتضحية النفس حتى الاستشهاد. وهناك

أيضًا مكان لعامة الشعب الذين ليسوا أبطالاً روحيين، ولكنهم يحبون الرب ويخدمونه بطريقتهم الهادئة. وهنا يجب على الكنيسة وأتباعها أن ترفع الشكر لله لأن سيبريان قد انتصر في النهاية، فقد ماتت النوفاتية وأتباعها الذين أرادوا أن تصبح الكنيسة «كنيسة الأطهار» فقط (كما يسميهم يوسابيوس) كما ماتت المونتانية والماركيونية.

استشهاد سيبريان:

جاءت ساعة سيبريان الأخيرة حينما شبت نيران اضطهاد فاليريان. ففي سنة ٢٥٨م. استدعاه حاكم قرطاجنة ليمثل أمامه، ولم يضعف في أثناء استجوابه، وعندما سمع حكم الموت قال: «شكرًا لله» أما شعبه الذي اجتمع خارج الباب فقد صاح: «نريد أن نموت معه». وذهب سبريان إلى مكان الموت محاطًا بشعبه ثم خلع رداءه الخارجي وطلب أن يعطى لجلاديه خمس وعشرون قطعة من الذهب. وعندما قطعت رأسه تجمع شعبه حوله ومعهم ثياب ليجمعوا دمه ليحتفظوا بها كمخلفات ثمينة.

Recommended English Readings

1. Boer, Harry R. *A Short History of The Early Church,* pp 87- 89.
2. Danielou, J. and Marrow, H. ***The Christian Centuries, Vol. I The First Six Hundred Years,*** pp. 192- 202.
3. Frend, W. H. C. ***The Early Church,*** pp. 111- 117 and Martyrdom and Persecution in The Early Church, pp. 285- 323.
4. Lietzmann, Hans. ***A History of The Early Church, Vol. II.*** pp. 225- 238 & 251- 257.

الباب الرابع

النصف الثاني من القرن الثالث وابتداء عصر قسطنطين

الفصل الأول

أحوال الإمبراطورية



متاعب اقتصادية في الإمبراطورية:

مرت الكنيسة بفترة سلام نسبي قبل أن تحل بها الكارثة الأخيرة بالاضطهاد الذي أثاره دقلديانوس. أما الإمبراطورية نفسها فكانت تجوز في فترة حرجة واضمحلال. فكانت الحالة الاقتصادية على اسوأ ما يكون وقد استعصى التضخم على كل العلاج. حتى أنه في مصر زاد ثمن الأتان عشرين ضعفًا فيما بين سنتي ٢٧٦م.، ٢٨٣م. ثم تضاعف ثمن أردب القمح من ١٦ دراخمة في سنة ٢٦٤م إلى ١٢٠ دراخمة سنة ٢٧٧ ثم إلى ١١١١ ونصف دراخمة سنة ٣٠١. مما دفع الناس إلى القيام بمظاهرات الاحتجاج. وكانت الضرائب قاسية جدًا في أرسناو (الفيوم) اشتكى الفلاحون إلى الحاكم لانهم لا يستطيعون دفع الضرائب. وفي بعض الأحيان كان الناس يهربون من بيوتهم للاختباء في الأديرة أو في الصحراء حتى يتجنبوا جامع الضرائب. وصار كل العاملين في الحكومة مكروهين من الناس لدرجة ان الناس احجمت بشدة عن شغل الوظائف الحكومية.

الانهيار الاخلاقي:

لقد ظهر الانهيار على كل المستويات. في حياة الناس. وقد كتب أحد القضاة واسمه ديمتريانس من قرطاجنة إلى سيبريان يقول: «لقد نضبت المناجم. ولا يوجد شيء في الحقول. واختفت المراكب من البحار. ولا جنود في المعسكرات. وزالت الأمانة من الأسواق والعدالة من الحاكم. والثقة بين الأصدقاء. والمهارة في الفن والانضباط في الأخلاق. وما كان يقال على قرطاجنة كان يقال عن كل حوض البحر الأبيض المتوسط.

انهيار الديانة:

ومع أنه بقى بعض الاهتمام بالديانات الشرقية إلا أننا نشعر أنه حتى الديانة التقليدية في مصر أخذت تفقد أهميتها وحيويتها» (Bell, H. Idris, *Cults and creeds in Graeco-Roman Egypt*, p. 64). نعم كانت العبادات مازالت تمارس ولكنها كانت شكلية وبلا روح. والرموز الدينية فقدت معناها وأهميتها في عقول الناس. وتحنيط الجثث الذي كانت له الأهمية العظمى في الديانة المصرية أصابه الإهمال. وفقدت عبادة الإمبراطور أهميتها. وكان ديسيوس الإمبراطور آخر من كتب اسمه على حائط معبد (إسنا). وقد وجد الرهبان

الأوائل أمكنة فسيحة للإقامة فيها في معابد الإله سيرابيس بعد أن هجرها الناس. ويقول أحد الكتاب اسمه ارنوبيوس أن الوثنين كانوا يلومون انفسهم لإهمالهم العبادة، وتقدم المسيحية، وكانت الطقوس القديمة تؤدى بصورة هزيلة»[١].

المسيحيون في المجتمع:

حدث تغيير في الكنيسة في أوائل القرن الثالث. فلم يعد المسيحيون يختفون في بيوتهم، أو يعبدون سرًا. وبالرغم من الاضطهاد كانوا يوجدون في المجتمعات ويذهبون إلى الأسواق والملاعب والحمامات. وتصف الرسالة إلى «ديوجنيتس» (Diognetus) سلوكهم وحياتهم في العالم مع أنهم ليسوا من العالم: «يعيشون في بلادهم كغرباء كزائرين ... لهم مائدتهم المشتركة ولكنها ليست عامة، يعيشون في الجسد وهم لا يحيون حسب الجسد، يسيرون في العالم مع أن وطنهم في السماء. يسلكون بحسب القوانين الموضوعة، ولكن في حياتهم الخاصة يسمون عليها. يحبون كل الناس رغم أن الجميع يضطهدونهم. فقراء ولكنهم يغنون كثيرين. يحتاجون إلى كل شيء، ولكنهم في كل شيء أغنياء. يحتقرون ولكن مجدهم في هذا الاحتقار. يشتمون ولكنهم يباركون، يظلمون ولكنهم يبررون، يعيرون ولكنهم يشكرون».

نوعية الحياة المسيحية:

لقد لاحظ الناس أن أهم شيء عند المسيحيين هو نوعية الحياة التي يحيونها. فهذه الحياة جعلت بعضهم يقول مندهشًا: «انظر كيف يحبون بعضهم بعضًا» !! (اقتبسها ترتليان في الدفاع ٣٩ : ٧) . لقد اهتم المسيحيون بإخوتهم المسيحيين وبغيرهم. وقد أشار جوليان الإمبراطور الوثني في القرن الرابع إليهم وقال: «احسانهم لغرباء وعنايتهم بقبور الموتى، وقداسة حياتهم الظاهرة عملت على زيادة الكفر (وهو يعني المسيحية) وقد تأثر باكونيوس أحد الجنود الرومان في مصر بالمسيحيين الذين قابلهم لمحبتهم ومثلهم العليا، فاعتنق المسيحية.

نجاح الكنيسة:

وما أن جاءت نهاية القرن الثالث الميلادي حتى كان الناس يدخلون المسيحية أفواجا. ويذكر يوسابيوس المؤرخ الكنسي أنه زار مصر أثناء الاضطهاد الذي شنه دقلديانوس على المسيحيين ويقول أنه رأى الناس يدخلون المسيحية جماعات وقال أنه يتوقع أن تصبح المسيحية هي الغالبة. ويذكر أن عدد الأبراشيات قد تضاعف في تلك الفترة. أما جريجوري – صانع العجائب – فقد ذهب إلى قيصرية جديدة في أسيا الصغرى، وعندما وصل هناك لم يكن عدد المسيحيين يزيد على سبعة عشر فردًا. ولكن عند ترك المدينة بعد أن مكث فيها عدة سنوات لم يكن في المدينة سوى سبعة عشر وثنيًا. ويرجع ذلك بدون بدون شك إلى جرأة القادة المسيحيين في التبشير مع روح المحبة التي سادت كل المسيحيين، ومن الجانب الآخر رأى كثيرون أن الكنيسة سوف تكون موجة المستقبل، بل المكان الجديد لكل الناس حيث

---

(١) أرنوبيوس .Against Nationes 1 :24

يسود العدل والوحدة والحرية.

انتخابات المسيحيين في الوظائف العامة:

لم يقف الأمر عند حد تدافع الناس من كل الطبقات للدخول في المسيحية بل تعداه إلى اعتبارهم قادة ممتازين. فقد اختار عامة الشعب قادة الكنيسة ليكونوا لسان حالهم. وحل الشيخ المسيحي محل الكاهن الوثني كقائد سياسي. واختار الرومانيون المسيحيين ليكونوا أعضاء في البرلمان الروماني. أو القادة للجيش. ولقد خلق هذا الأمر العديد من المشاكل إذ كان من المفروض أن رجال الدولة يشتركون في الطقوس الوثنية الدينية. ولكن في بعض الحالات – كما يذكر يوسابيوس – كان الحاكم المسيحي يعفي من ذلك بأمر من الإمبراطور. وفي بعض الحالات الأخرى التي كان يتحتم فيها على الحاكم المسيحي الاشتراك في تلك المحافل – كانت الكنيسة تتسامح في ذلك على شرط ألا يحضر هذا المسيحي الخدمة المسيحية في فترة عمله. ولكن في بعض الحالات كان القرار صعبًا. ويذكر يوسابيوس قصة جندي مسيحي اسمه ماريتوس كان سيرقى إلى رتبة قائد مائة ولكن جنديًا آخر اعترض على ذلك لأنه مسيحي. وعندئذ خير الجندي المسيحي بين الرتبة مع إنكار الإيمان أو الموت. فاختار الموت شهيدًا. (التاريخ الكنسي VII : ١٥).

الكتيبة الطيبية والقديس موريتيوس:

مع أن الجزء الأخير من القرن الثالث يعتبر زمنًا خاليًا من الاضطهادات. إلا أن التقليد القبطي المصري يروي قصة عن الكتيبة العسكرية الطيبية. وكانت تتكون كلها من جنود مسيحيين. هذه الكتيبة ارسلت إلى سويسرا للخدمة حيث طلب من قائدها موريتيوس أن يقدم ذبيحة للإمبراطور. فما كان منه إلا أن هرب هو وزميلان له. فقبض عليهم وعذبوا وقطعت رؤوسهم. ولكن هؤلاء الثلاثة أمرهم صوت ملائكي أن يتقدموا ويحملوا رؤوسهم. فقاموا ووجدوا مكانًا مريحًا في أعلى التل. هذه القصة مسجلة فنيًا في المنطقة. وكذلك في صور مشهورة من أعمال الفنان الأسباني الشهير الجريكو (Elgreco). وفي أحد ميادين مدينة مورتز. يرتفع تمثال القديس موريتيوس الذي سميت المدينة باسمه أخذت عن كتاب (Atiya Aziz S. A History of Eastern Christianity p.54).



الفصل الثاني

تطور النظم الكنسية



رجال الدين والعلمانيون (Clergy and Laity):

بدأت الإدارة الكنسية تتجدد وتتخذ خطوطًا نهائية خلال القرن الثالث الميلادي. فظهر التمييز بين الإكليروس والعلمانيين. أما الكلمة (Clerk) الإنجليزي (معناها الكاتب) فهي تأتي «كليروس» اليونانية. أما الكلمة (Dean) ومعناها «عميد» فهي كلمة عسكرية، ومعناها قائد عشرة. وهكذا استعيرت بعض هذه الكلمات من الإدارة الرومانية المدنية، وعمل هذا التمييز في الألقاب على وجود الفوارق بين رجال الدين وعامة الشعب.

أساقفة وشيوخ وشمامسة:

كانت الرتب الرئيسية الثلاث في الكنيسة في كل جهات العالم هي: الأساقفة والشيوخ: (وقد أطلق عليهم بعد ذلك لقب الكهنة) والشمامسة. وكان الشيوخ وكل الكنيسة يرشحون الأسقف ثم يصادق الأساقفة الآخرون على هذا الترشيح ويرسمونه، لأنه لا يرسم الأسقف إلا الأسقف – أما الشيوخ فكانوا ينتخبون بواسطة الأساقفة ثم يرتسمون على أيدي الأسقف والشيوخ الآخرين. أما الشماسة فيختارهم ويرسمهم الأسقف وحده.

وكان الشيوخ – مع أنهم أقل من الأساقفة في الرتبة – يقومون بكل الطقوس الكنسية لأنهم من رجال الدين. ثم بدأوا يعينون بالتدريج رعاة للكنائس المحلية إذ زاد عدد الكنائس في القرى. أما الشمامسة فكانوا مسئولين مسئولية مباشرة أمام الأسقف، وكانوا يساعدونه في الأمور العلمية وإلى جانب هذه القائمة كان هناك عدد من الرتب الصغيرة مثل المرتلين والقراء، ليساعدوا في العبادة، ومخرجي الشياطين ثم الخدم الذين يقومون بصيانة مباني الكنيسة ويحافظون على النظام وقت الخدمة.

المرأة في الكنيسة:

تشتمل نقوش المقابر على أسماء نساء، يطلق على بعضهن أسماء «مبشرات» أو «نبيات» أو «معلمات»، والبعض منهن كن من أسر كبيرة لها ممتلكات وثروات. وكثير من الذين استشهدوا كانوا من النساء. وكانت للشماسات مكانة عالية في الكنيسة، فكن مسئولات عن الاهتمام بالمرأة فتعلمن وترشدن الجديدات منهن، وتعتنين بالمرضى والفقراء، فكان مركزهن أقرب إلى الكهنة

أو الشيوخ. أما الأرامل فبينما كن موضع عناية الكنيسة وإحسانها كن يدعين أيضًا للخدمة مثل الشماسات.

ازدياد أهمية الأساقفة:

نستطيع أن نتفهم لماذا بدا مركز الأسقف في الازدياد في الأهمية والسلطان، إذا رأينا أن أسقفًا في كنيسة روما يشرف على عدد من العاملين يصل إلى ١٥٠ شخصًا، زد على ذلك أن أسقف العاصمة كان يمتاز عن أساقفة المدن الصغيرة المجاورة، لأنه هو الذي كان يرسمهم. وأصبحت ألقاب المطارنة أو الباباوات أو البطاركة تطلق على أساقفة الإسكندرية وروما وقرطاجة وانطاكية. أما الأسقف فكان يطلق علية لقب «أنبا» أو «آبا» أو «أبسكوبس» في اليونانية وأصبح «البطريرك» لقب المسئول الديني الأول في كل قطر بأكلمة مثل مصر أو سوريا أو غيرها.

الفصل الثالث

المعمار والفن الكنسي



المسيحيون يبنون الكنائس:

شهد القرن الثالث تطورًا في بناء الكنائس. فقبل ذلك كان المسيحيون يجتمعون سرًا في البيوت. ولكن عندما بدأت السلطات تسمح لهم باقتناء بعض الممتلكات كالمقابر مثلاً. بدأوا بالتدريج يبنون كنائس بسيطة. (أما عصر الكنائس الضخمة والكاتدرائيات فقد جاء بعد ذلك). وهناك أدلة معمارية تدل على أنهم كانوا يجرون بعض التعديلات في المباني العادية لكي تصبح أماكن للعبادة.

دورا – يوربوس (Dura – Europos) :

وقد كشفت الحفريات في مدينة دورا – يوربوس على نهر الفرات عن أحسن مثال لبيت تحول إلى كنيسة. وتدل الشواهد على أن دورا – يوربوس كانت مملوءة بالمعابد الوثنية. ووجد هناك مجمع يهودي بحالة جيدة وبالقرب منه كنيسة مسيحية. وكانت هذه الكنيسة مسكنًا. ولكن في سنة ٢٥٠م تحول هذا المسكن إلى كنيسة بإزالة حائط داخلي لكي يكون هناك مكان متسع للاجتماع وبنيت منصة منخفضة للمذبح والمنبر. وفي حجرة صغيرة عملت المعمودية. ويظهر على الحوائط آثار بعض الرسومات مثل الراعي الصالح وهو يحمل الحملان (يو ١٤:١٠-١٦). ثم يسوع يشفي المفلوج (مر ٢: ٥). ويسوع ينتشل بطرس من الماء إلى السفينة (مت ١٤: ٣١). والمرأة السامرية عند بئر يعقوب (يو ٤: ١٠) والنساء الثلاثة عند القبر الفارغ (مر ١٦). أما بقية المسكن والفناء الملحق به فالأرجح أنها كانت تستخدم للإدارة الكنسية ومسكن للأسقف.

الفن المسيحي

بدأ المسيحيون يعبرون عن معتقداتهم بالرسم: وقد حولوا أحيانًا بعض الموضوعات الوثنية إلى معان مسيحية مثل الراعي الصالح. يونان. المسيح يعلم (مثل فيلسوف أغريقي) المركب في البحر (ترمز إلى الكنيسة) الصياد وهو يلقي الشبكة. وبالمثل فعلوا بالأحداث الشهيرة في العهد القديم وصلتها بالعهد الجديد مثل إبراهيم وإسحق ونوح ودانيآل وداود (يرمزون إلى الخلاص). ويونان وقد كان رمزًا مفضلاً لأن يسوع ذكره في معرض كلامه عن

القيامة. وكذلك موسى وهو يرفع الحية في البرية أو يخرج المياه من الصخرة. مع بعض أحداث العهد الجديد مثل المجوس وسجودهم للطفل. ومعمودية المسيح وإقامة لعازر والعشاء الرباني (سر الشكر) وكثيرًا ما كانوا يعبرون عنه بسلة خبز وسمكة. وكان الارتباط بين إشباع الأربعة آلاف والخمسة بخبز وسمك مثالاً للعشاء الأخير ولوليمة المسيا الاخيرة (رؤ ١٩: ٩). وهذه الرسومات كانت بدائية وغير متقنة. ولكنها كانت تبين أن المسيحيين في أوقات الاضطهاد والألم كانوا يريدون التعبير عن إيمانهم بأشكال لها قيمتها للأجيال المقبلة.

الفصل الرابع

النظم والعبادة في الكنيسة



الأعضاء الجدد في الكنيسة:

إن ما تميزت به كنيسة القرن الثالث بحق هو ازدياد شعورها بوجوب النظام والترتيب. ويصف التقليد الرسولي (في القرن الثالث) – الذي ينسب عادة إلى هيبوليتس (١٧٠ – ٢٣٦م) الروماني – كيف كان يقبل الأعضاء الجدد في الكنيسة. فكان المرشح للعضوية يتقدم عن طريق بعض المسيحيين الآخرين. ويختبره الشيوخ فيسألونه عن الدوافع لدخوله المسيحية، وعن مهنته ومركزه الاجتماعي، وعندما يتقرر قبوله، يلقنة بعض التعاليم ثم يصلي ويقبله قبلة السلام. ويظل يتعلم عدة أيام ويصوم يومين قبل المعمودية. في هذه الفترة يسمح له بحضور اجتماعات المسيحيين لقراءة الكتب المقدسة وشرحها، وقبلة السلام والصلاة لأجل الذين يتأهلون للمعمودية. ولكنه كان يخرج قبل عشاء الرب الذي كان ممنوعًا عن الذين لم يتعمدوا بعد.

المعمودية:

تطور طقس المعمودية إلى ممارسات معقدة. فكان على المعمد أن يخلع ملابسه الخارجية. والنساء يرخين شعورهن ويخلعن حليهن. ثم يجحدون الشيطان وكل أعماله. وكان يفضل إجراء المعمودية في مياه جارية ويغطس المعتمد ثلاث مرات في الماء باسم الآب والابن والروح القدس. وكان السكب مسموحًا به، ولكن لم يكن هو العادة المتبعة. وعند خروج المتعمد من المعمودية كان يذوق شيئًا من الشهد واللبن علامة على قبوله الولادة الجديدة في المسيح ثم يتجة إلى الغرب ويدهنه الكاهن بالزيت، ويضع رأسه بجانب رأسه علامة على قبوله الروح القدس، وهناك ما يدل على أن معمودية الأطفال كانت قد بدأت في الظهور، ولكنها لم تصبح أمرًا عاديًا إلا بعد ذلك بزمن. ويجدر بنا أن نذكر قصة المعمودية في الكنيسة الغربية في بداية القرن الثالث الميلادي، كما يذكرها هيبوليتس: «عندما يذهب الشخص المتعمد إلى الماء كان يضع الشخص الذي يعمده يده عليه ويسأله: «هل تؤمن بالله الآب القادر على كل شيء؟ فيجيب المعمد: «أؤمن». وعندما يمسك المعمد بيد المتعمد ليغطسه مرة، ثم يسأله: «هل تؤمن بيسوع المسيح ابن الله الذي

ولد بالروح القدس من العذراء مريم، وصلب على عهد بيلاطس البنطي، ومات ودفن وقام ثانية من بين الأموات وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الآب وسوف يأتي ليدين الأحياء والأموات؟ وعندما يجيب: «نعم أؤمن» يغطسه مرة ثانية. ثم يقول له: هل تؤمن بالروح القدس والكنيسة المقدسة وقيامة الجسد»؟ فيجيب المتعمد: «أؤمن» عندئذ يغطسه مرة ثالثة. (*Eerdman's Handbook to the History of Christianity,* p. 115)

غفران الخطايا:

ذكرنا سالفًا موضوع الخطايا التي يمكن غفرانها، والتي لا تغتفر. وكان هناك – أمثال ترتليان وهيبوليتس ونوفاتيان – من يقولون أن الارتداد والقتل والزنى خطايا لا تغتفر. ولكن هناك أيضًا من يعارض هذا الرأي مثل أوريجانوس وكاليستوس وسيبريان وديونيسيوس، وقد فاز رأيهم المعتدل هذا. ولقد سمح المجمع الذي اجتمع في روما سنة ٢٥١م، والآخر الذي اجتمع في قرطاجنة سنة ٢١٢ بقبول رجوع الذين ارتدوا تحت ضغط التعذيب، ولكن كان لهؤلاء أحكام شديدة للتوبة. فكان يقطع التائب من الجماعة لمدة تطول أو تقصر بحسب جسامة الذنب الذي ارتكبه أو قد ترجع إلى مرحلة الشخص الذي يرغب في دخول المسيحية من جديد، ثم يوضع تحت الاختبار مدة قبل أن يقبل في الجماعة. وفي العادة كانت الإجراءات المطلوبة منه تفوق تلك التي يطلبونها من الشخص الذي يريد أن يدخل المسيحية للمرة الأولى، لأنه قد أثبت أنه لا يستطيع أن يحيا حياة مسيحية، ولذلك فعليه ان يبرهن على أن تجديده هذه المرة تجديد صادق. ويذكر ترتليان في كتابه عن «التوبة» أن التائب يجب أن يعترف بكل تواضع أمام الجميع «ويجب أن يستمر في الصلاة والصوم والأنين والبكاء، ويصرخ إلى الرب ثم يجثو عند أقدام الشيوخ ويركع أمام أحباء الله (الجماعة)». وعلى أي حال فقد تقرر في ذلك الوقت أنه لا يمكن أن تحرم الكنيسة إنسانًا من المغفرة النهائية.

مستويان روحيان:

وهناك حقيقة أخرى استطاعت الكنيسة أن تدركها وهي أنها لا تستطيع أن تنتظر مستوى واحدًا من السلوك من كل أعضائها. فظلت الكنيسة لسنين عديدة تظن نفسها أنها عروس المسيح «بدون دنس أو غضن أو شيء من مثل ذلك» (أف ٥:٢٧). ولكن عندما ازداد عدد أعضائها، واجهتها مشكلة أولئك الذين كانوا أمناء على قدر طاقتهم، ولكنهم مع ذلك لم يقطعوا علاقتهم بالعالم كلية ولم يكن سلوكهم كاملاً. وكان ممن اعترفوا بوجود المشكلة كاليستوس الروماني الذي شبه الكنيسة بفلك نوح الذي كان به «إشياء طاهرة وأخرى غير طاهرة» وقد ميز ترتليان وأوريجانوس بين الأمور المطلوبة والأمور المرغوبة كما أشار الرسول بولس إلى العزوبية وفضلها، ولكنه لم يأمر بها (١كو ٧:٨). وكان نذر الفقر العزوبية من أقسى الأمور على كثير من المسيحيين، ولكنهما يضيفان مجدًا خاصًا على من يلتزم بهما. وهكذا صار هذا المفهوم للسلوك المسيحي الرفيع والسلوك المنخفض أساسًا لحياة الكهنوت المتبتلة، والنظرة المختلفة من الرهبانية التي ترجع أصولها إلى تلك الفترة.

العشاء الرباني:

أما بخصوص سر الشكر (العشاء الرباني) فقد تحددت بعض الاتجاهات التي كانت ظهرت في عهد يوستينوس الشهيد وإيريناؤس. وهذه الاتجاهات تتلخص في الآتي:

إن العشاء الرباني هو سر فيه يحل المسيح حقيقة (ولكن «كيفية» هذا الحلول لم تناقش لسنوات عديدة) وفيه يشترك المؤمن في الجسد والدم.

وهو ذبيحة يقدمها الكاهن إلى الله (الكاهن وليس شخص آخر) ويطلب من الله النعمة للأحياء والأموات. ويقدم سيبريان شرحًا جيدًا لذلك فيقول: «لأنه إذا كان المسيح يسوع ربنا وإلهنا هو نفسه رئيس كهنة الله الآب: قد قدم نفسه ذبيحة لله الآب، ثم أمر أن يعمل هذا الأمر نفسه لذكره. فهذا الكاهن يحل محل المسيح ويقلد ما فعله المسيح، فيقدم ذبيحة حقيقية وكاملة في الكنيسة، وعندما يكون كمن راى المسيح نفسه يقدمها» (رسائل ٦٢ – ١٤:٦٣). وكانت الكنيسة تقدم العشاء الرباني كل يوم أحد، ولكن كانت هناك بعض الاجتماعات الاخرى: فكان هناك اجتماع خاص كل يوم للتعليم، واجتماع آخر نسائي، وعندما كانت تضاء المصابيح يتقدم الأسقف أو الشيخ ليشكر الله على عطايا اليوم كله. وكانت هناك المحبة التي يرأسها الأسقف، التي تبدأ بالبركة ثم التسبيح من بعض المزامير وبركة الناس. وإلى جانب الصوم الأسبوعي يومي الأربعاء والجمعة، فقد وضعت الكنيسة ايامًا خاصة كثيرة للصوم، وبخاصة قبل عيد القيامة، وذلك للتوبة والاستعداد للعيد. وكانت هناك أيضًا أيام لتذكار الشهداء في ذكرى استشهادهم مع وليمة تؤكل بقرب من قبورهم كما هو واضح في سراديب روما.

يوم الرب:

بدأ التغيير في يوم العبادة والراحة من يوم السبت إلى يوم الأحد من بداية القرن الأول نتيجة لانفصال المسيحيين عن المجتمع اليهودي. فعندما طرد المسيحيون عن الهيكل والمجمع بدأوا يمارسون عشاء الرب في مساء يوم السبت، ولكن لما اعلن الإمبراطور تراجان أن اجتماعات المساء أمر غير مسموح به، وغير قانوني تحولت العبادة إلى يوم الأحد صباحًا، هذا ووجد التغيير الذي رسخ أكثر فأكثر بمرور الأيام، وجد في قيامة المسيح أساسًا لاهوتيًا له لأنها حدثت في يوم الأحد أول أيام الأسبوع. وهكذا أصبح يوم الأحد هو يوم الرب. وقد سمي يوم الأحد بيوم الرب في كتاب تعليم الرسل (١٤)، كما دعاه كذلك أغناطيوس (٩٨ – ١٣٥م.)، وجاستن الشهيد (١٠٠ – ١٦٥م.). وقد كتب ميليتو (Mileto) الذي من ساردس (توفي سنة ١٩٠م.) رسالة يؤيد فيها حقيقة أن يوم الأحد هو يوم الرب[1].

(١) انظر J. D. Douglas, Editor, ***The New International Dictionary of The Christian Church*** p. 939

Recommended English Readings

1. Danielou, J. and Marrou, H. ***The Christian Centuries, Vol. I.*** The first 600 Years, pp. 159 - 172.

2. Frend, W. H. C. ***The Early Church***, pp 119 - 124 ***and Martyrdom and persecution in the Early Church***, pp. 324 – 350

3. Lietzmann, Hans. ***A History of Early Church, Vol. III.*** pp. 57- 60.

4. Walker, Williston. ***A history of the Christian Church***, pp. 81 - 97.

الفصل الخامس

بولس السيموساطي



الخلاف بين أنطاكية والإسكندرية:

في القرن الثالث المسيحي بدأ التنافس بين أنطاكية والإسكندرية بتطور أدى إلى النزاع الحاد الذي أثاره آريوس في القرن الرابع. ومع أن الخلاف اللاهوتي حول الملكية الديناميكية أو التبني قد انتشر في الجناحين الشرقي والغربي من الكنيسة، إلا أن المشاعر كانت أكثر حدة في شرق البحر الأبيض المتوسط ردًا على تلك العوامل الحضارية والاقتصادية والسياسية التي زادت من شدة الخلاف. ويعتبر بولس السيموساطي مثلاً قويًا لهذا النزاع.

بولس السيموساطي كما يصفه أعداؤه:

اختير هذا الرجل أسقفًا لأنطاكية في سنة ٢٦٠م، ولأنه كان مفضلاً عند الملكة زنوبيا ملكة تدمر فقد اختارته أيضًا وزيرًا للمالية. ويقول يوسابيوس أنه صار غنيًا، وكان يلبس أفخر الثياب. وبنى لنفسه عرشًا في الكنيسة. وكان يقوم بالخدمة كأمير وليس كخادم للكنيسة. وقد حكم علية بالهرطقة مجمع أنطاكية سنة ٢٦٨م، ولكن تأييد الملكة زنوبيا له أبقاه في مقر الأسقفية. وما وصل إلينا من تاريخ حياته جاء من جانب واحد هو جانب أعدائه حيث حكم عليه بالهرطقة.

الإمبراطور يستشير الكنيسة:

في سنة ٢٧٢م تمكن الإمبراطور أوريليان من هزيمة الملكة زنوبيا وأسرها. فتقدم بولس السيموساطي بالتماس إلى الإمبراطور لابقائه في مقر الأسقفية، فأعلن الإمبراطور أن «البيت» يملكه أولئك الذين «لهم شركة مع أساقفة المسيحية في روما» (تاريخ يوسابيوس ٧١١م). ويعتبر هذا الحكم في غاية الأهمية، فهو يكشف عن أن الحكومة بدأت تعترف بسلطان الكنيسة، وأن تأثيرها بدأ يكون له اعتباره.

عقيدة بولس السيموساطي في المسيح:

يقول السيموساطي أن ناسوت المسيح قد تضاءل في عقيدة «المسيح الكلمة» التي

تبناها أوريجانوس. فهو لم يفكر في «اللوجوس» كأقنوم متميز في اللاهوت. بل كصفة لله نفسه بواسطتها ألهم الإنسان يسوع المسيح ورفعه. وقال إن الاتحاد الجوهري بين شخصين مستحيل. أما الممكن فهو اتحاد الغرض والإرادة. وكتب يقول:

«الطبائع natures المختلفة والاشخاص المختلفين ليس أمامهم إلا طريقة واحدة للاتحاد هي اتحاد الإرادة» (بقايا خطاب للسيموساطي اقتبسه McGiffert. *A History of Christian thought*. p.243)

السيموساطي وفكرة التبني:

ولكن السيموساطي كان يعتقد أيضًا أن يسوع كان أكثر من إنسان عادي. فقد أعطاه الله العقل الإلهي. وعاش مع الله تمامًا يحبه ويتمم إرادته الكاملة في كل شيء. ولذلك فقد أقامه الله بحق من بين الأموات وأعطاه سلطانًا إلهيًا. وعينه ليكون مخلص الجنس البشري وديانه. بهذا المفهوم اعتبر بولس السيموساطي أن الله تبنى يسوع.

الكلمة جوهر (Homoousion) :

كان السيموساطي هو أول من استخدم كلمة «Homoousion» (وتعني في نفس الجوهر) في وصف وحدة اللاهوت. ولكن هذا الاصطلاح اعتبره علماء لاهوت «اللوجوس» هرطقة. مع أن هذا الاصطلاح صار حجر الزاوية للاهوت المستقيم في مجمع نيقية.

النزاع داخل الكنيسة:

ومع أن المناقشات اللاهوتية بين الكنائس كانت لها جوانبها الإيجابية. لكنها أدت إلى العداء ومشاعر المرارة بين قادة الكنائس. وقد نظر يوسابيوس المؤرخ الكنسي إلى ذلك العصر نظرة تشاؤمية وكتب في أواخر ذلك القرن يقول: «نتيجة للحرية. أصبحت الكبرياء والفتور يسوداننا في كل أمورنا. فأصبحنا نحسد بعضنا بعضًا. ويعادي أحدنا الآخر. ونحارب بعضنا بعضًا بأسلحة الكلام. فالحاكم يهاجم الحاكم. وينقسم عامة الشعب إلى أحزاب وطوائف بينما يملؤهم الرياء الكاذب والتظاهر. لتغطية حياتهم الشريرة إلى النهاية» ولكن صراعات أشرس كانت تنتظر الكنيسة في القرن الرابع.

Recommended English Readings

1. Danielou. J. and Marrou. H. ***The Christian Centuries, Vol. I. The first six hundred years***, pp. 213 - 214. 216 - 218.
2. Frend. W. H. C. ***The Early Church,*** pp. 125 - 126.
3. Lietzmann. Hans. ***A History of The Early Church, Vol. III.*** pp. 99 - 103.
4. McGiffert. A. C. ***A History of Christian Thought, Vol. I.*** pp 241 - 245.

الفصل السادس

الحركات الفلسفية والدينية خارج الكنيسة



في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي ظهر تحد آخر للكنيسة، من جماعات خارج دائرة سلطانها. هذه الجماعات كانت توجه نقدًا عقلانيًا ضد المسيحية، ومن الناحية الأخرى ظهرت حركة انتعاش في العقائد والعبادات الوثنية. وكانت أبرز الحركات الحركة الأفلاطونية الجديدة والمانية والمترائية.

١- الأفلاطونية الجديدة:

في ذلك العصر استمرت الفلسفة اليونانية في جاذبيتها للوثنيين والمسيحيين معا. فقد كان الفيلسوفان الوثنيان الرومانيان «بلوتينوس» (Plotinus) (٢٠٩ - ٢٧٠م.) و«بورفري» (Porphy-ry) (٢٣٢ - ٣٠٣م.) وكذلك أوريجانوس المفكر المسيحي العظيم يدينون بالفضل لفيلسوف الأفلاطونية الجديدة «أمونيوس سكاس» (Am-monios Sakkas) الإسكندري (١٧٥ - ٢٤٢م.).

بلوتينوس وبورفري:

كان بلوتينوس يعلم بأفلاطونية عالية المثالية مملوءة بالتفاؤل، ويعيش حياة زاهدة على مثال حياة الرواقيين. وقد اقتفى أثره تلميذه بورفري، وضم إلى تعاليمه شيئًا كثيرًا يشابه المسيحية، فكانت فلسفته تتكون من ثلاثة عناصر رئيسية: «الإيمان»، «المحبة»، «الرجاء»، والتي تذكرنا بعبارة الرسول بولس المشهورة الإيمان والرجاء والمحبة (١كو ١٣). أما موقفها من المسيحية، فقد انتقد بلوتينوس عقائدها، ولكنه لم يثر حملة ضدها كما فعل بورفري الذي كتب خمسة عشر كتابًا يهاجم فيها المسيحية. ولكن لم يصلنا منها إلا قليل مما حفظ في كتابات الآخرين.

بورفري يهاجم المسيحية:

كان بورفري يكره المسيحيين وكل ما يتصل بهم. وكان يهاجم الكنيسة بالنقد الساخر للتعاليم المسيحية الموجودة في الكتب المقدسة. وكانت طريقته في ذلك شبية بطريقة «سلسوس» الذي تصدى له أوريجانوس وفند كلامه. أتهم بورفري المسيحيين بأنهم تبنوا خرافات اليهود فقبلوا في

«إيمان أعمى» إمكانية وجود الله «ابن الله» وأنه تألم ومات وقام من بين الأموات. بل انتقد تعاليم يسوع نفسها. ووصفها بانها تعاليم صبيانية لا معنى لها. وأتهم المسيح نفسه بأنه كان جبانًا رعديدًا. وسخر من القديسين بطرس وبولس. وهاجم الأسلوب المجازي الذي فسر به أوريجانوس الكتاب المقدس مع أنه هو نفسه فعل نفس الشيء في كتابه عن هوميروس. وهذا كله يدل على أن بورفري كان يرى أن تعاليم المسيحية تهدده، فهجومه الشرس على المسيحية كان يكشف عن خوفه من انتصار الإنجيل إذا آمن به كثيرون. وسوف تنحدر أمامه الفلسفة الحضارة اللتان أحبهما. ويظن البعض أن هجوم بورفري على المسيحية كان باعثًا على الاضطهاد الذي شنه على المسيحيين الإمبراطور دقلديانوس.

٢ - المترائية (Mithraism)

ظهرت المترائية في العبادة الفارسية لإله النور في القرن الخامس قبل الميلاد. وانتشرت في أرجاء إمبراطورية الإسكندر الأكبر. ووصلت إلى روما في القرن الأول قبل الميلاد. وصارت هي الديانة المرغوبة في نهاية القرن الثالث الميلادي. وكانت ديانة سرية لها طقوس سرية تتضمن تقديم ثيران كذبائح والمعمودية في دمائها. وانتشرت هذه الديانة بين الجنود واقيمت لها مذابح في جميع جهات الإمبراطورية حيث كان يجتمع الجنود للعبادة. وكانت تؤمن بتعدد الآلهة وتفتح صدرها لآلهة كثيرة جديدة وقديمة. وترفع الإمبراطور الروماني إلى مستوى الآلهة. وكان الإمبراطور يعتبر فوق سائر البشر لأن فيه صفات الآلهة. وهذا هو سبب في ارتباط الإمبراطور قسطنطين بإله الشمس. وكان تاثير المترائية عظيمًا في الإمبراطورية حتى أن الإمبراطور اعتبر مقدسًا بطريقة ما حتى في العصر المسيحي.

٣ - المانية (Manichaeism)

حياة ماني:

كانت المانية من صنع ماني الذي ولد في فارس عام ٢١٦م ثم أعلن نفسه نبيًا ينادي بديانة جديدة وقد نال رضى الملك الفارسي «شابور». وكان يتردد على البلاط الملكي. واستطاع «ماني» - تحت رعاية الملك - أن يكتب ستة كتب وخطابات. وأصبحت هي الأساس للديانة المانية. ولقد اختار ماني عناصر ديانته من الزرادشتية والبوذية واليهودية والمسيحية. وضمها معًا ليخلق الديانة «الكاملة». وقد اعتبر نفسه «الباراكليت» أي الروح القدس، الذي وعد به يسوع المسيح. وكان يبدأ خطاباته بقوله: «ماني رسول يسوع المسيح». وقد ألقي به في السجن بأمر من إمبراطور آخر بتأثير من الكهنة الزرادشتيين. وأخيرًا أعدم سنة ٢٧٧م. واضطهد الأباطرة الرومان المانية أيضًا لأنهم اعتبروها وباءً شرقيًا مفسدًا. ويقول البعض أن دقلديانوس اضطهد المسيحية امتدادًا لاضطهاده للمانية. ولكن المانية انتشرت في كل حوض البحر الأبيض المتوسط ووصلت إلى الصين. ويحتمل أنها استمرت حتى القرن الثامن الميلادي.

عقائد المانية:

المانية فلسفة ثنائية فهي تقول أن النور والظلمة، الخير والشر في صراع أبدي. والبشرية سجنت في عالم المادة. أما الله (أبو الصلاح) فقد أرسل رسلاً مثل يسوع وماني ليحرروا البشرية. وهذا الخلاص يؤسس على معرفة الإنسان الصحيحة الطبيعية الحقيقية ورغبته في العودة

إلى عالم النور. وقد تشجع اتباعة فعاشوا حياة في غاية الزهد لأنهم تعلموا أن المادة شر. فلم يشربوا الخمر. ولم يأكلوا اللحم ولم يخالطوا النساء. وكانوا ينتظرون المجيء الثاني للمسيح ليحكم ألف سنة. وحينئذ تأتي النهاية فيتحرر المختارون من عالم المادة ويتحدون بمملكة النور. أما الخليقة الشريرة فسوف تبيد وتنتهي.

المانية في مصر:

جاء رسل المانية ينشرون ديانتهم في مصر. بينما كانت الكنيسة المصرية تناضل ضد الغنوسية والدوسيتية. ولكن بطريرك الإسكندرية «الأسقف ثاونا» حرمهم. ولكن رجلاً مسيحيًا اسمه «هيراكاس» (Hieracas) جمع حوله بعض الاتباع وحثهم على أن يتخلصوا من حياة الجسد حتى تتحرر أرواحهم من أجسادهم (فالمانية لا تؤمن بقيامة الأجساد). وقد نجح هيراكاس في ذلك حتى أنه سبب ضيقًا للقادة المسيحيين الذين طلبوا ممن يريدون الدخول في المسيحية أن يشجبوا هيراكاس وكل أعماله قبل أن يقبلوا كأعضاء كاملين في الكنيسة (من كتاب W.H. C. fend. *Martyrdom and Persecution in The Early Church,* p 337)

انتصرت المسيحية ضد تحدي الفلسفة والديانات الوثنية. وعاشت هي بينما اندثر غيرها من تلك الديانات. لكن الكنيسة تعرضت للاضطراب. فبعض الأعضاء سقطوا في تجربة الانضمام إلى الجماعات المتطرفة. كما وجدت بعض التعاليم الوثنية طريقها إلى الكنيسة. وكان تاثيرها على المناقشات اللاهوتية في القرن الرابع. وكان لكتابات غير المسيحيين أثر ضدها. ولكن كما تعرف. انتصرت الكنيسة رغم كل التجارب المحرقة التي جازت فيها حينما شب لهيب اضطهاد دقلديانوس.

Recommended English Readings

1. Bruce. F. F. *The Spreading Flame*, pp. 287 - 288.
2. Danielou. J. and Marrou. H. *The Christian Centuries, vol. I. The First Hundred Years*, pp. 192 - 194.
3. Fend. W. H. C. *Martyrdom and Persecution in The Early Church*, pp. 355 - 359.
4. Lietzmann. Hans. *A History of The Early Church, vol. III.* pp. 32 - 46.
5. Walker. Williston. *A History of The Christian Church*, pp. 97 - 99.

الفصل السابع

اضطهاد دقلديانوس

Diocletian Persecution



١- الموقف في الإمبراطورية

عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي

مع أن الكنيسة لم تتعرض للاضطهادات المنظمة منذ عام ٢٥٩م. إلا أن الإمبراطورية كانت تجوز في فترة عدم استقرار شديدة. فمنذ أن مات ماركس أوريليوس (١٨٠م.) لم يستطع واحد من الأباطرة أن يضمن عرشه او نفسه. فقد كان كل واحد منهم أسيرًا للقوات المسلحة التي كانت تتخلص منه عندما تريد. والدليل على ذلك هو أن خمسة وعشرين إمبراطورًا حكموا ما بين سنتي ١٨٠ - ٢٨٤م. قتل منهم واحد وعشرون. زد على ذلك التهديد المستمر من الممالك والقبائل على الحدود الشرقية والشمالية للإمبراطورية. كل ذلك مع الضرائب الثقيلة المتزايدة. والتضخم المستمر مما جعل الحياة الاقتصادية تنهار.

الكنيسة تزداد عددًا وتأثيرًا:

أما المسيحية فقد تقدمت تقدمًا عظيمًا لاشك فيه. فقد كان المسيحيون يبنون كنائس جديدة وضخمة في كل مكان. ولقد شجعت فترة السلام التي كانت تمر بها الكنيسة. الكثيرين من كل الطبقات على قبول المسيحية. وظهر المسيحيون في البلاد والجيش وفي بعض المحاكم العليا. وفي الحكومة حتى أن الإمبراطورة بريسكا زوجة دقلديانوس الأثيرة عنده وابنته فاليريا صارتا مسيحيتين. وأصبح الأساقفة يتمتعون باحترام حكام المقاطعات. وصارت للكنيسة أهميتها وتاثيرها في نواح كثيرة من الحياة الرومانية. ولهذا السبب نظروا إلى الكنيسة كتهديد قوي لإمبراطورية تحارب لأجل البقاء.

إصلاحات دقلديانوس:

اعتلى دقلديانوس سنة ٢٨٤م عرش الإمبراطورية. وكان من أعظم الحكام الرومانيين وبدا إصلاحاته الإدارية بأن قسم الإمبراطورية إلى قسمين: الشرقي والغربي. وصل لكل قسم أوغسطس (إمبراطور) ويلية قيصر. وكان دقلديانوس برتبة أوغسطس في الشرق ومعه

جاليريوس قيصر. ثم ماكسيميان أوغسطس في الغرب مع قسطنطنوس قيصر. لكن دقلديانوس كان الإمبراطور الأعلى على الجميع وكان يؤكد سلطانه الإلهي في مركزه. فقد كان «ربًا وإلهًا» وليس «المواطن القائد» كما كان الأباطرة السابقون. ثم زاد عدد الجيش وجعله القوة الحاكمة في كل الإمبراطورية. ومع أن هذه الاصلاحات جاءت بالاستقرار والنظام إلا أنها انقصت كثيرًا من حرية الناس.

٢- أسباب الاضطهاد

دوافع دقلديانوس:

بعد تسع سنوات من ارتقائه العرش، انقلب دقلديانوس على الكنيسة في سنة ٣٠٣م، وبدأت اقسى فترة للاضطهاد عرفتها الكنيسة. أما سبب انقلابه المفاجئ هذا، فما زال محل جدل. إلا أن هناك أسبابا يمكن استقراؤها. أول كل شيء كان دقلديانوس يحاول جهده أن يعيد النظام، ولكنه رأى في الديانات الغريبة عاملاً للاضطراب، فأصدر مرسومًا ضد المانية سنة ٢٩٧م. (٣٤) ولابد أنه كانت لديه نفس مشاعر العداء ضد المسيحية. زد على ذلك أن محاولته استعادة الوحدة الدينية متمثلة في عبادة الإمبراطور، قد اصطدمت مباشرة بالمجتمع المسيحي النامي الذي رأيناه يتزايد بسرعة، مما أثار ضده نيران الإفلاطونية الجديدة وبلوتينوس وبورفري الذين اتهموا المسيحيين بأنهم عديمو الإحساس الوطني، وأنهم يحاولون إثارة الرعاع بل أنهم يعادون الدولة. هذه الاتهامات التقطها وبالغ فيها أحد الحكام في بثينية وذكر دقلديانوس بالخطر المحدق من جراء المسيحيين. ولقد كان للإمبراطور نفسه اختبار شخصي أوغر صدره ضدهم فقد استشار كاهن الآلهة الوثنية في أنطاكية ولكن الكاهن قال له أن الآلهة لا ترد عليه لأنه يوجد في الاجتماع بعض المسيحيين الذين يلبسون الصليب. وفي نفس الوقت كان قيصره جاليروس وأمه الوثنية يوعزان إليه بأن مشاكل الإمبراطورية يمكن أن تحل إذا سحقت المسيحية. فرجع دقلديانوس ليستشير الآلهة، ولكنها لم ترد (والسبب في ذلك كما يقول «لاقتانتيوس» Lac-tantius - وهو مؤرخ مسيحي - هو أن قوة روحية أخرى أكثر تاثيرًا كانت تمنع الإعلان الوثني قاصدًا بذلك المسيحية). وإزاء ذلك لم يكن دقلديانوس في حاجة إلى دافع آخر، وأصبح سحق المسيحية ضرورة حتمية.

٣- ابتداء الاضطهاد العظيم

إبادة الكنيسة:

في الثالث والعشرين من شهر فبراير سنة ٣٠٣م. أصدر دقلديانوس أمره بإبادة الكنيسة في نيقوميديا (أسيا الصغرى) أحرقت الكتب المقدسة، وأعطى الأثاث للرعاع. أما المسيحيون فقد طردوا من وظائفهم وحرموا من ألقابهم ومنعوا من الشهادة في المحاكم. ويقال أن دقلديانوس لم يكن يرغب في إراقة الدماء، ولكن ما أثاره بشدة أن أحد المسيحيين انتزع مرسومه الذي كان معلقًا في ساحة المدينة ومزقه. فأمر بأن يقبض على هذا الإنسان ويحرق حيًا. ومما زاد الأمر سوءًا أن شبت النار في القصر فأصدر الإمبراطور أمر أشد قصوة وبموجبة أعدم كثيرون من المسيحيين، ثم اجبرت الإمبراطورة بريسكا وابنتها فاليريا على تقديم ذبيحة للإمبراطور. وقام المسيحيون في سوريا بثورة احتجاجية لكنها اخدمت بكل قسوة.

قادة الكنيسة يسجنون:

وتؤكد السجلات أن جاليريوس كان يؤيد دقلديانوس في المزيد من الاضطهاد والضغط على المسيحيين. ففي الصيف التالي أرسلت تعليمات إلى الحكام لإجبار كبار المسيحيين في الكنائس على تقديم ذبائح للإمبراطور أو أن يسجنوا. ويقول يوسابيوس: «في كل مدينة سجن عدد من قادة الكنيسة. والسجون التي بنيت من قبل للقتلة واللصوص الخطرين امتلأت بالأساقفة والشيوخ والشمامسة والقرائين ومخرجي الشياطين حتى لم يبق فيها مكان لوضع المحكوم عليهم بسبب الجرائم» (تاريخ كنسي ٨: ٦).

الإعدام الجماعي:

يخبرنا يوسابيوس الذي رأى كثيرًا من هذه الاضطهادات أن الاضطهاد وصل إلى ذروته فكان المسيحيون يعدمون بالجملة. ففي فريجية أحاط الأعداء بالكنيسة وأغلقوا أبوابها وأحرقوها بمن فيها. وفي نيقوميديا كان الناس يؤخذون بالجملة ويقيدون ويلقون من المراكب إلى البحر. وفي مصر تعب الجلادون من قطع رؤوس المسيحيين. وأحيانًا كانوا يستبدلون عقوبة القتل ببتر أعضاء الجسم وقلع العيون أو حرق عضلات أحد الساقين فلا يستطيع الشخص أن يهرب. ولكن إلى ذلك الوقت كان العقاب ينزل بقادة الكنيسة فقط. ولكن في عام ٣٠٤م صدر مرسوم رابع يطلب من عامة الشعب أن يقدموا الذبائح للإمبراطور. وحينئذ نزل الاضطهاد بكل قوته على الجميع ولم يستثن أحد من الرجال أو النساء أو الأطفال أو الشيوخ.

الاضطهاد يبلغ مداه في الشرق:

قرر دقلديانوس أن يعتزل الحكم لمرضة في سنة ٣٠٥م فخلفه في الحكم جالريوس الذي انتهز فرصة وجودة في منصبه الجديد فزاد من الاضطهاد. وقد وصل الاضطهاد ذروتة في شرق البحر الأبيض المتوسط وساحل أفريقيا الشمالي. أما في الغرب فقد كان الحاكم اقل تحمسًا أو حاجة إلى تنفيذ الأوامر على كل إنسان (مع أن الشهيد البريطاني الأول القديس ألبان أعدم في تلك الفترة). وتقول بعض السجلات أنه كان يسمح للمسيحيين بالمرور في بعض الأماكن في صفوف بجانب المذبح والتظاهر بتقديم الذبيحة للإمبراطور. ومن لم يفعل ذلك كان يمسك الجندي بيده ويجبره على تقديمها. وفي أماكن كثيرة كان حماس الجماهير للاضطهاد أقل كثيرًا مما كان في السنوات السابقة لهذا الوقت.

إبادة الكتب المقدسة:

كانت السلطات تعتقد أنه في استطاعتها إضعاف الكنيسة بإبادة الكتب المقدسة. ولكن كان المسيحيون يدافعون بحياتهم عن الكتب المقدسة الثمينة المكتوبة بخط اليد. وفي بعض الأحيان اخفيت هذه الكتب. وفي أوقات أخرى كانوا يعطون الجنود كل شيء آخر في الكنيسة: الأطباق والكؤوس الفضية والستائر والأردية... إلخ. وآخر الكل كانوا يرغمون على تسليم الكتاب المقدس ليعدم. أما أسقف قرطاجنة فقد أمكنه أن يحمي الكتاب المقدس بأن أعطى الجنود كتابات مانية لأنهم لم يعرفوا الفرق بين الاثنين والبعض فضلوا الموت على أن يكشفوا عن المكان الذي خبأوا فيه الكتب المقدسة. وقد كتب جماعة من «آباء الاعتراف» من سجنهم يدينون أحد رجال الدين الخائنين الذي رضي أن يسلم الكتاب المقدس للسلطات. مع أنهم سجنوا لرفضهم تسليمة.

وقالوا في إدانتهم له إذا كان تغيير حرف من الكتاب المقدس يعتبر ذنبًا كبيرًا فكم بالأحرى تسليم الكتاب المقدس كله للحكام الوثنيين ليبيدوه. أنه أمر يستحق الهلاك الأبدي.

٤- الموجة الثانية من الاضطهاد

الاضطهاد المنظم الذي شنه مكسيميانوس:

أصبح مكسيميانوس، ابن أخ جاليريوس، إمبراطورًا في الشرق سنة ٣٠٦م. وقد اتبع طريقة منظمة منتظمة في إخضاع المسيحيين، ومحاولة إحياء الديانة الوثنية القديمة. فبنيت المعابد من جديد وزرعت الأشجار المقدسة مرة أخرى. وسادت الدعوة لتوحيد صفوف الوثنين مع محاولة إرجاع المسيحـ ين إلى ديانة إجدادهم الوثنية. وفي سبيل ذلك لم يتورع مكسيميانوس أن يستخدم القوة. ولقد عمل قوائم حصر للمواطنين وأمر الجميع بتقديم الذبائح للأوثان. ومن يرفض كان يتعرض للعذاب الشديد. ففي قيصرية حاول أحد الشبان المسيحيين المتحمسين أن يمنع الحاكم من تقديم الذبيحة فعذب وقتل. ومسيحي آخر سيق إلى الموت بأن ربطوه بسيور من الجلد مع كلب وحية سامة والقي بهم في البحر. وفي السنة التالية كان مكسيميانوس يشوه أجسام المسيحيين ويرسلهم إلى المناجم والمحاجر ليعملوا في الأعمال الشاقة.

شهادة يوسابيوس عن الاضطهاد في مصر:

استمر الاضطهاد طيلة السنوات الست التالية بشدة ووحشية في كل مكان وبخاصة في فلسطين ومصر، فكتب يوسابيوس، الذي شاهد حوادث الاضطهاد بنفسة: «أي كلام يمكنه أن يصف شجاعتهم وبسالتهم في مواجهة ذلك العذاب، فقد سمح، لكل من أراد، أن يشتمهم وأن يضربهم بالعصي والجلدات أو الهراوات أو السوط. وقد علق بعض المسيحيين على المشانق وأيديهم مقيدة وراء ظهورهم ثم سحبت أطرافهم بواسطة آلات خاصة، وبينما هم على هذه الحال يبدأ المعذبون بضربهم على أجسادهم وعلى جنوبهم... بل وعلى بطونهم وسيقانهم ووجوههم.. ولقد علق بعضهم بيد واحدة...» (H. E. VIII, 10, 4-5 .X).

شهداء مصر:

يتفق المؤرخون على أن مصر عانت أكثر من أي مكان آخر في العالم وخسرت أكبر عدد من الشهداء الذين قاسوا أعنف الاضطهاد في أيام دقلديانوس. وقد كتب كاهن من قرطاجنة يقول: «إذا وضع كل شهداء العالم في كافة ووضع شهداء مصر وحدهم في الكفة الأخرى فإنهم يزيدون عن الآخرين جميعًا» ولأجل ذلك بدأ التقويم القبطي من سنة ٢٨٤م وهو التاريخ الذي تولى فية دقلديانوس السلطة وسمي عصره «بعصر الشهداء». وفي السنكسار القبطي (وهو مجموعة من تواريخ الشهداء والقديسيين الأقباط) نجد أسماء ١٨٤ شهيدًا تذكرهم الكنيسة في أيام اضطهاد دقلديانوس. ومن أهم الشهداء الذين تذكرهم الكنيسة وتحبهم القديسة دميانة وهي ابنة حاكم الدلتا، وقد أسست ديرًا للراهبات. ولكنها استشهدت هي وأربعون شهيدة أخرى من رفيقتها. وهناك شهيدة أخرى هي القديسة كاترين من الإسكندرية التي استشهدت سنة ٣٠٨م. وهي في سن الثامنة عشر. وقد نقلت رفاتها إلى سيناء حيث أقيم دير للروم الأرثوذكس يسمى دير سانت كاترين. وهناك الشهيد مارجرجس القائد الروماني وهو قديس

يحظى بتكريم الكنيسة القبطية. وقد استشهد في عصر دقلديانوس. وبالقرب من الجيزة توجد كنيسة تسمى كنيسة «الخمسة ووالدتهم» على اسم خمسة أبناء وأمهم ماتوا من أجل إيمانهم في عصر الاضطهاد. يعتبر هؤلاء عينة قليلة من الذين تذكرهم الكنيسة القبطية وتجلهم (كتاب عزيز عطية سوريال ص٣١، ٣٢، وكتاب إيريس حبيب المصري ص ٧٣ - ٩٣).

شجاعة الشهداء تزداد:

ولكن رغم العذاب الشديد الذي وقع على الشهداء، كانوا يزدادون شجاعة يومًا بعد يوم. بل كان يلوح أنه كلما كان عذابهم يزداد كانوا يزدادون ترحيبًا به. ويعبر يوسابيوس عن إعجابه بهم فيقول: «ونحن أنفسنا قد شاهدنا بعيوننا.. كثيرين جدًا قبض عليهم في يوم واحد فبعضهم قطعت رؤوسهم، وآخرون احرقوا... حتى كلت بلطة الجلاد وتكسرت.. والجلادون أنفسهم اعيوا من كثرة العمل .. وهنا رأينا الشهداء وعلى وجوههم أعظم فرح وترحيب دليلاً على قوة وغيرة سماويتين في الذين وضعوا إيمانهم في مسيح الله. وحالما كان الحكم بالموت يصدر على واحد منهم، كان كثيرون يقفزون إلى أمام منصة القضاء، ويعترفون بإيمانهم المسيحي غير عابئين بالتهديد والعذاب... بل كانوا يتكلمون بشجاعة عن خوفهم لله إله الكون، ثم بفرح وضحك يستقبلون الحكم بالإعدام وهكذا... ويرفعون الشكر والترانيم لإله الكون إلى آخر نسمة في حياتهم» (H. E. VIII, 9:45).

تزايد التعاطف مع المسيحين:

كان مكسميان قلقًا وكان يغالي في اضطهاده للمسيحيين تنوعًا وقسوة حتى أنه استعمل الخداع. فكان يأمر برش دم الذبائح على الطعام الذي يباع في الأسواق حتى يمكن أن يقال أن المسيحيين «قدموا الذبائح» «ولكن المؤرخين يقررون أن الشعور العام بدا يتحول إلى الناحية الأخرى فقد رأى الشعب أن العقاب كان قاسيًا. وقد عبر أثناسيوس عن ذلك بقوله: «يعطف عدد كبير من الوثنين الآن على المسيحيين» (Historia arianorum) فكان من الواضح أن الاضطهادات لم تحقق الغاية المرجوة منها، وأخذت الوثنية في الاضمحلال بينما نمت الكنيسة المسيحية وقويت.

مرض الإمبراطور جاليريوس:

في ربيع عام ٣١١م، أصيب جاليريوس الإمبراطور الغربي بمرض عضال. وقد فكر طويلاً في أسباب مرضه (ويقول أحد المؤرخين القدامى أن أحد الأطباء أخبره أن مرضه من الله) وبدأ يتسال عما إذا كان مرضه هذا هو انتقام من إله المسيحيين. ولذلك أصدر جاليريوس المرسوم التالي في أبريل عام ٣١١م.

سماحة جاليريوس الدينية:

من بين الخطوات التي نتخذها دائمًا لخير الدولة وتقدمها، حولنا أن نسير كل الأمور بحسب الشرائع القديمة والنظم الرومانية العامة، وكنا نرجو أن المسيحيين الذين تركوا أسلوب الحياة السابق لأجدادهم، يرجعون إلى الصواب لكن الذين يدعون مسيحيين، قد بلغ بهم العناد حد أنهم بدلاً من أن يسيروا في شرائع ونظم القدماء ... صنعوا بإرادتهم وحسب مسرتهم قوانين خاصة بهم. وكانوا يجتمعون معًا في أماكن عديدة مع أناس من جنسيات متعددة. ولكن بعد أن أمرنا

بأن يرجعوا إلى حياة أجدادهم تعرض الكثيرون منهم للخطر وكثيرون تعرضوا للهلاك. ولما تمسك الأكثرون منهم بديانتهم إلى النهاية ورفضوا أن يقدموا العبادة لآلهة متكلين في ذلك على رحمتنا ورغبتنا أن نمنح التسامح لكل الناس ... لذلك وجدنا أنه من الأصلح أن نمد لهم حبل التسامح لكي يصبحوا احرارًا في بناء كنائسهم. *وفي معيشتهم كمسيحيين على شرط ألا يفعلوا* شيئًا ضد النظام العام. وانسجامًا مع تسامحنا هذا. يجب عليهم أن يطلبوا من إلههم من أجل سلامتنا ومن أجل خير الدولة. وذلك لكي يعيشوا هم أيضًا في بيوتهم وهم مطمئنون (Cambari-dge ancient History. vol. XII. p. 672)

هبوط حدة الاضطهاد:

مات جاليريوس بعد إعلان المرسوم بخمسة ايام. ولكنه ظل مع ذلك ساري المفعول. لقد صدر باسم جالريوس وقسطنطين وليسينيوس ومكسيميانوس. ولهذا فقد خضعت له كل الإمبراطورية وهبطت حدة الاضطهاد. ولكنه لم ينتهي تمامًا لأن مكسيميانوس بذل كل جهده لإحياء العبادة الوثنية واضطهاد المسيحيين.

التدابير النهائية اليائسة:

كان هناك نوع من اليأس في المعركة الأخيرة ضد الكنيسة. ومن هذه المحاولات اليائسة دفع الحكام للعاهرات ليشهدن بأنهن شاهدن أفعالا شائنة في الكنائس. ونظمت المظاهرات في أماكن مختلفة في وقت واحد ضد المسيحيين. وطلب من أطفال المدارس أن يقرأوا كتابًا اسمه «أعمال بيلاطس». وهو كتاب مملؤ بالتجديف على يسوع. وقد ركزت السلطات مرة أخرى أنظارها على فلسطين ومصر فقتل «بطرس» بطريرك الأسكندرية في نوفمبر عام ٣١١م ومعه كثيرون من الأساقفة المصريين. ولأنه كان آخر بطريرك يقتل فقد أطلقوا علية لقب «خاتم الشهداء».

المراحل العشر للاضطهاد:

يذكر التقليد القبطي أن هناك مراحل رئيسية من الاضطهادات مرت بها الكنيسة:

١- نيرون ٥٤ - ٦٨م.

٢- دومتيان ٨١ - ٩٦م.

٣- تراجان. هادريان ٩٨ - ١١٧م.

٤- مرقس. أوريليوس ١٨٠م.

٥- سبتيموس سفيروس ١٩٣ - ٢١٠م.

٦- مكسيميانوس ٢٣٥ - ٢٣٨م.

٧- ديسيوس ٢٤٩ - ٢٥١م.

٨- فالريان ٢٥٣ - ٢٦٠م.

٩- أورليان ٢٧٠ - ٢٧٥م.

١٠- دقلديانوس ٢٨٤ - ٣٠٥م.

أخذت هذه القائمة من كتاب «كنيسة الآباء» تأليف فؤاد بهنام وإبراهيم مطر. وهناك قوائم أخرى بها بعض الاختلافات البسيطة.

الفصل الثامن

قسطنطين ونهاية الاضطهاد



انتصارات قسطنطين:

كانت هناك أحداث سياسية في أماكن أخرى من الإمبراطورية بدأت تظهر أثرها. فقد بدأ قسطنطين الذي بايعة جنوده قيصرًا بعد موت أبيه قسطنطينوس فبدأ يقوي مركزة سياسيًا وعسكريًا. فقد أحرز الكثير من الانتصارات ضد القوطيين في أوروبا (القوطيون هم قبائل جرمانية هددت الإمبراطورية من الشمال). بعد ذلك ضم جيوشه إلى جيوش ليسينيوس ليحارب ماكسينوس (وهو الإمبراطور الباقي في الغرب) وهزماه في موقعة قنطرة ميلفيان شمال روما في أكتوبر عام ٣١٢م.

موقعة قنطرة ميلفيان نقطة تحول:

ذكر يوسابيوس – بعد بضع سنوات – قصة الأحداث التي أدت إلى هذا الانتصار وذكر أنه سمع القصة من قسطنطين نفسة. فقد كانت نصرتهفي هذه الموقعة نقطة فاصلة في تاريخ الكنيسة المسيحية.

ظهور المسيح لقسطنطين كما يرويه يوسابيوس:

عندما كان قسطنطين يقترب من جهة الشمال بعد أن نجح في السيطرة على «تورينو» و«ميلان» و «فيرونا» يقال أن الأسقف هوسيوس أسقف قرطبة بأسبانيا كان يرافقة. مما يدل على أن قسطنطين كان يتعاطف فعلاً مع المسيحيين إلى حد ما. ويذكر يوسابيوس في كتابه «حياة قسطنطين» أن الإمبراطور صلى إلى الله لأجل الإرشاد فاجأبة الرب بعلامة الصليب المضيء الذي كان يلمع فوق الشمس الغاربة. وقد كتب علية «EN TO YTO NIKA» أي «بهذه العلامة تغلب». ولم يكن قسطنطين وحده هو الذي رآه، بل رآه معه كل الجيش. وفي ذات الليلة ظهر المسيح لقسطنطين ومعة صليب النور هذا في يده، وطلب منه أن يرسم الحرفين اللذين يبدأ بهما اسم المسيح في اللغة اليونانية على خوذة ودرع كل جندي في الجيش. وهكذا كتب الحرفان هكذا وهو الشكل الذي يسمى «labarum» والذي صار شعارًا على راية قسطنطين في الحرب.

قسطنطين يكسب المعركة:

في اليوم التالي عندما تقدم ماكسنيتوس بجيوشة لمعركة قنطرة ملفيان السالفة الذكر، رأى قسطين سربًا من «البوم» واقفًا على سور المدينة. فرأى فيه فألاً حسنًا لنفسة وسيئًا لماكسنيتوس. ولذلك هاجم بجيوشه. وفي أثناء المعركة سقط ماكسنيتوس من فوق القنطرة وغرق. فانتهت المعركة وانتصر قسطنطين الذي عزا ذلك – حسب رواية يوسابيوس – إلى إله المسيحيين.

ليسينيوس يهزم مكسيميانوس:

ولقد فاز قسطنطين في معارك أخرى بينما كان ليسينيوس يهزم مكسيميانوس ويطارده في الشرق ويذكر «لاكتانتيوس» Lactantius المؤرخ الروماني المسيحي أن ملاكًا ظهر لليسينيوس قبيل المعركة الحاسمة، تمامًا مثلما حدث لقسطنطين.

مرسوم ميلان:

لقد أوقف قسطنطين الاضطهاد، أما ليسينيوس فهو الذي كتب مرسوم ميلان بالتسامح الديني الذي وافق علية كلاهما في ١٣ يونيو ٣١٣م. «وهكذا عندما تقابلنا معًا أنا قسطنطين أغسطس، وليسينيوس أغسطس، في ميلان وتدارسنا كل هذه الأمور... اقتنعنا بأنه يجب أولاً وقبل كل شيء أن تلك القواعد التي وضعت لاحترام الآله، يجب أن تنظم بكيفية تعطي للمسيحيين ولكل الناس الحق في أن يعتنقوا أي دين يرغبونه. نعم لقد انتهينا إلى هذه النتيجة: وهي أن نتبنى هذه السياسة التي تحتم أن نعطي كل فرد حريته في أن يعتنق المسيحية أو أي ديانة أخرى. ومن الآن نريد أن يعلم أن إرادتنا تقتضي إلغاء كل القوانين التي تضمنتها خطاباتنا السابقة بخصوص المسيحيين، نعم يجب أن تلغى ومن الآن يمكن لمن يرغبون في اعتناق الديانة السالفة الذكر – المسيحية – أن يبادروا إلى ذلك بكل حرية وبدون موانع أو عقبات أو تدخل أو مضايقات (Cambridge Ancient History, Vol. XII,pp.689-690)

ثم أردفا ذلك بقرار إرجاع كل الممتلكات التي صادروها من المسيحيين إليهم، وتعويض كل من اشتراها من خزانة الدولة: «حتى تنجح العناية الإلهية كل أعمالنا ويتحقق الصالح العام».

لماذا فشل الاضطهاد:

يلخص فرند هذه الفترة الفظيعة التي انتهت بانتصار المسيحية بقولة: «لقد فشل الاضطهاد كسياسة. فقد شبع العالم الوثني من الدماء ومن عدد محلات الجزارين في خدمة الآلهة، ومن أعداد المقتولين من الصالحين المثقفين الشجعان. وكلما إزداد الاضطهاد إزداد عدد الذين يقبلون المسيح أيضًا، بل إن الاضطهاد رفع من نسبة المهتدين إلى المسيحية. وكان كما قال لاكتانتيوس كان الاضطهاد هو الوسيلة التي بها جذبت العناية الإلهية الوثنيين لعبادته لأنهم كانوا يريدون أن يعرفوا أكثر عن الإيمان الذي يدافع عنة معتنقوه، ويدفعون حياتهم ثمنًا لذلك، وعندما كانوا يعرفونه كانوا يقبلونه. وأخيرًا اتضح أن الرسالة المسيحية كانت تحتوي على الكثير، بل على كل ما كان الوثنيون يبحثون عنه.. فلم تعد بعد ذلك ديانة غريبة» (Frend, Martyrdom & Persecution in The Early Church, pp. 392)

عصر جديد للمسيحيين:

يصف يوسابيوس شعور المسيحيين عندما تنفسوا عبير الحرية بالقول: لقد انتهى الإحساس بالخوف من ظالميهم السابقين وجعلوا من إيامهم أعيادًا متتالية وأضيئت كل الأماكن. وبدأوا يحيون بعضهم بعضًا بوجوه ضاحكة وعيون مبتسمة وكانوا من قبل لا يستطيعون أن يرفعوا وجوههم عن الأرض. كانوا يرقصون ويرنمون في المدن والقرى ممجدين الله إلهنا المتسلط. لقد نسوا متاعبهم القديمة. والدعوة لترك ديانتهم ذهبت إلى غير رجعة. كانوا يتمتعون بالأمور الطيبة التي في أيديهم وينتظرون بشغف الخيرات المقبلة». (H E X:9)

Recommended English Readings

Boer, H. R. – ***A Short History of the Early Church***, pp. 96 - 106.

Bruce, F.F. ***The Spreading Flame***, pp. 184 - 187.

Chadwick, Henry – ***The Early Church***, pp. 121- 124.

Danielou, J. and Marrou, H. ***The Christian Centuries***, Vol. I. ***The First Six Hundred Years***, pp. 231 - 236.

Frend, W. H. C. ***The Early Church***, pp. 128 - 138. ***Martyrdom & Persecution in the Early Church***, pp. 351 - 392.

Lietzmann, Hans. ***A History of the Early Church***, ***vol. III,*** pp. 57 - 81.

الفصل التاسع

الحركات الانفصالية في شمال أفريقيا ومصر



ولكن لم تكن نتائج المرسوم الإمبراطوري إيجابية. فقد بدا السؤال القديم يظهر على السطح حتى قبل المرسوم نفسه وذلك بمجرد أن كف الاضطهاد وهو «كيف تتعامل الكنيسة مع أولئك الخائنين للإيمان، والذين أنكروه بطريقة أو بأخرى؟ «ولقد انقسمت الكنيسة بسبب الخلاف على إجابة هذا السؤال حتى أن الإمبراطور نفسه تتخدل في هذا الشأن. وكان من أهم الفئات التي ظهرت هم «الدوناتيون» (Donatists) في شمال أفريقيا ثم «الميليتيون» (Meletians) في مصر. وقد تأسست كنيسة الدوناتيين المستقلة في شمال أفريقيا واستمرت إلى القرن الثامن أما «الميليتيون» الذين أطلقوا على أنفسهم لقب «كنيسة الشهداء» فقد اشتركوا في المنازعات الأريوسية. أما الكنيسة العامة فكانت تنظر إلى هؤلاء على أنهم انفصاليون وليسوا هراطقة. والانفصالي هو الشخص الذي ينفصل عن الكنيسة لسبب غير لاهوتي، في حين أن الهرطاق هو الشخص الذي ينفصل عن الكنيسة (او يطرد منها) بسبب اختلاف في التفسير الكتابي أو العقيدة اللاهوتية.

١- الدوناتيون

تسليم الكتب المقدسة:

نشأت مشكلة الدوناتيين نتيجة للخلافات على رئاسة الكنيسة في شمال أفريقيا بعد انتهاء الاضطهادات. ولقد كانت المشكلة التي انقسموا حولها هي الموقف من أولئك الذين سلموا الكتب المقدسة للسلطات الرومانية[1]. وكان من رأى المحافظين أن الأساقفة الذين فعلوا ذلك قد سقطوا من النعمة وليسوا بمستحقين

(١) كان الاستيلاء على الكتب المقدسة هو إحدى الوسائل التي استخدمها الأباطرة في اضطهاد الكنيسة (وكانت الكتب تنسخ باليد ولذلك كانت نادرة، وكانت تحفظ بعناية بالغة في الكنائس). وكان الجنود يذهبون إلى الكنائس ويطلبون من الكهنة تسليم كل نسخ الكتاب المقدس. فإذا رفضوا هذه الطلب قبضوا عليهم وعذبوهم عذابًا بالغًا وكثيرًا ما كانوا يعدمونهم.

أن يقوموا بالخدمة الكهنوتية. أما الجناح الليبرالي فلم يتوقف عند حد إظهار الرحمة لهؤلاء الذين اضطهدوا بل تعدى ذلك إلى القول بأن فاعلية أسرار الكنيسة لا تتوقف على قداسة الذين يقومون بها.

نوميديا تعارض كرطاجنة:

كان المسيحيون في بلدة سرتة (cirta) في مقاطعة نوميديا جنوب غرب قرطاجنة يشتهرون بالتعصب واتخذوا موقفًا متطرفًا ضد مسيحي قرطاجنة المعتدلين الذين يهتمون بالكنيسة الجامعة. وقد اعتبروا أن كل من سلم الكتب المقدسة إلى الرومانين في أثناء الاضطهاد، هو إنسان خائن، ثم أخذوا على أنفسهم أن يعزلوا كل الأساقفة الذين تحوم حولهم الشبهات في هذا الأمر ثم اصروا على إعادة معموديتهم من جديد قبل أن تقبلهم الكنيسة مرة أخرى. فلما انتخب شعب قرطاجنة «كاسليان» (Caecilian) عارض النوميديون ذلك. لأن واحدًا من الأساقفة الذين اشتركوا في سيامته كان «خائنًا». وجاء سبعون من نوميديا واختاروا أسقفًا بمعرفتهم لتلك المدينة.

قسطنطين يتدخل:

كان الإمبراطور قسطنطين يعرف بأمر المشاكل في شمال أفريقيا. وقد حفظ لنا يوسابيوس خطابًا موجهًا من الإمبراطور إلى الحاكم الأعلى في شمال أفريقيا، يقول له فيه أنه سمع عن المحاولات يقوم بها «أناس غير مسئولين ليفسدوا جماعات الكنيسة المقدسة الجامعة بإدعاءات كاذبة إلى القضاء» (H. E. X: 5; 13-17 ; X:6) وكان شمال أفريقيا بالغ الأهمية للإمبراطورية سياسيًا واقتصاديًا فإذا انقسمت الكنائس على نفسها فإن هذا سيكون له تاثيره السيء على روما نفسها.

مساندة قسطنطين لكاسليان:

عرف الإمبراطور أن تفكك الكنيسة يؤدي إلى تفكك الإمبراطورية، لذلك أدرك أهمية دوره في هذه الخلافات. وإلى جانب ذلك كان يؤمن بأن الجماعة الكاثوليكية في قرطاجنة هي الممثل الرسمي للكنيسة، ولذلك فقد أرسل لها نصيبها من المخصصات وأعفاها من الضرائب. ولذلك فعندما نظرت القضية أمام ثلاث محاكم متعاقبة، كان الإمبراطور واحدًا من الحاضرين في آخرها ضد القرار لصالح كاسليان وضد النوميدين.

قيادة دوناتس (Donatus) :

في تلك الفترة انتقلت مقاليد النوميديين الانفصاليين إلى دوناتس أسقف قرطاجنة (٣١٣-٣٥٥م) فأطلق اسمة على هذه الحركة. كان دوناتس قائدًا عظيمًا برز في الكتابة والخطابة والإصلاح، وكان قادرًا على السيطرة تمامًا على أتباعه لدرجة جعلت أغسطينوس يقول: إذا أكرم الناس المسيح بشفاههم، فإن الدوناتيين يكرمون دوناتس بقلوبهم. (Contra Epistolam par-meniane, II, 2:5.) وكما يقول فرند (Frend): إن دوناتس جمع في شخصه موهبة النبؤة مع سلطة الأسقف تمامًا كما كان سلفة سيبريان كان أحكم من دانيآل وتصرف كمن له سلطان رئيس الكهنة اليهودي قديمًا، فكان يقوم بخدمة القداس وحده منعزلاً حتى عن زملائه الكهنة، كما كان يفعل رئيس الكهنه قديمًا مرة واحدة في السنة في أورشاليم (The Early Church, p. 142) ولقد

بقى دوناتس رئيسًا في كنيسته لمدة ٤٣ سنة.

محاولة المعتدلين حل القضية:

ولقد كان من محاسن الإمبراطور أنه أصغى إلى ما كان يقوله الدوناتيون، فقد ابقاهم هم والكاسليانيين في إيطاليا لمدة طويلة، وسمع من الجانبين رأيهم في هذه المشكلة، ولكنهم مع ذلك كان قلقًا على مشاعر العداوة التي كان يتبادلها الجانبان ... حتى أن أولئك الذين كان من المفروض أن يكونوا بفكر واحد في المحبة الاخوية، انفصلوا وتنابذوا بكيفية مشينة، وأعطوا فرصة للغرباء عن هذه الديانة فائقة القداسة، أن يسخروا منهم (يوسابيوس H. E. X: 5:21 22) حتى رؤساء الكهنة من فرنسا وإيطاليا وبريطانيا الذين دعوا للفصل في القضية، قد أصابهم القلق الشديد لهذا الانقسام الفظيع. وقد وقعوا مرات كثيرة إلى جانب الكاسيليانيين المعتدلين.

رفع القضية إلى قسطنطين:

وأخيرًا رفع الدوناتيون شكواهم إلى الإمبراطور مباشرة، ولكنه في ذلك الوقت كان صبرة قد نفذ، وما عاد يحتمل هؤلاء المتطرفين. والأهم من ذلك، إنه بدل دورة من مجرد رئيس يدعو المجامع الكنسية للالتئام إلى حاكم أعلى يريد أن يضع الدوناتيين في موضعهم الصحيح. وحالما صدر قرار الإمبراطور ضدهم، ورفضت التماساتهم، أظهروا هم بدورهم روحهم الثورية المتطرفة. ولذلك أعلن قسطنطين بنفسة: «بنعمة الله سأحضر إلى أفريقيا، وبكل قوة وسبات سأعلن...كيف يجب أن يعبد الإله الأعظم...فماذا يمكن أن يعمل وأنا في مركز الأمير غير أن أمحو الخطأ وأسحق الأفكار المتطرفة، وأن أدفع الناس جميعًا إلى أن يتفقوا على اتباع الديانة الحقيقية، والحياة البسيطة، وأن يعبدوا باتضاع الإله العلي الذي له وحده العبادة (من خطاب إلى دوميتيوس سلسوس).

قرار الإمبراطور:

كان من الواضح إذًا أن قسطنطين أعطى لنفسه الحق في أن يتصرف كرئيس للكنيسة، وكما كان إمبراطورًا في العالم الوثني، ادعى لنفسة السيادة الدينية. فلا أقل من أن يكون كذلك في الكنيسة. فقد حل المسيح محل جوبتر في السيادة الإلهية والإمبراطورية تسير وتتقدم تحت عناية، وقسطنطين هو ممثلة في الأرض، وهكذا يجب أن يطيع الكهنة أوامرة. ولقد فعل ذات الأمر مع أثناسيوس بعد بضع سنوات في مجمع نيقية.

الدوناتيون لا يفنيهم الاضطهاد:

لم يذهب قسطنطين إلى أفريقيا كما قال ولكنة استمر يناصر كاسليان ضد الدوناتيين وبذلك ازدادت حدة النزاع لأن المتطرفين ازدادوا عددًا ونفوذًا فأضطر قسطنطين لأن يتخذ إجراءات أقسى وأشد ضدهم. فأمر بمصادرة ممتلكات كنائس الدوناتيين ونفى قادتهم، واستخدم في ذلك الجيش الروماني لتنفيذ الأوامر، ولكن لم تحل المشكلة بهذا المجهود بل على العكس صارت الأمور إلى الأسوأ، والأوامر الإمبراطورية لم تطع، وبدأت تضعف شعبية كاسليان ونفوذه وانضم الكثيرون من اتباعه إلى الدوناتيين. ولأول مرة ارتفع صوت الاحتجاج «للإمبراطور والكنيسة؟». وبالرغم من الاضطهاد الذي وقع على الدوناتيين فإنهم لم ينهزموا ولم تضعف روحهم المعنوية بل على العكس فقد أقرت الحكومة بالهزيمة، ومنحت

الحرية للدوناتيين عام ٣٢١م.

الدوناتيون مصلحون سياسيون ودينيون:

يمكن أن نشبه الدوناتيين بالغيورين في اليهود أو البيوريتان في حركة الإصلاح. فقد وقفوا موقف المونتانيين (ويعتبرون أيضًا انفصاليين - انظر الجزء I، القرن الثاني II، هـ) في محاولتهم إصلاح الكنيسة بأي ثمن، حتى على حساب وحدتها، بل وتجسدت فيهم روح العداوة للإمبريالية التي كانت تملاء جوانح العمال الذين وقعوا تحت ظلم السادة الرومانيين لسنين طويلة. فتكونت فيهم عصابات مسلحة (Circumcellions) تجوب البلاد تسحق الذين شكوا فيهم أنهم كاثوليك، وتلقي الرعب في قلوب الملاك الكبار، وتسرق من الاغنياء لتعطي الفقراء. ويذكر التاريخ قصة عصابة من هذه العصابات أوقفت عربة فخمة بداخلها أحد النبلاء يجري أمامه عبد من عبيده فأنزلت السيد من العربة وأجلست العبد مكانه، وجعلت النبيل يجري أمام الخيل. وفي الحقيقة كان كثيرون من أعضاء كنيسة الدوناتيين من العبيد، وفي هذا يقول بول جونسون «كانت الدوناتية حركة الفقراء قادها كهنة بيوريتان (Puritans) (تاريخ المسيحية ص ٨٤) (Johnson, Paul- A History of Christianity, P 84)

الدوناتية تصبح الكنيسة الوحيدة في شمال أفريقيا:

ليس من السهل فصل الدين عن السياسة في حركة الدوناتيين. فهذه الجماعة الانفصالية اعتبرت نفسها كنيسة من القديسين الذين لا يتسامحون في الحق المقدس حتى مع الإمبراطور الذي اضطهدهم، ولا مع الكنيسة الكاثوليكية[٢] التي تتكون في نظرهم، من جماعات خائنة. وبفضل شجاعتهم وتضحيتهم بالحياة، وعدم خضوعهم للقانون وقيادة دوناتوس نفسه، أصبحوا الكنيسة الوحيدة في شمال أفريقيا، بل واستمروا هكذا حتى القرن الخامس الميلادي، مع انهم وقعوا تحت اضطهاد الأباطرة. ولكن لما جاء الفتح الإسلامي اختفت هذه الكنيسة نهائيًا.

ويلاحظ أيضًا أن الصراع الذي نشب في شمال أفريقيا قد أظهر التشابة، بل التطابق بين أهداف الإمبراطورية. فقد كان قصد الكنيسة الكاثوليكية أن تكون جامعة بالمعنى الحرفي، فتوحد حضارة الشعوب، ولغتهم وترتفع فوق الأمم والأجناس. هذه الأهداف البعيدة للكنيسة التي كانت تساندها أهداف الإمبراطور نفسة، لم تكن لتقبل تلك الحركات المتمردة المتطرفة التي تريد أن تستقل فيها مثل حركة الدوناتيين، وهكذا تعاملت بقسوة مع الدوناتيين، وفي هذه المعاملة تبنت كثيرًا من العناصر السياسية التي أدت بعد ذلك بقرون إلى وحدة الكنيسة كما نعرفها، في القرون الوسطى.

(٢) كلمة «كاثوليكية» تستخدم هنا للدلالة على الكنيسة الرومانية الغربية، وبذلك فهي لا تدل هنا على الكنيسة الجامعة الشاملة كما في قانون الإيمان.

Recommended English Readings

1. Boer, Harry R. - ***A Short History of The Early Church***, p.p. 137 - 138.

2. Bruce, F. F. – ***The First Spreading Flame***, pp. 296 - 297.

3. Danielou, J. and Marrou, H. ***The Christian Centuries***, ***vol. I. The First Six Hundred Years***, pp. 243 - 248.

4. Frend, W. H. C. ***The Early Church***, pp. 139 - 146.

5. Johnson, Paul – ***A History of Christianity***, pp. 82 - 85.

6. Lietzman, Hans:- ***A History of The Early Church***, ***vol. III***, pp. 82 - 93.

٢- الميليتيون في مصر

سار انفصال الميليتيين في مصر على نفس المنوال الذي سار فيه انفصال الدوناتيين في شمال أفريقيا. إذ بدا باعتراض ميليتس على سياسة بطرس أسقف الإسكندرية لأنه تساهل مع الذين استسلموا تحت وطأة الاضطهاد.

بطرس وميليتس لايتفقان:

يقول أبيفانيوس (Panarion, 68:3) أن الخلاف نشب بين الأسقف بطرس والأسقف ميليتس أسقف ليكوبوليس (أسيوط حاليًا) عندما كانا مسجونين معًا إبان الاضطهاد الأخير في أيام دقلديانوس فقد كان رأي الأسقف بطرس أن تقف الكنيسة موقفًا متسامحًا مع المرتدين. ولكن ميليتس عارضه في ذلك. وطالب معاملتهم بقسوة. وساندته مجموعة من الكهنة والرهبان ممن كانوا في السجن معهما. وقد اشتد الصراع بدرجة خطيرة حتى كف الجانبان عن مخاطبة بعضهما البعض ووضعا ستارة تفصل بينهما في السجن.

ميليتس يؤسس «كنيسة الشهداء»:

بعد عزل دقلديانوس أطلق سراح الأسقفين بطرس وميليتس. وحينئذ أرسل بطرس خطابًا عامًا يضع فيه شروط قبول المرتدين. ولم تكن شروطًا هينة. ولكنها سمحت بإرجاع الكهنة إلى وظائفهم. وعندئذ عارض ميليتس هذا الاتجاه ورفض قبول أي مسيحي ارتد أثناء الاضطهاد. وأصر على منع الكهنة ورجال الدين من العودة إلى وظائفهم. وفي السنوات اللاحقة بدأ ميليتس ينشئ «كنيسة الشهداء» فحرم الكهنه الذين ارتدوا وقت الاضطهاد. واستبدلهم بغيرهم ممن وقفوا صامدين رغم العذاب الشديد. وبدأ من هنا - على ما يبدو - الصراع الشديد بين الكنيسة الوطنية «القبطية» والكنيسة الملكية. وحينما استشهد الأسقف بطرس سنة ٣١١م. كانت كنيسة الصعيد تهدد بشدة كنيسة الإسكندرية في الشمال.

آريوس (٢٥٦ - ٣٣٦م):

كان آريوس واحدًا من معضدي ميليتس الأوائل. وبعد قليل نادى بأفكار لاهوتية خاصة أدت إلى انعقاد مجمع نيقية عام ٣٢٥م. ولكن آريوس لم يمكث طويلاً في معسكر ميليتس. بل اصطلح مع بطرس. ولذلك اعتبرته جماعة ميليتس وكثيرون غيرهم. شخصا هرطاقًا (في الكتاب التالي سندرس الآريوسية. ونتائجها دراسة وافية).

الكنيسة الميليتية تنمو وتموت:

ازدهرت الكنيسة الميليتية لأنها وجدت معونة كبرى من الذين أطلق سراحهم من السجون والمناجم عندما توقف الاضطهاد. لقد صمدوا في وجه الاضطهاد معلنين عن إيمانهم. ومع أن الأسقف بطرس حرم الأسقف ميليتس إلا أن «كنيسة الشهداء» نمت حتى قيل أنه ماجاءت سنة ٣٢٥م حتى كانت لها أسقفية في مصر الوسطى والعليا. ولكن حالما انتهى الاضطهاد بدأ الصراع العقائدي في الكنيسة. أما في مصر على وجه الخصوص فقد حلت حركة الرهبنة محل الاستشهاد. وقد عاشت كنيسة الميلتيين عددًا من السنين. ولكن تأثيرها كان قد ضعف.

Recommended English Readings

1. Frend, W. H. C. ***The Early Church***, p. 144. ***Martyrdom and Persecution in The Early Church***, pp. 396 - 398.
2. Lietzman, Hans – ***A History of The Early Church, vol. III,*** pp. 103 - 107.

الفصل العاشر

حركة الرهبنة



عندما دخلت الكنيسة في العصر القسطنطيني وبدأت مرحلة التغيير الثوري، كان قد بدأ تطور جديد في الكنيسة نفسها .. هذا التطور هو الحركة الرهبانية التي بدأت في مصر ثم انتشرت في الكنيسة كلها. وكما هو معروف فان حركات الرهبنة تتميز بالتقشف والزهد وحرمان الجسد من كل وسائل الراحة واللذات حتى يمكن للنفس ان تتحرر وتصل إلى السمو الروحي.

١- الزهد في الديانات الأخرى

لايقتصر الزهد على المسيحيين لأن كل ديانات الأرض تقريبًا تمارسه بطريقة او بأخرى. ومن أهم الأمثلة على ذلك من قبل المسيحية في ممارسة الزهد هي البوذية، ومؤسسها بوذا الهندي (القرن السادس قبل الميلاد) الذي كان يعيش حياة الرفاهية واللذات. ولم يستطع ضميره أن يتحمل رؤية المعاناة البشرية، ولذلك أنهى علاقته الزوجية، وترك الحياة الناعمة، وبدأ يعيش حياة التنسك والتجوال. والبوذية تحتم على أتباعها أن يمارسوا الزهد حتى يصلوا إلى «النرفانا» (Nir-vana) (الوصول إلى الوجود الذي لا يشعر فيه بالألم). كما تعلن الهندوسية أن الإنسان يجب أن يبتعد عن وسائل الراحة، ويصوم ويعذب نفسه حتى يصل إلى الكمال الروحي. وبالمثل فقد علم الفلاسفة اليونانيون من الرواقيين والكلبيين (أصحاب مذهب الشك) أن المثل الأعلى هو البساطة في المأكل والملبس والسلوك.

٢- الزهد في مصر

أما في مصر فقد ظهرت أنواع أخرى من حياة الزهد قبل ظهور المسيحية، ففي عصر البطالمة (٣٢٣-٤٤ ق.م) ظهرت جماعة اسمها «كاتاشوي» (Katachoi). كانت ترتبط بمعبد السيرابيوم في منف هذه الجماعة تكونت من أفراد كانوا ينسحبون من العالم، ويعيشون في صوامع على انفراد فترة من الزمن ثم يرجعون إلى الحياة العادية.

وفي القرن الأول قبل الميلاد كرس جماعة من الكهنة الزاهدين في هليوبوليس أنفسهم لحياة التأمل والصلاة. وفي نفس الوقت ظهرت في طيبة (الأقصر) جماعة تسمى «جيمنو سوفست» (Gymnosophists) امتنعت عن أكل اللحوم ورغبات الجسد وعن الحسد.

ولقد وصلت إلينا قصة مفصلة كتبها الفيلسوف الإسكندري اليهودي الشهير فيلوجودياس (٢٠ ق.م – ٥٠م) عن حياة جماعة مصرية زاهدة اسمها «ثيرابيوتي» (Therapeu-tae) كانت تعيش في مكان قريب من الإسكندرية. مكونة من الرجال والنساء ... إنهم لا يحيون قريبين من بعضهم البعض كما يعيش الناس في المدن ... وكانوا يصلون مرتين يوميًا في الصباح والمساء ... أما الفترة الباقية من اليوم فكانوا يقضونها في التامل وممارسة الفضائل كما هو موضح لهم في الكتب المقدسة، والفلسفات التي اعتنقوها. وفي اليوم السابع كانوا يجتمعون معًا، وكأنهم في محفل مقدس. وما كان واحد منهم يأكل طعامًا، أو يشرب قبل غروب الشمس لأنهم كانوا يعتقدون أن الاهتمام بالفلسفة يليق بالنور، أما قضاء حاجات الجسد فلا تلائم إلا الظلام»[1] (Philo Judaeus, A Treatise on a Contemplative Life, IV: 1-20)

٣- الزهد في اليهودية

أما اليهودية فلم تعلم بتاتًا أن حياة الزهد هي الحياة المثلى، غير أن هناك بعض الممارسات الزهدية التي كانت جزءًا من الحياة اليهودية، مثل الأحكام المختصة بالأطعمة. وفي سفر العدد (إصحاح ٦) نجد الأحكام المختصة بشريعة النذير، مثل شمشون وصموئيل. وقد أصر دانيال وصحبه في بلاط الملك نبوخذ نصر على أن يأكلوا طعامًا بسيطًا (دا ١:١١). وإلى جانب ذلك أظهرت الاكتشافات الحديثة لمخطوطات البحر الميت، أن جماعة وادي قمران كانوا يعيشون في زهد وتقشف شديدين عندما انسحبوا من اليهودية، وذهبوا ليقيموا في برية اليهودية. فكان الأسينيون مثالاً للمجتمعات الزاهدة، فقد امتنعوا عن الزواج لكي يحتفظوا بطهارتهم الطقسية (يوسيفوس .The Jewish Wars, II 8:213) ويقال أن يوحنا المعمدان ظهر وسط هذه الجماعة.

٤- رأى يسوع في الزهد

من قراءة العهد الجديد يظهر لنا أن الزهد لم يكن تعليمًا أساسيًا في المسيحية. وعلى العكس من يوحنا المعمدان، جاء يسوع يأكل ويشرب فقيل عنه أنه «أكول وشريب خمر» (مت ١١:١٩). ولعله من المفيد في ذلك أن نلاحظ ما قاله يسوع لتلاميذه عندما قالوا: «إِنْ كَانَ هَكَذَا أَمْرُ الرَّجُلِ مَعَ الْمَرْأَةِ فَلاَ يُوافِقُ أَنْ يَتَزَوَّجَ!»، إذ قال: «لَيْسَ الْجَمِيعُ يَقْبَلُونَ هَذَا الْكَلاَمَ بَلِ الَّذِينَ أُعْطِيَ لَهُم، لأَنَّهُ يُوجَدُ خِصْيَانٌ وُلِدُوا هَكَذَا مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَاهُمُ النَّاسُ وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَوْا أَنْفُسَهُمْ لأَجْلِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْبَلَ فَلْيَقْبَلْ» (مت ١٩: ١١، ١٢). ومعنى كلام يسوع هو أن عدم الزواج مفضل، ولكنه ليس ضروريًا.

٥- بولس والزهد

يكتب الرسول بولس إلى أهل كورنثوس عن موضوع الزواج فيقول أن المتزوجين يمكنهم أن يمتنعوا عن الممارسات الزوجية بشرط أن يكونوا على وفاق إلى حين لكي يتفرغوا للصلاة (١كو ٧). بل إنه

(١) هذه المعلومات مقتبسه من كتاب .Monks and Monasteries of the Egyptian Desert, Otto Meinardus pp. 7&8

يقول أنه حسن أن يكون كل الناس مثله (أي غير متزوجين). ولكن هذا القول لم يعط كأمر بل كنصيحة ... ويلوح لبعض الناس أن حياة النسك - إلى حد ما - كانت تميز حياة كثيرين من الرسل، ولكنها لم توضع كقانون واجب الطاعة. فقد كتب الرسول بولس يقول: لأن كل خليقة الله جيدة ولا يرفض شيء إذا أخذ مع الشكر، لأنه يقدس بكلمة الله والصلاة » (اتي ٤:٤). ويقول أيضا: «كل شيء طاهر للطاهرين» (اتي ١٥:١).

٦- الزهد مفضل ولكنه ليس أمرًا في العهد الجديد

قد نتفق مع «كامبنهاوزن (Campenhausen) فيما قاله في كتابه عن «الزهد في الكنيسة المسيحية الأولى» ص٩٠:١١٢ كتابه (Tradition & Life in The Church, 1968) «من يسوع لبولس كان هناك رفض متزايد لكل أشكال الزهد... ولم يؤمر أو ينصح به كوسيلة للخلاص. وكان هذه هو الموقف الأساسي للكنيسة الأولى». ومع ذلك... فقد كانوا ينظرون إليه كطريقة محببة للحياة والشهادة. فالذين يحبون الله من كل قلوبهم يجب ألا ينشغلوا بهموم هذا العالم. ولذلك فهناك مكان لأولئك الذين يستطعون أن يمتنعوا عن كل متع الحياة، فيعيشون قريبين من الله. وهذا الأمر صالح للرجال والنساء على حد سواء. ولكم يشهد التاريخ لنساء عشن حياة الزهد وخدمن الله في إنكار الذات. وعبر كتاب تعاليم الرسل (Didache) عن ذلك بالقول: «إذا كنت تستطيع أن تحمل نير الرب كاملاً، فسوف تصل إلى الكمال، ولكن إذا لم نستطع فافعل ما يمكنك أن تفعله» (٢:٦).

٧- الرهبانية المسيحية المبكرة

في أوائل تاريخ الكنيسة ظهر كثير من الأفراد والجماعات الذين يؤمنون بحياة التقشف والزهد، وكما سبقت الإشارة إلى أن اتباع ماركيون والمونتانيين لم يشربوا خمرًا ولم يأكلوا لحمًا وامتنعوا عن الزواج، كما أن جماعة المتطرفين (Circumcellions) والحاربين المتجولين (في شمال أفريقيا في القرن الرابع) كانوا أيضًا متقشفين. ويقول المؤرخون أنه كان هناك أفراد يمشون عرايا، ويأكلون الحشائش، ويسكنون الكهوف، ويفتخرون إذ يسميهم المجتمع (الحمقى). وقد ظهر إبان حكم أنطونيوس إنسان اسمه «فرونتونيوس» (Frontonius) قرر أن يرفض العالم، وجر وراءه سبعين شخصًا آخرين إلى صحراء النطرون في مصر. ولقد لاحظنا فيما سبق نوع الحياة الزاهدة التي عاشها أوريجانوس، إذ كان ينام على الأرض، ويسير حافي القدمين، ويلبس رداءً واحدًا فقط، ولا يشرب الخمر ... وغير ذلك. وهذه أمثلة قليلة ممن كانت لهم ميول تقشفية في المسيحية ولكن التطور الواسع والعميق للرهبانية في كل الكنيسة المسيحية لم يظهر إلا في القرنين الثالث والرابع عندما بدأ نشاط الرهبان المصريين.

٨- أسباب الرهبانية اللاحقة

الضرائب الرومانية:

يذكر المؤرخون ثلاثة أمور كأسباب محتملة لازدهار في القرن الرابع الميلادي وهي:

أن الدولة الرومانية وهي تقاسي من متاعبها الاقتصادية فرضت على الناس ضرائب باهظة لدرجة أن ترك الناس أراضيهم وأعمالهم وممتلكاتهم وهربوا إلى الصحراء لأنهم عجزوا عن

أن يدفعوا ما فرض عليهم. ومع أنهم لم يصبحوا جميعهم رهبانًا إلا أن ندرة فرصة العمل في الأماكن المأهولة بالسكان شجعت كثيرين على أن يجربوا حياة الرهبنة في الصحراء وفي الجبال.

الاستشهاد الأبيض:

أما السبب الثاني فكمن في انقطاع الاضطهاد، ونمو الحاجة اللاشعورية عند كثيرين من المسيحيين إلى نوع من الاستشهاد نظرًا لما رأوه من تقدير واحترام لمن ماتوا شهداء ممن ظلوا أحياء بعد العذاب الذي قاسوه فقد «نبتت الرهبنة من رغبة المسيحي في أن يكون شهيدًا» (Frend W.H.C.The Early Church, p. 202).

وقد عرفت الرهبنة بأنها الشهادة الخضراء أو البيضاء التي حلت محل الشهادة الحمراء.

عدم الرضى عن الكنيسة:

وكان السبب الثالث الإحساس القوي في قلوب بعض الناس بأن الكنيسة فقدت القداسة والتكريس وشعروا أن حياتهم الروحية لا يمكنها أن تنمو إلا بعيدًا عن الأوساط الكنسية، وما عليهم إلا أن يتركوها ويذهبوا كأفراد إلى الصحراء ليحيوا فيها حياة القداسة. إنهم لم يعلنوا إنكارهم للكنيسة، ولكنهم بعملهم هذا أدانوها. وكما قال «دوشيزن» (Duchesne): «كان الراهب نقدًا حيًا للمجتمع الكنسي» (Early History of The Church I, p. 390) وعندما أخبر أنطونيوس الرهبان، بأن الكتب المقدسة كافية للتعليم» (حياة أنطونيوس بقلم أثناسيوس ١٦)[٢] كان بذلك يعلن أن الكنيسة كما يعرفها قد فشلت في إشباع الحاجات الروحية، ولم تكن الرهبانية هي إدانة نهائية كاملة للكنيسة فقد كانت على الأقل حركة تصحيح لبعض الاتجاهات التي بدأت تظهر فيها في القرن الرابع الميلادي. «لقد برهن أنطونيوس بانعزاله بالرهبنة، على أن الكنيسة القائمة – من وجهة نظره – لم تعد المكان الذي يعيش فيه شخص يريد أن يحيا حياة مسيحية حقيقية» (Frend, The Early Church, p. 263) وبرهن أيضًا على: «أن الكتاب المقدس والصلاة الانفرادية والصوم أصبح لها الأفضلية على الحياة العامة والصلاة الجماعية والقيادة الكنسية».

الزاهد كشخص غريب:

ومع أن حياة الزهد لم تكن يومًا ما مطلوبة من المسيحيين – كما سبق القول – إلا أن هناك نوعًا من الزهد استشفه الجميع في حياة المسيح الذي صار «غريبًا من أجلنا» وفي حياة الرسل الذين صاروا غرباء ونزلاء على الأرض حتى يمكنهم أن يخدموا الإنجيل بكل أمانة، وعلية فلم تكن الرهبنة مطلبًا ولكن «إذا أمكن ذلك» فيكون أفضل. ولقد تولدت من فكرة «غربة الرسل ليكونوا أحرارًا للخدمة، فكرة أخرى وهي غربة الراهب الذي يذهب إلى أرض غريبة لا يعرفه أحد فيها. وفي صومعته المتوحشة كان مستعدًا لنوال البركة».

الرياضة الروحية:

إلى جانب الإحساس بالغربة جاءت فكرة أخرى تتلخص في الطموح إلى التغلب على النفس وإنكار الرغبات الطبيعية للجسد. فيصبح الراهب بطلاً رياضيًا روحيًا. وقد فعل الرهبان ذلك لاعتقادهم بأن الشيطان يهاجم الإنسان من خلال ضعفات

(٢) نحن نقتبس الآن من أوثق المصادر عن حياة أنطونيوس وهو كتاب عنوانه «كوكب البرية» كتبه أثناسيوس.

جسده. فاذا أمكنه أن يتغلب على الجسد فإنه يتمكن بذلك من هزيمة الشيطان وتحرير نفسه لتسمو روحيًا.

الزهد الغنوسي:

يجب أن نفرق بين الزهد المسيحي والزهد الغنوسي[٣] الذي كان منتشرًا في مصر. فالغنوسية تؤمن بأن المادة شر، وبناء عليه فالجسم البشري هو شر أيضًا. ولذلك فقد حرموا الجسد وأوقعوا به عقوبات قاسية كأنه عدو. وقد كتب شخص اسمة ساويرس (Seuerius) يقول: «إن الإنسان هو صنعة الله جزئيًا فقط، أما ما بقى من جسمه (أي من الوسط فأسفل) فهو من صنع الشيطان». أما إنجيل المصريين (وهو من كتب الأبوكريفا التي لم تقبلها الكنيسة) فيذكر أن يسوع قال: «جئت لأبطل أعمال المرأة وسوف ياتي اليوم الذي يداس فية الجسد، رداء العار، بالأقدام عندما لا يكون هناك ذكر وأنثى» أما الزاهد المسيحي فقد عامل جسده بقسوة بالترفع عن اللذات الجسدانية، ومع ذلك فقد كان يعتبر أن الجسد مقدس وهو جزء من خليقة الله.

٩- أنطونيوس أبو الرهبنة المصرية

بولس الطيبي (الأنبا بولا) الذي سبق أنطونيوس:

يعتبر أنطونيوس (٢٥١ – ٣٥٦) أبا الرهبان المتوحدين، ولقد عرف تاريخ حياته عن طريق أثناسيوس الإسكندري (٢٩٦ – ٣٧٣) الذي كتب قصة حياة هذا الرجل ثم ترجمت إلى لغات عديدة. أما جيروم اللاتيني (٣٤٥ – ٤١٩) فيقول أن أنطونيوس لم يكن أول راهب متوحد، بل سبقه بولس الطيبي الذي اختار الرهبنة حياة له في أيام الاضطهاد الذي حدث في عهد ديسيوس وفاليريان (٢٤٩ – ٢٥٩). هذه القصة التي يذكرها جيروم تستحق أن نذكرها رغم أن كثيرين من العلماء يشكون فيها.

قصة جيروم عن بولس الطيبي:

ورث بولس في صباه ثروة طائلة، ولكن صهره حسده عليها، فلما خاف بولس أنه يشي به صهره لدى السلطات بأنه مسيحي، هرب إلى الصحراء، وجاء إلى كهف يؤدي إلى فضاء خلفي، ووجد هناك طعامًا وشرابًا، فعرف أن الله قاده إلى هناك، فعزم على البقاء وظل في الصحراء إلى أن مات وعمره ١١٣ سنة.

معرفة أنطونيوس ببولس:

بعد ذلك ارتبطت قصة بولس الطيبي بقصة أنطونيوس فبعد أن قضى هذا الأخير مدة طويلة كراهب ظانًا في نفسة أنه أول وأعظم شخصية رهبانية، جاءه إعلان بأن هناك من سبقه إلى هذا العمل، ولذلك قام ليفتش على هذا الإنسان.

أنطونيوس وبولس معًا – موت بولس:

بعد رحلة طويلة مملوءة بالمشقات والمخاطر، وصل أنطونيوس إلى مدخل مسكن بولس. فلما رآة بولس قفل الباب في وجهه، ولكن أنطونيوس بدأ يرجوه ويتوسل إليه أن يفتح له الباب فلما فعل

(٣) انظر الجزء الأول، القرن الثاني الفصل ٢ ح

ذلك تعانق الشيخان. وبينما هما يتحادثان نزل عليهما غراب ومعه رغيف من الخبز فقال بولس: «ها هو الله أرسل لنا غذاءنا. الله الرحيم الشفوق. ولقد مكثت ستين سنة هنا وأنا آكل نصف رغيف يوميًا، ولكن بمجيئك أنت ضاعف المسيح الطعام». وعندئذ تجادل القديسان عمن يكسر الرغيف، ولكنهما أستطاعا أن يتفقا على الحل حبيًا. وعندما انتهيا من طعامهما أستاذن بولس في أنه يحتاج إلى رداء خاص من دير أنطونيوس. وطلب من أنطونيوس أن يحضره. أما حقيقة الأمر فإن بولس عرف أن ساعة موته قد اقتربت فأراد أن يجنب أنطونيوس مرارة الموقف. وعندما رجع أنطونيوس بالرداء كان بولس قد رقد. فلف أنطونيوس جسده بالرداء، وحمله إلى الخارج ليدفنه، ولكنه تحير كيف يحفر القبر، ولكن فجأة جاء أسدان يجريان من الصحراء وانحنيا أمام الجسد، ثم حفرا قبر بمخالبهما. وبعد أن تركا المكان دفن أنطونيوس جسد بولس، ثم رجع إلى الدير بعد أن أخذ معه رداء بولس المصنوع من ألياف النخيل، والذي كان يلبسه بولس دائمًا (ترجمة هيلين وادل، Helen Waddell, The Desert Fathers, pp. 41-53)

قصة أثناسيوس عن أنطونيوس:

أما القصة الكاملة عن أنطونيوس فقد كتبها أثناسيوس في أثناء إقامته الطويلة في الصحراء سنة ٣٥٦م. ومع أننا لا نستطيع أن نجزم بصحة كل تفاصيلها إلا أن معظم المؤرخين قبلوا حقائقها الأساسية[٤]

أنطونيوس يبيع الكل:

ولد أنطونيوس في مدينة الكوم في مصر الوسطى لأبوين ثريين. وفي سن العشرين سمع صوت يسوع في أثناء العبادة يقول له «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك... وتعال اتبعني» (مت ١٩:٢١). ولم يتردد أنطونيوس في بيع ما يملك، وتوزيع كل ثروته على الفقراء ولم يبق إلا مبلغًا لأخته الصغيرة ثم حول ظهره للعالم كله.

تجربة أنطونيوس الأولى:

وكانت الخطوة الثانية أن ذهب وعاش مع رجل عجوز يحيا حياة الزهد، فهذا الأخير أرشده ووجهه إلى خطواته الأولى في حياة الرهبنة. في أثناء هذه الفترة واجه أنطونيوس تجربته الأولى: «فقد ذكره الشيطان بالممتلكات التي تركها، والرعاية التي كانت اخته تحتاج إليها منه، وكبرياء الحسب والنسب ومحبة المال، اللذات الحسية التي كانت تزخر بها الحياة. ومن الناحية الأخرى أظهر له الصعاب الفائقة والمخاطر التي علية أن يواجهها في سعيه وراء الفضيلة، ثم ضعف الجسد والسنوات الطويلة التي سوف يعيشها على هذه الحالة، وبالاختصار فقد ملأ عقله بسحابة سوداء من الأفكار» (من كتاب حياة أنطونيوس بقلم أثناسيوس).

أنطونيوس يذهب إلى الصحراء:

بعد مضي الوقت انتقل أنطونيوس إلى الصحراء وسكن في قبر مهجور، واتفق مع أحد الاصدقاء على أن يحضر له خبزًا بين الحين والآخر،

(٤) من المعلوم أن أنطونيوس وأثناسيوس كانا صديقين، يعجب أحدهما بالآخر. ولكن من المؤكد أن أثناسيوس كان يكتب باليونانية، ومن المحتمل أنه كان يجهل القبطية التى لم يكن أنطونيوس يعرف سواها هذا الاختلاف اللغوي قد يكون له بعض الأثر في دقة ما كتبه أثناسيوس.

وبجانب ذلك فقد انقطع تمامًا عن العالم، لأن حياته امتلأت بالصوم والصلاة: «أحيانًا كان يمضي الليل كله دون أن تغمض عيناه. ولم يأكل أكثر من مرة واحدة في اليوم أو كل يومين. ولم يكن طعامه سوى الخبز والملح والماء. ولما كان يريد أن يستريح قليلاً كان فراشه من العيدان المجدولة، وكان يلبس قميصًا من الوبر. ولكن في غالب الأحيان كان ينام عاريًا على الأرض (أثناسيوس: حياة أنطونيوس).

الشياطين تهاجم أنطونيوس:

إلى جانب متاعبه الجسيمة وانقطاعه عن العالم والجنس البشري ووحدته القاسية، واجه أنطونيوس حربًا حقيقية من شياطين العالم السفلي كلها. هذه العصبة الجهنمية قامت بعمل ضجيج صاخب حتى أن مسكن أنطونيوس كان يهتز من أصواتها. وعندما كانت تنفتح ثغرات في حوائط صومعته، كانت الشياطين تندفع إلى الداخل وهي تتقمص أجساد أنواع كثيرة من الوحوش والحيوانات وتملأ مكانه بأشباح الأسود والدببة والضباع والثيران والذئاب والأفاعي والعقارب .. إلخ. وكل واحد منها يصرخ بطريقته الخاصة. فالأسد كان يزأر كأنه يريد أن يفترسه والثيران تهاجمه وكأنها تريد أن تمزقه، والذئاب تثب في وجهه والحيات تزحف على الأرض لتلدغه .. إلخ (La Carriere, Jacques, The God – prossessed, p. 61.)

أنطونيوس يعيش في حصن روماني لمدة ٢٠ سنة:

بعد أن تحمل هذه كلها لعدة شهور، تقدم أنطونيوس إلى العمق الشرقي في الصحراء فوجد هناك حصنًا رومانيًا مهجورًا فجعل منه بيته الرهباني الثاني. (بالقرب من بسبير وهي مكان دير الميمون الحالي). ومكث هناك عشرين سنة دون أن يتركه أو يرى من كانوا يأتون لزيارته. وكان في الحصن بئر ماء، وكانت مؤونته من الخبز تأتيه مرتين في السنة. ولم يكن ينام سوى ساعتين أو ثلاث ساعات كل ليلة. واستمر كفاحه ضد الشياطين حيث كان يسعى نحو هدف الكمال الروحي.

أنطونيوس يرحب بالزائرين:

وأخيرًا أحس أنطونيوس أنه قادر على أن يواجه العالم الخارجي، وبدأ يتكلم مع الذين كانوا يتجمعون على بابه. ولأول مرة «رآه خارج حصنه، الذين جاءوا لزيارته وقد امتلأوا دهشة عندما رأوه متمتعًا بكامل الصحة التي تمتع بها دائمًا... وجهه لم يتغير وهدؤة وصفاء ذهنه لم يذهبا، وكان سلوكه متزنًا وطبيعيًا» (أثناسيوس: حياة انطونيوس).

أنطونيوس يقبل تلاميذ له:

في ذلك الوقت (حوالي عام ٣٠٥) بدأ أنطونيوس تكوين جماعته من المتوحدين، ولم يكن تكوينهم ديرًا بالمعنى المعروف، ولكن جماعة من الرهبان يعيش كل منهم بمفرده، ولكنهم قريبون من بعضهم البعض. وكانوا يجتمعون معًا كل يوم أحد لإقامة القداس، ولسماع تعاليم معلمهم أنطونيوس – وانتشرت شهرة أنطونيوس في طول البلاد وعرضها، حتى أن الناس كانوا يتزاحمون على باب مغارته ويبيتون الليالي هناك منتظرين بركة منه أو الشفاء من بعض الأمراض.

أنطونيوس ينتقل إلى القلزم:

وعندما صار تزاحم الناس عليه، مصدر متاعب له، بدأ أنطونيوس يفتش عن مكان له «لايعرفه فيه

إنسان» فبدأ يسير نحو الشرق في صحبة جماعة من البدو إلى أن وصل إلى القلزم وهو الجبل الذي يعرف حاليًا باسم جبل الجلالة المشرف على خليج السويس. وهناك قضى أنطونيوس بقية حياته في مغارة في الجبل وسمح لتلاميذة أن يكونوا قريبين منه. ولكنه رفض أن يقابل أي زائر. ولم يترك صومعته إلا مرة واحدة حيث زار الإسكندرية لكي يساند أثناسيوس في كفاحة ضد الأريوسيين. رجع إلى الجبل والوحدة والصمت.

أنطونيوس تباركه الملائكة:

كانت حياته في الستين سنة الأخيرة من عمره على العكس تمامًا من اختباراته الماضية «فبعد انتصاره على الشر. عاش حياة ملائكية فاضلة. وانقلبت حياته الأولى إلى العكس تمامًا فالظلمة صارت نورًا. والتجارب تحولت إلى معجزات والشياطين تركوا المكان للملائكة. حتى الحيوانات المفترسة التي أرسلها الشيطان قبلاً إلى القبر الذي كان يعيش فيه في «الكوم». صارت في القلزم الصديق الوديع له في حياته اليومية ... حتى المساء امتلأ بالرؤى الملائكية. وأحيانًا كان يرى نفسه وقد حملته الملائكة» (Le Carriere. op. cit. pp. 65-66)

موت أنطونيوس:

وعلى ذلك الجبل وفي حالة مجيدة من الكمال. وكأنه يرجع كآدم إلى الفردوس. لقد ترك كل أشياء العالم قبل أن يموت بوقت طويل. وفي ١٨ يناير عام ٣٥٦ عندما كان يناهز ١٠٥ سنوات من العمر شعر بدنو الموت فأعطى هذه الأوامر للتلميذين اللذين يخدمانه: «أعطيا فروة الغنم التي أنا راقد عليها لأثناسيوس الأسقف فقد أحضرها لي عندما كانت جديدة ... ثم خذا قميص الشعر الذي ألبسه (وكان هذا كل ما يملكه). وداعًا يا من أحببتكما كثيرًا. لأن أنطونيوس ذاهب ولن يبقى معكما بعد في العالم «ثم مد ساقيه قليلاً ونظر مبتهجًا إلى الموت» ثم دفنه تلميذاه في مكان سري غير معروف كما أمرهما (John Foster. Church History. I. The 1st. Advance. p. 148)

١٠- المتوحدون في وادي النطرون

كانت هناك حركة رهبنة أخرى موازية لرهبنة أنطونيوس تتخذ مكانها في وادي النطرون غربًا. في هذا المكان كان المتوحدون يكونون جماعات. يعيشون كأفراد ولكنهم يتجمعون مرة واحدة للعبادة كل أسبوع وهذا خلق إحساسًا جزئيًا بالجماعة وكان يتكون منهم نوع من «السنهدريم» لمعاقبة المسئ إلى حياة الزهد. وكان الرهبان يكسبون معيشتهم البسيطة من جدل السعف وعمل الحصر التي تباع في المدن. ولكن أهم شيء نذكره لهم هو أنه من هذه الجماعة الناشئة وصلتنا مجموعة من أقوال الآباء أو مايسمى «الأقوال المأثورة» (Apopthegmata) والتي تعطينا أصدق القصص وأكثرها حيوية عما كانت عليه الحياة في وادي النطرون» (انظر ترجمة إنجليزية لذلك عملها (Budge E. A. W). وهي (The Wit and Wisdom of The Christian Fathers of. Egypt. Oxford. 1934)

١١- مقاريوس (Macarius)
مقاريوس المتوحد المثالي

كان مقاريوس بدون شك أعظم راهب متوحد بعد أنطونيوس. وقد كتب عنه أحد مؤرخي حياته

قائلاً: المصباح المضيء الروحي العظيم (الذي ألهمه الله)، رئيس رهبان جبل الإسقيط المقدس، مقاريوس («والكلمة يونانية تعني مبارك») ويقدم لوكاريز (في كتابه السابق ص. ١١٨) وصفًا له فيقول: «على وجه الزاهد الذي أحرقته الشمس وجففته الرياح بغطية برقع من الشعر الطويل، لم يكن يبدو حزن ولا فرح أي شئ يذكر بأن هذا الرجل يخضع للعوامل البشرية والرغبات، ولكن على العكس من ذلك، كان يتمتع بهدوء النفس وصمت القلب والعقل الذي لا يبلغه إلا المتوحد الذي يقضي سنوات في الصلاة والصوم».

مقاريوس لا يبالي بالعالم:

كتب سرابيون باللغة القبطية وأعطانا تفاصيل كثيرة عن حياة مقاريوس الصارمة، لقد أجبره أبواه على الزواج من فتاة من قريته، ولكنه لم يقترب منها كزوج. وبعد مدة عندما كان يحيا وحيدًا أتهم زورًا بأنه كان السبب في حمل امرأة أخرى، ولكن مقاريوس لم يبال بالاتهامات التي وجهت إليه. وعندما اعترفت المرأة بأنها اتهمته زورًا، لم يبال بذلك أيضًا. ومرة أخرى أظهر عدم مبالاته بمعايير العالم عندما رأي بعض اللصوص يعبثون بمكان وحدته، فقد ساعدهم في وضع المسروقات على الجمل بل إنه جرى وراءهم بزوج من الأحذية (الصندل) كانوا قد نسوه وراءهم.

صرامة مقاريوس الفائقة:

لقد سار مقاريوس بقيادة واحد من الكروبيم الذين لهم ستة أجنحة، إلى صحراء الأسقيط (Skete) غرب الدلتا، وهناك حفر كهفًا لنفسه وعمل فراشًا من العيدان وحفر بئر ماء. ولقد أزعجته الشياطين الذين تقمصوا أشكالاً كثيرة وأصدروا أصواتًا مزعجة. وهناك تجمع حوله شبان كثيرون يريدون أن يكونوا تلاميذه، ولكنه شعر أنه لم ينضج بعد ليكون مرشدًا لهم، فترك الأسقيط وذهب إلى أنطونيوس في القلزم وتتلمذ عليه. وبعد أن مات أنطونيوس رجع مقاريوس إلى الإسقيط وعاش فيها حتى مات ٣٩٠م. ولقد ذكر لواحد من اتباعه: «لقد قضيت سنة في هذه الصحراء أقاسي من الجوع والعطش وعدم النوم لأني لم آكل إلا قليلاً من الخبز كل يوم. وكنت أقيس ما أشربة من الماء كل يوم، وظهري مسند إلى الحائط كنت اختلس قليلاً من النوم يوميًا». «ولكن تجاربه مع الشياطين ازدادت فقد أزعجهم أن يروا العدد الكبير من النفوس التي خلصت على يديه، فبدأوا يزورونه في الظهر عندما يكون وحيدًا فيقفون حوله ككلاب كثيرة يبصقون على وجهه يمزقون جسده حتى اصطبغ جسده كله بالزرقة والسواد» (ليكاريير ص. ١٢١) أما هو فقد أجبر نفسة على القيام بأعمال غير عادية للوصول إلى الكمال الروحي. فقد ظل سبع سنوات لا يأكل إلا الخضروات الفجة وامتنع عن أكل الخبز لمدة ٣ سنوات، ومكث يقظًا لمدة ٢٠ ليلة متواصلة، وعرض جسدة للبعوض الشرس لمدة ٧ أشهر، ولما رجع إلى صومعته ظنه الناس أنه أبرص لأنه كان مشوهًا لحد بعيد.

مقاريوس يذهب إلى طيبانيزي (Tabbanisi)

وكان أشهر عمل بطولي قام به مقاريوس هو ذهابه متخفيًا إلى دير طيبانيزي الذي كان يرأسه باخوميوس. فقد قبلوه في الدير أما هو فبدأ يتفوق على كل الرهبان في إنكار الذات. فمكث سبع سنوات لا يأكل طعامًا مطبوخًا بل اكتفى بالأعشاب الجافة، وقدم لهم طريقة غريبة لأكل الخبز إذ كان لا يزيد نصيبه منه عما يمكن أن

يستخرجه بأصابعه من جرة ذات فتحة ضيقة وهكذا ظل يأكل كل يوم أربع أو خمس أوقيات من الخبز يغمسها في قليل من الزيت أو الماء. وفي أثناء الصيام الكبير اتبع مقاريوس نظامًا خاصًا: «فكان يقف في ركن من صومعته كل أيام الصوم دون أن يجلس أو يركع أو يستند على أي شئ وبدون أن يأكل فتاتة من الخبز أو يشرب نقطة من الماء. وقنع فقط بأن يأكل بعض أوراق الكرنب يوم الأحد حتى يظهر أمام الرهبان بأنه يأكل شيئًا». خاف رهبان دير طيبانيزي منه أولاً، ولكن عندما عرفوه احترموه. وبعد ذلك رجع مقاريوس إلى صومعته في وادي النطرون، وعاش هناك إلى أن مات في التسعين من عمره.

١٢- منطق الرهبنة

آلام وبركة:

مع أنه من السهولة أن نعرف الهدف الذي قصدة الرهبان من زهدهم هذا، إلا أن تأثير ذلك على تفكيرهم وحياتهم كان عنيفًا. كانوا يؤمنون أن الإنسان يجب أن يتألم في الأرض ليربح الحياة الأبدية، ووضعوا ذلك في معادلة بسيطة. على قدر ما تقاسي من ألم في الأرض على قدر ما تجد من بركة، والعكس صحيح فمن يعيش حياة سهلة سيكون عذابة في الآخرة عظيمًا.

الرهبان والشيطان:

عندما يبدأ الراهب الناسك حياتة على هذا الأساس محاولاً بكل إخلاص أن يتمم رحلته إلى نهايتها، وبذلك يدخل في اختبار يختلف اختلافًا جذريًا عن سائر البشر. فمن ناحية ينظر الراهب إلى الشيطان على أنة العدو الأول الذي يحاول بكل الوسائل أن يحطم إرادتة، وعلى ذلك فيجب أن يهزمة بالتمادي في إنكار الذات إلى النهاية، ولهذا كان الشيطان لهم حقيقة واضحة وملموسة يستطيعون أن يروا وجهه ويعرفوا كيف تعيش جماعتة من الأرواح الشريرة وماذا يأكلون وما هو مظهرهم.. إلخ. فأحيانًا يتحولون إلى تماسيح أو حيات، وأحيانًا يظهرون ونصفهم على شكل إنسان والنصف الآخر على شكل حيوان. (والشواهد على ذلك ما نراه من رسومات على حوائط الآثار المصرية القديمة). وأحيانًا يتخذ الشيطان صورة ملاك نور لكي يخدع الراهب المسيحي أحيانًا.. وهذا أخطر الأمور يتحول الشيطان إلى شكل الراهب نفسة فيرى الراهب الشيطان متقمصًا جسمة هو وصورة وجهه. وعلى أي شكل يظهر الشيطان للراهب فإن هدفه من هذا الظهور هو أخافته وإرهابه وإضعافه أو إغوائه بالجمال والشهوة حتى ينسى كل نذورة التي اتخذها على نفسة ليحيا حياة نقية.

الرهبان والملائكة:

لكن من الناحية الأخرى كانت تأتي الملائكة لزيارة الراهب لمكافأته على أمانته رغم اضطهادات الشيطان، وللعمل على تقويته فواجب الملائكة أن تحرس الأمناء، وأن تسجل تقدمهم أو تأخرهم. وأن تحمل لهم رسائل من اللة نفسه. وكان الناس يعتقدون أن عدد الملائكة كبير بقدر عدد الشياطين. وهم من الكثرة بحيث يستطيعون أن يحجبوا الشمس. وعندما يظهرون كانوا يظهرون بهيئات مختلفة حسب العمل الذي أنيط بهم. فمنهم الجندي الذي يظهر بسيفة، وبعضهم بأجنحة وبعضهم يظهر في شكل البشر. يأتون ليحرسوا الراهب وليقدموا لة ما يحتاج إلية في كل ساعاتة ويواجهوا معة كل أزمة في رحلتة الروحية.

الرهبان والحيوانات:

سبق أن لاحظنا دور الحيوانات في خدمة الراهبان. فقرأنا عن الغربان التي أحضرت الخبز للراهبين بولس وأنطونيوس. والأسود التي ساعدت أنطونيوس في دفن بولس كثيرًا ما صارت الوحوش المفترسة مثل التمساح والتنين والأسد هادئة الطباع. مطيعة ومحبة فتتحول طبيعتها الوحشية إلى مستأنسة. فقد جاء في إحدى القصص أن أسدًا خدم احد الرهبان لمدة خمس سنوات. وكان يحضر له ماء من النهر. وفي يوم وفاة الراهب لم يتحمل الأسد الحزن على رحيل صديقه فألقى بنفسة على قبره ومات هناك.

الرهبان يعملون المعجزات:

ولقد وهب الرهبان القدرة على عمل المعجزات. وقد وصلتنا قصص كثيرة عن شفاء أمراض وإقامة موتى والسير على الماء.. وما شابه ذلك. وبعض الرهبان أعطوا قوة «الربط» إذ كان يمكنه أن يوقف شخصًا يسير في طريقه فيقول الراهب كلمة فيجمد ذلك الشخص في مكانه لا يمكنه إلا بكلمة أخرى من الراهب. وعرف عن بعضهم أنه كان يرتفع أو يطير في الهواء وبعضهم كان يسير مسيرة أسبوع في ليلة واحدة. وهناك قصص غريبة عن رهبان أحيوا موتى ليعرفوا منهم بعض المعلومات فيقال أن مقاريوس أحيا قتيلاً لكي يزيل التهمة عن إنسان اتهم زورًا بقتله. ولما طلبوا منه أن يسألة عن اسم من قتلة. أجابهم مقاريوس قائلاً: «أنا لن أفعل ذلك. يكفيني أن أبرئ متهمًا بريئًا دون أن أكشف عن اسم القاتل» من الغريب أيضًا أن مقاريوس لم يهتم بإبقاء القتيل حيًا. بل حالما عرف منة المعلومات. تركة يموت (حياة مقاريوس الشيخ سجلها لكاريير الكتاب السابق ص ١٩٩).

الرهبان أناس فوق الطبيعة:

من كل ما سبق نعرف أن الرهبان عاشوا في الصحراء حياة تفوق البشر العاديين. إنهم مقدمة للإنسان الجديد الذي نادت به الأناجيل...

فجسد الراهب جسد مقدس لا يخضع للقوانين الأرضية. وأصبح جسده جسدًا جديدا له «الطبيعة الإلهية». وهم جماعة في طريقها إلى الحالة الملائكية (لكاريير: الكتاب الساق ص ٢٠٣).

إنكار الذات عند الرهبان:

ويستحسن أيضًا أن نذكر بعض الأمثلة على تقوى الرهبان وإنكارهم لذواتهم. و يخبرنا «روفينس أكيلا» (Rufinus Aquileia) في ترجمة لكتاب: تاريخ رهبان مصر. قصة عن مقاريوس» يومًا ما أحضر أحد الإخوة كمية من العنب إلى القديس مقاريوس. ولكن هذا القديس المحب لم يفكر في نفسه. ولكن في الآخرين. فحمل هذا العنب إلى راهب آخر كان أكثر ضعفًا منه. فشكر الراهب المريض الله لأجل رحمة أخيه به. ولكنه فكر في جيرانه أكثر من نفسه فحمل العنب إلى شخص آخر. وهذا لشخص رابع. وهكذا انتقلت هذه الكمية من العنب إلى كل الصوامع ولم يعلم واحدًا منهم من أرسلها أولاً حتى وصلت أخيرًا إلى الشخص الأول. فشكر القديس مقاريوس الله على ما رأى من محبة إخوته وشفقتهم على الآخرين وترفعهم عن الرغبات...».

(سجلها وادل Waddell في كتابه: أباء الصحراء ص ٨٠ Waddell's. The Desert Fathers, p.80

الرهبان والكبرياء الروحي:

ومن الناحية الأخرى كان الرهبان مشغولين بمشكلة الكبرياء الروحي الذي يظهر في حياتهم نتيجة لتضحياتهم الكثيرة. ولأجل هذا السبب نفسه أكل مقاريوس بعض أوراق الكرنب في أثناء الصيام الطويل الذي كان يمارسه لا لأنه كان يحتاج إليه، أو لأنه اشتهاه، بل لكي يتجنب التفاخر والكبرياء الروحي.

وفي رواية أخرى عن بعض المتوحدين أنهم وضعوا لأنفسهم نظامًا بأن يأكل الواحد منهم سبع حبات من الزيتون لا أكثر ولا أقل كل يوم. فإذا أكل أحدهم ثماني حبات اعتبر أنه يسقط في خطية الجشع، أما إذا أكل ست أو خمس حبات فانه يعتبر نفسه معرضًا لخطية الكبرياء الروحي.

الرهبان يساعدون الآخرين:

يظن البعض أن الرهبان المتوحدين لم يكن لديهم عمل سوى التأمل في الله، والوصول إلى الكمال الروحي في التقوى الشخصية، ولكن الأمر بخلاف ذلك فإنهم كانوا يساعدون المجتمع الأكبر في الأمور الروحية والزمنية فقد كان الناس يتجمعون حول صوامعهم لمدة أيام منتظرين حصولهم على بركة من الراهب حتى لو رأوه مجرد الرؤية، وكانوا يأتون بالمرضى ليشفوا، وكانوا يسألونهم الصلاة لأجلهم، والنصح في بعض مشاكلهم الخاصة. ولو عجزوا عن المجيء بأنفسهم، كانوا يرسلون لهم الخطابات، وها هي صورة خطاب أرسل إلى أحد الرهبان اسمه «بفنوتيوس» (Paphnutius) إلى الأب المحبوب والنقي العزيز على قلب الله بافنوتيوس امونيوس: تحية في الرب الإله. أنا أعرف دائمًا أنه بقوة صلاتكم سينجيني الرب من كل تجارب الشرير، ومن كل خداع الإنسان. فأرجوك أن تذكرني في صلاتك المقدسة لأنك أنت – بعد الله - خلاصي. أصلي أن تظل في صحة جيدة سنوات طويلة يا أحب أب، وليحفظك إله السلام لعمر طويل (اقتبسها إدريس بل في كتابه: يهود ومسيحيون في مصر ١٩٢٤ ص ١٠٤). (H.Idris ,.1924.p.104 Bell. Jews & Christians in Egypt).

١٣- باخوميوس و أديرة الرهبان

جماعة الأديرة:

كان مؤسس رهبنة المتوحدين (الذين يسكنون في صوامعهم منفردين) هو أنطونيوس. أما باخوميوس الطيبي فقد بدأ نظام الرهبان الذين يعيشون في جماعات (Cenobite). لا ينكر أحد أن الرهبان المتوحدين كانوا يحيون أحيانًا في جماعات تسمى «اللورا» (Lauras). ومع ذلك فكل راهب كان يعيش مستقلاً عن جيرانه، بل أحيانًا كانت تفصل مسافة كبيرة بين صومعة وأخرى. أما كلمة «سنوبيت» Cenobite فتعني المعيشة معًا في جماعات. والنظام الذي ظهر بقيادة باخوميوس كان نظامًا جماعيًا. فكون أول جماعة رهبانية منظمة في تاريخ المسيحية. وهذا الشكل من الرهبنة هو الذي انتشر خارج مصر، وبخاصة في أوربا. وأزدهر في العصور الوسطى في أديرة البندكتيين والدمنيكانيين والفرنسيسكان والجزويت والكرمليين وغيرهم من جماعات الكنيسة الكاثوليكية. وفي الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اعتبر الرهبان «الباسيليين» (Basilian) كجماعة جبل أتوس في اليونان جماعات رهبانية يحيون حياة جماعية.

جماعة آمون:

كان آمون أول من عرف قيمة الرهبانية الجماعية، وكان هذا الرجل صديقًا لأنطونيوس. وبعد أن عاش متزوجًا مدة ١٨ سنة، ترك زوجته ليحيا حياة الرهبنة في وادي النطرون. وجمع حوله الآلاف من الرهبان الذين ظلوا يحيون حياة المتوحدين، ولكنهم كانوا يرتبطون ببعضهم البعض بطرق كثيرة كاجتماعهم للعبادة يومي السبت والأحد حيث كان يقوم بخدمتهم الكهنة، تحت إشراف أسقف هرموبوليس. أما التطوير الكامل للرهبنة الجماعية فلم يكن معروفا قبل باخوميوس.

حياة باخوميوس المبكرة (٢٨٧م. - ٣٤٦):

ولد باخوميوس لأبوين وثنيين: وعندما جند في الجيش الروماني تأثر بشدة بمسيحي طيبة وتعمد في شينوبوسكيون (Chenoboskino) (بالقرب من نجع حمادي الحالية). وعزم على أن يحيا حياة الزهد وكان بلامون (Palomon) معلمه يعلمه الصيام والصلاة والطاعة. ولكي يوجد التوازن في حياتهم، بدأ الرهبان ينسجون قماش «الخيش» ليبيعوه و يكسبوا قوتهم.

وفي يوم ما بينما كان باخوميوس يصلي في طيبانيزي (Tabennisi) سمع صوتًا يقول: «أمكث هنا وابن ديرًا لأن كثيرين سيجتمعون حولك ليصبحوا رهبانًا» ولما مات معلمه «بلامون» جاء إلى باخوميوس الكثيرون ليشاركوه أسلوب حياته.

النظام الباخومي:

عرف باخوميوس أن قيمًا جديدة يمكن أن تظهر في حياة الرهبنة إذا اجتمع الرهبان في الشركة، تحكم حياتهم فيها بعض القوانين. ومن كتابات جيروم (Pachomiana Latina) نعرف شيئًا عن النظام الباخومي.

الدخول إلى الدير:

كان من يرغب أن يلتحق بالدير يوضع أولاً في القسم المخصص للزوار بجوار بوابة الدير. وهناك يفحص بكل تدقيق من جهة حياته الروحية والدوافع التي جعلته يختار الرهبنة. ثم يتعلم الصلاة الرهبانية وبعض المزامير. فإذا حاز القبول فإنهم يعلمونه قوانين الرهبنة ويلبسونه ملابس الرهبان. وكان أحد الشروط الأساسية أن يعرف الراهب القراءة والكتابة. ولا نسمع شيئًا عن قطع «نزر» بل كانوا يقبلون في شركة الرهبنة مع الآخرين تحت القوانين الموضوعة للنظام.

حياة الراهب و ملابسة:

كان الرهبان يعيشون معًا في جماعات في بيوت، وكل واحد في صومعته التي لا يمكن قفل بابها. وكانوا يعطون كل واحد قميصين إلى جانب آخر يلبسه في وقت العمل، وقطعة من الكتان لتحمى رأسة وكتفية من الشمس وعباءة من جلد الماعز وزوجًا من الأحذية، وغطاءين للرأس، ومنطقة وعصا.

العمل اليدوي:

وكان لكل بيت رئيسه الذي يعين لكل راهب عملة. وكل واحد منهم كان يجب أن يقوم ببعض الأعمال اليدوية. فكانوا يجدلون الحصر وينسجون الكتان، وكان البعض منهم خياطين، وبعضهم نجارين، وبعضهم صانعي أحذية.

وفي بعض المواسم كانوا يذهبون جميعهم

للحقول، إما للزرع أو للحصاد. و كان الراهب يقوم بواجبه بمفرده في صومعته إذا أمكنة ذلك، وكانوا يقسمون على أن يعيشوا في صمت، وألا يزور أحدهم الآخر حتى عند تناول الطعام كانوا ممنوعين من الكلام، وكان كل راهب يجلس ورأسه مغطى، وإذا دعت الضرورة إلى الحديث فكانوا يستخدمون الكتب المقدسة، أو أقوال الآباء التي كانوا يحفظونها عن ظهر قلب.

العبادة:

كانت كل جماعة تسكن في بيت واحد تجتمع مرتين يوميًا للعبادة مرة في الصباح الباكر وأخرى في المساء، وكانوا يقرأون بعض المزامير المحددة والصلاة. وكان مطلوبًا من كل راهب أن يقضي بضع ساعات من كل يوم في التأمل والصلاة وقراءة الكتاب المقدس. أما أيام الأربعاء والجمعة فكانت أيام الصوم، ومنها يعلم رئيس كل بيت من معه بعض عقائد الكنيسة. وفي مساء كل سبت وصباح كل أحد كان المقيمون في الدير يجتمعون معًا للعبادة، وفي صباح كل أحد كان واحد من كهنة البلاد المجاورة يأتي إليهم لكي يقوم لهم بالخدمة والشركة المقدسة.

الساعات المخصصة للصلاة:

كان الناس في كنائس المدن يصلون مرتين في اليوم مرة في الصباح وأخرى في الغروب، أما الرهبان فقد كان برنامج صلواتهم يغطي الأربع والعشرين ساعة، فيها تقسم إلى سبعة أوقات للصلاة. ويذكرها يوحنا كاسيان (J. Cassian) كالآتي:

٤ أقسام الليل	٣ أقسام النهار:
الغروب	الضحى
النوم	الظهر
نصف الليل	العصر
الفجر	

وكانت هذه العبادات بالإضافة إلى القداس والصلوات المرتبة تشتمل أيضًا على قراءة بعض المزامير إلى جانب إصحاح من كلا العهدين القديم والجديد.

هدف حياة العبادة:

أن الهدف الأسمى لحياة الرهبنة وهي حياة الكمال يمكن أن يصل إليه الراهب بالتركيز الكلي على أمور الله، وكانت الصلاة هي أداة الوصول إلى هذا الهدف. فالوسيلة الوحيدة للانتصار على الشيطان هي أن «تصلى بلا انقطاع»، وهكذا فعلوا مرددين عبارة «يارب ارحم» «كيرياليصون» أو بعض أعداد من الكتاب المقدس في كل ساعات يقظتهم. أو يحفظون عن ظهر قلب عددًا وافرًا من الصلوات، ويرددونها طيلة النهار. وبلغ الأمر أن أحد الرهبان حفظ ٣٠٠ صلاة. ولكي يتأكد من أنه قالها كلها، كان يسقط حصاة كلما قال واحدة منها. ولكن هذا الراهب نفسه أصابه اليأس عندما علم أن إحدى الراهبات في القرى المجاورة كانت تصلي ٧٠٠ صلاة.

العقوبات:

وعندما كانت تحدث أخطاء مثل كسر قانون الصمت أو النوم في أثناء العبادة كانت توقع عقوبات، فقد يحرم الراهب من وجبة طعام، أو يعطى الخبز والماء فقط، أو يجبر على الوقوف في

اثناءالعبادة بينما يجلس إخوته. ولكن العقاب الذي كان أكثر شيوعًا فهو أن يقف المذنب أمام كل الجماعة ليوبخه الرئيس. ونادرًا ما كان الراهب يقترف ذنبًا ضخمًا يستدعي أن يضرب على مرأى من إخوته.

انتشار الرهبنة في منطقة طيبة:

في مدة ٢٠ سنة فقط انتشرت حركة باخوميوس بسرعة غريبة في المناطق المجاورة لإقليم طيبة، فأصبح هناك ٩ أديرة للرهبان، وديران للراهبات، ووصل العدد إلى آلاف، ويذكرون أن الدير المركزي كان به أكثر من ١٤٠٠ راهب.

وكانت كل الأديرة تجتمع معًا مرتين في السنة، عند عيد القيامة ويوم ١٣ أغسطس ويرأسها باخوميوس. وكانوا يدرسون أمورًا روحية وإدارية ومالية ويأخذون عدة قرارات.

انتشار الأديرة في مصر:

وانتشرت الأديرة في كل القطر نتيجة لما قام به باخوميوس. ويقولون أنه في قرية أوكسيرهنكوس – البهنسا (Oxyrhynchos – el Behnesa) زاد عدد الرهبان عن عدد السكان، و قيل أن عدد الرهبان كان ١٠،٠٠٠ رجل، والراهبات ٢٠،٠٠٠ و بدأت الأديرة تتزايد داخل أسوار المدينة حتى اضطروا إلى بناء مدينة جديدة للدير لكي تتسع لكل هذه الأعداد. وبلغ عدد مجموعات الأديرة في الصعيد ٤٩٠ مجموعة، وكل مجموعة كانت تتكون من عدة أديرة للرهبان وأخرى للراهبات.

الأديرة ساعدت الكنيسة ضد الهرطقات:

ومع أن الأديرة كانت حركة خارج دائرة الكنيسة، إلا أن كل الأديرة كانت تدين بالولاء لبطريرك الإسكندرية. ولقد عرفنا العلاقة التي كانت بين أثناسيوس وأنطونيوس، وكان باخوميوس خاضعًا لأثناسيوس، ولقد استقبله الرهبان بالترحاب عندما رجع من أسره في روما عام ٣٤٦ م. ولقد وجد أثناسيوس في طيبة وأديرتها ملجأ أمنًا في أثناء حكم جوليان المرتد (٣٦١ م – ٣٦٣ م). وظل الرهبان مخلصين في عداوتهم للهراطقة بالرغم من ضعف إدراكهم للمباحثات اللاهوتية في القرنين الرابع والخامس. ولقد وقف الراهب شنودة الذي خلف باخوميوس بحزم وراء أساقفة الإسكندرية، وبذلك كان له الفضل في تحديد ماهية الأرثوذكسية بل وفي بقائها في الوجود.

Recommended English Readings

1. Atyia, A.S. ***A History of Eastern Christianity***, pp. 59 - 68.

2. Bruce, F.F. ***The Spreading Flame***, pp. 342 - 352.

3. Foster, ***John Church History I, The first Advance***, pp. 146 - 149.

4. Frend, W.H.C. ***The Early Church***, pp. 200 - 209.

5. Johnson Paul, ***A History of Christianity***, pp. 139 - 141.

6. La Carriere, Jaques ***The God Possessed***, 1963, Allen and Unwin, London.

7. Lietzmann, Hans ***A History of the Early Church, Vol. IV***. pp. 124163-.

8. Al Masry, Iris Habib ***The Story of the Copts (also in Arabic)***, pp. 53 - 56, 61- 67 , 153- 155, 161- 167.

9. Meinardus, Otto F. A. ***Monks and Monasteries of the Egyptians Deserts***, 1961 AUC Press, Cairo.

10. Waddell Helen ***The Desert Fathers***, 1936, Constable and Co., London Also in French and Arabic.

11. Bulletin de ***L'institut des Etudes Coptes***, 1958.

12. ***Le Monachisme Copte et la Montagne de Saint Antoine*** par A.L. Fontaine. P. 3 ff.

13. ***Le Cult de Sainte Antoine*** par p. Sylvestre Chauleur, p.31.

الباب الخامس

القرن الرابع

الفصل الأول
قسطنطين والكنيسة



قسطنطين يقوي مركزه:

في سنة ٣١٣ كان الإمبراطور قسطنطين الذي اتسمت شخصيته بالطموح والاعتقاد بأن السماء قد اختارته لهذا الدور. كان وقتئذ في بداية مسيرة حياته كواحد من أعظم أباطرة الرومان. ففي أعقاب هزيمة مكسنتيوس Maxantius عند جسر ميلفيان، واتفاق قسطنطين وليسينيوس Licinius في ميلان. أتيحت له فرص جديدة لإحكام قبضته على الإمبراطورية. وكان مكسيمنيوس Maximinus حاكم الشرق الذي اختلف مع سياسة ليسينيوس وقسطنطين قد هدد بالهجوم بجيش قوي.

فتصدى ليسينيوس بموافقة قسطنطين لمكسمينيوس وهزمه بسهولة. وترتيبًا على ذلك أصبحت الإمبراطورية مقسمة الآن بين اثنين. قسطنطين في الغرب وليسينيوس في القسم الشرقي (اليونان وآسيا الصغرى).

ليسينيوس يضطهد المسيحيين:

استمرار السلام لمدة سبع سنوات بين قسطنطين وليسينيوس رغم أن ليسينيوس كان مصيبًا في شكه من جهة أطماع قسطنطين في الإنفراد بالحكم. أضف الى ذلك أن ليسينيوس لم يكن مثل قسطنطين في تعاطفه نحو المسيحيين. ولعدة أسباب بدأ ليسينيوس عمليات القمع ضدهم. فطردهم من العمل في القصور الإمبراطورية، ومن الجيش، ومن الوظائف الحكومية. وحظر على الأساقفة عقد مجامع رسمية كما حرم على الرجال والنساء الاجتماع معًا للعبادة بل كان يجب أن تقام كل الخدمات في الهواء الطلق ولم يكن مسموحًا للمسيحيين بزيارة السجون. ووصل الأمر في بعض المناطق إلى أن يهدم الحاكم الكنائس ويقتل الأساقفة.

قسطنطين يهزم ليسينيوس:

لكن هذه الإجراءات التي اتخذها ليسينيوس، لم تساعده على تقوية مركزه. بل بالحري أعطت قسطنطين المبرر الذي كان ينتظره لغزو القسم الشرقي. فاجتاحه وأحرز بعد عدة معارك نصرًا حاسمًا. وبعد أن استسلم ليسينيوس، ترك حيًا بعض الوقت. لكنه قتل أخيرًا في سنة ٣٢٤م ربما بأمر من قسطنطين.

قسطنطين الحاكم الأوحد:

وهكذا أصبح قسطنطين الحاكم الأوحد للإمبراطورية الرومانية دون منازع. وقد نقش على القصر الذي شيده لنفسه بعد ست سنوات، في مدينة القسطنطينية الجديدة السطور التالية: «إن المسيح أعانه لأنه احترم الإلهي» وقد أخمد المسيح نار الطاغية ومنح قسطنطين السلطة على العالم بأسره».

قسطنطين كان مهيأ لقبول المسيحية:

يمكن تقدير موقف قسطنطين تجاه المسيحيين والكنيسة. عندما نذكر أنه ربما كانت هناك بعض التأثيرات المسيحية في وقت مبكر من حياته. فمع أن أباه قسطنطيوس (Constantuis) كان رجلاً وثنيًا، لكنه كان متسامحًا مع المسيحيين وكانت لقسطنطين أخت تحمل إسمًا مسيحيًا فريدًا هو أناستاسيا ومعناه (القيامة). بعبارة أخرى كان عقله وقلبه مهيأين لقبول الرؤيا السماوية التي رآها قبل المعركة عند جسر ميلفيان، كما كان معدًا لتفسيرها تفسيرًا مسيحيًا. فلما حاز النصر في اليوم التالي للرؤيا، صار اقتناعه بهذا الإيمان راسخًا. لقد حققت له السماء كل مطامحه السياسية.

هيلانة أم قسطنطين:

كما ينبغي أن نذكر أيضًا أم قسطنطين «هيلانة» التي صارت مسيحية بتأثيره، وقد اشتهرت بالأعمال الخيرية وزياراتها للأراضي المقدسة. وارتبط اسم هيلانة بعدد من الكنائس المشيدة هناك. كما يوجد تقليد بأنها إكتشفت الصليب تحت كنيسة القبر المقدس. وتحتفل الكنيسة القبطية يوم ٢٤ مايو بتذكارها كقديسة.

سمات المسيحية عند قسطنطين:

لكن إلى أي مدى كان مسيحيًا؟ هل فهم فعلاً طبيعة هذا الإيمان الجديد؟ لقد تناول الكثيرون من المؤرخين هذا الموضوع في دراسة مستفيضة وجاءت النتائج متضاربة. إن قسطنطين لم يتخلّ عن عبادته لإله الشمس محتفظًا برموز هذا الإله على العملات النقدية جنبًا الى جنب مع شعار المسيحية وهو «الحرفان الأولان من كلمة «خرستوس» أي المسيح في اليونانية، مما يبين أنه في الواقع لم يفهم تفرد يسوع المسيح باعتباره ابن الله ورئيس الإيمان المسيحي، وهناك تمثال في روما لقسطنطين وهو يحمل رمحًا عليه صليب منقوش عليه أنه «حرر المدينة من الطغاة بفضل علامة الخلاص هذه». وثمة تمثال آخر له في القسطنطينية، وهالة إله الشمس تحيط برأسه، ثم أن قوس قسطنطين الشهير الذي مازال قائما في روما عليه نقوش لإله الشمس. ومع ذلك يكتب لأسقف قرطاجنة عن «الكنيسة الكاثوليكية القانونية المقدسة» واستنادا إلى مثل هذه الأدلة يلخص الكاتب «كوكران»[1] Cockrane رأيه بالقول: إن الايمان الغامض بالله عند قسطنطين يجمع بمهارة بين متناقضات عبادة الشمس والمسيحية. كما يقتبس كوكران أيضًا عن كيومونت (Cumont) الكاتب الفرنسي هذه العبارة» إنها محصلة غريبة للولع بالفن اللاهوتي المبني على أساس من «الحلولية»

(1) Cochrane, Charles Norris, Christianity and Classical Culture, Oxford 1940 P. 216.

(إلهية الكون) مع الاستعانة ببعض المصطلحات المسيحية أكثر من استعانته بالأفكار المسيحية.

قسطنطين يحسب نفسه مسيحيًا:

على أنه لا جدال في أن قسطنطين كان يعتبر نفسه مسيحيًا. فالكثير من أقواله يعكس هذا. فقد كتب إلى موظف رسمي يدعى أبلابيوس (Ablabius) في سنة ٣١٤م يقول: «الله.... قد إئتمنني.... على حكم العالم كله... حتى يتسنى لي مراقبته. وهو ينذرنا بكارثة إذا نحن أغضبناه. نعم، لن أكون آمنًا ومطمئنًا فعليًا تمامًا وقادرًا على الثقة في إحسانات الله القدير، التي تمنح مجانًا السعادة والخلاص، حتى يقدم جميع الناس العبادة في وفاق وأخوة إلى الله كلي القداسة حسب طقوس الكنيسة الكاثوليكية آمين. ويقتبس ليتزمان LEITZMAN في كتابه «تاريخ الكنيسة الأولى» (A History of the Early Church Vol 111. P.P157,158) من أقوال الإمبراطور وأحاديثه المختلفة ما يلي: «إنبثقت مساوئ الأمراء والشر لكل العالم من خطأ تعدد الآلهة. لكن مجيء المسيح جلب العدل والسلام على الأرض حينما أسس الكنيسة كهيكل لأسمى الفضائل. لكن العالم ثار ضدها حتى اندلعت حرب أهلية وقام اضطهاد للمسيحيين». وأخيرًا تلقى قسطنطين «تكليفًا إلهيًا لتنفيذ عدالة الله – بتحرير الشعوب من عبودية الشيطان، والعمل على توحيدهم في عبادة إله المسيحيين، وهكذا يشفي العالم كله من الجراح القاسية التي عانى منها الناس من قبل».

عماد قسطنطين وموته:

لم يعتمد قسطنطين إلا وهو على فراش الموت في سنة ٣٣٧م – إلا أن ممارسة العماد على فراش الموت لم تكن بدعة في زمانه، إذ كان الشعب يعتقد أن العماد في نهاية العمر يضمن التطهير من أكبر عدد من الخطايا. وقد دفن قسطنطين في الكنيسة في القسطنطينية وسط اثني عشر تمثالاً تحمل تذكارات الاثني عشر رسولاً، وكان هذا دليلاً على أن الآخرين كانوا يعتبرونه مسيحيًا.

التسامح مع الأديان الأخرى:

من ناحية أخرى حافظ قسطنطين جديًا على مبدأ التسامح مع الديانات الأخرى، وكان هذا واضحًا في مرسوم ميلان سنة ٣١٣م (انظر الجلد الثاني) وأعيد تسجيله في المنشور الذي أرسل إلى كل الأقاليم بعد هزيمة ليسينيوس. وبهذه المناسبة يصف قسطنطين تطوره الديني، ويعترف بأنه مسيحي، ويمتدح هذا الإيمان للجميع، لكنه متشدد جدًا في القول «لا إجبار لأحد، فكل إنسان يمكنه أن يعيش بدون حَجْرٍ أو كبت، طبقًا لمعتقداته الشخصية.

ممثل الله على الأرض:

وما يستلفت النظر هو أن قسطنطين لم يعتبر نفسه إلهًا حسب عادة الأباطرة الرومان، بل اعتبر نفسه نائبًا عن الله في حكم الإمبراطورية. ويوضح يوسابيوس في كتابه «حياة قسطنطين» هذه الفكرة: «إله الكل»، الحاكم الأسمى لكل الكون عين بإرادته قسطنطين.... ليكون رئيسًا وسلطانًا، فبينما يرتفع آخرون الى هذه المرتبة باختيار أنصارهم، فإنه الإنسان الوحيد الذي لا يمكن لبشر أن يفاخر بأنه كان له يد في رفعته.

المسيحية الإمبراطورية:

لقد كان الدين دائمًا في العقلية الرومانية في خدمة الدولة (فلأي سبب آخر كان الإمبراطور يُعبد كإله؟) والآن أصبح هذا الأمر آكثر وضوحًا. فإن قسطنطين بعد انتصاراته الشهيرة، أصبح يعتبر وعد الإنجيل وعدًا للإمبراطورية بل ولعائلته. ويبدو أن قسطنطين رأى المسيحية كطلسم أو تعويذة تضمن الدولة بفضلها النجاح الذي فشلت الوثنية في تحقيقه. ويظهر هذا في العبارة الختامية لمرسوم ميلان «إن الفضل الإلهي الذي اختبره عند هذا المنعطف الفاصل في حياته سيستمر إلى الأبد يمطر المنافع والفوائد على خلفائه، وفي نفس الوقت يضمن السعادة للإمبراطورية.

مشكلة الوحدة في الإمبراطورية:

لقد كان موضوع الوحدة السياسية دائمًا مشكلة كبرى في الإمبراطورية الرومانية.

فمنذ عصر يوليوس قيصر (١٠٢ – ٤٤ ق. م.) وسّعت الإمبراطورية تخومها فاحتلت المزيد من المناطق حول البحر الأبيض المتوسط، من بريطانيا إلى فلسطين، ومن آسيا الصغرى إلى شمال أفريقيا. وقد ضمت هذه الرقعة الواسعة العديد من الحضارات واللغات والديانات. وقد جاهد القياصرة والأباطرة الواحد تلو الآخر بالجيوش البرية والأساطيل البحرية، وطرق المواصلات الشهيرة، أن يسيطروا على التوترات السياسية التي كانت تنشأ طبيعيًا. هكذا كانت هذه المشاكل تشغل بال قسطنطين كما أقلقت من سبقوه.

المحبة المسيحية تخدم الإمبراطورية:

كان من عبقرية قسطنطين أنه اكتشف في الإيمان المسيحي وسيلة جديدة للوحدة السياسية. فإن كان هناك ما يمكن أن يحقق السلام في الإمبراطورية، فهو روح الشمولية والوحدة والمحبة، وهي الصفات البارزة بوضوح في الكنيسة. ومع أن محبة الإنسان لجاره لم تكن مقصورة على المسيحيين، ولكن يبدو انهم مارسوها في ذلك العهد بطريقة أكثر فاعلية من أي جماعة أخرى. ويعتبر هارنك Harnak في كتابه انتشار المسيحية Expansion of Christianity (١٤٥، ١١) إن فضيلة المحبة المسيحية هي أقوى الأسباب في انتشار المسيحية. ولقد قدر قسطنطين هذه الصفة الفريدة وراح يعمل جاهدًا لاستخدامها في خدمة الإمبراطورية.

اهتمام قسطنطين بالكنيسة:

وكان من أقرب المستشارين لقسطنطين «يوسابيوس» (Eusebius) القيصري أسقف قيصرية المؤرخ المسيحي، و«هوسيوس» (Hosius) أسقف قرطبة ولاكتانتيوس (Lactantius) الفليسوف الروماني ذو الميول المسيحية. وواضح أيضًا أن قسطنطين اهتم بمعرفة شيءون الكنيسة، وكثيرًا ما تقابل مع قادتها. وقد حرص على أن يقول في إحدى المناسبات موجهًا كلامه إلى جماعة من الأساقفة أنتم عينتم أساقفة لشيءون الكنيسة الداخلية، وقد تعينت أنا أسقفًا من الله لشيءونها الخارجية». أما كيف كان يحافظ بدقة على هذا الوضع، فمسألة تستحق النظر. لكنه بالتاكيد اهتم بالكنيسة – كما يبدو – بقدر ما اهتم بالإمبراطورية. وشرع في

خلق مجتمع ملائم لأن يعيش المسيحيون فيه[٢].

إصلاحات قسطنطين:

ولتحقيق هذا الهدف أصدر قسطنطين قوانين تحرم بعض الممارسات الوثنية والبربرية فمنعت المصارعات الدموية في الملاعب (ولو أنها لم تستأصل تمامًا إلا بعد ذلك بسنوات كثيرة) وحظر ممارسة السحر وتقديم القرابين الوثنية في البيوت. ولم يعد الأطفال غير المرغوب فيهم يتركون في الصحراء ليموتوا في العراء. كان العبيد في الأزمنة السابقة يوسمون بالكي على جباههم وقد أصبح هذا الأمر محظورًا احترامًا لصورة الله. ومع أن الرق ظل قائمًا لعدة قرون عديدة بعد ذلك إلا أن الشفقة والتقدير أصبحا مفروضين بقوة القانون للعبيد وللحيوانات. وأصبحت قدسية الزواج مصونة.

وتعززت حقوق الزوجات تجاه أزواجهن. لكن هذه الإصلاحات لم تنفذ كلها على الوجه الأكمل ويجب أن يقال أن الإصلاح في مجمله انصب على الناحية الإنسانية أكثر مما على الناحية المسيحية لكن الأولويات تغيرت، وصارت هناك توجهات جديدة.

امتيازات للكنيسة:

وكان التغيير الجذري هو ما مسّ حياة المسيحيين. فبعد أن كانوا «معتبرين أعداء الجنس البشري»، و«ملحدين» ارتقوا إلى مستوى الاحترام فوق كل الآخرين وأصبح المسيحيون يختارون للمراكز الحكومية المرموقة. ومنح رجال الدين مراكز اجتماعية متميزة. ولم يعفوا من الضرائب فحسب بل تلقوا أيضًا إعانات مالية من الحكومة[٣]. كان في إمكان الأساقفة ان يتدخلوا في القضايا المدنية وينقلوها إلى المجالس القضائية الكنسية (مثل المجلس الملي). وكان من حقهم إعتاق العبيد. وأعلنت الكنائس حرمًا يحتمي به الفارون من العدالة. وقد جذبت الامتيازات العديد من المحتقرين والمزدرين الذين ليسوا أهلاً للاعتراف بهذا الإيمان. لقد صارت الامتيازات مصدرًا خطيرًا للفساد لدرجة إن الإمبراطور نفسه أصدر قوانين تمنع فئات معينة من الشعب من الالتحاق بالخدمة الدينية.

حفظ يوم الأحد – نسخ الأسفار المقدسة – بناء الكنائس:

مع مرور الوقت ظهرت امتيازات أخرى للمسيحيين وللكنيسة. فقد أعلن في سنة ٣٢١م أن يوم الاحد هو يوم العطلة الرسمية. وشجعت الحكومة عملية نسخ الأسفار المقدسة (مع أنه أثناء الإضطهادات صودرت الكتب المقدسة لإضعاف الكنيسة). ونتيجة لذلك تتمتع الكنيسة اليوم بكنوز من أثمن مخطوطات الكتاب المقدس مثل المخطوطة الفاتيكانية (محفوظة في الفاتيكان) والمخطوطة السينائية (في المتحف البريطاني)[٤] التي نسخت باللغة اليونانية في القرن الرابع. كما تميزة نفس الفترة الزمنية بنشاط عظيم

---

(٢) جدير بالذكر أن الإمبراطور قسطنطين يتمتع باحترام عظيم من الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية. وتحتفل كنيسة الأقباط الأرثوذكس بذكراه كإمبراطور في ٢٨ برمهات (٦ أبريل) من كل عام.

(٣) كما أعفوا من الخدمة في مجلس الشيوخ.

(٤) وجدت المخطوطة السينائية في دير سانت كاترين على جبل سيناء.

في بناء كنائس جديدة على حساب الحكومة فأعيد بناء كاتدرائية نيكوميديا (Nicomedia) التي كانت قد (تهدمت من قبل في ثورات ضد الكنيسة) كما أعيد بناء الكنيسة الذهبية في أنطاكية. وشيدت كنيسة القبر المقدس. وكنيسة بيت لحم[٥] اما كنيسة القديس بطرس العظيمة. وكنيسة القديس بولس الكبيرة. فقد تم تشييدهما في روما مع وقف آلاف الجنيهات عليهما. وكنيسة القديس بولس الواقعة خارج روما اطلق عليها اسم بطريرك الإسكندرية.

الكنيسة تصبح غنية:

تدفقت الأموال على خزينة الكنيسة بكميات متزايدة. ليس من الحكومة فحسب. بل أيضًا من خاصة الأفراد الذين كانوا مستعدين إن يتنازلوا عن نصف ممتلكاتهم ضمانًا لحصولهم على الخلاص. وصارت الممتلكات الثمينة مصادر للدخل المستمر المتزايد عبر القرون. وكما يقول و. هـ. س. فريند «إن ما تجمع من الأموال الطائلة لكنيسة العصور الوسطى إنما كانت بدايته في القرن الذي تلا اهتداء قسطنطين (The Laymen in Christian History). وقد قدمت هذه الأموال للكنيسة أساسًا لتستخدم في سد حاجات المعوزين وقد قال غريغوريوس النازيانزي «يجب أن نتقاسم ثروتنا مع المسيح. حتى تتقدس ويصبح للفقراء فيها نصيب» . ولكن للأسف لم يكن هذا هو الوضع دائمًا. فهناك روايات عديدة عن العز والترف اللذين تمتع بهما رجال الدين. فكان الأساقفة يقيمون ولائم وحفلات نافست ولائم الإمبراطور نفسه.

أضرار تلحق بالكنيسة:

يعتقد بعض المؤرخين بأن الخسائر التي لحقت بالكنيسة في عهد قسطنطين أعظم من المكاسب. وكما يقول أحد الكتّاب: «ما كادت الكنيسة تتحرر من ظلم مضطهديها حتى وجدت نفسها في مواجهة تجربة أقسى من مواجهة الأعداء. وهي حماية الدولة المرهقة والمزعجة (Palanque, J.R. The Church in the Christian Roman Empire, p.69) . ومع وجود الكنيسة في حضن الإمبراطور وبالرغم من نواياه الطيبة. ومع تدفق الثروة الطائلة. والمكانة السامية للكنيسة. والحرية غير المحدودة كان حتمًا أن تفقد المجتمعات المسيحية الكثير من بساطتها الأولى وطهارتها الأصلية ولم يكن عدد كبير من القديسين على مستوى القداسة بدرجة كافية لمقاومة التجارب التي ستواجههم.

«الدهماء» ينضمون للكنيسة:

وقد ظهرت مشاكل أخرى فقد نمت الكنيسة بسرعة. وأصبح الإنضمام إلى الكنيسة مسايرة للموضة. ووجد رجال الدين استحالة في تقديم المعرفة الكافية والمناسبة لهذه الأعداد المتزايدة. وهكذا تدافع جمهور من أتباع الديانات الوثنية كي يتعمدوا وهم لا يعرفون من المبادئ المسيحية إلا القشور. وصار الغوغاء من مواطني روما وأنطاكية والإسكندرية مسيحيين بالاسم وليس أكثر. وكانت أعمالهم في بعض المواقف تدل على العناد والتمرد مثلما كانوا قبل المسيحية.

(٥) كلمة كنيسة هنا هي في اليونانية Bassilica ومعناها «ملك». وكانت في الأصل قاعة الملك مما يدل على أن فن عمارة هذه الكنائس الأولى كان يصمم على مثال البلاط الملكي.

إزدياد الهرطقات:

كانت الكنيسة منقسمة بالفعل بسبب الهرطقات المختلفة. الا أن المذاهب والشيع تضاعفت بسرعة في الجو الأكثر إنفتاحًا في عصر قسطنطين. وقد تحدثنا في المجلد الثاني عن «الإنفصاليين والقوميين والدوناتيين في شمال أفريقيا (The Schismatic and Nationalistic Donatists of North Africa) «لكن على امتداد الإمبراطورية ترعرعت أفكار قديمة وجديدة حسب الطلب. ويقال إنه في مدينة واحدة في آسيا الصغرى تواجد المونتانيون Montanist والنوفاتيون Novationists والإنكراتيون Encratites والأبوتاكتيون Apotactites جنبًا إلى جنب. وكل منها يدعي أنه الكنيسة الحقيقية. وقد اشتمل الكثير من هذه الفرق على عدد قليل جدًا من المتحمسين Enthusiasts. بعضهم شبه مجانين أو حتى مجرمين. لكنهم كانوا من عناصر مشاغبة ومعارضة لسلطان الكنيسة وسلطة الدولة. في نهاية هذا القرن صنف كاتب اسمه فيلاستريوس Filastrius قائمة من ١٥٦ فئة من الهراطقة على امتداد الإمبراطورية.

الحد من الممارسات الوثنية:

مع أن الإمبراطور أعلن عن الحرية لجميع الفئات الدينية. إلا أنه صار الأمر أصعب عليه أن يتسامح مع الكثير من الممارسات الوثنية المتطرفة. فعندما سمع عن الفساد العلني في معبد بعلبك في فينيقية (لبنان) أمر بهدمه. كما أن هناك معابد أخرى مثل دلفي Delphi في اليونان انتزع منها التماثيل البرونزية والمرمرية والكنوز الفنية الأخرى. وقد خاطب قسطنطين الوثنيين قائلاً: «ليحتفظ المنعزلون عنا بمعابدهم لو أرادوا». ويقال أن هناك من يدعون أن أستخدام المعابد ممنوع عليهم. وأن هذه هي رغبتي للإضرار بالصالح العام. وما يزال هناك مثل هذا الخطأ المؤسف لدى بعض الأشخاص.

العقلية الوثنية تستمر:

ومع ذلك وبطرق عديدة عاشت الممارسات الوثنية والعقلية الوثنية ولم تمت.

وكما أن قسطنطين لم يتحرر تماما من تبجيل إله الشمس. وهكذا خلط كثير من الشعب على امتداد الإمبراطورية – عن وعي أو دون وعي – القديم بالجديد. ولابد أن هذا الأمر ما بدا غريبًا. ولأنهم اعتادوا على تعدد الآلهة حيث يمكن أن يتعبدوا لآلهة كثيرة في وقت واحد. لذلك لم تكن الوصية المسيحية «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي» مفهومة دائمًا وقلما أطاعوها[١].

تأثير الوثنية على التقويم:

في الحقيقة إن البقية الضئيلة الباقية من تأثير الأوثان الرومانية موجودة في التقويم الغربي المستخدم اليوم في اللغات الأوروبية. وبصفة خاصة في اللغة الفرنسية. فقد دعيت أيام الأسبوع بأسماء الشمس والقمر والكواكب التي كان الوثنيون يعبدونها:

(١) حتى في القرن الخامس قيل أن البابا ليو Leo الخامس زجر العابدين في كنيسة القديس بطرس لما لاحظ أنهم يصعدون درجات السلم ببطء ليقدموا الاحترام لإله الشمس قبل دخولهم الكنيسة ليعبدوا المسيح الله.

أسماء الأجرام في العربية	أسماء الأجرام في الإنجليزية	أسماء الأيام في الفرنسية	أسماء الأيام في الإنجليزية	ملاحظات
الشمس	Sun	Dimanche	Sunday	
القمر	Moon	Lundi	Monday	
المريخ	Mars	Mardi	Tuesday	إله سكسوني Twi
عطارد	Mercury	Mercredi	Wednesday	إله سكسوني Woden
المشترى	Jupiter	Jeudi	Thursday	إله سكسونس Thor
الزهرة	Venus	Vendredi	Friday	إله سكسوني Frigg
زحل	Saturn	Samedi	Saturday	

كذلك ترجع أسماء بعض الشهور إلى الآلهة الوثنية والأباطرة والقياصرة الرومان[٧]

يناير .... من إله يانس Janus

مارس .... من إله الحرب مارس

يوليو .... من يوليوس قيصر

أغسطس .... من أغسطس قيصر

نقطة تحول تاريخي:

وقد كان لنقطة التحول التاريخي العظيم هذه عدة جوانب بالنسبة للكنيسة والإمبراطورية. وكانت فترة للتغيير المعقد. لم يتفهمها تمامًا من شاركوا فيها. فقد ظلت الآثار البعيدة المدى لهذا التغيير الصالح والشرير. محسوسة لعدة قرون تالية.

إن العالم الذي نعيش فيه اليوم في الحقيقة يشعر بنتائج رسالة السماء التي ظهرت لقسطنطين. بهذه العلامة تنتصر[٨]

(٧) أسماء شهور سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر وديسمبر هي في الأصل الأعداد السابع والثامن والتاسع والعاشر من التقويم الروماني.

(٨) تحتفل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بذكرى إغلاق الهياكل الوثنية وفتح الكنائس يوم ٤ بؤونة الموافق ١٧ يونيه. وكان بطاركة الإسكندرية في تلك الفترة هما الكسندروس الأول (٣١١ - ٣٢٨م) ثم أثناسيوس (٣٢٨ - ٣٧٣م)

Recommended English Readings

1 – Bruce, F.F. ***The Spreading Flame,*** Paternoster Press England. 1978, PP. 293 – 301.

2 – Chadwick, Henry – ***The Early Church, Penguin Books,*** 1976, pp. 125 – 132

3 – Danielou, J. and Marrou, H. ***The First Six Hundred Years of The Christian*** Centuries ***Vol I,*** Mc Graw – Hill, New York 1964, pp. 225 – 243.

4 – Duchesne, Louis – ***The Early History of the Christian Church. Vol 11.*** John Murray, London, 1922. 45 – 71.

5 – Jackson, f.J. Foakes – ***The History of the Christian Church*** to A.D. 461. George Allen, London, 1957, pp. 279 – 288.

6 – Leitzmann, Hans – ***A History of the Early Church, Vol. 111,*** Lutterworth, London, 1967, pp. 137 – 162.

الفصل الثاني

الأريوسية ومجمع نيقية



١- أريوس

عصر جديد في الفكر اللاهوتي:

ندخل الآن إلى حقبة من أخطر الحقب في تاريخ الكنيسة. فعلى مدى القرنين الرابع والخامس حسمت قضايا لاهوتية أساسية. وكانت القضية التي ركز عليها القرن الرابع هي العلاقة بين الله الآب والمسيح الابن. واختص القرن الخامس بلاهوت وناسوت الابن. وقد حسمت أيضًا قضية مكان الروح القدس، ولو أنها كانت قضية فرعية ثانوية في تلك الفترة. ولم تكن هذه القضايا جديدة تمامًا. فقد أثارها من قبل بصيغة أو أخرى لاهوتيون أمثال ترتليان Tertullian من شمال أفريقيا وأوريجانوس من الإسكندرية. لكن هذه الموضوعات الأساسية الرئيسية لم يتم بحثها ومناقشتها وتوضيحها وتصفيتها حتى حلول القرن الرابع. وليت هذا أمكن إجازه بلا خصام وانقسام. لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. فالواقع أن أريوس Arius (قس أعلن فيما بعد أنه هرطوقي مضل) هو الذي بدأ الجدل الذي أدى إلى انعقاد مجمع نيقية المسكوني في سنة ٣٢٥م.

أريوس:

سيم أريوس قسًا في الإسكندرية (سنة ٣١٠م أو ٣١١م). وأوكلت إليه مسئولية الكنيسة الكنيسة في بوكاليس Baucalis . يقال إنه كان إنسانا متقشفًا، بسيطًا في معيشته رقيقًا، لبقًا في حديثه. وكان شخصية محترمة جدًا. رسم على يد ميليتيوس Melitius قائد المنشقين Schimatic الذين – مثل الدوناتيين من شمال أفريقيا – ارتابوا في تعيين من تنازل عن الكتب المقدسة. حوالي سنة ٣١٨ بدأ أريوس يعلم مبدأ قاومه إسكندر بطريرك الإسكندرية التاسع عشر.

أريوسيون قبل أريوس:

هناك خلفية لنشاط أريوس تعود إلى وقت أوريجانوس (١٨٥ – ٢٥٤) فقد أثار السابليانيون مسألة علاقة المسيح بالآب فيما يعرف بالفكر اللاهوتي الملكي.

فقد علم السابليانيون Sabellius (روما، القرن الثالث) بأن المسيح كان شكلاً أو ظهورًا لله الآب. وردًا على موقف السابليين فإن أحد تلاميذ

أوريجانوس ويدعى ديونسيوس وهو البطريرك الرابع عشر للإسكندرية (٢٤٦ - ٢٦٤م) إتخذ موقفا متطرفًا قائلاً: «لم يكن ابن الله واحدًا مع الآب بل كائنًا آخر مختلفًا عن الآب كاختلاف الكرمة عن الكرام والقارب عن صانع القوارب. الابن قد «خلق». ومع أن ديونسيوس عدل عن موقفه فيما بعد. الا أن تأثيره على أريوس لا ينكر. وهناك معلم آخر اسمه لوشيان Lucian من أنطاكيه كان له تأثير مباشر أقوى على أريوس. وكان ينادي بأن المسيح مع أنه كان له وجود سابق إلا أن وجوده لم يكن من قبل كل الأزل.

ويقول البعض إن لوشيان هو الأب الروحي للأريوسية.

الفكر اللاهوتي لدى أريوس:

من الواضح أن الدافع لأريوس هو الحفاظ على كمال الله الآب وسرمديته وألوهيته. وفي نفس الوقت نسب دور هام للمسيح الابن. يفرزه عن الآخرين. على أن أريوس لم يستطع أن يقبل وجود تغيير أو أنقسام في الله الآب الذي كان الجوهر النهائي. وهو في ذاته غير مدرك. هذا التفسير الأفلاطوني الحديث للذات الإلهية جعل الله بعيدًا لا يمسه شيء زمني أو جسداني. ولذلك فطبقًا لرأي أريوس فإن: «الكلمة» Logos (المسيح). مهما سما فوق باقي الخليقة فهو كائن مخلوق أوجده الله ولذلك له بداية «وفي وقت ما لم يكن له وجود» . ولذلك أيضًا كان الابن من جوهر آخر غير جوهر الآب. إن وجود اللوجوس الكلمة ليس وجودًا حتميًا. لكنه نتيجة لفعل اختياري حر من الآب خالق الكلمة «اللوجوس». وكمخلوق زمني كان الكلمة «اللوجوس» خاضعًا للتغيير. كان إلها لكن ليس في نفسه ومن نفسه. فهو يستمد ألوهيته من الآب. فإن كان اللوجوس حائزًا لحكمة الآب وقوته. فالأمر ببساطة أن الآب منحه هذه الصفات. لذلك قد يكون للابن صفات إلهية لكن بدون مشاركة كاملة في اللاهوت الجوهري ذاته. وعلى حسب قول أريوس ما كان «الكلمة» في حاجة إلى أن يكون ذا جوهر إلهي لكي يملأ العالم بمعرفة حقيقية عن الله وينقل معرفة صحيحة للفضيلة.

نظرية أريوس عن المسيح ككائن وسط:

وقد بدا طبقًا لرأي أريوس. أن المسيح لابد إذا أن يكون كائنًا وسيطًا tertium quid أعظم من الإنسان وأقل من الله. ومن خلال المسيح خلق الله بقية الكائنات. وهذا يعني أيضًا أن الله الآب قد أصبح أكثر بعدًا ولا يدنى منه. وقد أدى رأي أريوس - أن المسيح كائن وسيط - إلى إنكار الغاية الحاسمة في استعلان «الكلمة» في شخص المسيح. وفي عبارة صاغها أريوس بنفسه يقول: «كلمات كثيرة نطق بها الله. فأي من هذه الكلمات نسميها الابن الوحيد؟ «ونتيجة لذلك فتح الباب مرة أخرى لتعدد الآلهة بكل كائناتها الوسطى» آلهة - أنصاف آلهة - جان - وشياطين.

أريوس يستعين بالنصوص الكتابية:

وكما يحدث في كل جدل لاهوتي تمكن أريوس من دعم موقفه بهذه الآيات من الكتاب المقدس:

«الرب قناني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم» (أم ٨: ٢٢).

«فليعلم يقينًا جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم ربًا ومسيحًا» (أع ٢: ٣٦).

«الذي هو صورة الله غير المنظور، بكر كل الخليقة. فإنه فيه خلق الكل ما في السموات وما على الأرض، ما يرى وما لا يرى، سواء كان عروشًا أم سيادات أم رياسات أم سلاطين. الكل به وله قد خلق» (كو ١: ١٥ و ١٦).

«بعدما صنع بنفسه تطهيرًا لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي، صائرًا أعظم من الملائكة بمقدار ما ورث اسمًا أفضل منهم» (عب ١: ٣ و ٤).

«لاحظوا رسول اعترافنا ورئيس كهنته المسيح يسوع حال كونه أمينًا للذي أقامه» (عب ٣: ١ و٢).

عزل أريوس وذهابه إلى قيصرية:

لما نشر أريوس تعليمه حول الإسكندرية وجذب إليه أتباعه من داخل الكنيسة، أتخذ إسكندر أسقف الإسكندرية خطوات للحد من هذه الحركة. فدعا مجمع الإسكندرية للإنعقاد في محاولة لتسوية المشكلة بهدوء. إلا أن هذا أدى لمزيد من الخلاف. فقد جمع أريوس رفاقه وأتباعه وتحدى سلطة إسكندر. وعندما اتسع الجدل نجح الأسقف إسكندر يسانده مائة من قادة الكنيسة، في عزل أريوس وكثيرين من أتباعه. وبرغم أن أريوس لم يكن منفيًا، إلا أنه سافر إلى قيصرية حيث استغل مساعدة يوسابيوس أسقف نيقوميدية الذي تعاطف مع الأريوسية وكان ذا نفوذ عظيم في الكنيسة في الشرق.

سجال المراسلات:

عندئذ بدأت حملة مكاتبات على نطاق واسع حث فيها الأسقف يوسابيوس جميع أصدقائه أن يعيدوا النظر في قرار كنيسة الإسكندرية. فرد الأسقف إسكندر بنفس الكيفية واصفًا تعليم أريوس بأنه شيء منفر وأكثر ضررًا من هرطقات الماضي، وأنه يمهد الطريق إلى المسيح الدجال – ضد المسيح – وأقنع أساقفة آخرين بالتوقيع معه على الرسالة.

المعركة تصبح عامة:

وبمساعدة الأسقف يوسابيوس انعقد مجمع في بيثينية بآسيا الصغرى للموافقة على وجهة نظر أريوس، ومطالبة الأسقف إسكندر بأن يعدل عن موقفه. حينئذ رجع أريوس للإسكندرية ليشرع في حملة جديدة بنفسه. وتم توزيع النشرات ووضع الأغاني العامة لتعليم الشعب (سواء أدركوا المعنى اللاهوتي أو لا). وقد كتب أريوس قصيدة شعرية طويلة، أسمها تاليا Thalia، يمتدح فيها أفكاره. ويقال إن المعركة أصبحت حديث الساعة في شوارع الإسكندرية، وأن النكات كانت تطلق عليها في المسارح والملاهي الوثنية.

قسطنطين يكتب لأريوس وإسكندر:

كان الإمبراطور قسطنطين قد انتصر حديثًا على «ليسينيوس» آخر منافس له في الإمبراطورية، وإغتنم عندما علم بوجود خلافات في الكنيسة، فكتب خطابًا مشتركًا عامًا لأريوس وإسكندر وأرسله بيد «هوسيوس» Hosius أسقف قرطبة Cordova وهو واحد من أقرب مشيريه في شئون الكنيسة. ولما كان الإمبراطور غيرمقدر تمامًا لخطورة الموضوع، حاول أن يهون من شأنه فكتب قائلاً: «إنه بعد أن تقصى بعناية ودقة أصل وأساس هذه الخلافات «وجد» أن السبب في الحقيقة شيء تافه ولا يستحق مثل هذا النزاع الشرس »، وأضاف أن المناقشة يجب أن يقصد

بها مجرد رياضة عقلية وألا تعرض بتسرع في الاجتماعات الشعبية والعامة وألا يعهد بها إلى أذن مجتمع بدون تعقل.

هوسيوس يقنع الإمبراطور:

على أن هوسيوس سرعان ما أدرك أن الموقف أخطر بكثير مما ظن الإمبراطور.

لما رجع إلى نيكوميديا حيث كان قسطنطين مقيمًا أقنع الإمبراطور بأن الموقف استدعى خطوات أكثر حسمًا من مجرد كتابة الرسائل والمساجلات المكتوبة.

٢- نيقية

مجمع في أنطاكية:

عند عودة الأسقف هوسيوس من الإسكندرية دعا إلى عقد مجمع في أنطاكية والقليلون الذين حضروا الإجتماع كانوا من المقتنعين برأي أريوس، ولم يحضر أحد من مصر. لذلك كان من السهل الوصول إلى رأي يدين الأريوسية. فقد أعلنوا أنه ما دام المسيح كان «مولودًا» (وليس مخلوقًا)، لذلك فإنه من نفس طبيعة الآب.

دعوات من الإمبراطور:

في هذه الأثناء، كان قسطنطين قد قرر الدعوة إلى مجمع يضم كل الكنيسة، فأرسلت الدعوات على نطاق واسع. ودفعت مصاريف الانتقال من خزينة الدولة، وتم حجز عربات البريد الملكية لسفر أعضاء المجمع. وتختلف التقارير حول عدد الحاضرين فهو على أقل تقدير ٢٥٠ وربما كان ٣١٨ عضوًا وقد تم تسجيل أسماء ٢٢٠ عضوًا (في الواقع لو بلغ العدد ٣٠٠ لأصبح سدس مجموع أساقفة العالم كله البالغ عددهم ١٨٠٠ أسقف في كل الكنائس في ذلك الوقت). وقد جاء معظم المندوبين من آسيا الصغرى وسوريه وفينيقية وفلسطين. وكان هناك وفد قوي من مصر مكون من عشرين عضوًا وعلى رأسهم البطريرك إسكندر. وحضر ضمن المندوبين القديس بافنوتي Paphnuti والقديس بوتامون Potamon والشماس أثناسيوس ولم يزد عدد القادمين من روما على ستة أعضاء.

مندوبون إلى نيقية:

من الأسماء الشهيرة كان هناك: هوسيوس Hosius أسقف قرطبة، وسبيريديون Spiridion راعي الأغنام - أسقف قبرص، ويوستاثيوس Eustathius أسقف أنطاكية، وأسقف مبشر من القوط «The Goths» وقد جاء بعضهم حاملاً آثار الإضطهادات الحديثة. فبولس أسقف قيصرية الجديدة فقد كلتا يديه بسبب التعذيب. كما فقد أسقفان من مصر البصر. أما بفنوتيوس Paphnutius وهو راهب وتلميذ للقديس أنطونيوس ففقأوا إحدى عينيه وأصابوا قدميه فأصبح أعرج، وذلك أثناء الإضطهاد الأخير على يد مكسيمين Maximin. ويخبرنا يوسابيوس المؤرخ أن الإمبراطور قسطنطين كان يحرص على إحتضان بافنوتيوس وتقبيله في مكان عينه المفقودة[1].

نيقية، أول مجمع مسكوني:

لقد انعقد العديد من المجامع والمؤتمرات

(١) بفنوتيوس مشهور بدفاعه عن حق رجال الدين في الزواج مع أنه هو نفسه كراهب عاش طول حياته أعزب ففي رأيه أن الزواج المسيحي للإكليروس لا يتعارض مع عهد العفة الذي يتخذه الآخرون. واحتج بأن فرض الأمر على كل رجال الإكليروس يؤدي إلى الانحراف ويعود بالضرر على الكنيسة.

والسنودسات قبل نيقية. لكن مجمع نيقية كان أول مجمع موسّع للكنيسة أي أنه أول مجمع مسكوني. كانت هيبة الإمبراطور هي السبب في عقد المجمع كما أن حضوره كحاكم صاحب سلطة أدى للوصول إلى القرارات التي صار لها حينئذ صلاحية في نطاق الدولة كما في داخل الكنيسة. ومن أجل الإمبراطورية إهتم قسطنطين بالسلام والوحدة داخل الكنيسة. فقد أراد للكنيسة أن تكون ترجمة مثالية للإمبراطورية. فالكنيسة، عند قسطنطين يجب أن تعكس وضع الإمبراطورية على أحسن صورة - في الانسجام، والهدوء والصفاء، والنمو في الوحدة. ومن ثم فقد أراد أن يتحكم في سياسة الكنيسة فيما يختص بصحة المعتقد والهرطقة. ومع أنه نفسه لم يدّعي أنه على دراية متميزة وفريدة في الأمور اللاهوتية - وأذعن لحكم الأساقفة إلا أن نفوذ قسطنطين هو الذي حسم القرار الأخير.

قسطنطين يحضر الجلسة الافتتاحية:

يقول يوسابيوس القيصري في كتابه «حياة قسطنطين» ٣: ١٠-١٤ Life of Constantine في وصفه لجلسة الافتتاح في نيقية يوم ٢٠ مايو سنة ٣٢٥م في القاعة الكبرى للقصر جلس الأساقفة عن اليمين وعن اليسار. ودخل الإمبراطور مصحوبًا فقط بمجموعة ضباط مسيحيين وكان يرتدي عباءة أرجوانية فاخرة مرصعة بالذهب والجواهر «متألقًا براقًا كأحد ملائكة الله في السماء». ووقف أمام كرسيه ولم يجلس حتى اشار إليه الأساقفة بالجلوس. وبعد كلمة ترحيب من يوسابيوس أسقف نيقوميدية أجاب الإمبراطور بكلمة باللغة اللاتينية (ترجمت بعدئذ إلى اليونانية). وقال إنه لم يرغب في شيء أفضل من أن يوجد في وسطهم، وأنه يتألم إذ يرى انقسامًا وخصامًا داخل الكنيسة، فهذا شر أردأ من الحرب. وتمنى أن النجاح الذي تم بالنصر الحربي على الطغاة، يتبعه الآن النصر للكنيسة، وأن تبلغ الكنيسة الوحدة وتصبح قلبًا واحدًا وروحًا واحدًا، وتهب العالم كله السلام والوئام والانسجام. ثم أخذ قسطنطين حزمة من الخطابات التي كتبها له كثيرون من الأساقفة وأحرقها أمام أعينهم.

الفرق الثلاث في نيقية:

ليس لدينا سجل عما جرى في جلسات مجمع نيقية. فقد دارت المساجلات لعدة أيام، بين أريوس ويوسابيوس أسقف نيقوميدية وأتباعه من طرف، وإسكندر أسقف الإسكندرية ورفاقه من الطرف الآخر. وظهر فريق ثالث بقيادة يوسابيوس القيصري أسقف قيصرية ومؤرخ الكنيسة، وجاء بصيغة حاول بها أن يحل المشكلة لكنه فشل في تقدير الموضوع الرئيسي.

قانون الإيمان ليوسابيوس:

«نؤمن بإله واحد الآب القادر على كل شيء، ضابط الكل، خالق كل الأشياء، ما يرى وما لا يرى. وبرب واحد يسوع المسيح، كلمة الله، إله من إله، نور من نور، حياة من حياة، الابن الوحيد - المولود - بكر كل الخليقة، مولود من الله الآب قبل كل الدهور، الذي به خلقت كل الأشياء، الذي تجسد لأجل خلاصنا، وعاش بين الناس، وتألم ودفن وقام في اليوم الثالث، حسب الكتب المقدسة، وصعد إلى السماء جالسًا عن يمين الآب ويأتي ثانية في مجد، ليدين الأحياء والأموات، الذي ليس لملكه نهاية. ونؤمن بالروح القدس الواحد».

هوموأوسيوس (Homoousios) (من ذات الجوهر):

كان هذا القانون صحيحًا تمامًا ويمكن قبول الأريوسيين له. الأمر الذي بالطبع لم يرضِ الأسقف إسكندر وفريقه. وعند هذه النقطة تم اقتراح عبارة «هوموأوسيوس» هذا الإقتراح من الإمبراطور نفسه حسب كلام يوسابيوس المؤرخ ومعناها «من نفس الجوهر أو الطبيعة». وبذلك صارت العبارة ضد تعليم أريوس بوضوح.

قانون الإيمان الأخير مع الأناثيما:

«نؤمن بإله واحد الله الآب كلي القدرة. خالق كل الأشياء. ما يرى وما لا يرى. ونؤمن برب واحد يسوع المسيح. إبن الله. المولود من الآب. إله من إله. نور من نور. إله حق من إله حق. مولود. غير مخلوق. من ذات الجوهر مثل الآب. به خلق الكل. ما في السموات وما على الأرض. الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل وتجسد وعاش بين الناس. الذي تألم وفي اليوم الثالث قام. وصعد إلى السموات. ويأتي ليدين الأحياء والأموات. «ونؤمن بالروح القدس».

الأناثيما أي الجرم:

ثم جاءت بعد ذلك كلمات الأناثيما كالآتي:

«أما أولئك الذين يقولون. أنه (المسيح) في وقت من الأوقات لم يكن موجودًا. وأنه قبل أن يولد لم يكن موجودًا. وأنه جاء إلى الوجود من العدم. أو الذين يتمسكون بأن ابن الله من جوهر آخر. أو أنه مخلوق. أو أنه قابل للتغيير أو أنه خاضع للتغيير والتبديل – أولئك. تعلن الكنيسة المقدسة الجامعة الرسولية أنهم ملعونون محرومون».

القانون النيقوي لمجمع القسطنطينية:

لم يستمر القانون السابق في الكنيسة طويلاً. وقد صيغ قانون الإيمان النيقوي المستخدم حاليًا في الكنيسة – في وقت انعقاد مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م وأحيانًا ينسب قانون نيقية الرسمي بطريق الخطأ إلى مجمع القسطنطينية المنعقد في سنة ٣٨١م. لكنه اليوم مقبول في كل أفرع الكنيسة – الأرثوذكس. والكاثوليك والبروتستانت. وجدير بالذكر أن الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية تحتفل بذكرى مجمع نيقية يوم الأحد السابق على عيد العنصرة. الكنيسة القبطية الأرثوذكسية تذكر قانون نيقية يومي الجمعة والأحد من كل أسبوع في خدمة القداس وفي كل خدمة ليتورجيا (القداس).

التوقيع على القانون مع بعض التحفظات:

بعد أن أقر الأساقفة المجتمعون نص قانون الإيمان الجديد طلب الإمبراطور منهم أن يوقعوا عليه. وقد وقع عليه معظمهم لكن مع بعض التحفظات. وقد أرسل يوسابيوس القيصري إلى كنيسته في قيصرية يبرر فيه الخطوة التي إتخذها في خطاب دفاعي قوي ومع أنه لم يكن سعيدًا تمامًا بذلك إلا أنه وقع عليه من باب الإحترام للإمبراطور. ولأجل السلام داخل الكنيسة. أما يوسابيوس أسقف نيقوميدية وشخص آخر فرفضا التوقيع على الأناثيما في ذيل القانون وأما أريوس واثنان من أخلص مؤيديه وهما سيكوندس Sacundus من بتوليمايس Ptolemais. وثيوناس Theonas من مارماريكا Marmarika فقد تم طردهم من مصر ونفيهم منها. واتخذوا بعد ذلك من بيثينية في آسيا الصغرى ملجأ لهم.

انقسامات أساسية في نيقية:

مع أن نيقية أسفرت عن صورة للوحدة، إلا أنه كان هناك الكثير من سوء الفهم والمرارة، والكثيرون لم يدركوا بالحقيقة الموضوعات اللاهوتية. وحسب وصف سقراط المؤرخ Socrates قال: «إن ما حدث يشبه معركة في الظلام، لا أحد يعرف إذا كان أصاب صديقًا أم عدوًا، ولم تشعر المجموعة الرئيسية الكبرى بزعامة يوسابيوس بالارتياح واشتهروا أخيرًا بأنهم شبه أريوسيين. أما الأريوسيون المتطرفون المتمسكون في اقتناعهم التام بموقفهم قد عرفوا بأنهم Exukontians من الكلمة اليونانية التي تعني «من فراغ أو من اللاشيء».

كراهية قسطنطين لأريوس:

مع أن قسطنطين الذي لم تكن المسائل اللاهوتية واضحة أمامه مطلقًا قد إقتنع برأي يوسابيوس أسقف نيكوميديا حول إعادة النظر في أفكار أريوس، إلا أنه لم يهتم بأريوس مطلقًا حتى سنة ٣٣٢م كان يكتب هكذا «إذا اكتشفت رسالة كاتبها أريوس فليكن مصيرها النار.. حتى لا يترك أي ذكرى له مهما كانت...... وإذا قبض على أي شخص يخفي كتابًا لأريوس ولا يظهره ويحرقه على الفور، فعقابه الموت، وتنفَّذ فيه العقوبة فور ثبوت الجريمة».

أهمية نيقية:

لقد تأسى الكثيرون وحزنوا على مجمع نيقية بسبب المرارة والانقسام الذي حدث في الكنيسة. فهل يلزم أن تناضل الكنيسة بهذه الشراسة حول حرفين في كلمة «هوموأوسيون» Homoousion؟ ومع ذلك يجب ألا نتجاهل أن الموضوع محل النقاش لم يكن تافهًا، ولكنه بالحري قضية لاهوتية أساسية لمستقبل الكنيسة. فلو أن الأريوسية كسبت المعركة يومئذ، لصارت المسيحية شيئًا مختلفًا تمامًا عما هي عليه اليوم. لكن كم تمنى المرء نهاية للصراع أبسط وأكثر سلامًا، وتتناسب مع قول الرب لفيلبس: «أنا معكم زمانًا هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس؟ الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩).

قرارات حول المنشقين Schismatios وتاريخ عيد القيامة:

لقد تم في نيقية تقنين أمور أخرى كثيرة أقل إثارة للجدل وتشريعها بإصدار عشرين قانونًا كتابيًا. فالميليتيون The Meletians، مثل الدوناتيين The Donatists انشقوا لأنهم رفضوا الإعتراف برسامة الأساقفة الذين استسلموا أثناء الإضطهادات.

وقد سمح للميليتيين بالعودة إلى الإسكندرية بشرط أن يخضعوا للأسقف إسكندر وقد إحتفظ ميليتيوس نفسه Meletiu بلقب أسقف لكن لم يعد في إمكانه القيام بتعيين آخرين. وأصبح لجماعة النوفاتيين The Novationists امتياز مشابه. وقد وافقت الكنيسة في الغرب في آرلز Arles على وضع تاريخ عيد القيامة. وقد قبلت القرار أيضًا الكنيسة في الشرق (الفرق الحالي بين الشرق والغرب مرتبط بالفرق بين التقويمين الجوستينياني والجريجوري).

قرارات حول إدارة الكنيسة:

لقد تقررت قواعد هامة تختص بإدارة الكنيسة. فقد اتفق على وجوب تكوين هيئة سنودسية واضحة المعالم تحت رئاسة أسقف المدينة العاصمة – أي المطران. وعلى السنودس

أن ينعقد بانتظام مرتين في السنة. وفي قضايا التأديب بقطع العضوية ينبغي الوصول إلى الحكم فيها بواسطة محكمة. يتم انتخاب الأساقفة وتنصيبهم بمعرفة كل أساقفة الإقليم بعد أخذ أصوات الرعية وموافقة المطرانية. الكهنة والأساقفة ممنوع عليهم التنقل من أبرشية إلى أخرى بمقتضى مبادراتهم الشخصية. وقد وضعت معايير صارمة للحياة اليومية لكل الإكليروس. وقد لاحظ المؤرخون أن النظام الدستوري للكنيسة اتجه إلى الأخذ من دستور الدولة الرومانية. يضاف إلى ذلك أن قرارات نيقية لها قوتها في الدولة مثلما لها قوتها في الكنيسة.

الجلسة الختامية

أسفر مجمع نيقية عن إصدار عدة رسائل بالإضافة إلى قانون الإيمان وعشرين قانونًا ولائحة كنيسة تم توقيعها كلها رسميًا يوم ١٩ يونية سنة ٣٢٥م. وفي الجلسة الختامية جمع الإمبراطور الأساقفة وخاطبهم فحثهم على أن يحافظوا على سلام الكنيسة الإمبراطورية. وأن يذكروه دائمًا في صلواتهم. وفي شهر يوليو من نفس العام أعد قسطنطين مأدبة كبرى لكل الأساقفة احتفالاً بالعيد العشرين لحكمه (نودي به امبراطورًا في سنة ٣٠٦ في يورك بإنجلترا) [٢]

الكنيسة والدولة معًا

هكذا في سنوات قليلة قصيرة (حوالي ١٥ سنة) تقدمت الكنيسة المسيحية من وضعها كهيئة دينية محتقرة ومضطهدة وملحدة (في نظر الآخرين) إلى أن صارت لصيقة بالإمبراطور الروماني نفسه.

(٢) تحتفل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بذكرى مجمع نيقية يوم ٩ هاتور (١٨ نوفمبر).

Recommended English Readings

1 – Boer, Harry R. ***A Short History of the Early Church***, Eerdmans, Grand Rapids, Mich, 1976, pp. 106 – 111

2 – Bruce, F. F. ***The Spreading Flame***, pp. 302 – 308.

3 – Danielou, J. ***The First Six Hundred Years, (Vol.1)*** and Marrou, H. of the Christian Centuries, pp. 249 – 253

4 – Frend, W. H. C. ***The Early Church, Hodder and Stoughton***, London, 1971, pp. 147 – 155.

5 – Jackson, F. J., ***The History of the Christian Church***, to Foakes A.D. 461, PP. 297 – 316.

6 – Latourette, K. S. ***A History of Christianity, Harper***, N.Y. 1953, PP. 153 – 157.

7 – Leitzmann, Hans, ***A History of the Early Church, Vol. III***, pp. 94 – 122.

8 – Schaff, Philip, ***A History of the Christian Church***, Eerdman's (republishing of Scribner's 1910 edition, ***Vol. III***, pp. 618 – 632.

9 – Seeberg, Reinhold, ***Textbook of the History of Doctrines***, Baker, Grand Rapids, Mich. ***Vol. I***, pp. 201 – 206, 216 – 218.

10 – Walker, Williston, ***A History of the Christian Church***, Scribner's, N.Y – 1970, pp. 106 – 111.

الفصل الثالث
الجدل الآريوسي بعد نيقية
ودور أثناسيوس



١- من نيقية (٣٢٥) حتى وفاة قسطنطين (٣٣٧):

تحفظات حول نيقية

مع أن مجمع نيقية يعتبر أحد المعالم الخطيرة في تاريخ الكنيسة إلا أن قراراته لم تحسم الخلافات حسمًا نهائيًا. وكما رأينا، فحتى الذين وقعوا على القرارات واللوائح كانوا ذوي اتجاهين فكريين. وواضح جدًا أن يوسابيوس أسقف نيكوميديا، ولو أنه وقع على القانون، لكنه كان في الواقع مقتنعًا بالرأي الأريوسي، وكذلك لم يكن يوسابيوس أسقف قيصرية – وهو شبه أريوسي – لم يكن مستريحًا للرأي الأرثوذكسي على النقيض الآخر. وكان يوسابيوس أسقف نيكوميديا هو الذي نجح أكثر من أي شخص آخر إقناع الإمبراطور بإعادة الإمبراطور بإعادة النظر في الفكر الأريوسي مرة ثانية.

الأريوسيون يهاجمون يوستاثيوس:

لقد هاجم يوسابيوس في البدء يوستاثيوس Eustathios أسقف أنطاكية الأرثوذكسي (المؤيد لنيقية) والذي كان ينتقد الأريوسيين بشدة، وقد انتقد يوستاثيوس من قبل الفكر اللاهوتي لدى أوريجانوس. علاوة على ذلك كانت أفكاره عن علاقة الله الآب بالمسيح الابن قريبة جدًا من أفكار بولس أسقف سامسطة Samosta حيث كان يعتقد أن اللوغوس «الكلمة» خاضع للآب وأقل مرتبة منه. لكن أخطر الاتهامات الموجهة ضد يوستاثيوس أنهم زعموا انه على علاقة بامرأة ساقطة وأنه أهان هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين أثناء زيارتها للأراضي المقدسة سنة ٣٢٦م.

فاجتمع مجمع لخلعه، وقام الإمبراطور بنفيه إلى تراكية Thrace وبهذه الطريقة تمت إزاحة واحد من أقوى مناهضي الأريوسية نفوذًا.

أريوس يكسب عطف الإمبراطور:

بعد هذه الحادثة سرعان ما ناشد أريوس وأتباعه الإمبراطور العطف والصفح. ويقال أن قسطنطيا Constantia أخت الإمبراطور كانت تساندهم. ولما

كان الإمبراطور مقتنعًا بوجوب إعادة النظر في القرار، دعا إلى انعقاد مجمع ثان في نيقية سنة ٣٢٧م. وكان معظم من حضروه من الأريوسيين أو أنصاف الأريوسيين. وأعد أريوس قانون إيمان مشابهًا لقانون إيمان نيقية، لكنه حذف الكثير من التعبيرات المتنازع عليها. كما أكد لقسطنطين أنه قد قبل قانون إيمان نيقية. فأعيد إلى مركزه الأول مع زميليه. وكتب الإمبراطور للأسقف إسكندر في مصر عن أريوس، يوصي بأن يقبله ثانية في المنصب الإكليركي الكهنوتي، وأوصى أيضًا بقبول جماعة الميليتيين The Meletians اما كيف كان رد الفعل من الأسقف إسكندر على هذه القرارات، فلا لنا به. ويحتمل أنه لم يقرأ خطاب الإمبراطور على الاطلاق لأنه مات في ابريل ٣٢٨م.

أثناسيوس يخلف الكسندر:

كان أثناسيوس سكرتيرًا لإسكندر وخليفة له، وهو بالتأكيد الشخصية البارزة من الأكليروس في القرن الرابع. وكان أثناسيوس قد رافق إسكندر الى نيقية وكان المتحدث الرسمي البليغ المدافع عن الرأي الأرثوذكسي. وقد اختير أثناسيوس للأسقفية في يونية سنة ٣٢٩م بسبب شعبيته بين الناس أكثر من كونه محبوبًا جدًا من الأساقفة الآخرين وقد قبل أن جمهور الشعب كانوا يهتفون «إنه إنسان فاضل مستقيم، زاهد وأسقف بمعنى الكلمة» وعن قدراته ومهاراته لا تسأل، فقد وقف شامخًا متفوقًا على كل رجال الكنيسة في زمانه في فهم جوهر الموضوعات اللاهوتية . وفي الدفاع عن الفكر النيقوي ضد أعدائه كما كان له نصيب كبير في الحد من تطرفات حركة الرهبنة والحفاظ عليها في نطاق الكنيسة. لكنه لم يستطع أن يرى الا القليل أبعد من أستقامة قضيته. فقد كان صعبًا ومدققًا في معاملاته داخل الكنيسة ولم يكن متسامحًا مع معارضيه وسنناقش فيما بعد كتاباته الهامة التي هاجم فيها الأريوسية مدافعًا عن القانون النيقوي[1].

الأريوسيون والميليتيون ضد أثناسيوس في مجمع صور:

من أول الاجراءات التي اتخذها أثناسيوس أنه رفض طلب الإمبراطور إعادة أريوس والميليتيين إلى مراكزهم الأولى. وفي اجتماع خاص مع قسطنطين، آثر أثناسيوس عليه حتى أن قسطنطين لم يصر على إذعان أثناسيوس له. لكن سرعان ما بدأ الأريوسيون والميليتيون - بعد تحالفهم معًا - التآمر على أثناسيوس. وكان أثناسيوس قد تعامل مع الميليتيين بعنف وشدة، وكتب أيضًا بأسلوب جاف عن أريوس، واذ سعى الإمبراطور لإيجاد سبيل بين الطرفين حفاظًا على السلام، دعا إلى التئام مجمع في مدينة صور في سنة ٣٣٤م، ومع أن أثناسيوس حضر ومعه ثمانية وأربعون من أساقفة مصر، لكن الأريوسيين سيطروا على الجلسات التي رأسها يوسابيوس أسقف قيصرية ويوسابيوس أسقف نيكوميديا.

الاتهامات ضد أثناسيوس وعزله:

وجهت إلى أثناسيوس اتهامات مختلفة بعضها قديم، وهي أنه حاول فرض ضريبة على

(١) لا نعرف عن حياة أثناسيوس في سنواته الأولى سوى القليل، وقد كان أبواه من الأثرياء. كان مصري المولد يوناني الثقافة، تعلم في مدرسة الإسكندرية الجدلية الشهيرة.

المصريين ليمدوا رجال الأكليروس بثياب الكهنوت، وأنه حاول أن يرشي أحد موظفي الحكومة، وأن إنتخابة أسقفًا تم بطريقة غير نظامية، وأنه أمر بتدنيس المذبح في كنيسة للميليتيين، وأنه قتل الأسقف الميليتيني أرسانيوس Arsinius وقد ثبت أن معظم هذه الاتهامات باطلة وزائفة. فقد تم إثبات أن الأسقف القتيل كان حيًا وذلك بإحضاره إلى الجمع. لكنه كان قد عومل معاملة قاسية بأمر أثناسيوس. وكان هناك بعض الحق في الاتهامات الأخرى، خصوصًا الاتهام بخشونة معاملته للميليتيين. فأرسل الجمع إلى مصر وفدًا مواليًا للأريوسيين لتقصي الحقائق، وكما كان متوقعًا عاد الوفد بتقرير ضد أثناسيوس. عندئذ أعلن الجمع عزل أثناسيوس على أساس تدنيس المقدسات وخلل أسلوب انتخابه أسقفًا. والجدير بالملاحظة أن القضية ضد أثناسيوس ارتكزت على أمور غير لاهوتية.

نفي أثناسيوس إلى بلاد الغال (فرنسا):

قدم أثناسيوس إلتماسًا شخصيًا يائسًا إلى قسطنطين الذي كان قد انتقل إلى القسطنطينية. وكان الإمبراطور، كسابق عهده، ميالاً إلى التعاطف معه. لكن يوسابيوس أسقف نيكوميديا، الذي توقع مثل هذه المحاولة، وجه إلى أثناسيوس تهمة أخيرة مذهلة، أنه سعى لمنع شحن القمح من الإسكندرية إلى القسطنطينية العاصمة[2]. وهذا ما لم يحتمله الإمبراطور الذي نفى أثناسيوس على الفور إلى الشمال إلى ترير Triar في بلاد الغال (فرنسا). وذلك يوم ٧ نوفمبر سنة ٣٣٥م.

انتقال الجمع إلى أورشاليم:

في هذه الأثناء كان الجمع قد انتقل من صور إلى أورشاليم لتكريس كنيسة «بازيليكا» Basilica جديدة – هي كنيسة القبر المقدس[3] . واحتفالاً بمرور ثلاثين سنة على حكم قسطنطين. بناء على ذلك أعيد أريوس إلى وظيفته في نفس المناسبة. وأرسل خطابًا بهذا المعنى إلى الكنيسة المصرية.

عزل مرسيللوس أسقف أنقره:

انتهز الأريوسيون فرصة مجمع «صور – أورشاليم» ليقضوا على مدافع آخر من المدافعين عن قانون الإيمان النيقوي هو مرسيللوس Marcellus أسقف أنقره في آسيا الصغرى. فقد انتقد مرسيللوس تعليم أوريجانوس الذي أكد على الأقانيم الثلاثة. أما الفكر اللاهوتي لدى مارسيللوس ذاته فلم يكن متميزا عن السابليانية Sabellliaism فقد وصف نشاط اللوجوس Logos «الكلمة» أنه نوع من التوسع أو امتداد للاهوت، وأنه يعمل طالما أن العمل مطلوب وله ضرورة. يضاف إلى ذلك أنه انتقد الأريوسيين في نيقية، وألف كتابًا هاجم فيه الكثيرين ومنهم يوسابيوس أسقف قيصرية ويوسابيوس أسقف نيكوميدية. ووصل هذا الكتاب إلى قسطنطين الذي أعطاه بدوره إلى الأساقفة لدراسته فاكتشفوا فيه

(٢) في الواقع كان في نطاق سلطة بطريرك الإسكندرية أن ينفذ مثل هذا الأمر. فقد كانت القسطنطينية تعتمد تمامًا على سفن القمح من مصر التي كانت تمدها بنحو ثمانين ألف أردب قمح يوميًا.

(٣) هذه الكنيسة تعرف أيضًا بكنيسة أنستاسيا أو كنيسة القيامة، ويحتفل في الكنيسة القبطية بتذكارها يوم ١٦ توت الموافق ٢٦ سبتمبر.

بسهولة هرطقة سابيليوس. وزيارة في تعقيد الأمور رفض مارسيلليوس الانضمام إلى إدانة أثناسيوس أو إعادة أريوس إلى منصبه. كما تنحى أيضًا عن الاشتراك في احتفالات تكريس كنيسة القبر المقدس. فكان من السهل عزل مرسيللوس وإحاطة الكنيسة والإمبراطور بذلك.

الإبقاء على قانون نيقية:

وهكذا، فإنه بعزل يوستاثيوس، وأثناسيوس ومرسيللوس، أخرج من ساحة المعركة ثلاثة من أبطال قانون الإيمان الرئيسيين في نيقية. ويعتبر إعادة أريوس إلى منصبه نصرًا آخر له. ولو أنه مات في القسطنطينية سنة ٣٣٦م. قبل أن يحضر الاحتفال بإعادته إلى مركزه. ومع ذلك فان القانون النيقوي لم يقدم لمراجعته مطلقًا. فبالرغم من كل المنافسات الشخصية المحيطة بهذا العمل، فقد ظل النص كما تم التوقيع عليه في سنة ٣٢٥م كما هو بدون تغيير بل إن الإمبراطور نفسه اعتبر نيقية إنجازًا شخصيًا من الدرجة الأولى. وكما كتب جيبون Gibbon المؤرخ في الفصل ٢١ من كتابه: «تدهور إمبراطورية روما وسقوطها The Decline and Fall of the Roman Empire «لقد قدم قسطنطين الحماية لأريوس واضطهد أثناسيوس (لكنه) مع ذلك اعتبر مجمع نيقية حصنًا للإيمان المسيحي، ومجدًا وشرفًا خاصًا لحكمه شخصيًا».

موت قسطنطين:

لم يعد باقيًا لقسطنطين من عمره إلا القليل. ففي أعقاب عيد القيامة سنة ٣٣٧م مرض الإمبراطور، ولما شعر باقتراب ساعته طلب أن يعتمد. ولم يرقد على فراشه بالعباءة الأرجوانية الملوكية بل في الثياب البيضاء التي يتوشح بها المنضم حديثًا. ومات قسطنطين يوم ٢٢ مايو سنة ٣٣٧م ودفنه ابنه قسطنطيوس في كنيسة الرسل في القسطنطينية.

قسطنطين في الميزان:

من الواضح أن قسطنطين عند بنائه مدينة القسطنطينية لتكون روما الجديدة المدينة المسيحية، آمن بأن المسيحية يجب أن تصبح الديانة الرسمية للإمبراطورية بل في الحقيقة ديانة كل العالم. ولقد كرس نفسه تمامًا لقضية الوحدة في الكنيسة وفي الإمبراطورية.

وقد أعلنت الكنيسة اليونانية أن قسطنطين واحد من القديسين، ناظرًا إليه بنفس التوقير الذي تقدمه الكنيسة اللاتينية لشارمان. وهو بالتأكيد يستحق لقب «العظيم» اعتقد يوسابيوس المؤرخ بوجوب اعتبار قسطنطين مساويًا للرسل، لكن هذا أمر مفتوح للمناقشة.

يجب أن نقتبس هنا فكر المؤرخ ستانلي Stanley «هكذا رحل أول إمبراطور مسيحي، اول مدافع عن الإيمان، أول نصير ملكي للكرسي البابوي، وكل الكنيسة الشرقية، أول من أسس الأماكن المقدسة، وثني ومسيحي، أرثوذكسي وهرطوقي، متحرر ومتعصب ليس من يشابه أو يعجب به، بل نذكره كثيرًا وندرسه بعمق»

Stanley, A.D., Lectures on the History of the Eastern Church, p. 320

Recommended English Readings

2 – Duchesne, Louis, ***The Early History of the Christian Church*, *vol. II,*** pp. 125 – 152

3 – Frend, W. H. C. ***The Early Church***, pp. 157 – 161.

4 – Jackson, F. J. F. ***The History of The Christian Church***, to A. D. 461, PP. 316 – 350.

5 – Latourette, K. S. ***A History of Christianty***, pp. 157 – 161.

6 – Leitzmann, Hans, ***A History of the Early Church*, *vol. III,*** pp. 122 – 136.

7 – Walker, Williston, ***Ahistory of the Christian Church***, pp. 109 – 111.

٢- الفكر اللاهوتي لدى أثناسيوس:

لكي نقدر تمامًا أهمية أثناسيوس يلزم أن نأخذ في الاعتبار مساهمته في الفكر اللاهوتي في الكنيسة فهو من ناحية كشف ضعف حجج أريوس، ومن ناحية اخرى ثبّت بوضوح وبصورة مقنعة معقولية عقيدة مجمع نيقية.

تفنيد أثناسيوس للأريوسية:

هاجم أثناسيوس الأريوسيين بمتابعة حججهم إلى نتائجها المنطقية:

- لو كان أريوس على صواب، إذًا فليس الله الثالوث أزليًا. إن الابن والروح القدس مخلوقين وزمنيين ومع هذا هما أقنومان من الأقانيم الثلاثة لله. وهذا يمنع أن يكون الله سرمديًا.

- هناك احتمال تعدد الآلهة في الفكر الأريوسي. فلو كان المسيح كائنًا مخلوقًا ومع هذا يعبده المسيحيون (كما هو الواجب) فإنهم إذًا لا يعبدون الله نفسه بل كائنًا آخر[١].

- وجهة النظر الأريوسية تقتل يقينية الخلاص. فلو كان اللوجوس «الكلمة» (المسيح) خاضعًا للتغيير، فكيف يمكن للإبن القابل للتغيير أن يؤكد ويضمن للمؤمن خلاص الآب؟

- إن فكرة وجود هذا الكائن الوسيط tertium quit فلا معنى لها. الله لا يأنف من الاتصال المباشر بالناسوت من خلال الابن. ولا هو عاجز عن هذا الاتصال كما أنه بالتجسد لا يفقد أي جانب من جلاله الإلهي بل بالحري يزيد. ولو كان يلزمه استخدام كائن وسيط لإتمام الخلاص، إذن لوجب أن يستخدم كائنات وسيطة في كل تعاملاته مع الخليقة على الطريقة الغنوسية، وحسب فكر الغنوسيين.

لاهوت المسيح وناسوته معًا في الثالوث:

ويمكن توضيح الفكر اللاهوتي الإيجابي لأثناسيوس كما يلي:

١- إن سرمدية الابن المستقلة، المتميزة والشخصية الذاتية مبدأ ثابت. فكما أن مجرى الماء المنبثق من النبع ليس منفصلاً عنه، مع أن هناك صورتين واسمين، فهكذا ليس الآب هو الابن، ولا الابن هو الآب. إن اللوجوس Logos صادر عن أو متولد من طبيعة الآب. وهو من نفس طبيعته، ومن نفس طبيعة ونفس جوهره واللوغوس الكلمة مولود لكن بمعنى أكثر أصالة جدًا من ولادة الكائنات البشرية. لأنه حالما يولد ولد، فهو مختلف عن الأم والأب. وليس الأمر كذلك بالنسبة للابن الوحيد لله الآب، فاللوغوس الابن يبقى أبديا من نفس جوهر الآب. هكذا «فإن ابن الله هو نفسه لوغوس Logos الكلمة والحكمة، وهو نفسه المشورة والقصد الحي، وفيه إرادة الآب. وهو نفسه حق الله الآب ونوره وقوته». ومع ذلك

---

(١) قال باسيليوس Basil أسقفل أنقرة في وقت لاحق «لديهم (أي الأريوسيين) إذًا إله، وإله صغير».

فهما أقنومان متميزان. «فالآب ليس هو الابن، والابن ليس هو الآب. لكن طبيعتهما واحدة».

لقد عبرت العبارات السابقة تعبيرًا حقيقيًا عن كل فكر الكنيسة وتعليمها منذ أيام الرسل فيما يختص بعلاقة الآب والابن. وكان لأثناسيوس موهبة وضع هذه في صيغة بسيطة ثم إظهار كيف ارتبطت هذه الصيغة بتعليم الفداء.

الخلاص الكامل:

٢ – يعتمد خلاص البشرية على الناسوت التام واللاهوت الكامل للمسيح فقط إن كان المسيح هو الله، بكل ما تعنيه هذه الكلمة، لدخل الله إلى الناسوت عندئذ فقط ينال البشر بالتأكيد حق الله والشركة مع الله، وغفران الخطايا والخلود. الكلمة اللوجوس Logos صار جسدًا وكان إلهًا حقًا وإنسانا حقًا، ومن ثم فإن غاية الطبيعة الإلهية وأعمالها قد تمت من خلال الله الإنسان يسوع المسيح وبه وحده. بهذا يتثبت أساس راسخ لخلاص الناس. وبما أن المسيح هو الله الحق فقد أمكنه تأليه الجسد الذي اتخذه لنفسه. وبما أن جسده كان حقًا جسدًا إنسانيًا، فلقد تألهت الطبيعة الإنسانية. وهكذا صرنا وارثين للحياة الأبدية. وكان أثناسيوس حريصًا على تحاشي الوقوع في مبدأ الكماليين - أي أن البشر صاروا فعلا آلهة على الأرض. لكنه يؤكد على أن المسيح يسكن فينا وبقوة روحه يمنحنا حياة أبدية جديدة. وبموت المسيح كذبيحة كفارية عنا أعلن لنا عن إتحاده النهائي التام مع جنس البشر. وبما أصبحنا جسدًا واحدًا مع المسيح صار موته موتًا لنا، وانتصاره انتصارًا لنا[٢].

الروح القدس:

٣- لم يكن دور الروح القدس يشكل قضية للمناقشة فى نيقية، لكن أثناسيوس استخدم فى وقت لاحق نفس الحجج في هذا الصدد (قضية الروح القدس) فكل ماهو حق عن الابن ويصدق عليه، يجب أن يكون حقًا عن الروح القدس ويصدق عليه. فالروح القدس من نفس طبيعة الابن. وكما هو الحال مع الابن، فإن الروح القدس يقدسنا ويمكننا من المشاركة في الطبيعة الإلهية.

هوموأوسيون Homoousion (من ذات الجوهر):

يجب أن نذكر هنا الاصطلاحات اللاهوتية التي استخدمت أثناء هذه الفترة. ومن النقد الموجه لاستخدام كلمة هوموأوسيون (أي من نفس الجوهر) إنها تعبير غير كتابي[٣] (أي لم يرد في الكتاب المقدس) أيضًا كان يمكن تفسيرها بسهولة حسب مفهوم سابيليوس، كما كان من

---

(٢) هارنك Harnack يقدم هذه التحية لأثناسيوس: الصفة المميزة لأثناسيوس، التي جعلت تعليمه قياسيًا للمستقبل، تكمن تمامًا في حقيقة أنه حافظ بدقة على وحدانية الله ولكنه بدون تذبذب تمسك بألوهية المسيح علاوة على تمسكه بالمسيح كما هو تاريخيًا.

(٣) ذكر كاتب كاثوليكي أن إدخال المصطلحات غير الكتابية إلى قوانين الإيمان فتح الطريق أمام الكنيسة نحو مبادئ أخرى ليست بالضرورة مبنية على نصوص الكتاب المقدس مثل الحبل بلا دنس عصمة البابا من الخطأ، صعود العذراء... إلخ.
(Daniel, Marrou, The Christian Centuries, vol. 1. p. 252).

الممكن أن يحورها بولس الساموسطي Samosata يحولها لتأخذ معنى نصف آريوسي. وقد استخدمها الغنوسيون بالفعل لخدمة أغراضهم الخاصة والغريبة.

هومويوسيون – أناموبوسيون Homoiousion :Anamoiousion

كان طبيعيًا جدًا أن تظهر تعبيرات أخرى من نفس الأصل. فيما كان اللاهوتيون يناضلون لتوضيح أفكارهم وآرائهم. فأنصاف الأريوسيين استخدموا كلمة هومويوسيون Homoiousion ومعناها أن المسيح من جوهر شبيه بجوهر الآب. أما المتطرفون من الأريوسيين فاستخدموا كلمة «أناموبوسيون Anamoiousion ومعناها أن الابن لم يكن من نفس جوهر الآب. لكن الكلمة هوموأوسيوس هي التي ظلت باقية في قانون الإيمان. (المادة العلمية في القسم السابق مأخوذة في معظمها من كتاب The Textbook of the History of doctrines by Reinhold Seeberg, Baker, Grand Rapids, 1961, vol, Ipp . 206 – 215

٣ – من موت قسطنطين (٣٣٧) إلى اعتلاء يوليانوس للعرش (٣٦١) واستمرار الصراع مع الأريوسية:

أبناء قسطنطين:

خطط قسطنطين الحكم الكبير لاستمرار الحكم في أبنائه الثلاثة وأحد أبناء أخته. إلا أن الجيش رفض قبول أي شخص خلاف الأبناء الثلاثة وهم قسطنطين الثاني، وقسطانز Constans وقسطنطيوس الثاني Constantuis II. وقد قتل كل الأقوياء الذكور (أما عدا ولدين صغيرين هما جالوس Gallus ويوليوس Julius وهما من أبناء إخوة قسطنطين غير الأشقاء. وقسمت الإمبراطورية بين الإخوة الثلاثة. فأخذ قسطنطيوس الثاني الشرق بما فيه مصر أما قسطنطين الثاني فأخذ الأقاليم الغربية بينما أخذ قسطانز المنطقة الوسطى لإيطاليا وشمال أفريقيا.

سياسة قسطنطيوس ضد الوثنية:

من بين الحكام الثلاثة أصبح قسطنطيوس الشخصية المسيطرة في الكنيسة الإمبراطورية. فقد كان أقدر الإخوة الثلاثة لكن لم يكن لديه إلا القليل من شخصية وأخلاق وحكمة أبيه. كتب أحد الكتاب يقول «إن قسطنطيوس تجاهل أفضل ما في سياسة أبيه وقدم أسوأ ما فيها (Cochrane, Christianitt and Classical Culture) p.254

فرميكوس يشجع الحملة ضد الأوثان:

يرجع الفضل إلى قسطنطيوس في عمل الكثير للحد من تأثير عبادة الأوثان. إلا أنه كان من العسير جدًا استئصال الوثنية. وبالرغم من أنها صارت ضعيفة. فقد ظلت محتفظة بشعبيتها بين الناس. وكانت الكنيسة بجانب الإمبراطور – على وعي تام بهذا الخطر. وقد كتب فرنيكوس وهو أحد أعظم الكتاب المسيحيين الرومان الموهوبين نبذة عن زيف «العبادات الوثنية The Falsehood of the Prefane Religious يحرّض فيه الأباطرة على التصرف مع الأوثان «لأنه يجب أن نضع نهاية لها. أيها الأباطرة القديسون يجب أن تقطعوا عليهم الطريق بالتشريع الصارم. فمن أجل هذه القضية منحكم الله الإمبراطورية. واقتادكم من نجاح إلى

نجاح. انزعوا انزعوا بدون خوف الأوثان زينة المعبد. إرسلوا هذه الآلهة إلى مكان سك النقود. واتخذوا لكم كل ممتلكاتها بوضع اليد» (اقتباس دنشيزن Quoted by Duchesne, The Early History of the Church, Vol 11, p. 253)

قوانين ضد الوثنية:

أصدر قسطنطيوس أول قانون هام ضد الأوثان يقول: «يجب إبادة كل الخرافات والخزعبلات تمامًا». وأمر أن تكون كل المعابد خارج أسوار المدينة وألا تستخدم إلا للألعاب والملاهي. وبحلول عام ٣٥٠م. أغلقت المعابد «حتى يحرم المستهترون من فرصة ارتكاب الخطية. وكان من يقبض عليه وهو يقدم قرابين وذبائح للمعبد تتم إدانته بعقوبة الموت ومصادرة ممتلكاته. لقد اضطهد قسطنطيوس الوثنيين واليهود معًا بنفس القسوة تقريبًا التي اضطهد بها المسيحيون في وقت سابق.

قسطنطيوس يرعى رجال الدين المسيحيين:

وفي نفس الوقت دلل قسطنطيوس رجال الدين المسيحيين وزاد من المزايا المنوعة الممنوحة لهم من قسطنطين الأول. فقد أعفاهم من كل أنواع الضرائب والواجبات المدنية. كما سمح لهم أن يمارسوا التجارة. والأساقفة المتهمون في جرائم وجب أن يحاكموا فقط أمام أساقفة آخرين. وليس في المحاكم المدنية. وأصبحت الكنيسة الآن – طبقًا لملاحظة الوثنيين – أكثر خضوعًا للإمبراطور وواقعة تحت إشرافه بسبب الرعاية.

قسطنطيوس يريد الوحدة في الكنيسة:

أما من الناحية الدينية فكان قسطنطين يميل إلى الأريوسية وكان تحت تأثير يوسابيوس أسقف نيكوميدية وقادة أريوسيين آخرين من الكنيسة الشرقية. لكن وحدة الكنيسة كانت تعني وحدة الإمبراطورية. ولذلك – ومن أجل السلام والوحدة – حاول مثل أبيه أن يصل إلى أساس مشترك بين الطرفين. فعقد ما لا يقل عن ١٧ مجلسًا منفصلاً خلال حكمه مستخدمًا وسائل أكثر خشونة ليرغم الأطراف المتنازعة على الاتفاق وفي ذلك كتب جون نيومان (كاردينال) John N, Newman يقول عن الحاكم: «إن قسطنطيوس إذ كان متزنًا في هذا المركز الغمض بين الصواب والخطأ. نفى من كل فريق في النزاع بالتبادل. ولم يستبق حتى أتباعه (شبه الأريوسيين). وكان بدوره يرجع بغرض الإنصاف إلى كل عقيدة وقانون. ما عدا تلك التي تضم داخلها الحق يقينًا (أي قوانين نيقية)» (Newmn, The Arians in the Fourth Century p. 297)

أثناسيوس يهرب إلى روما:

تم السماح لأثناسيوس ومرسيللوس بالعودة. كل منهما إلى كرسيهما إلى أبروشيته في عام ٣٣٧م. فعاد أثناسيوس إلى كنيسة القديس مرقس بالإسكندرية ومرسيللوس إلى أنقره. لكن ليس لمدة طويلة. ذلك أن الأعداء الأريوسيين ذكّروا الإمبراطور بأنهما أدينا من مجمع صور/ أورشاليم (٣٣٤، ٣٣٥م) فتم تعيين أسقف يدعى جريجوري غريغوريوس Gregory من آسيا الصغرى على كرسي الإسكندرية. ورغم عدم شعبيته بين الجمهور. فقد أمكنه البقاء بسبب إعتماده على جيش الإمبراطور وحمايته له. أما أثناسيوس فهرب إلى روما حيث التأييد لنيقية. وهناك رحب به كل من البابا يوليوس والإمبراطور قسطانز.

حملات أثناسيوس دفاعًا عن قرارات نيقية:

كان على أثناسيوس وكل مؤيدي مجمع نيقية أن يواجهوا الآن فترة من الشك كان الكثير منه نتيجته لسياسة قسطنطيوس. إن إنسانًا أقل من أثناسيوس ربما لم يكن في أستطاعته الثبات. فبالرغم من كل الإهانات الشخصية، فإنه استمر في حملته ضد الأريوسيين وفي الدفاع عن فكر مجمع نيقية. واستند إلى سلطان مجمع نيقية. كما استطاع أن يحشد دعم وتأييد أساقفة الغرب له مثل جوليان Julian وهوسيوس Hossius أسقف قرطبة في أسبانيا Spain وهيلاري Hilary أسقف بورتييه Portiers في فرنسا. واستخدم الدعاية العامة الشعبية موجهًا رسائل بتوقيعه كأسقف الإسكندرية. كما أرسل خطابات إلى الإمبراطور حمل بعضها دفاعًا عن رأيه وبعضها الآخر استفسارًا عن لياقة تدخل الإمبراطور في شئون الكنيسة. وكتب إلى قسطنطيوس قائلاً: «متى كان حكم الكنيسة وقرارها يستمد صلاحيته من الإمبراطور؟» ونلاحظ أيضًا أن المكاتبات العامة التي كتبها أثناسيوس ويوسابيوس، كل منهما ضد الآخر، لم تكن تهتم بالفكر اللاهوتي بقدر ما كانت تبحث أي الأسقفين – أسقف الإسكندرية أم أسقف القسطنطينية – أحق وأولى بأن يصبح بابا الكنيسة الشرقية.

يوليوس يساند أثناسيوس:

أثبت يوليوس بابا روما أنه مؤيد قوي فعال لأثناسيوس وللفكر النيقوي. فبعد مجمع روما سنة ٣٤٠م. كتب يوليوس خطابًا للمساءلة في حكم مجمع صور / أورشاليم معلنًا براءة أثناسيوس ومرسيللوس، وبطريقة ذات مغزى خطير تمسك بأن لروما الحق في أن تتصرف كمحكمة استئناف للأحكام الصادرة في أي كنيسة أخرى. وقد تضمن مثل البيان بوضوح تام أن روما طالبت بأن تكون لها الرئاسة الأسقفية على كل الأبرشيات الأخرى.

يوسابيوس يهاجم أثناسيوس في أنطاكية:

وفي عام ٣٤١م. دعا يوسابيوس أسقف نيكوميدية إلى عقد مجمع في أنطاكية بمناسبة تدشين كنيسة قسطنطين الذهبية في تلك المدينة. وحضره الإمبراطور قسطنطيوس وقد قبل هذا المجمع القرار المعروف بالقرار الأنطاكي الثاني. وأنكر الأساقفة أنهم أريوسيون وادعوا أنهم كانوا أوفياء لصيغة قانون نيقية. وهذه كلماتهم «كيف يمكن أن نكون – نحن الأساقفة – أتباعًا لمجرد قس وهو (أريوس) وأيدت وثيقة المجمع قرار مجمع صور / أورشاليم، وبذلك بقى أثناسيوس مدانًا كما تم تخطيط معظم العبارات لتثبت أن مرسيللوس مذنب بإعتناقه مذهب سابيليوس[٤].

وبالإضافة إلى ذلك فلقد شككوا في أحقية روما أن تعمل كمحكمة استئناف للأحكام الصادرة من مجمع شرقي.

الفروق بين الشرق والغرب:

لعلنا نلاحظ الآن ظهور الفروق الأساسية بين الغرب اللاتيني والشرق اليوناني فقد استنكر الشرق إدعاء روما بأن لها الرئاسة في

(٤) في الواقع كان مرسيللوس قد أصبح سببًا لإحراج مؤيدي نيقية، وكان الفكر اللاهوتي لديه أقرب لفكر سابيليوس منه لفكر أثناسيوس.

السلطة القضائية. أما الغرب فارتاب في الشرق لاستخدامه لغة غامضة يمكن أن تحتمل معان مختلفة، خصوصا عند ترجمتها إلى اللاتينية. ومن الناحية الأخرى شك القادة الشرقيون بأن روما لم تقدر تمامًا أخطار العقيدة السابليانية. ولم يستطع القادة الغربيون أبدًا التصديق بأن الشرقيين ليسوا أريوسيين، طالما أنهم تحت قيادة يوسابيوس، وهكذا تطور الأمر إلى انقسام بسبب الإختلافات والفروق في المفهوم اللاهوتي وبسبب اللغة، وكانت القضية أيضًا هي قضية السلطة النهائية في الكنيسة.

قسطانز الحاكم الأوحد في الغرب:

نحو هذا الوقت تغيرت الأحوال في الإمبراطورية. فقد قتل قسطنطين الثاني في معركة ضد قسطانز، تاركًا أخاه يسيطر وحده على المنطقة الغربية كلها. ومات يوسابيوس الذي كان أسقفًا على القسطنطينية تاركًا وراءه فراغًا في قيادة الكنيسة الشرقية. فلما مال ميزان القوة الآن لصالح الغرب، استطاع قسطانز أن يقنع قسطنطيوس للدعوة إلى عقد مجمع يضم الشرق والغرب معًا.

مجمع سارديكا:

انعقد مجمع ساردیکا في ٣٤٢ – ٣٤٣م (مكانها حاليًا صوفيا في بلغاريا)، لكنه لم يسفر إلا عن المزيد من الانقسام بين الشرق والغرب. فلما رأى قادة الشرق الدينيين أن أثناسيوس ومرسيللوس المعتبرين من الهراطقة، حاضران في المجمع احتجوا وانسحبوا أخيرًا الى فيليبوبوليس Philippopolis أما الغربيون فأصدروا قوانين وقرارات مدّعين بحق سلطان روما على كراسي الأسقفيات الأخرى. كما أصدروا بيانًا لاهوتيًا لتبرير حضور مارسيللوس المشكوك في أنه سابلياني. ويقال إن أثناسيوس في وقت لاحق تأسف وحزن على نشر هذا البيان. وقد كرر قادة الكنيسة الشرقية من جهتهم أنهم لم يميلوا إلى الأريوسية، وأصدروا مرة ثانية الحرم على أثناسيوس ومرسيللوس. كما حرموا يوليوس أسقف روما. وردًا على ذلك قام الغرب بإصدار الحرم على باسيليوس أسقف أنقرة، وغريغوريوس أسقف الإسكندرية، وهكذا اتسعت هوة الخلاف بين الشرق والغرب. ويقول سقراط مؤرخ الكنيسة عن ذلك في كتابه تاريخ الكنيسة (Ecclesiastical History 11, 22) لذلك انفصلت الكنيسة الغربية، من ذلك الحين، عن الكنيسة الشرقية، وكانت الحدود المشتركة بينهما هي جبل سوكيس Saucis الذي يفصل التراقيين Thracians عن الإيليريين Ilyrians وحسب قول ليتزمان Leitzmann قد سار خط مستقيم من ساردیکا حتى الإنفصال النهائي في عام ١٠٥٤م (A History of the Earlyt Church, vol. II. P. 306)

الإمبراطوران يفرضان حلاً وسطًا:

عقب مجمع ساردیکا ضغط الإمبراطوران بشدة على كلا الجانبين للوصول إلى حل وسط. فقبل الغرب بإسقاط مسألة مرسيللوس، وسمح لأثناسيوس بالعودة إلى الإسكندرية. وكانت هناك أيضًا بعثة سلام أرسلت من الكنيسة الشرقية إلى إيطاليا معلنة إخلاصها للقانون النيقوي. ولسبب ما عدل قسطنطيوس رأيه تجاه أثناسيوس ودعاه إلى البلاط الإمبراطوري. وبعد عدة مرات من التأجيل والتأخير توجه أثناسيوس أخيرًا إلى أنطاكية في عام ٣٤٦م، ورحب به الإمبراطور بحرارة، وسلمه وثيقة تضمن له العودة إلى الإسكندرية. وفي تلك الأثناء مات غريغوريوس

أسقف الإسكندرية فاستقبل أهل الإسكندرية أثناسيوس استقبالاً حماسيًا، حيث قدر له أن يمكث هناك في سلام نسبي لمدة عشر سنوات قبل أن تجبره الأزمة التالية على قبول النفي.

مشاكل جديدة مع الدوناتيين The Donatists:

بدأ الدوناتيون من شمال أفريقيا (انظر المجلد الثاني)[٥] في إقامة صعوبات جديدة خلال هذه الفترة. فقد طلب دوناتوس Donatus نفسه من الإمبراطور قسطانز الإعتراف به أسقفًا لقرطاجنة. فأرسل قسطانز بعثة لبحث الموقف. لكن الدوناتيين اتهموا أعضاء البعثة بمحاولة أخذ رشوة. وبدأ الدوناتيون المتطرفون من نوميديا يثورون، فكان على الجيش الإمبراطوري أن يخمد الثورة. وحكم بالإعدام على بعض قادة الدوناتيين، وعين حاكم شمال أفريقيا «جراتوس Gratus أسقفًا، وهو منافس لدوناتوس. وذهب دوناتوس إلى المنفى في الغال، حيث مات في عام ٣٥٥م. ومع أنه بذلك تمت السيطرة على الدوناتيين لبعض الوقت، فقد ظلت تحظى بتأييد شعبي كبير في شمال أفريقيا، لكي تنهض مرة أخرى في المستقبل كتهديد سياسي للكنيسة الإمبراطورية.

الإطاحة بقسطانز وقسطنطيوس يصبح الإمبراطور الأوحد:

في عام ٣٥٠م. أقبلت الإمبراطورية على فترة من المتاعب. فقد تمت الإطاحة بقسطانز، وقتله أحد قواد الجيش واسمه «ماجننتيوس Magnentius الذي سيطر حينئذ على الأقليم الغربي لمدة ثلاث سنوات. وكان قسطنطيوس منشغلاً آنذاك في محاربة الفرس في الشرق، لكنه تنبه أخيرًا إلى ماجننتيوس فهزمه أولاً عند مورسا Mursa، ثم في السنتين التاليتين طرده الى الخلف عبر أوروبا. ولما أدرك ماجننتيوس أنه خسر المعركة، إنتحر تاركا قسطنطيوس الآن حاكمًا منفردًا على كل الإمبراطورية. وكان فالينز Valens أسقف مورسا، الشبه أريوسي، أكبر معين في التشجيع والمشورة للإمبراطور أثناء هذه الأزمة. بهذه الطريقة نال الحظوة في البلاط ونجح في التأثير على قسطنطيوس ضد أثناسيوس.

قسطنطيوس يجبر الكنيسة على عزل أثناسيوس:

دعا قسطنطيوس بتحريض من فالنز إلى عقد مجمعين أحدهما في أرلز ARLES في الغال في سنة ٣٥٣م، والآخر في ميلان بإيطاليا في سنة ٣٥٥م في محاولة لإقناع القادة الغربيين بعزل أثناسيوس. فجاءوا يكيلون الإتهامات لأثناسيوس بأنه تباطأ بدون سبب مقبول في الإستجابة لدعوة الإمبراطور سنة ٣٤٦م. والأسوأ من كل هذا إتهامه بمساندة ماجننتيوس ضد الإمبراطور. أما في الأمور اللاهوتية، فكان القادة الغربيون أقل إلمامًا بالموضوعات الجوهرية. وقال «هيلاري Hilary أسقف بواتييه Poitiers أنه لم يسمع أبدًا عن «هوموأوسيون Homoousion من قبل. كما جاء نقلاً عن أحد ضباط الجيش قيل أنه اعتقد أن «هوموأوسيون» هو اسم أحد الأساقفة.

وقد استخدم قسطنطيوس كل سلطة لفرض القرار ضد أثناسيوس وأصر على الاجتماع

---

(٥) جدير بالذكر أن الدوناتيين هم الانفصاليون المنشقون Schismatics الذين رفضوا قبول رسامة الأساقفة الذين سبق أن استسلموا أثناء الاضطهاد.

بالأساقفة في الكواليس خفية في مجموعات صغيرة داخل القصر. كل من رفض التوقيع على قرار الإدانة تم نفيه. مثل هيلاري أسقف بواتييه، وهوسيوس أسقف قرطبه Cordova وليبريوس Liberius أسقف روما (الذي خلف يوليوس) وآخرين كثيرين.

سلطة قسطنطيوس على الكنيسة:

كنموذج من مفهوم قسطنطيوس لسلطته في الكنيسة نقتبس الفقرة التالية من كلمات الإمبراطور نفسه: «كمستودع إلهي للقوة الملوكية، فإن سلطتي في الكنيسة هي السلطة الأعلى، كما هي أيضًا في الدولة» إرادتي؟ يجب اعتبارها ملزمة «وأنا الذي أتهم أثناسيوس... لتقم إرادتي مقام القانون كما هي مع الأساقفة السوريين».

الهجوم على أثناسيوس في الإسكندرية:

أثناء وجود أثناسيوس في الإسكندرية، متمتعًا بمساندة شعبية عظيمة، استمر في أداء واجباته كأسقف على الرغم من قرار المجمع. أكثر من ذلك، كان في حوزته خطابات تأييد رسمية تدعم موقفه سبق أن كتبها له قسطنطيوس. ولكن جاء مندوب «مبراطوري إلى الإسكندرية ليثير المتاعب ضد أثناسيوس، لكنه اكتشف أن الشعب لم يستجب لجهوده. كما فشلت محاولات أخرى لإقناع أثناسيوس بترك منصبه والرحيل. وفي محاولة أخيرة يائسة لطرده، اقتحمت الجيوش الرومانية كنيسة «ثيوناس» حيث كان أثناسيوس يصلي. فقتلت الكثيرين من أفراد الشعب وجرحت العديدين. لكن أثناسيوس إنسل بعيدًا، لم يصبه أذى، وذهب يختبئ في أديرة الصحراء. فاحتج شعب الإسكندرية على انتهاك حرمة الكنيسة أمام قائد الجيش الروماني لكن بلا فائدة. فقد أعد بالفعل ترجمة للقصة لإرسالها للإمبراطور يقول فيها: إن أثناسيوس قد حكم على نفسه بمغادرة الإسكندرية بمحض إرادته.

قسطنطيوس يعين جورج في مكان أثناسيوس:

عندئذ أرسل الإمبراطور مندوبًا إلى مصر ومعه أوراق تعلن أن أثناسيوس عدو للشعب، فيجب البحث عنه والعثور عليه بأي ثمن. أكثر من ذلك تم عزل كل رجال الإكليروس الذين عينهم أثناسيوس، من كنائسهم وحل مكانهم أريوسيون. بل أن أثناسيوس نفسه حلّ مكانه «جورج» الكبادوكي أسقفًا على الإسكندرية Cappadocia كان معروفًا عنه أنه إنسان قاس عديم الرحمة، ومن محبي المال. فأدخل حكم الإرهاب ضد أي من كانت لهم علاقة بأثناسيوس. والذين رفضوا التحول ضده، عذبوا أو قتلوا أو أبعدوا إلى المنفى. لكن أخيرًا قام الإسكندريون ضد جورج وأقصوه بعيدًا. لكن الحاكم استمر ينفذ أساليبه القمعية ضد أصدقاء أثناسيوس.

أصدقاء أثناسيوس يحمونه:

استمرت مطاردة أثناسيوس لكن دون نجاح. فقد كان له أصدقاء كثيرون جدًا خاصة من الرهبان على استعداد لإيوائه بعيدًا عن العيون. وهناك قصة تحكي أنه كان مسافرًا بالليل في قارب على النيل، حيث اقترب منه قارب من قوارب الحكومة ونادوا عليه يسألونه «هل رأيت أثناسيوس؟» فأجاب قائلاً: «أظن ذلك» فسألوه: «هل هو بعيد عن هنا؟» وكان الجواب، «لا إنه قريب منكم جدًا،

أمامكم. جذفوا بقوة». وهكذا أسرع القارب الحكومي بعيدًا عنه في الليل. واستدار أثناسيوس بقاربه راجعًا في أمان إلى بيته.

أثناسيوس يكتب وهو في المنفى:

خلال الأعوام الستة التي قضاها أثناسيوس في المنفى، انتهز الفرصة ليكتب الكثير. فكتب دفاعًا مطولاً للإمبراطور، مدافعا عن فكرة ومبرهنًا على أحقيته بكرسي أسقفية الإسكندرية. ومن المحتمل في الغالب أنه كتب أيضًا أبحاثه الأربعة ضد الأريوسيين، كما كتب مؤلفه الشهير نجم الصحراء - حياة القديس أنطونيوس[١]

Star of the Desert The Life of St. Anthony

خدمة أثناسيوس الرعوية:

يحظى أثناسيوس حتى اليوم بالتبجيل من الكنيسة القبطية من أجل خدمته الرعوية للمسيحين في مصر. ففي ثلاث مناسبات أثناء توليه البطريركية قام برحلات وصلت جنوبًا الى أسوان، متوقفًا في الكنائس والأديرة على طول الطريق. وكانت هذه الزيارات فرصًا لإحتفالات شعبية عظيمة. إن دوره كراعٍ للقطيع كان مصدر التشجيع والوحدة داخل الكنيسة والأمة (انظر كتاب إيريس حبيب المصري) قصة الكنيسة القبطية.

(The Story of the Copts, Paragraphs No. 144. 153 and No 183)

أنصار اللامشابهة في الجوهر «الأنوموياسون» جماعة أريوسية متطرفة:

خلال هذه الفترة اتخذت الحركة الأريوسية حياة جديدة. بقيادة «يودوكسيوس Eudoxios أسقف أنطاكية، يعاونه لاهوتيان زكيان قديران «أكتيوس Actios و«يونوميوس Eunomios» وحجتهم أن الابن ليس من جوهر الآب، وأنه مخلوق من مرتبة المخلوقات وقد أطلق عليهم اسم «أنوموياترز» بسبب التعبير الذي استخدموه» أنومويوس Anomoios أي «غير المشابه في الجوهر» وبينما كسبت هذه الحجة الأريوسية المتطرفة أتباعًا كثيرين لنفسها فإنها أيضًا قسمت الحركة الأريوسية. فإن أشباه الأريوسيين الأكثر اعتدالاً بقيادة باسيليوس أسقف أنقرة، أرادوا الاحتفاظ بكلمة «هومويوسيوس Homoiousios» (من جوهر مشابه) على أنها التفسير الصحيح لقانون نيقية.

مجمع سيرميوم Sirmium

في هذه الأثناء كان الإمبراطور - تحت تأثير فالينز أسقف مورسا - قد دعا إلى عقد مجمع من الأساقفة الغربيين في سيرميوم بيوغسلافيا سنة ٣٥٧م وأسفر هذا المجمع عن قانون أريوسي قلل من مقام الابن إلى مركز إله مساعد ثانوي. وقد دعا هيلاري أسقف بواتييه هذا القانون «تجديف سيرميوم». واستطاع باسيليوس أسقف أنقرة

---

(١) ألف أثناسيوس كتبًا ونبذًا عديدة. من بين أهم مؤلفاته اللاهوتية الكتب الآتية:

«عن التجسد»	1. On the Incarnation.
«عن القوانين»	2. On the Decrees
«ضد الوثنيين»	3. Afainst the Pagans
«حول المجامع»	4. On the Synods
«شرح الإيمان»	5. The Exposition of Faith
«الدفاع ضد الأريوسيين»	6. Apology against the Arians
«إلى أساقفة مصر»	7. To the Egyption Bishops

بمساعدة ليبريوس Liberius أسقف روما، أن يقنع قسطنطيوس بإعادة النظر في قرار سيرميوم. وقد دعا الإمبراطور في عام ٣٥٩م إلى عقد مجمعين، أحدهما في أريمينيوم Ariminum (حاليًا ريميني بإيطاليا) والآخر في سلوقيا Seleucia بآسيا الصغرى. وقد حضر نحو أربعمائة أسقف من الغرب، وأكثر من مائة أسقف من الشرق.

مجمع أريمنوم ومجمع سلوقيا والـ «هومويوس» Homoios:

كان باسيليوس يأمل في استرداد صيغة الـ هومويوسيوس Homoiosios إلا أن «فالينز» كان له أتباع كثيرون في الغرب، وكان يودوكسيوس وجورج من أقوياء الشرق. وكان كل ما يريده الإمبراطور هو صيغة ترضي أكبر عدد ممكن وتؤدي إلى إحلال السلام في الكنيسة. وقد تحدد أن موضوع «الجوهر» Ousios هو أكبر مشكلة. لذلك حذفت كل التعبيرات التي استخدمت فيها تعبير أوسيوس Ousios مثل Homoousios Homoiousios Anomoios واستقر رأيهم على كلمة هومويوس Homoios التي تعني أن الابن مشابه للآب – لكن ليس في الجوهر ولا في كل الأشياء. ورفضوا أن يقولوا كيف يكون الابن مشابهًا للآب. معتقدين أن ذلك فوق قوة العقل البشري. ومع أن هذه الصيغة أبعدت جماعة الـ«أنومويانز» الأريوسيين المتطرفين، فلقد ملأ الرعب كلا من النيقوميين مستقيمي الرأي وأنصاف الأريوسيين المحافظين. فقد رأوا بحق أن كلمة «هومويوس» Homoious تركت الباب مفتوحًا لكل أشكال التفسيرات الأريوسية لكن قسطنطيوس، إعتقادًا منه بأنه يستحيل على الكنيسة أن تتحد حول قانون الإيمان النيقوي، أراد صيغة واسعة ومبسطة، يمكن أن تتفق عليها الغالبية االعظمى. فاستخدام كل أنواع القسر ليرغم الأساقفة على الموافقة. والذين رفضوا مثل باسيليوس أبعدوا إلى المنفى[٧].

قبول تعبير «هومويوس» من الأريوسيين:

صارت الصيغة «هومويوس» Homoios تعبيرًا كلاسيكيًا لدى الأريوسية، واكتسبت قبولاً واسعًا وسط الشعب القوطي وقبائل الأوثان الأوروبية الأخرى لكنه كان يومًا مظلمًا للكنيسة وبتعبير «جيروم» يئن ويتأوه العالم كله مندهشًا إذ يجد نفسه أريوسيًا. (Dialogue Against the Luciferians, 19) وفيما يلي ملاحظة ديتشزن Duchesin إن قانون نيقية سنة ٣٢٥م وقانون أريمينيوم سنة ٣٦٠م وكلاهما متضادان وكل منهما يسقط الآخر The Early History of the Church, Vol. 2,p. 245

التقارب بين النيقويين وأنصاف الأريوسيين:

على أي حال، كانت هناك نتائج إيجابية من هذه المأساة. فالأريوسيون المتطرفون والمدعوون الأنومويانز أخرجوا من الساحة. أما حزب أثناسيوس النيقوي الأرثوذكسي المستقيم الرأي مع أشباه أنصاف الأريوسيين المحافظين التابعين للأسقف باسيليوس فاضطروا لإعادة النظر في أفكارهم ومواقفهم. وهنا اكتشفوا أنهم لم

(٧) يبدو أن قسطنطيوس كان في عجلة من أمره، فقد كانت سنة ٣٦٠ م عيد إنفراده بالحكم. فأراد أن يحتفل بهذه المناسبة في نفس الوقت مع الاحتفال بقبوله القانون الجديد.

يكونوا متباعدين عن بعضهما بالدرجة التي كانوا يظنونها. فقد كان باسيليوس يقول دائمًا أنه نيقوي شرعي حقيقي وبدا على أثناسيوس الآن أنه بعيد النظر في رأيه بالنسبة لأشباه الأريوسيين.

استخدام أثناسيوس لصيغة «هوموأوسيوس» :Homoousio

يبدو أن الأرثوذكس المؤيدين لنيقية لم يستندوا إلى صيغة «هوموأوسيوس كما قد يظن. ويقول المؤرخ ليتزمان في كتابه (Leitzman The History of the Early Church vol.III. p. 197)، أن جماعة المؤيدين لنيقية، مع أنهم يشيرون دائمًا في كتاباتهم إلى قانون الإيمان، الا أنهم كانوا يقتبسون فقط فقرات الحرم الأناثيما التي وردت ضد الأريوسية «لا أحد حتى يوليوس أو أثناسيوس استخدمها كاختبار لصحة العقيدة، ولا أحد اقتبس القانون النيقوي أو طلب من المعارضين أن يوافقوا عليه». ويذكر ليتزمان أيضًا أن أثناسيوس نفسه في كتاباته الأولى لا يشير إلى هوموأوسيوس أو إلى نيقية. وفي مؤلفاته الرئيسية ضد الأريوسيين يذكر «الحرم» الأناثيما ضد أريوس ويشير مرة إلى «هوموأوسيون» homoousion» الا أن الابن يوصف بأنه مشابه (هومويوس Homoios للآب أو مساو له من كل الوجوه، أو شبيه في الجوهر أو الطبيعة كل الكلمات الإستدلالية التي صنفت في تاريخ لاحق كاصطلاحات خاصة بالهرطقة الأريوسية ونصف الأريوسية، يستخدمها أثناسيوس في هذه المؤلفات المبكرة، بطريقة راضية ودية» (Leitzman p. 222) صحيح أنه في الكتابات التي وضعها بعد ذلك في السنوات ما بين ٣٥٠ – ٣٦٠م، خصوصًا ضد اليوسابيين، يبين الفارق بين صيغة هوموأوسيوس Homoousios وصيغة» هومويوسيوس Homoiousios

صداقة أثناسيوس وباسيليوس:

بحلول عام ٣٦٠م وقد بلغ أثناسيوس الرابعة والستين من عمره، أدرك أن بينه وبين باسيليوس والمحافظين الآخرين أشياء كثيرة مشتركة. ففي كتابه De Synodis 41 كتب يقول: «إن من يقبلون كل ما كتب في نيقية، ولو أنهم ما زالوا يستبقون الشك حول عبارة هوموأوسيوس Homoousios، لا ينبغي أن يعاملوا كأعداء. وأنا لا أهاجمهم كأريوسيين مجانين، ولا كمقاومين للآباء. إني أناقش الأمور معهم كأخ مع إخوة يفكرون كما نفكر ويختلفون فقط على كلمة واحدة. ومن ضمن هؤلاء باسيليوس أسقف أنقرة الذي كتب عن الإيمان.

مع أن الأريوسية عاشت لمدة أعوام عديدة، فإن عقد الستينات في القرن الرابع (٣٦٠ – ٣٧٠م.) يضع علامة انحسار تأثيرها على قيادة الكنيسة كما كان لمتغييرات السياسية أيضا تأثير عظيم.

Recommended English Readings

1 – Chadwick, Henry, ***The early Church***, pp. 136 – 145.

2 – Frend, W.H.C. ***The early Church***, pp. 161 – 168.

3 – Jackson, F. J.F. ***The History of the Christian Church***, to A.D. 46, pp. 328 – 350.

4 – Latourette, K. S. ***A History of Christianity***, pp. 158 – 160.

5 – Walker, Illisto, ***A History of the Christian Church***, p. III – 114.

6 – Wand, J. W. C. ***A History of the Early Church to A.D. 500,*** Methuen London, 1937, pp 159 – 166.

Two texts give more detailed descriptions of this period:

Duchesene, Louis, ***Early History of the Christian Church, vol. II,*** pp. 123 – 250.

Leitzmann, Hans, ***A History of the Early Church, vol. III,*** pp. 181 – 260.

٤- يوليانوس المرتد (٣٦١-٣٦٣)

يوليانوس وانتعاش الوثنية:

نأتي الآن إلى فاصل غريب لكل من الكنيسة الإمبراطورية. هذا الفاصل فترة حكم جوليانوس المرتد، الذي حاول إنعاش الوثنية وإزاحة المسيحية. ومع أنه حكم أقل من سنتين، كتب عنه وفرة من المؤلفات، جزء كبير منها كتبه يوليانوس نفسه. ومن خلاله عرفنا لمحة توضيحية للعلاقات بين الكنيسة والدولة في الإمبراطورية الرومانية المتأخرة.

حياة يوليانوس المبكرة وتربيته:

كان يوليانوس وأخوه جالوس Gallus الوحيدين من ذوي القربى اللذين استبقاهما قسطنطيوس عندما تخلص من كل الذين احتمل تعاقبهم على وراثة العرش. تربى الأخوان تربية مسيحية تحت إرشاد يوسابيوس أسقف نيكوميديا كما تثقفا أيضًا في العلوم الإغريقية التي أثرت على يوليانوس لدرجة أنه صار شغوفًا بالوثنية. وعندما شب، وكان تحت إرشاد معلم يدعى ليبانيوس Libanius تحول إلى اعتناق صورة سرية من (الأفلاطونية الحديثة) كان يكن الاحترام بصفة خاصة لإله الشمس هليوس مثلما فعل عمه قسطنطين الأول. على أنه استمر بعض الوقت يسلك ظاهريًا كمسيحي.

غريغوريوس يصف يوليانوس:

من التعليقات المثيرة عن شخصية يوليانوس، ما كتب عنه لما كان زميلاً في الدراسات الكلاسيكية بأثينا لكل من غريغوريوس النازينزي Nazianzus وباسيليوس القيصري (وهما اثنان من ثلاثة كابادوكيين Cappadocians سيأتي الكلام عنهم في الفصل التالي) فقد وصف غريغوريوس يوليانوس في وقت لاحق قائلاً: «كان يكتنفه جو التوحش والتقلب، له عينان زائغتان ومشيته مضطربة، ونظرته عصبية، كما كانت ضحكته بشعه ولا معنى لها، وكانت طريقته في الحديث فظة وغير منتظمة، الأمر الذي يكشف عن عقل مريض مضطرب مع نفسه». (Oratio V. 23)

قيادة يوليانوس للجيش الغربي

وفي هذا الوقت كان جالوس قد عين حاكمًا لسورية. لكن حكمه كان قاسيًا وعنيفًا حتى أن قسطنطيوس عمل على عزله وإعدامه. أما يوليانوس، الذي كان دائمًا يكره قسطنطيوس، إزدادت كراهيته له الآن أكثر. وربما نجا هو نفسه من الموت بتدخل الإمبراطورة يوسابيا Eusebia قسطنطيوس. وفي سنة ٣٥٥م، أثناء حروب قسطنطيوس في الشرق والغرب، استدعى يوليانوس وأشركه معه في الحكم كقيصر وزوجه من أخته هيلانة[1] ثم أرسله إلى بلاد الغال (فرنسا) ليشرق على قيادة الجيوش الرومانية هناك.

يوليانوس يصبح الإمبراطور الأوحد عند موت قسطنطيوس:

وعلى غير المنتظر تمامًا، أثبت يوليانوس أنه قائد عسكري ممتاز. ففي خمس سنوات من الحرب أخضع نهائيا القبائل الجرمانية التي كانت تهدد

(١) كانت هذه عادة تتبع كثيرًا وسط الأسرات الملكية للحفاظ على المركز، والقوة، والثروة داخل الأسرة.

الإمبراطورية من الشمال. حينئذ أمر قسطنطيوس أن ينقل نصف قوات يوليانوس إلى الشرق لمعاونته في محاربة الفرس. إلا أن جنود الجيش تمردوا وتجمعوا حول يوليانوس وأعلنوه إمبراطورًا عليهم. ولسنا نعرف كم كان تشجيع يوليانوس لهذه الثورة. إنه بالتأكيد لم يتردد في قبول لقب «أغسطس» الذي كان يمنح فقط للإمبراطور الحاكم. فاستشاط قسطنطيوس غضبًا عند سماع الخبر. وأصبح التهديد بحرب أهلية وشيكًا عندما تحرك يوليانوس شرقًا وقسطنطيوس غربًا. الا أن قسطنطيوس مات في نوفمبر سنة ٣٦١م في آسيا الصغرى قبل أن يلتقيا. لكن ليس قبل أن يعين يوليانوس خلفًا له.

الآن وصار يوليانوس بالفعل الإمبراطور. مع أنه ادعى عدم رغبته في أن يكون الإمبراطور أو أن يحل محل قسطنطيوس. وكتب يقول: «لماذا جئت أنا إذن؟ لأن الآلهة أمرتني صراحة ووعدتني بالخلاص إذا أنا أطعت. وإنها لن تفعل أي شيء لو أنني بقيت. لقد كان في فكري أن أخفيه فقط (قسطنطيوس) وأن الأمور حينئذ ستتجه إلى المفاوضات المقبولة. لكن لو استلزم حسم الأمر القتال فإنني وقد وضعت كل شيء في يد القدر والآلهة. عقدت العزم على البقاء.

يوليانوس يكشف عن معتقداته الوثنية:

مع أن يوليانوس حضر جنازة قسطنطيوس ودفنه في كنيسة الرسل بالقسطنطينية. إلا أنه على الفور كشف عن ولائه القديم للأوثان. وقد كان يعيش بالفعل حسب فلسفة الرواقيين الصارمة - فكان يطلق شعر رأسه ولحيته. ولا يقلم أظافره. كما كان ينام علي الأرض. ورفض أكل الأطعمة الدسمة وإحتساء الخمر وإمتنع عن العلاقات الجنسية إلا خلال فترة زواجه القصير. ماتت زوجته سنة ٣٦٠ م. وكتب يقول: «لقد عبدنا الآلهة جهارًا. كما قدم معظم رجال الجيش الذين يرافقونني الإكرام لها ..... لقد أمرتني الآلهة أن أطهر كل شيء بقدر الإمكان».

إصلاحات يوليانوس فى الحكومة :

تمشيًا مع اعتقاده بأن الإمبراطورية فى حاجة إلى التطهير تحول أولاً إلى البلاط الملكي. ففي أثناء حكم قسطنطيوس صار البلاط مكانا للترف والفساد. وكان هناك فيض من كل شيء من الملابس والطعام والمال والناس خصوصًا من يقومون بالخدمة فى القصر الإمبراطوري. «كان هناك ألف من الطباخين ومثلهم من الحلاقين وربما أكثر من ذلك من الخدم وكان هناك حشود من السعاة والخصيان أكثر من الذباب حول البهائم في وقت الربيع. وجمع غفير من «تنابلة السلطان» من كل نوع «ولقد خفض يوليانوس من هذه البطانة تخفيضًا كبيرًا - من الخدم والجواسيس والسكرتاريين. كما وضع معلمي الأفلاطونية الحديثة في مكان الأساقفة الأريوسيين الذين أحاطوا بقسطنطيوس وأراد أن يصوغ حكمه علي طريقة ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius» الملك - العالم (١٢١- ١٨٠ م.) وكان المثل الأعلي والنموذج عند يوليانوس هو أمبراطورية يحكمها الفلاسفة الذين يعمل تحت إشرافهم المديرون وقادة الجيش علي نمط جمهورية أفلاطون.

يوليانوس يحاول إحياء الديانة الوثنية:

تأهب الإمبراطور الآن لتجديد وإحياء الديانة الوثنية. فأمر بإعادة بناء المعابد. وبرد الأملاك السابق مصادرتها. وعبر عن إيمانه الشخصي

بعبادة إله الشمس، مقدما القرابين علنا في كل مناسبة، ومشجعًا الآخرين أن يفعلوا بالمثل، وحث الكهنة أن يعيشوا حياة التقشف، مقدما فيما فعل القدوة الحسنة. وقد لاحظ يوليانوس فاعلية النظام الإداري للكنيسة المسيحية، فحاول تنظيم الديانة الوثنية على نفس الخطوط، لكنه لم ينجح كثيرًا. كما طالب الكهنة أن يطبقوا بعض الممارسات المسيحية: «ألا نلاحظ أن أعظم ما جدد نمو الإلحاد (يقصد المسيحية) هو العطف على الغرباء، والتفكير السابق فيما يختص بدفن الأموات، وإصطناع الكرامة في حياة الفرد؟ ففي رأيي أن كل واحدة من هذه السجايا يجب أن ننميها بإخلاص داخلنا».

يوليانوس يضيق الخناق على المسيحية:

أعلن يوليانوس التسامح مع كل الأديان، وكان حريصًا على تحاشي سفك الدماء الذي تميزت به الاضطهادات الأولى القديمة. ونصح ضباطه قائلاً: «بحق الآلهة لست أريد أن يقتل الجليليون (المسيحيون) أو يضربوا ظلمًا بدون مبرر، ولا أن يعانوا من أي سيئة أخرى. على أنني أقر أن خائفي الله (يعني الوثنيين) يجب أن يفضلوا عليهم». وقد دلت العبارة الأخيرة أنها مفتاح سياسته. ففي كل أمر كانت الأفضلية والأولوية لغير المسيحيين فألغى حق الإكليروس في الإعفاء من الخدمة المدنية، ونقل آخرين كثيرين من الوظائف العامة. خفّض من عدد المسيحيين العاملين بالقانون. وحينما قتل الغوغاء جورج أسقف الإسكندرية وبخهم توبيخًا خفيفًا فقط قائلاً: «أنه كان من الواجب تقديم الأسقف للمحاكمة بدلاً من قتله». وطبقًا لسياسة التسامح التي اتبعها فيبدو أنه اعتقد كما قال أحد من كتبوا سيرته الذاتية» إن المسيحيين يفنون بعضهم بعضًا، إذ عرف بالخبرة أنه لا توجد وحوش أعدى للجنس البشري من فتك المسيحيين بعضهم بالبعض (لقد كان بلاشك يفكر في المنازعات اللاهوتية والكنسية الشهيرة التي ميزت الكنيسة في عصره). من أخطر أوامره المحسوبة منعه المسيحيين من ممارسة مهنة التعليم في المدارس العامة. لقد ربط يوليانوس بين الدين والتعليم معًا. محتجًا بأن من لا يؤمن بآلهة اليونان ليس مؤهلاً لتعليم آدابها. والأمر الذي يثير الدهشة هو أن المسيحيين المثقفين كانوا يعرفون العلوم اليونانية أفضل معرفة. وكثيرون منهم كانوا أساتذة أجلاء بل حتي أقرب المستشارين إلى يوليانوس إعتبروا ذلك سياسة غير حكيمة أن يستبعد المسيحيون عن مهنة التعليم.

إجراءات عنيفة ضد المسيحيين:

بالرغم مما أعلنه يوليانوس من تسامح مع المسيحية، فإنه كثيرًا ما اتخذ إجراءات عنيفة وقاسية ضدهم، فعندما إحترق معبد أبوللو في أنطاكية أغلق كنيسة أنطاكية العظيمة الذهبية مع أن المسيحيين لم يكن لهم ضلع في الحريق، وسمح لأثناسيوس بالعودة إلى الإسكندرية لكن عندما مارس واجباته مرة أخرى كأسقف، أمر يوليانوس بإبعاده، ودعاه قائلاً: «ذلك الرجل اللعين» وقد أفنى فعليًا مدينة قيصرية، مدمرًا مبانيها، ومشردًا سكانها، كما حرض شعب بوسترا Bostra على طرد أسقفهم تيطس وصادر أموال وأراضي المسيحيين في إديسّا. ولما رفض جنديان مسيحيان رفع شعار المسيحية ـ Ro –Chi – من ألوية وأعلام الجيش قطع رأسيهما.

احتقار يوليانوس للمسيحيين:

كان يوليانوس في الحقيقة يحتقر المسيحيين. هذا واضح حتي لما تظاهر بأنه يرثي لحالهم، «جماعة الجليليين الفقراء، العميان، المخدوعين الذين تخلوا عن أعظم امتياز للإنسان، وهو عبادة الآلهة الخالدة، عبدوا بدلاً منها الموتى وعظام الموتى». وكان يؤمن أن طريق المسيحية طريق بربرية وحقيرة وغبية بالمقارنة إلى إيمانه هو، حيث قال: «نحن متفوقون عليكم من كل وجه، في معرفة الفنون، والحكمة، والذكاء». علاوة على ذلك اعتبر المسيحيين تهديدًا للإمبراطورية. وهكذا يقول: «كوكران» كان يوليانوس مقتنعًا بأن الإمبراطورية قد احتضنت – في المسيحية – مصاصًا للدماء، إذا لم يستأصل في الحال فإنه سيستنزف منها سريعًا دم الحياة». (Christianity and classical Culture p. 272) كما أعتقد أن «وصمة الإلحاد (أي المسيحية) يجب أن تمحي».

يوليانوس ينتقد المسيحية:

قدم يوليانوس العديد من الحجج ضد المسيحية. فأبرز التناقضات بين العهد القديم والعهد الجديد. فقد تحول المسيحيون في رأيه عن ناموس موسى «فالجليليون مثل دودة العلق، إمتصوا أرادأ الدماء من ذلك المصدر وتركوا الأنقي. » وكانت ألوهية المسيح بالنسبة له أمر لا يصدق، كما اعتبر أن تعاليم المسيح إنما هي تعاليم صادرة من قروي جاهل أمي مجرد من الحق والجمال. فقد كانت تعاليم ضعيفة وغير عملية، وإذا أخذت جديًا فإنها تدمر الأمة والمجتمع والأسرة. كما اعتقد إن المسيحيين أدخلوا بدعًا ليست أصلاً حتى في كتبهم المقدسة: مثل تبجيل القديسين «الرؤوس المتعفنة في الأحماض، والعظام النتنة - صارت الآلهة الجديدة للشعب الروماني». إنهم مراؤون ومنافقون لأنهم يبشرون بإنجيل المحبة، ومع ذلك يضطهدون خاصتهم من الشعب (مثال ذلك الأريوسيون والأرثوذوكس). أخيرًا، إن «خلاصة وجوهر المعرفة اللاهوتية لديهم تقلصت إلى أمرين: يصفرون لطرد الشياطين، ويرسمون علامة الصليب على جباههم».

يوليانوس يحاول إعادة بناء الهيكل في أورشليم:

فكر يوليانوس في مشروع غريب كي يذل المسيحيين - فقرر أن يعيد بناء الهيكل في أورشليم. فقد أدرك أن اليهود الذين استبعدوا من أورشليم لمدة مائتي سنة لا يمكنهم تقديم الذبائح إلا في الهيكل فقط. وهو في هذا احترام اليهود، مع أنه إزدرى بهم في مواضع أخرى، معتقدًا أن كل الصلوات يجب أن تصحبها الذبيحة. كذلك اعتقد بأن بناء الهيكل ينقض نبوة يسوع عن الهيكل «إنه لا يترك ههنا حجر علي حجر لا ينقض» (مت ٢٤: ٢). والمهم أنه ليس هناك مايسجل أن اليهود رحبوا بالمشروع (نادرًا مايذكر هذا المشروع في كتابات اليهود) فقد كان يوليانوس بالنسبة لهم أميًا ووثنيًا، وثانيا، كان معظم اليهود يعتقدون أن الهيكل لن يعاد بناؤه الا عند مجئ المسيا. علي كل حال فقد بدأ المشروع في مارس من سنة ٣٦٣م وتوقف تقريبًا علي الفور. وتقول إحدى الروايات أنه حالما بدأ العمال في الحفر، إنفجرت في الأساسات كرات من نار ولفحتهم. ويعتقد البعض أنه ربما حدث زلزال أخاف العمال فهربوا مذعورين.

يوليانوس يفشل في إحياء الوثنية:

كان أعظم فشل لحق بيوليانوس هو عجزه عن

إحياء الديانات القديمة فربما كان متفلسفًا أكثر من اللازم. وحتى الشعب لم يستجب لتحذيراته ونصائحه كما لم يهتم أحد خاصة كهنة الأوثان بمحاكاة نمط حياته في الزهد والتقشف. لكن الحقيقة أن قلب الديانة القديمة كان قد فارقها. وهناك روايات عن كهنة منهم إنحطت أحوالهم لدرجة التسول، وعن هياكل خربت ودمرت، وعن عائلات للكهنة ذابت تمامًا في البيئة المسيحية السائدة. وكما إعترف يوليانوس نفسه «نحن في حالة من بلادة الحس إزاء الشئون الدينية حتى لقد نسينا تقاليد أجدادنا».

موت يوليانوس:

لو أن يوليانوس عاش عمرًا أطول، لربما اختلفت القصة. لكنه قتل يوم ٢٦ يونيه سنة ٣٦٣م أثناء حملة عسكرية ضد الفرس، وكان عمره آنذاك ٣٢ سنة. هناك روايتان عن لحظات موته، ولو أن المؤرخين لم يقبلوهما. إحداهما تقول إنه نثر الدم من جرحه تجاه إله الشمس قائلاً: «كن راضيًا». وتقول الأخرى إنه بنفس الحركة صرخ «أيها الجليلي (المسيح) لقد انتصرت».

خلاصة القول، إنه إذا كان يوليانوس قد سبّب الخوف والقلق بين المسيحيين لفترة قصيرة، فإنه أيضًا جعلهم يعيدون التفكير في أحوال الكنيسة والشر الذي وجد طريقه إلى المقدسات. ويقول فيليب سكاف Philip Schaff «كان هذا الاضطهاد المؤقت الوقتي عقابًا عادلاً وتدريبًا صحيًا للكنيسة وللإكليروس الذين تحولوا إلى الدنيويات (History of The Christian Church vol .III p. 41) وأعطى اختبار جوليان لقادة الكنيسة درسًا بأن لا يثقوا كل الثقة مدة ثانية في حماية الملوك والأباطرة للكنيسة. لكنهم سرعان ما نسوا هذا الدرس.

Recommended English Readings

1 – Chadwick, Henry, ***The Early Church***, pp. 154 – 159.

2 – Duchesne, Louis, ***The Early History of the Church,*** pp. 251 – 268.

3 – Frend, W. H. C. ***The Early Church***, pp. 169 – 179.

4 – Jackson, F. J. F. ***The History of The Christian Church***, pp. 351 – 374.

5 – Leitzmann, Hans, ***A History of The Early Church***, ***Vol. III,*** pp. 261 – 269, 273 – 287

6 – Wand, J.W.C. ***A History of The Early Church***, pp. 167 – 173.

(*) معظم المادة في القسم السالف الذكر مأخوذة عن كتاب يوليانوس الجاحد

Julian the Apostate, G.W. Bowersock, Duchwarth, 1978.

الفصل الرابع
من جوفيان إلى ثيودوسيوس
ومجمع القسطنطينية (٣٦٣ - ٣٨٢م.)



الامبراطور جوفيان:

بعد موت يوليانوس، أصبح جوفيان Jovian إمبراطورًا. وكان جوفيان بانونيا Pannonia، وكان عضوًا كبيرًا في الحرس الإمبراطوري. وقد أعاد على الفور للمسيحين حقوقهم وامتيازاتهم وأصدر مرسومًا هذا نصه: «يجب أن تعبد الله القدير والمسيح وحسب. وعلى الشعب أن يجتمع في الكنيسة للعبادة». وقد تسامح في بعض الممارسات الوثنية لكن في نطاق محدود جدًا.

العمل نحو الاتفاق:

في خلال هذه الفترة، برزت ثانية الجادلات اللاهوتية المختلفة، فيما بعد مجمع نيقية، وتحرك المدافعون عنها يحدوهم النشاط. لكن يمكن القول إنها كانت فترة التقارب معًا. فقد كان أثناسيوس والآباء الكابادوكيون من آسيا الصغرى بصفة خاصة، يعملون نحو الأساس المشترك. وكان الأريوسيون بلا ريب في طريق الأفول، وكان هناك اتجاه واضح نحو الاتفاق، وقد تحقق هذا على قدر ما أمكن في مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ – ٣٨٢م.

فالنتينيان وفالنز:

مات جوفيان فجأة سنة ٣٦٤م، وانتقل الحكم إلى فالنتينيان الذي عين أخاه فالينز ليحكم في الشرق. أثبت فالنتينيان أنه غالبًا لا يبالي بشئون الكنيسة. فعندما طالب وفد من الأساقفة بعقد مجمع لتسوية مسألة القانون، أجاب فالنتينيان: «أنا علماني ولست في حاجة إلى أن أنزعج وأنشغل بمثل هذه الأمور، فهي من اختصاص الكهنة الذين ينبغي أن يرتبوا اجتماعاتهم حيثما أرادوا». أما فالينز – من الناحية الأخرى – فيتأثير من يودكسيوس الأريوسي أخذ يهتم جديًا بشئون الكنيسة. وعندما اتخذ مجلس الكنيسة قرارًا يتعارض مع رغباته عزل أغلبية الحاضرين. فقلل فالنز الكثير من الامتيازات التي سبق أن تمتعت بها الكنيسة (فمثلاً لم يستطع الكهنة أن يباشروا عملاً أو يكنزوا ثروة شخصية، كما لم يمكن لمحاكم الكنيسة أن تصدر قرارًا في القضايا الجنائية. كما أن الكثير من الأساقفة الذين عزلهم

قسطنطيوس وأعادهم يوليانوس عزلهم ثانية فالينز ومن بين هؤلاء أثناسيوس. ولو أنه سمح له بالعودة في السنة التالية. (أثناسيوس، في الواقع، نفي خمس مرات).

السنة الأخيرة لأثناسيوس:

عاش أثناسيوس سنوات عمره الأخيرة في سلام بالإسكندرية حتى وفاته في سنة ٣٧٣م. لقد اكتسب إحترامًا يجل عن الوصف لدرجة أنه حتى فالينز الإمبراطور الأريوسي تحاشى أن يتحداه. وعندما ظهر الأسقف لوسيوس Lucius منافسًا له في الإسكندرية والمفروض أنه تحت رعاية فالينز، كاد جمهور الشعب أن يمزقه إربًا. بلا شك كان لأثناسيوس نصيب وافر في الوصول إلى إتفاق أخير على قانون نيقية. وقد ساعد على إزالة سوء الفهم حول التغييرات اللاهوتية اليونانية واللاتينية. ففي مجمع الإسكندرية سنة ٣٦٢م أوضح أن الكلمة اليونانية «Ousios» تقابلها في اللاتينية كلمة «Substantia»، أي جوهر أو مادة، وأن الكلمة اليونانية «HYPOSTASIS» تقابلها في اللاتينية «PERSON» = «PERSONA» = أقنوم. ومع أنه لم يتفق أبدًا مع الكابادوكيين تمامًا، الذين فضلوا تعبير هومويوسيوس «HOMOIOUSIOS» على «هوموأوسيوس HOMOOUSIOS» فإنه أجاز قبول تفسيرهم لصيغة قانون نيقية.

أثناسيوس وقانونية الأسفار الكتابية:

كما ينبغي أيضًا أن نقدر تأثير أثناسيوس في أمور أقل إثارة للجدل. فطبقًا لقانون نيقية الأصلي كان أسقف الإسكندرية ينتدب لنشر رسالة العيد السنوية معلنًا تاريخ عيد الفصح والقيامة. هذه الرسائل المرسلة من أثناسيوس إلى أبعد الأماكن بإتساع الكنيسة كلها، كانت تناقش العديد من الأمور ذات الإهتمام المسكوني.

فمثلا في سنة ٣٦٧م عالج موضوع الأسفار القانونية. فرتب أسفار العهد القديم وعددها اثنين وعشرين وهو ٢٢، يوافق العدد الفعلي الحالي تسعة وثلاثين سفرًا وهذا لأنه أحصى السفر المزدوج سفرًا واحدًا. مثلا أخبار الملوك الأول والثاني.... إلخ) كما أحصى أسفار الأنبياء الصغار كسفر واحد. وقد حذف سفر أستير لكنه أدرج نبوة باروك ورسالة إرميا (من الأبوكريفا) كما كانت قائمة أثناسيوس التي سجل فيها السبعة والعشرين سفرًا هي أول تسجيل لقانون العهد الجديد الحالي، الذي تأكد بإتفاق الآراء عبر السنين. فقد تأيد من مجمع شمال أفريقيا المنعقد في Hippo سنة ٣٩٣م وتأيد مرة ثانية من سنودس قرطاجنة بعد ذلك بأربعة أعوام.

بطرس يخلف أثناسيوس:

الأسقف بطرس شقيق أثناسيوس حل محله كبطريرك في كرسي مارمرقس بالإسكندرية. لكنه لم يستطع الثبات أمام القوات الإمبراطورية فعين الإمبراطور فالينز أسقفًا أريوسيًا هو لوسيان بدلاً منه رغمًا عن رغبة الشعب، والمعارضون نفاهم، وتدنست كنيسة «ثيوناس» مرة أخرى، والتجأ بطرس إلى روما. وعندما مات الإمبراطور فالينز سنة ٣٧٩م خلفه جراتيان Gratian، وتمكن بطرس من العودة إلى كرسيه في الإسكندرية.

١- الآباء الكابادوكيون من آسيا الصغرى

الآباء الكابادوكيون:

كانت القيادة اللاهوتية في هذه الفترة تنتقل

بسرعة إلى أيدي الآباء الكابادوكيين: باسيليوس القيصري (سنة ٣٢٩ – ٣٧٩م)، وأخيه غريغوريوس النيصي (سنة ٣٣٠ – ٣٤٥م)، وغريغوريوس النازينزي Nazianzus سنة (٣٣٠ – ٣٨٩م). وقد اضطلع هؤلاء الثلاثة بمسئولية كبرى في صياغة القانون النيقوي، الذي طبق في القسطنطينية في سنة ٣٨١م. ويعد هؤلاء الآباء الثلاثة من بين القديسين في الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، كما تكن لهم الكنيسة الغربية احترامًا جليلاً.

أ- باسيليوس أسقف قيصرية

تربيته الأولى:

ولد باسيليوس الكبير أسقف قيصرية في أسرة غنية في الميراث المسيحي. فقد تعرض أجداده لاضطهاد دقلديانوس. وكان أبواه من أثرياء المسيحين وعملا على أن ينال هو وأخوه غريغوريوس قسطًا وافرًا من التعليم في قيصرية والقسطنطينية. ثم أرسلاهما بعد ذلك إلى الجامعة في أثينا ليتثقفا بالعلوم التقليدية الكلاسيكية اليونانية وهناك تعرفًا على يوليانوس الذي أصبح فيما بعد الإمبراطور المرتد. كذلك تصادقًا مع غريغوريوس النازينزي. وعند عودتهما إلى قيصرية عمل باسيليوس كمعلم للبلاغة، لكنه ازداد شغفًا بحياة التقشف وقد رسم قارئًا في سنة ٣٥٧م وبعد زيارات كثيرة إلى سوريا وفلسطين ومصر قرر أن يكرس نفسه لحياة الرهبنة.

باسيليوس وحياة الرهبنة والتقشف:

وعندما عاد باسيليوس إلى بلدته في «بنتس» اعتزل في صومعة صغيرة عند نهر بنتس. وفيما يلي تأمل لباسيليوس عن حياة النسك والرهبنة:

«أي شيء أعظم من التشبه على الأرض بجوقة ملائكية، في طلعة الصبح تقوم للصلاة، وتمجيد الخالق بالإنشاد والتسبيح، ثم الذهاب إلى العمل في إشراقة الشمس الصافية، مصحوبين بالإبتهال والصلاة في كل مكان حيث نمزج العمل بالتسبيح كما الملح في الطعام؟ الخلوة الصافية هي بداية تطهير الروح لأن العقل إذا لم يضطرب من خارجه، وإذا لم ينقد ذاته في أحاسيس العالم، يرجع إلى نفسه ويرتفع إلى فكر الله».

(Quoted By Philip Schaff, History of the Christian Church, vol. III, p. 900)

تحفظات باسيليوس حول حياة الرهبنة:

على أي حال، كان باسيليوس ينتقد معيشة النسك في الرهبنة، كما يتبين من الاقتباس التالي لأقواله:

«حين يعيش الإنسان منفردًا فإنه ينشد خلاص نفسه فقط، وهذا ضد ناموس المحبة... لا أحد يصحح أخطاءه... الله خلقنا، كأجزاء الجسم المختلفة يحتاج كل منا إلى معونة الآخر... ومن يعش لنفسه قد يكون لديه موهبة ثمينة، لكنه يدفنها. وكل من يقرأ الإنجيل (مت ٢٥: ٢٥و ٢٦) يعرف خطورة هذا الفعل. فالناس في المجتمع يتشاركون معًا في المواهب... وكيف يكون أي إنسان متواضعًا، شفوقًا أو صبورًا ما لم يكن هناك إنسان آخر؟ أقدام من تغسل؟ لمن تقدم الخدمة؟ كيف تكون أصغر الجميع إذا كنت وحدك؟

(Quted by John Foster, Church History I The First Advance p. 151)

انتخاب باسيليوس أسقفًا لقيصرية:

من المفيد أن نلاحظ أن باسيليوس مع إعجابه

بحياة الرهبنة، وجد نفسه غير ملائم لها فقد قال لصديقه غريغوريوس، «إنني نفسي معذبًا بنفس القلق في كل مكان حتى إنني في الحقيقة لم أنل أي عون أو مساعدة من هذة العزلة، وإذ عرف الأسقف يوسابيوس، بمواهب باسيليوس العديدة، دعاه سنة ٣٦٤م لمعاونته في النضال ضد الأريوسية. وفي سنة ٣٧٠م، انتخب أسقفًا لقيصرية، ودخل بنشاط في الصراع اللاهوتي حفاظًا على قانون نيقية. كما شرع أيضًا في إصلاح الأسقفية نفسها، وأعاد نظام الرسامة كما عين الأساقفة في المناطق المحتاجة. وأنشأ باسيليوس الأديرة والمستشفيات والمصانع للمعوزين. وقد كثرت المباني من هذا النوع حول كنيسته حتى أطلق عليها اسم «المدينة الجديدة». وكان لباسيليوس آراء متطرفة عن كيف ينبغي على الأغنياء أن يستخدموا أموالهم لمساعدة الفقراء. إن موعظته عن الربا الفاحش يذكرها البعض كفكر رائد للفكر الاشتراكي الحديث.

باسيليوس يخدم الفقراء:

فيما يلي اقتباس من كلمة لصديقه غريغوريوس النازينزي:

«لقد أقنع باسيليوس الأغنياء بالفعل أن يكنزوا لهم كنزًا في السماء. هنا نجد يتعامل مع الكوارث والمرض.... لن ترى بعد ذلك البرص، المنبوذين، المذعورين، بدون رحمة، وأشباه الموتى، ينشدون أغانيهم الحزينة أن تبقى لديهم صوت للغناء.

لقد استقبلهم باسيليوس وحياهم كإخوة... لم يهتم الأسقف بوسائل الترف مثل الطباخين، والأعياد، والعربات، والثياب الفضفاضة بل اهتم بالفقراء واهتم باقتفاء أثر المسيح في شفاء وتطهير البرص، ليس بالكلام عنه، بل بالفعل».

(QUTED BY JOHN FOSTER CHURCH HISTORY I, THE FIRST ADVANCE p, 152)

باسيليوس يجيب على فالينز:

سرعان ما واجه باسيليوس المتعاعب مع فالينز الإمبراطور الأريوسي الذي أراد أن يعين أساقفة أريوسيين في العواصم الكبرى، في أنطاكية والقسطنطينية. أما غير الأريوسيين الذين قاوموا، فهددهم فالينز بمصادرة الممتلكات والنفي والموت. فكتب باسيليوس يرد عليه قائلاً: «ليس أكثر من هذا فلن يمسني أي أمر من هذه الأمور. فمن لا يملك شيئاً لا تصادر ممتلكاته، ولست أخشى النفي لأنني لست محصورًا بمكان فأنا ضيف لدى الله الذي له كل الأرض، أما عن الاستشهاد فأنا لست أهلاً له، لكن الموت ربح لي، لأنه ينقلني بطريقة أسرع إلى الله الذي أحبه وإليه أتوجه. كما أنني أيضًا شبه ميت بالفعل، ومنذ مده طويلة أراني مسرعًا إلى القبر».

فالينز يحترم باسيليوس:

وجاء فالينز إلى كبادوكية وقابل باسيليوس فتأثر أولاً ببلاغته الأسقف. وثانيًا صلى باسيليوس من أجل ابن الإمبراطور المريض البالغ من العمر ست سنوات وشفي الصبي (ولو أنه مات في وقت لاحق). وانطلاقًا من الاحترام والعرفان بالجميل طرح الإمبراطور تهديداته جانبًا فيما يختص بالأسقف باسيليوس.

باسيليوس يحاول الحصول على مساعدة روما

عندما أصبح باسيليوس أسقفًا لقيصرية، ابتهج لذلك أثناسيوس الذي دعاه «خادمًا أمينًا

لله». ولو قدر لأثناسيوس أن يحيا مدة أطول، ربما كان أنجز الكثير هو وباسيليوس معًا. وكان باسيليوس يسعى لطلب مساعدة أثناسيوس في منازعته اللاهوتيه والكنيسة المختلفة كما كان يعلم أن الأسقف السكندري كان على صلة قوية بروما. وكان باسيليوس يأمل أن يتدخل أثناسيوس لدى البابا دماسيوس لتحسين المعاملة للأرثوذكس في الشرق، وأيضًا لإنهاء الانقسامات في أنطاكية حيث بلغ فيها في أحد الأوقات عدد الأحزاب المختلفة المتنازعة على الأسقفية خمسة أحزاب. لكن هذه الجهود فشلت ليس فقط بسبب موت أثناسيوس لكن أيضًا لأن دماسيوس أسقف روما لم يكن يهتم بالمساعدة أو يميل إلى ذلك. ربما لم يكن يرد أن يسبب متاعب في الإمبراطورية الشرقية حين كان فالنتينيان الإمبراطور الغربي في سلام مع الكنيسة.

أعداء الروح القدس:

ومن بين الصعوبات التي واجهها باسيليوس ما لاقاه من معارضي الرأي القائل أن الروح القدس من نفس جوهر الآب والابن. فقد كان باسيليوس يؤمن تمامًا بأن الروح القدس أقنوم مساو للآب والابن، أما الفريق الآخر بقيادة كفيل سابق لباسيليوس يدعى يوساثيوس فيتمسك بأن الروح القدس كان كائن مخلوق، أقل من الآب والابن. وقد عرف إقرار هذه الجماعة باسم Pneumatomachi نيوماتوماخي «أي أعداء الروح» كما كانوا يعرفون أيضًا باسم «Macedonians» المقدونيين على اسم أحد قادتهم.

ولم تحل هذه القضية إلا في مجمع القسطنطينية في سنة ٣٨١ فقط.

تعليم أبوليناريس APOLLINARIS:

سعيًا - مرة أخرى، وراء التعاون مع الكنيسة الغربية، أرسل باسيليوس شماسًا من أنطاكية هو دوروثيوس إلى روما لإقناع دماسوس للاتحاد معها ضد الـ «نيوماتوماخي»، وضد أتباع أبوليناريس[١]. The Apollinarians». وكان أيضًا يشجع ميليتيوس Meletius» المرشح الأرثوذكسي لكرسي أنطاكية. ومع أن البابا دماسيوس كان متفقًا بصفة عامة مع الفكر اللاهوتي للكبادوكيين إلا أنه فشل في اتخاذ خطوة إيجابية. إن تصرف الكنيسة الغربية كان - في أفضل الحالات - عدم مبالاة، وفي أسوأها عجرفة.

ب- غريغوريوس النازينزي NAZIANZUS:

غريغوريوس أسقف نازيانزوس:

إن حياة غريغوريوس توازي بوجه التقريب حياة باسيليوس. كان لوالدته نونّا Nonna تأثير قوي عليه، وبالإضافة إلى تعليمه في قيصرية وأثينا، نال قسطًا وافرًا من الخبرة في الإسكندرية. كان غريغوريوس متأثرًا بشدة بأثناسيوس، كما تأثر أيضًا بمدير مدرسة التعليم الجدلي بالإسكندرية وهو ديديموس الضرير[٢] BLIND DIDYMUS عند عودته إلى نازينزوس، ترك غريغوريوس كل الملذات العادية مكتفيًا بأكل الخبز والملح فقط مع شرب

(١) الأبولينارية مذهب نشأ مبدعه أبوليناريوس من مدرسة الإسكندرية لتعليم عقيدة المسيح واتجه هذا المذهب إلى التأكيد على ألوهية المسيح فوق ناسوته.

(٢) مع أن ديديموس كان ضريرًا إلا أنه تعلم البلاغة والفلسفة والرياضة. وحفظ العهد القديم والعهد الجديد عن ظهر قلب. كان يجل أوريجانوس ويحترمه جدًا كما كان مدافع أمينًا عن قانون نيقية وكان ديديموس مقربًا جدًا إلى أنطونيوس وغيره من الرهبان. ألف ثلاثة كتب عن الثالوث وكان روفينوس «Rufinus» و جيروم «Jerome» من بين تلاميذه العديدين.

الماء فقط. نام على الأرض. ليس عباءة خشنة. وطبقًا لما قاله. «فإن العمل يستغرق النهار أما الصلاة والتسبيح والتأملات المقدسة فتستغرق الليل». وقد قبل رسامته أسقفًا في سنة ٣٦١م. مضطرًا.

اشتهار غريغوريوس في القسطنطينية:

عندما حاول باسيليوس صديق غريغوريوس أن يقيم أساقفة أرثوذكس على امتداد كبادوكيا عين غريغوريوس في مدينة بعيدة غير هامة. غير أن غريغوريوس لم يعيش أبدًا هناك بل إنسحب إلى بيته. وفي سنة ٣٧٩م قبل رعاية كنيسة صغيرة في القسطنطينية. وبلباسه الحقير ومظهره البائس ترك انطباعًا سيئًا لدى علية القوم والأرستقراطيين في المدينة. لكن عندما فتح فاه ليعظ نال إعجابهم بسهولة بل حتى الوثنيين احتشدوا ليسمعوه. وفي إحدى المرات هاجم الغوغاء الأريوسيون الكنيسة ودنسوها. وعندما دعى غريغوريوس لسماع أقواله رسميًا. تكلم بطريقة رائعة ضاعفت من شهرته. وقد دعيت الكنيسة الصغيرة التي خدم فيها كنيسة «إنستاسيا» أي القيامة.

غريغوريوس يصبح أسقفًا للقسطنطينية:

جاءته الفرصة في سنة ٣٨١م ليصبح أسقفًا للقسطنطينية وقد عينه الإمبراطور فعليًا وخدم فترة قصيرة. لكن الأساقفة الآخرين جادلوا حول اختياره وذلك بدافع من الغيرة والحسد. وأخيرًا انسحب غريغوريوس مشمئزًا وهو يقول: «سأكون يونان الثاني». أضع نفسي لخلاص سفينتنا (الكنيسة) «ولو أنني برئ من العاصفة لتقع القرعة عليّ ولتطرحوني في البحر». كان غريغوريوس يلقب «بالإلهي» و«اللاهوتي» من أجل أحاديثه ومحاضراته ضد الأريوسيين. لكن أفضل ما يبقى لذكراه مواهبه الخطابية التي هدت القسطنطينية إلى صحة العقيدة.

ج- غريغوريوس النيسي

غريغوريوس النيصي (النيسي):

كان غريغوريوس أخو باسيليوس. إنسانًا خجولاً هادئًا يركز على الدراسات اللاهوتية. لم ينشغل بالعمل السياسي مثلما فعل باسيليوس. لكنه اكتسب صيتًا يستحقه ككاتب. وفي أثناء إنعقاد مجمع القسطنطينية سنة (٣٨١ - ٣٨٢م.) أرسل على رأس بعثة إلى أورشاليم لإقامة السلام. لكنه رجع بدون نجاح يذكر. وإذ تأثر بشدة بتعاليم أوريجانوس فإنه أخضع الفلسفة اليونانية الهيلينية لخدمة الحق المسيحي. وكان أول لاهوتي يوضح علاقة جسد المسيح وممارسة (الأفخارستيا). كما كان في تأييده وتدعيمه لقانون نيقية. أعظم معين في التمييز بين Ousio ومعناها الجوهر = essence. و hypostasis = person ومعناها الأقنوم. وقد مات غريغوريوس في سنة ٣٩٥م.

انتشار علم اللاهوت:

كان غريغوريوس النيصي (النيساوي) هو الذي لاحظ كيف استولى علم اللاهوت على انتباه عامة الشعب. فكل إنسان مهتم بالمسائل الدينية ويستعلم عنها. وقد كتب غريغوريوس من القسطنطينية يقول:

«في هذه المدينة. إذا سألت أي شخص عن تغيير العملة. ناقشك عما إذا كان الابن مولودًا أو غير مولود. وإذا سألت عن جودة الخبز. أجابك

ان الآب أعظم والابن أقل. فإذا اقترحت ضرورة الاستحمام، أخبرك أنه لم يكن هناك شئ قبل خلق الابن».

الكبادوكيون وقانون الإيمان النيقوي:

بفضل هؤلاء الآباء الثلاثة العظام من الكنيسة الشرقية صار الطريق ممهدًا للحفاظ على قانون إيمان نيقية وقد تأكد مكان الروح القدس وأنه مساو للآب والابن. وإذا كان الكابادوكيون قد اختلفوا مع أثناسيوس، فلقد كان الخلاف مسألة تنبير أكثر منه خلافًا على الموضوع. وإذ كان الكابادوكيين قد تثقفوا بمعرفة الفلسفة الهيلينية وتعليم أوريجانوس، فإنهم اتجهوا إلى البدء بالأقانيم الثلاثة للثالوث ثم تدرجوا إلى «ousia» (الجوهر). وكان اللغز عندهم هو الوحدانية، فكيف يكون الثلاثة واحدا؟ أما أثناسيوس فبدأ بالوحدانية ثم تدرج إلى الأقانيم الثلاثة. وكان اللغز عنده في الثالوث، فكيف يكون الواحد ثلاثة؟ وانطلاقًا من هذه المداخل المختلفة للموضوع أمكن التوصل إلى تفهم الموضوع بصورة جوهرية، فإنه في الثالوث كل ما كان مشتركًا بين الآب والابن والروح القدس ينبغي أن يسمى «جوهر» = ousia، وما كان خصوصيًا لكل واحد منهم يجب أن يشار إليه بعبارة «أقنوم» = hypostasis.

الكابادوكيون يتأملون الطبيعة:

إحدى الصفات الجذابة لدى الكابادوكيين الثلاثة لاحظها المؤرخ فيليب سكاف philip schaff، هي أنهم كانوا ذوي إحساس بعالم الطبيعة من حولهم. وقد اعتبر سقراط الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، أنه ليس هناك ما يمكن أن نتعلمه من الطبيعة، ولذلك لم يكن يتريض أبدًا سيرًا على قدميه. وبلا شك أن اتخاذ الوثنية لمعظم وحيها من قوات الطبيعة الفجة والضارية، قد جعلت الكتّاب المسيحيين مثل ترتليانوس يتجنبون الموضوع كله. لكن الكبادوكيين رأوا في جمال العالم الطبيعي صنعة يد الله. وفيما يلي نماذج مما كتبوا عنها: باسيليوس: «النجوم، الزهور الخالدة في السماء، رفعت روح الإنسان من المنظور إلى غير المنظور».

غريغوريوس النازينزي «كل الأشياء تسبح بحمد الله وتمجده بأنغام لا ينطق بها، ومن أجل كل شيء أقدم أنا أيضًا شكري لله، وهكذا تسبحه هذه المخلوقات، التي أنطق هنا بأغنية تسبيحها لله وهي أيضًا لنا «غريغوريوس النيصي يقول: «عندما أرى كل حافة صخرية، كل واد كل سهل معشب بالعشب والنبت الجديد... جمال الأشجار [illegible] عند قدمي... الروائح الذكية والألوان [illegible] عندما أتأمل البحر في عمقه.. إلخ. إن من ينظر هذا كله متأملاً بمنظاره الروحي، يشعر كم هو ضئيل – الإنسان في هذا الكون العظيم»

schaff, philip. history of the christian church vol. iii. pp. 897, 898.

٢– ثيودوسيوس ومجمع القسطنطينية

المسيحية، الديانة الوحيدة للإمبراطورية:

بموت فالينز في سنة ٣٧٨م تغيرت الظروف جذريًا في الإمبراطورية والكنيسة. وقد جلس ابن أخيه جراتيان على عرش الغرب محل فالنتنيان الذي مات في سنة ٣٧٥م، وقام جراتيان بتعيين ثيودوسيوس إمبراطورًا للشرق، وكان جراتيان وثيودوسيوس كلاهما متعاطفين تمامًا مع مؤيدي

نيقية في الكنيسة. وقد قام ثيودوسيوس - إثباتًا أنه الأكثر حسمًا. بنشر مرسوم في سنة ٣٨٠م بموافقة جراتيان. ثبت بموجبه المسيحية دينًا للإمبراطورية.

مرسوم ثيودوسيوس:

«نحن الأباطرة نريد أن يتمسك كل رعايانا تمسكًا راسخًا بالديانة التي علمها القديس بطرس للرومان. التي حفظها لنا التقليد بأمانة. والتي يعترف بها الآن الحبر الأعظم دماسوس أسقف روما. وبطرس أسقف الأسكندرية. ورجل القداسة الرسولية. فنحن حسب تأسيس الرسل وتعليم الإنجيل نؤمن بالله الواحد: الآب والابن والروح القدس. وأنهم متساوون في الثالوث الأقدس. ونأمر بأن يدعى المعتنقون لهذا الإيمان «مسيحيين كاثوليك». كما أننا نصم كل منعدمي الشعور أتباع الديانات الأخرى باسم شائن كهراطقة. ونمنع جمعياتهم السرية من إنتحال اسم كنائس. وعلاوة على دينونة العدل الإلهي يجب أن يتوقعوا أشد العقوبات التي ترى سلطاتنا فرضها بالحق. تحت إرشاد الحكمة السماوية

(Codex Theodosianis XXI: 1,2.)

قوانين لحماية المسيحية:

وبعد ذلك أصدر ثيودوسيوس مجموعة من القوانين وضعت لحماية وتقوية وضع الكنيسة في الإمبراطورية. وهذا الإجراء يضعه «د. ألارد»

D. Allard, Le Christianisme, Tianisme Et L'Empire Romain pp. 263, 264 منع ثيودوسيوس استدعاء الأسقف كشاهد. ولم يسمح بمحاكمة جنائية ولا عقوبة بدنية أثناء الصوم الكبير. وأدرج يوم الفصح ويوم الأحد ضمن الأجازات الشعبية العامة وحظر على اليهود شراء عبيد مسيحيين. ولم يسمح بالألعاب في أيام الآحاد - ولوائح أخرى كثيرة مشابهة... بعد ذلك من سنة ٣٨١ - ٣٩٤م صدرت قوانين ضد الهراطقة وهم بالتحديد الأريوسيين. اليونوميين. المانويين. المكدونيين (ضد الروح القدس). الأبوليناريين, Arians, Eunomians, Manchaeans, Macedonians Pneumatomachi, Apollinarians مصادرًا كنائسهم ومسلمًا مبانيهم للكاثوليك (أي كما كانت تعرف الكنيسة في الغرب). فارضًا الحظر على اجتماعاتهم. طاردًا إلى المنفى أساقفتهم وكهنتهم. ومصادرًا كل الأماكن التي كانوا يقيمون فيها مراسمهم وشعائرهم. ويصفه هودجكين Hodgkin كما يلي:

«كان التشريع الذي أصدره ثيودوسيوس ناجحًا للغاية في قمع كل التعاليم المناهضة لقانون نيقية. وكان للانتصار المكتسب على هذا النحو. تأثيره الهائل على مصائر وأقدار الإمبراطورية. والمسيحية. وأوروبا الحديثة».

(Hodgkin, Italy and her Invaders, vol. 1,6)

مجمع القسطنطينية المسكوني:

ثم دعا ثيودوسيوس إلى عقد مجمع في القسطنطينية في سنة ٣٨١م وهو ما يعرف الآن بالمجمع المسكوني الثاني بعد نيقية[٣]. ومن بين القرارات الهامة لهذا المجمع:

١ - تقرر أن تعتبر الأريوسية مناقضة للقانون

(٣) يحتفل بذكرى مجمع القسطنطينية في خدمة القداس القبطي ٨ فبراير.

الروماني.

٢ – أسقف القسطنطينية يلي أسقف روما مرتبة لأن القسطنطينية هي روما الجديدة (هذا القرار ضايق الإسكندريين لأنه وضعهم في المركز الثالث بعد روما والقسطنطينية).

٣ – إدانة مذهب الأبولينارية.

٤ – أعلن أن الإيمان النيقوي هو قانون الإمبراطورية.

«فيليوك Filio Que»

كانت الإضافة الهامة لقانون إيمان نيقية، هي أكمل وصف لمكانة الروح القدس:

«هو الرب وواهب الحياة، وأنه ينبثق من الآب، وأنه له السجود والتمجيد مع الآب والابن، وأنه قد تكلم بالأنبياء». لاحظ أنه في قانون الإيمان المستخدم في الكنائس الغربية تأتي العبارة الموضوع تحتها خط أعلاه، بهذه الصيغة، «إنه ينبثق والابن» هذه هي الصيغة «فيليوك» (ومعناه والابن أيضًا) وهي الصيغة التي قدرلها أن تصبح هكذا نقطة جدل ونقاش بين الكنائس الشرقية والغربية إبتداء من القرن الثامن الميلادي.

قانون ايمان نيقية:

يجب ملاحظة أن القانون الذي يسمى الآن قانون القسطنطينية ليس هو القانون الذي نتج عن ذلك المجمع في سنة ٣٨١ – ٣٨٢م. فلم يذكر ذلك القانون بهذه الصفة، قبل سنة ٤٥١م. في الخلقيدون وهو عمليًا أقرب ما يكون إلى الاعتراف الذي يتلى عند الاعتماد في الكنيسة في أورشاليم، والذي انتشر استعماله عامة حوالي سنة ٥٠٠م. بعد الميلاد باعتباره القانون النيقوي.

Recommended English Readings

1 – Boer, H. R. ***A Short History Of The Early Church***, Eerdmans GrandRapids, 1976, p. 118

2 – Chadwick Henry, ***The Early Church***, pp. 145 – 151.

3 – Frend, W. H. C ***The Early Church***, pp. 180 – 189.

4 – Jackson, F. J. F. ***History Of The Christian Church to A.D. 461***, PP. 375 – 404.

5 – Latourette K. S. A ***History Of Christianity***, pp. 160 – 164.

6 – Mcgiffert, A. C. ***A History Of Christian Thought, Vol, I.*** pp. 267 – 275.

7 – Schaff, Philip, ***History Of The Christian Church, Vol III.*** pp, 893 – 922.

8 – Walker, Williston, ***A History Of The Christian Church***, pp. 115 – 119.



الفصل الخامس
الكنيسة المسيحية والإمبراطورية
في نهاية القرن الرابع الميلادي



قرن حرج للكنيسة:

لقد أسفرت الحقبة من قسطنطين حتى ثيودوسيوس عن تغيير جذري للكنيسة المسيحية أكثر من أي حقبة أخرى. لأنه إذ بينما أقدم الأباطرة على مساعدة الكنيسة ورعايتها وحمايتها والتدخل في شئونها واستغلالها، استجابت الكنيسة، بالتالي لمركزها الجديد وقوتها الجديدة. وقد وصفة فوكس جاكسون Foakas Jackson كما يلي: «إن القرن الذي شهد إنتصار الشهداء، واستقرار وتوطيد قانون العالم المسيحي، وبدايات الرهبنة، واكتشاف الأماكن المقدسة في أورشاليم، وسقوط الوثنية، وأول تأسيس للقوة البابوية، هذا القرن يصعب أن يكون تاليًا في الأهمية لأي قرن آخر من الزمان سوى ذلك القرن الذي ظهر فيه مؤسس المسيحية على الأرض». (THE HISTORY OF THE CHRISTIAN CHURCH FROM THE EARLIEST TIMES TO AD 461, p. 433).

وسنتناول في هذا القسم الآثار البعيدة المدى على الكنيسة والدولة عندما تواءما معًا في العلاقة الجديدة بينهما.

الفرق بين الشرق والغرب:

لقد ظلت كنيسة القرن الرابع ترى في نفسها كنيسة وحيدة ضد المنشقين والهراطقة والوثنيين، ومع ذلك فالفروق بين الكنيسة اليونانية الشرقية واللاتينية الغربية، أصبحت أوضح. وقد كتب هنري مارو Henri Marrou عن هذا المجلد الأول من كتابه The Christian Centuries, p.334. صار نصفا العالم المسيحي أكثر تميزًا خلال القرنين الرابع والخامس. فالوحدة الرومانية المميزة للعصور القديمة حل مكانها الإنقسام بين الشرق البيزنطي والعصور اللاتينية الوسطى. فإن اللاهوتيين لم ينهمكوا في واجبات مختلفة وحسب بل الحياة المسيحية كلها أصبحت مختلفة: المؤسسات الكنسية، خدمة القداس، قدوة الرهبنة، مكان المسيحية في الحياة اليومية. ففي كل مجال برزت الفروق».

المسيحيون يزدادون عددًا:

زاد عدد المسيحيين مع انعدام تهديد الاضطهاد زيادة كبرى في كل طبقات المجتمع. فالكثيرون من

كانوا مقربين إلى المسيحيين مارسوا الآن ديانتهم جهارًا. ومع أنه لم يتم في تلك الأيام حصر عدد الأعضاء بدقة إلا أنه يمكن تخيل مقدار الزيادة في عدد الأعضاء من الزيادة في عدد القائمين بالأعمال في الكنيسة والموظفين في شمال إيطاليا مثلاً كان هناك خمس أو ست أسقفيات في سنة ٣٠٠م. صارت خمسين أسقفية مع حلول عام ٤٠٠م وفي الغال سنة ٣١٤م كان عدد الإيبرشيات ٢٢ فاصبح في سنة ٤٠٠م سبعين أسقفية.

١- إدارة الكنيسة

النظام الإداري للكنيسة:

انتظم البناء الكنسي بطريقة أكثر فاعلية تحت إشراف المطارنة، والأساقفة، والكهنة، والشمامسة، والقارئين، والمساعدين.... إلخ. ولا ننسى أن الإمبراطور يوليانوس كان يحسد الكنيسة على نظامها الإداري. أخذ هذا النظام عمليًا عن الإدارة المدنية للإمبراطورية. كان هناك اثنتا عشرة أسقفية. وتنقسم كل أسقفية إلى إيبراشية وكل إيبارشية إلى دوائر. وقد اشتقت كلمة إكليروس Clergry (التي تطلق على الكهنة) من كلمة يونانية بمعنى كاتب أو موظف. أما كلمة دياكون بمعنى شماس أو خادم فمأخوذة من لقب ضابط الجيش المشرف على فرقة من عشرة جنود. والكنيسة الرومانية الكاثوليكية تعتبر الكاهن اليوم راعيًا لإيبراشية خوري. وكان في العصور الرومانية موظفًا عموميًا ويطلق عليه البلاط البابوي للفاتيكان الـ «كيوريا The Curia اسم مأخوذ من الأقسام العشرة للقبائل الثلاث الرومانية القديمة وهلم جرًا.

القوة المتزايدة للمطارنة ولروما:

تعد القوة المتزايدة للأسقفية، أهم التطورات في هذه الفترة. وقد كتب كبريانوس في القرن الثالث، قائلاً: «تستقر وحدة الكنيسة في اتفاق رأي الأسقفية الجماعية».

كان المطران في القرن الرابع هو الذي يحكم[1]. بمعنى المدينة الأم ولم يكن مسموحًا للأسقف أن يقوم بعمل «غير عادي» بدون موافقة المطران. لقد لاحظنا الميل إلى استثمار الكراسي الرئيسية بسلطة عليا كما في بطريركيات روما والقسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية وأورشاليم. لقد إتخذ بابا روما لنفسه ضمنًا وفعلاً السلطة الأخيرة، مع أن هذا لم يلق دائمًا الإحترام من كراسي الأسقفيات الأخرى.

العلمانيون والإكليروس في القرن الثاني:

يجب أن نذكر أيضًا كلمة عن الوضع المتغير للعلمانيين «Laity» «Laikos» فخلال القرنين الأول والثاني عندما كانت الكنيسة صغيرة ومضطهدة، كانت الرابطة بين العلمانيين والإكليروس قريبة جدًا. فكانت كما وصفها ترتليانوس «مجمع ذو شعور ديني مشترك، وحدة نظام ورباط رجاء (Apology 39: 1) «حيثما اجتمع ثلاثة فهناك كنيسة ولو كانوا علمانيين» De Exhortations Castitatis وكان شعب الكنيسة يجتمع «ليقرأ أسفار الله» ثم يقف كل واحد أمام الباقين بما لديه من معرفة بالكتب المقدسة أو من قلبه شخصيًا ليرنم لله» (Apology 39: 3,8)

(١) كان المطران أسقفًا أعلى على عدد من الإبرشيات في مدينة كبرى. الكلمة جاءت من اليونانية.

الإكليروس يتولون أعمال العلمانيين في القرن الثالث:

في القرن الثالث، عندما أخذت العضوية في الزيادة تجمعت السلطة في أيدي الإكليروس. فزادت أنواع وظائف الرتب الصغيرة في الكنائس، (وكلاء شمامسة، مساعدون وغيرهم) فأخذوا أعمالاً كانت تؤدي بمعرفة العلمانيين. أثناء الاضطهادات نال كثيرون من الشهداء العلمانيين التكريم كقديسين، أما من إمتد بهم العمر بعد الاضطهاد فكرموهم كمعترفين. ونلاحظ أن الإكليروس تحركوا الآن لتقييد هذا الاتجاه العام بإصدار الأمر بأن الشهداء المعتمدين من السلطة الكنسية هم فقط الذين يحتفل بذكراهم سهرات الأعياد خارج السجون التي وضع فيها المعترفون العلمانيون، قاومها «كايسليان Caecilian رئيس شمامسة قرطاجنة – بشدة.

انفصال العلمانيين عن الأكليروس بعد مرسوم ميلان:

بعد مرسوم ميلان في سنة ٣١٣م وبنهاية الاضطهادات انخفضت فرصة المعاناة من أجل الإيمان بالنسبة للعلمانين والإكليروس على السواء. أكد البعض أن هذا الظرف، مقترنًا مع السلطة المتزايدة للإكليروس، كان سببًا رئيسيًا في جعل الكثيرين من العلمانيين يبحثون عن الاستشهاد الأبيض بالمعيشة في الأديرة. وكشف الآن الإكليروس بوضوح مركز العلمانيين في الوثيقة المعروفة «بالدساتير الرسولية (٢: ١٦، ٢١) على العلماني أن يكرم الراعي الصالح (الأسقف)، ويحترمه كأب وسيد ورئيس، كرئيس كهنة الله الأعظم وكقدوة في التقوى... فمن يستمع إلى الأسقف يستمع إلى المسيح». وفي الكثير من الكنائس الجديدة، أقيم فاصل من الحجارة بين المذبح وباقي الكنيسة والكاهن فقط مسموح له بالدخول إلى المذبح. وكان على العلمانيين أن يجلسوا «بهدوء ولياقة» في أماكنهم.

قيام العلمانيين بالأسرار المقدسة بشروط معينة:

وما الاستثناءات من هذه السياسة سوى تأكيد لمقدار ما حدث من تغيير. ففي حالة الضرورة القصوى إن لم يوجد أحد من الإكليروس، يمكن لأحد العلمانيين أن يقوم بفريضة العماد. وعندما كان فالينز الإمبراطور الأريوسي يضطهد مستقيمي العقيدة (الأرثوذكس). صرح باسيليوس أسقف قيصرية للعلمانيين أن يداوموا على ممارسة العشاء الرباني في البيت ويتناولوه معًا بأنفسهم. ويبدو أنه كانت هناك مناسبات كان يسمح فيها للعلمانيين أن يقوموا بخدمة الوعظ، لأن «ليو» بابا روما في نصف القرن الخامس اضطر إلى أن يذكر الكنيسة بأن هذا أمر محظور.

العلمانيون ينتخبون الأساقفة:

إن أحد الحقوق الهامة المحفوظة للعلمانيين هو حق انتخاب أساقفتهم. ويقال إن إنتخاب «كاسيليان CAESCILIAN» في قرطاجنة في سنة ٣١٢م تم بالاقتراع من عامة الشعب كله واشتملت رسالة مجمع نيقية (سنة ٣٢٥م.) على اشتراط انتخاب شعب الإسكندرية أساقفة خلفاء لمن ماتوا. وهذا يتوقف طبعًا على تصديق الأسقف القائم بالإدارة أي المطران. في سنة ٣٧٤م. انتخب أمبروسيوس AMBROSE أسقفًا لميلان يأخذ أصوات الشعب كما نقرأ أيضًا عن علمانيين كانوا حاضرين في بعض مجامع الكنيسة. مع أنهم ربما لم يكن لهم حق التصويت.

شيوخ علمانيون للكنيسة:

ورد في كنيسة شمال أفريقيا ذكر SENIORS (شيوخ الشعب) الذين اختيروا ممثلين للشعب. كانوا مكلفين بأعمال إدارية وتنظيمية إلى جانب حسابات أموال الكنيسة. ويوجد سجل في الكنيسة الدوناتية عن بعض «الشيوخ» الذين احتفظوا في أوراقهم بشكوى ضد أسقفهم ويعزو بعض المؤرخين مصدر هذه الوظيفة إلى المجتمعات اليهودية كجماعات «قمران» حيث كانت الإدارة في أيدي ثلاثة كهنة واثني عشر علمانيًا.

محامون علمانيون للتعاون مع الأساقفة:

كما كان في الكنيسة الأفريقية أيضًا «محامون» كان عليهم أن يعملوا بالتعاون مع الأساقفة على منع ظلم الفقراء من الأغنياء. كذلك كانوا كمحامين يدافعون عن الكنيسة في القضايا التي تمس مصالح الكنيسة. كما كانت هناك في كنيسة روما وظيفة مشابهة هي وظيفة المدافع أو المحامي وهذا كان يعمل مشرفًا علمانيًا على الثروة الطائلة والعقارات الخاصة بكنيسة القديس بطرس في إيطاليا وصقلية وسردينيا وفي أماكن أخرى. وكانت واجباته تشمل الإشراف على المستوطنين مستأجري الأرض، وعلى إدارة إغاثة الفقراء التي تمولها المعونات البابوية. كما كان يشغل أيضًا وظيفة مستشار في مجالس الأساقفة. وبحلول القرن السادس إطّلع رجال الدين[٢] بمعظم هذه الوظائف.

التقويم المسيحي:

تحت حكم ثيودوسيوس صار التقويم الرسمي هو تقويم الكنيسة المسيحية وألغيت الأجازات الوثنية وصار الأحد هو يوم العطلة الرسمي القانوني وأصبح عيد الفصح القيامة من أهم أيام السنة، مسبوقًا بأربعين يومًا للصوم الكبير. ثم يجري الاحتفال لمدة أسبوعين بعد اليوم نفسه. وكانت الكنيسة الشرقية في القرن الرابع تحتفل بميلاد المسيح وعماده (عيد الغطاس الأبيفانيا) معًا في يومي ٥ و٦ يناير (٧ يناير في مصر). ثم انتقل عيد الغطاس فيما بعد إلى يوم ١٩ يناير كما يحتفل به اليوم. أما الكنيسة الغربية، من الناحية الأخرى فاتخذت عيد الإله الوثني ساتورن (زحل) Saturnalia، يوم ٢٥ ديسمبر واحتفلت فيه بعيد المسيح ومن هنا جاء الفرق في التواريخ. (لأجل مقال مفيد عن تاريخ الميلاد، انظر (الكنيسة الأولى) انظر (Cullman, Oscar, The Early Church p. 17)

٢- الأسرار المقدسة وحياة التكريس

تطور الأفخارستيا:

أصبحت عبادة الكنيسة أكثر تطورًا في هذه الحقبة، وإذ كان فكر الناس عن الكنيسة أنها نفسها جسد المسيح السري، نمت صور خدمة الليتورجية لتعضد هذه الفكرة «نظروا إلى الكنيسة كمجتمع أفخارستي تصان حياته

---

(٢) المادة في هذا القسم مأخوذة من فصل من تأليف
W.H.C. Frend, The Church of the Roman Empire (313- 600), pp. 57- 58 in the book, The Layman in Christian History, editors Neill and Weber, WCC, Westminster, Philadelphia, 1963.

بالمشاركة المستمرة والأمينة في الجسد والدم السريين الأقدسين للمسيح» Eric G. Jay,) (The Church, Atlanta 1978 John Knox p.8 كان المذبح داخل الكنيسة، يزداد بعدًا ويغطي أحيانًا بستارة أصبحت فيما بعد حجاب الأيقونات في الكنائس الشرقية. وكما وصفه يوحنا فم الذهب «Chrysostam» مائدة الرب، مكان الرعب والقشعريرة، يجب ألا تنظرها الأعين النجسة الشريرة. هذا هو السر الأعظم Mysterium Tremendum قدس الأقداس، الحقيقة المركزية لحياة الكنيسة[٣]. للمقبولين تمامًا في جسد المسيح.

المعمودية:

وكان ثاني أهم سر مقدس هو بالطبع العماد. وكان في العادة يتم للبالغين فقط أي الكبار. ولو أنه أحيانًا يقدّم لطفل يتوقعون ألا يعيش طويلاً. كان الكبار دائمًا ما يؤجلون العماد حتى اللحظات الأخيرة في حياتهم اعتقادًا منهم أنه مع الفرصة المحدودة لارتكاب الخطية يتأكد الخلاص (مثال ذلك كما نذكر هو قسطنطين). وكان الكهنة يفحصون بعناية فائقة المتقدمين للمعمودية، ثم يثقفوهم بالمعرفة العقائدية الشاملة. وكانت المراسم تتم عادة في عيد القيامة. وأيضًا في عيد الغطاس (الأبيفانيا) وعيد الميلاد. وكان في الكنائس أحواض تعميد كبيرة حيث يدخل فيها طالبوا العماد وليسكب عليهم الماء . لكن لا يتم تغطيسهم بالكامل). ثم يخرجونهم ويمسحونهم بالزيت ويلبسونهم أروابًا بيضاء حتى يرحب بهم شعب الكنيسة لكي يشتركوا في سر عشاء الرب.

التوبة:

كانت التوبة مطلبًا آخر له أهمية فكان على أعضاء الكنيسة الذين ارتكبوا أي تعد أو خطية أن يعترفوا بها علانية أما شعب الكنيسة ويعقب ذلك فرصة طويلة للتوبة تمتد أحيانًا لعدة سنوات، يراقب خلالها التائب عن كثب. فإذا إقتنعت الكنيسة أخيرًا بأنه تمم توبته، قبلته ثانية في احتفال مصالحة مهيب في يوم الخميس من الأسبوع المقدس (السابق لعيد القيامة).

صحة الأسرار المقدسة وقداسة الكنيسة الحقيقية:

في هذه الفتره تم توضيح طبيعية الكنيسة الحقيقية، كما تم فهم واستيعاب الأسرار المقدسة. قال أوبتاتوس «Optatus»: في حجته ضد «الدوناتيين»

١ – تستمد أسرار الكنيسة المقدسة صحتها وصلاحيتها – ليس من القائم بها – لكن من الله، فإن الخادم الحقيقي لكل الأسرار المقدسة هو يسوع المسيح (ولكي يبرهن على وجهة نظره أعلن استعداده لقبول السر المقدس على يد أحد الدوناتيين).

٢ – تعتمد قداسة الكنيسة – ليس على

(٣) الكلمة «mass» المستخدمة الآن في الكنيسة الكاثوليكية الغربية بمعنى القداس، جاءت من اللاتينية «Ite missa est» (أنتم معزولون). هذا ما كان يقوله الكاهن بعد الجزء الأول من العبادة ليخرج كل الأعضاء غير المشتركين في العشاء الرباني أما قداسة سر الإفخارستيا فمحفوظة للمقبولين تمامًا في جسد المسيح.

الأخلاق الأدبية لأعضائها – بل على هبات الله وعطاياه لها: قانون الإيمان، الأسفار المقدسة، الأسرار المقدسة، كرسي البطريرك.

٣ – علامات الكنيسة الحقيقية هي أنها جامعة[٤] وواحدة، وبما أن الدوناتيين لم يظهروا هذه الصفات، ولذلك فادعاؤهم أنهم هم الكنيسة الحقيقية باطل.

De Schism, Donat, I, 10, ii, 2, ...,3 Quoted by Jay, The Church p. 82

حياة التكريس السرية:

بتشجيع من الحركة الرهبانية، ظهر التأكيد على الحياة التكريسية الخاصة. وقد تميزت ممارسات التقوى والتكريس عند المسيحيين في هذه الفترة، وتقديم الصدقات وحرمان الإنسان نفسه من مباهج العالم، بل ويقال إن الناس كانوا يتخلون عن الترف الروماني في أخذ حمام ساخن. ولكي ينعزلوا تمامًا، كان الناس في أحيان كثيرة يدخلون الأديرة ويتبعون نفس حياة التقشف كما يحياها الرهبان.

تكريم القديسين والشهداء:

إن ممارسة تكريم القديسين والشهداء أمر إنتشر كثيرًا في هذه الفترة. فكان أفراد الشعب يزورون مقابر الشهداء ويقيمون هناك وليمة Refrigerium (حفلة مرطبات لأرواح الموتى) وكان هذا في الواقع تطبيقًا لعادة وثنية، وكثيرًا ما انتقدها آباء الكنيسة وأنشأوا بدلاً منها الإحتفال بالأفخارستيا في تذكار نياحة القديسين. وكان هذا بالطبع منشأ «أعياد القديسين الكثيرة التي يُحتفل بها في الكنائس القبطية الأرثوذكسية والكاثوليكية إلى يومنا هذا. وقد حاول الناس أن يُدفنوا بالقرب من الشهداء، لأنه من المنتظر أن يتشفعوا لهم في يوم الدينونة. كما شيدت الكنائس فوق وبالقرب من مقابر الشهداء. كما كان الناس يبحثون عن رفات الشهداء، ويجمعونها ويحفظونها مع عظام القديسين وبقايا ملابسهم والمسامير وأجزاء من الصليب. وكانت أجزاء من الرفات تنقل إلى الكنائس التي ليس بها رفات قديسين وشهداء. ولن ينسى أقباط مصر نقل رفات القديس مرقس في القرن التاسع إلى مدينة البندقية، ثم رجوعها في سنة ١٩٦٨. يقال إن رفات يوحنا المعمدان قد نقلت من الأراضي المقدسة إلى إيطاليا، ثم فرنسا، وأخيرًا إلى الإسكندرية.

زيارة الأماكن المقدسة:

أصبح الحج إلى المواقع المقدسة خصوصًا إلى الأرض المقدسة منتشرًا جدًا. كما كانت مصر أيضًا مكانًا مألوفًا للحج، ليس فقط إلى مزارات الشهداء، لكن أيضا للتشاور مع القديسين الأحياء في الصحراء، وتلقي البركة منهم. ومع أن القديس أنطونيوس لم يشجع هذه الفكرة، إلا أن كثيرين من الحجاج زاروه في حياته. ومن بين أشهر الشهداء: القديس مينا في مريوط غرب الإسكندرية. وطبقًا للقصة التي تروى للزائرين اليوم[٥]. وكان مينا جنديًا مسيحيًا في الجيش الروماني. فلما رفض أن

---

(٤) كلمة كاثوليكية معناها في الأصل شاملة أو جامعة.

(٥) رواية أخرى عن القديس مينا تختلف بعض الشيء تذكرها «إيريس حبيب المصري، في كتابها» قصة الأقباط، ص. ٨٤ The Story of the Copts, p.84 Note also Meinardus, Monks and Monastries of the Egyptian Desert. p. 351 الرهبان وأديرة الصحراء المصرية.

ينكر إيمانه أثناء اضطهادات دقلديانوس Diocletean قطعوا رأسه. فوضع أصدقاؤه وأسرته الجسد على جمل ورحلوا إلى الصحراء لدفنه. فوصل الجمل إلى نقطة معينة ورفض السير؟ أبعد منها، ولذلك دفنوا القديس هناك. في وقت لاحق حفرت هناك آبار عظيمة أخرجت ماء عذبًا. كان الحجاج من أوروبا يزورون الموقع ويأخذون معهم عينات من الماء في أنابيب صغيرة جدًا وعليها صورة جملين. وقد تم اكتشاف بعض هذه الأمبولات في أماكن متفرقة بعيدة في السودان وألمانيا وفرنسا. في وقت لاحق بنى الإمبراطور أركاديوس Arcadius (سنة ٣٩٥ – ٤٠٨م) كاتدرائية فوق الموقع، مازالت أطلالها باقية يشاهدها الزائر. و«مارمينا» اليوم موقع مألوف يحج إليه المصريون. وهناك دير يتسم بالنشاط حيث أقيمت كاتدرائية حديثة صارت مقر الراحة الأخيرة للبابا كيرلس السادس الذي توفي في مارس سنة ١٩٧١.

٣- الأخلاق المسيحية

المسيحية تهذب الأخلاق في الإمبراطورية:

عندما تطلع المؤرخون وراء ممارسات الكنيسة المباشرة، لاحظوا تأثير الأخلاق المسيحية على المجتمع الأكبر. فلقد أدخلت الكنيسة مفهوم الشخص الفرد كمن له قيمة خالدة وكموضوع محبة الله الرحيم. كلمات المبشرين المسيحين ضد الرياضة الدموية في الملاعب وضد التعذيب، والمناداة بالعناية بالفقراء إنما كانت بمثابة الرسائل المسموعة في مراكز القوة. بموجب أوامر الإمبراطور أصبحت معارك المصارعين الدموية المميتة محظورة – وصار وأد الأطفال جريمة، ووصلت المعاملة الإنسانية إلى داخل السجون وصار ترك السجين يموت من الإهمال يعتبر ذنبًا. كما أصدر أمر بوجوب استحمام المسجونين إسبوعيًا، بصرف النظر عن جرائمهم.

العطف المسيحي على المرضى والجياع:

فضلاً عن ذلك فإن الكنيسة نفسها كانت نشطة في أعمال الرحمة. وقد لاحظنا المشاريع المختلفة لباسيليوس أسقف قيصرية أما كنيسة الإسكندرية فاستخدمت «خمسمائة ممرض» للعناية بالمرضى. وقد أسست سيدة رومانية تدعى فابيولا أول مستشفى في تلك المدينة. ويخبرنا جيروم أن أحد أعضاء مجلس الشيوخ الروماني تأثر بحالة الشعب لدرجة أنه استضاف كل فقراء روما فدعاهم إلى وليمة في كنيسة القديس بطرس حيث ملأوا البازيليكا (الكنيسة) العظيمة، والمدخل والفناء الخارجي. وواضح أن الطعام كان كافيًا. ومع أن الإمبراطورية كانت تعيش آخر سنواتها المخزية، إلا أن ضمير الكنيسة وعطفها ومحبتها استبقت الاهتمام البسيط برخاء الإنسان. وقد استمر الكثير من الأعمال البربرية الهمجية القديمة، لكن الكنيسة كخميرة مصلحة حولت حياة الكثيرين من الأنانية إلى الخدمة.

٤- الكنيسة والبريسكليانيون

The Priscillians

تصرف الكنيسة مع البريسكليانيين:

يجب أن نعود الآن إلى جوانب معينة من حياة الكنيسة أقل إبهارًا. وبادئ ذي بدء نلاحظ الصعوبات المستمرة مع الأريوسيين والدوناتيين. وكانت العقيدة الأريوسية في إنحدار بعد مجمع القسطنطينية (سنة ٣٨١ – ٣٨٢م) ولو أنها بقيت قوية بين بعض البربر المتنصرين في أوروبا،

أما الدوناتيون فكانوا معزولين إلى حد ما في شمال إفريقيا. وهناك حالة قهر وحشية لفئة منفصلة في أسبانيا معروفة بالبريسكليانيين. كان «برسكليان» سنة ٣٧٠م. أسقفًا مشرفًا على جماعة داخل الكنيسة. مارست تدريبات التقشف المتطرف. وقد أتهموا بالسحر واعتناق العقيدة المانوية Manichaeism (انظر المجلد الثاني) وحوكموا أمام محكمة إحدى الكنائس التي يرأسها أسقف غير جدير بالمسؤلية يدعى إيثاكيوس Ithacius. أخيرًا حولت القضية إلى السلطة المدنية. ولما كان الإمبراطور مكسيموس الذي جاء إلى الحكم في الغرب حديثًا قليل المعرفة، وأقل اهتماما، أمر بقطع رأس بريسكليان وستة من أتباعه من بينهم امرأه. وكانت هذه هي الحالة الأولى لسفك الدم بواسطة حاكم مسيحي، بسبب عقيدة هرطقية. لكن البريسكليانيين عاشوا واستمروا ككنيسة منشقة منفصلة Schismatic حتى القرن السادس الميلادي.

عدم التسامح مع الهراطقة:

استاء آباء الكنيسة عامة من الاجراءات العنيفة المتطرفة التي اتخذت ضد البريسكليانيين وقد حاول مارتن Martin أسقف تورز Tors إنقاذهم من عقوبة الموت.

وبينما ندد أمبروسيوس Ambrose أسقف ميلان، بطبيعة العقوبة، فإنه لم يتعاطف كثيرًا معهم. واتفق آخرون على أن الهرطقة استحقت القليل من التسامح، ولا تستحق الإنصاف. لم يوافق ذهبي الفم Chrysostom على أحكام الموت، بل فضل مصادرة كنائس الهراطقة، ومنع إجتماعاتهم. وقد حبذ جيروم أيضًا هذا الرأي، وعندما تكلم أوغسطينوس عن الدوناتيين قال إنه «عند الفشل في إقناعهم، فإن الكثيرين ينبغي أن يردوا إلى سيدهم وربهم بقضيب من الألم المؤقت مثل العبيد الأشرار.

٥- الكنيسة واليهود

التسامح المبكر مع اليهود

بعد أن أصبحت الإمبراطورية تدين بالمسيحية، كان هناك تغيير هام في مكانة ومركز اليهود. ففي العالم اليوناني الروماني قبل المسيحية كان هناك تيار ضد السامية. لكن هذا كان بالأكثر تيارًا اجتماعيًا وثقافيًا، لأن اليهود أنفسهم إنعزلوا رافضين تمثيل الثقافة من حولهم واستيعابها. لكنهم تمتعوا بالعدالة والقوانين التي وفرت لهم الحماية. بل حتى الكنيسة في القرن الثاني كانت تكنّ لهم الاحترام. وتحدث ترتليانوس عن اليهودية قائلاً: «تلك الديانة الأشهر والتي كانت بالتأكيد ديانة شرعية». (Apologeticum 1: 21: 1).

قسطنطين يحتقر اليهود:

ولكن في القرن الرابع وبتأثير من الحجج اللاهوتية للكنيسة اتخذت معاداة السامية مسلكًا أكثر قسوة. وقد انسحبت هذه السمة على الإمبراطورية، فقد كتب الإمبراطور قسطنطين هجومًا مريرًا ضدهم «القوم ... الذين أفسدوا أرواحهم.. العميان.. عن استحقاق... أكثر الشعوب عداء، اليهود... من السخف منهم أن يتباهوا بأننا، بدون تعليمهم، غير قادرين على حفظ هذه الأمور بطريقة صحيحة (أي الفصح/ القيامة) بعد جريمة قتل سيدهم، مجردين من مشاعرهم.. إلخ» (Socrates, Historica Ecclesiastica 1: 9: 5) وأيضًا، «هذه إرادتنا، ليكن

معلومًا لدى اليهود.. أنه إذا تجاسر أي واحد بعد صدور هذا القانون على أن يهاجم بالحجارة أو بأي شئ آخر جنوني.. شخصًا يهجر طائفتهم المتطرفة المميتة ويحول انتباهه إلى عبادة الله، يجب تسليمة فورًا إلى آتون النار.

(Codex Theodosianus, 16: 8).

قوانين ثيودوسيوس لصالح اليهود:

أصدر ثيودوسيوس في سنة ٣٩٣م، مرسومًا منح بموجبه بعض الحقوق المحدودة لليهود، فقد منحوا حق الاجتماع وحماية أملاكهم وأشخاصهم من معاكسات الدهماء المسيحيين. من الناحية الأخرى تم إقصاؤهم من العمل في وظائف البلاط الإمبراطوري.

وكان محظورًا عليهم بناء مجامع جديدة، ولو أنه سمح لهم بالاحتفاظ بالمجامع القديمة القائمة كما كان محظورًا عليهم الزواج من نساء مسيحيات أو احتجاز وشراء عبيد مسيحيين. هناك أيضًا قوانين منعت اليهود والمسيحيين من مصادقة بعضهم البعض.

وكان محظورًا على المسيحيين أن يدخلوا أي مجمع يهودي أو يصوموا مع اليهود أو يحتفلوا بأعيادهم.

التعصب المسيحي ضد اليهود:

حدث نزاع هام بين الكنيسة والدولة لما أمر ثيودوسيوس الأسقف أمبروسيوس Ambrose أن يعيد بناء مجمع يهودي محترق إذ أجاب أمبروسيوس غاضبًا: «لماذا أيها (الإمبراطور) تشجع بناء مكان الكفر بيت الإلحاد، مأوى الجنون، الملعون من الله ذاته؟ سوف يحسب اليهود هذا اليوم بين أعيادهم الكبرى، ويذكرونه لأعوام قادمة. من واجب الإمبراطور أن يقرر ما إذا كان مع المسيحية أو اليهودية» (Epistle. 40: 26: 14) وفي الإسكندرية حيث يوجد عدد كبير من اليهود، تم نفي الأسقف كيرلس Cyril بسبب فتنة شعبية. كما أن ذهبي الفم لم يدخر كلمة ضدهم لم يقلها «ليس في اليهود من يعبد الله. فإن مجمع اليهودي مسكن للشيطان وعبادة الأوثان». بلا شك أن الكثير من التصرفات التي تميز العداء الحديث ضد السامية قد انتقل إلى تقليد أوروبا الغربية عن طريق الكنيسة.

المسيحيون يتبعون العادات اليهودية:

من جهة أخرى مارس كثير من الناس عادات يهودية لجلب الحظ أو للشفاء أو للنجاح في العمل. فحملوا الأحجبة والتعاويذ ورددوا عبارات محفوظة وحضروا المجامع لحلف اليمين، وراعوا الأصوام، واحتفلوا بالأعياد. وكانوا يستدعون أحد الربيين (المعلمين اليهود) ليصلي مباركًا حقولهم ويستنجدون بالأطباء اليهود.. إلخ. كل هذا، بلا شك، كان يجري، ليس عن اقتناع بأن اليهودية، كانت الديانة الحقيقية الصحيحة بل بالحرى قام المسيحيون – تأثرًا بتعدد الأديان لدى الأوثان وبنجاح اليهود – بتقليد الكثير من عاداتهم. واعتقدوا أنه كلما تعدد الآلهة كان ذلك أفضل[١].

---

(١) معظم مادة هذا الفصل عن اليهودية مأخوذة من فصل في كتاب: أثر الكنيسة على الحضارة المسيحية واليهودية في القرنين الرابع والخامس

The Impact of the Church upon its Culture, Chicago, 1968. The Chapter is by Robert L. Wilken, Insignissima Religio, Certe Licita, Christianity and Judaism in the 4th and 5th Centuries, pp. 39- 66.

٦- الكنيسة والوثنية

جراتيان يرفض الرموز الوثنية:

بعد مجمع القسطنطينية وقوانين ثيودوسيوس التي رسخت المسيحية كالديانة الوحيدة للإمبراطورية، سرعان ما أحست الوثنية بثقل التحامل والضغط عليها بل حتى قبل ذلك، تنازل الإمبراطور جراتيان عن لقب الحبر الأعظم Pontifex Maximum (وهو لقب يمنح للإمبراطور كرئيس كهنة الدين الرسمي للدولة). ورفض الرداء الكهنوتي المهدى له من مجلس الشيوخ الروماني. كما أزال التمثال الوثني ومذبح النصر من قاعة المجلس.

المسيحيون يتخذون خطوات ضد الوثنية:

وقد شعر المسيحيون أنفسهم الآن بالجرأة على مهاجمة واقتحام مزارات ومعابد الوثنيين واكتشف ثيوفيلوس أسقف الإسكندرية مخلفات وثنية أثرية عند حفر أساسات كنيسة جديدة. فعرضها في سخرية وإستهزاء في شوارع المدينة وبينما كان مارسيللوس أسقف سوريا يحض شعبه على هدم معبد وثني، أمسك به الوثنيون وقتلوه. وقد اشتهر مارتن أسقف تورز Tours بهجومه على المراكز الوثنية، وتأسيس كنائس مسيحية جديدة في مكان تلك المراكز الوثنية. كانوا في كل مكان يحطمون تماثيل الآلهة، ويقطعون الأشجار المقدسة، ويحرقون المعابد والمقدسات، ثم يشيّدون كنيسة، ويدشنون مذبحًا هناك، ويشرعون في تعميد جماهير الشعب (من كتاب حياة القديسين يوليوس ويوليانة من أورتا. From the Life of Saint Juluis& Juliana of Orta وفي آسيا الصغرى كان «جوناس Jonas» الراهب نشيطًا بنفس الطريقة.» فما أن يسمع أن شجرة ما أو أي شيء آخر كان موضع عبادة الناس، يذهب مع تلاميذه ويقطعها ويحرقها، وهكذا أصبح الناس بالتدريج مسيحيين «حياة القديس هيباتيوس من روفينياني»

(Life of ST. Hypatius of Rufinianae p. 103)

تحويل المعابد إلى كنائس:

تم تحويل العديد من الهياكل الفرعونية في مصر إلى كنائس وما تزال آثار الفن المسيحي قائمة على بعض الأسوار والأعمدة. كما تحول الدهليز الذي يصل إلى بهو الأعمدة في معبد الأقصر إلى كنيسة في القرن الرابع الميلادي.

مهاجمة المسيحيين في الإسكندرية للسرابيوم:

ومن أبرز الأحداث من هذا النوع ما حدث في الإسكندرية في سنة ٣٩١م.، حيث جرت معارك ضارية بين الوثنيين والمسيحيين. وقد تحصن الوثنيون في السرابيوم، المعبد المقام للإله «سيرابيس Serapis» الذي كانوا يعتقدون أنه كان يضبط ارتفاع النيل وانخفاضه. ولما كان المسيحيون مزودين بمرسوم إمبراطوري ويدعمهم الجيش الروماني، فلقد استطاعوا أخيرًا أن يحتلوا المعبد العظيم. وأوقفوا أمامهم التمثال الخشبي للإله، وأمر الأسقف ثيوفيلوس أحد الجنود أن يفصل رأسه. ولما نفذ الأمر إنطلق من جوف التمثال حشد من الفئران. واكتشفوا في المعبد حيلاً مختلفة كان كهنة الأوثان يستخدمونها ليجعلوا الناس يعتقدون أنهم يسمعون صوت الإله. أما التمثال فحطموه تمامًا

وأحرقوه. وأما الرأس المفصول فحملوه وداروا به حول المدينة. وقد وجد حتى بين المسيحيين من انزعج خوفًا من أن لا يرتفع النيل في تلك السنة. لكن الأسقف ثيوفينوس أجابهم بالقول: «أن تبقى مصر بدون ري أفضل من أن يرتفع النيل بالسحر والشعوذة». والحقيقة أن السجلات تبين أن مقياس ارتفاع النهر في تلك السنة كان أعلى من أي وقت مضى.

شكوى ليبانوس إلى ثيودوسيوس:

لم تكن الوثنية بدون مدافعين. أحد هؤلاء، ويدعى ليبانوس Libanus كتب إلى ثيودوسيوس في سنة ٣٩٠م. يقول: «أنت لم تأمر بغلق المعابد. لكن الرجال ذوي الثياب السود (الرهبان). (يأكلون كالأفيال ويشغلون العبيد بمشروباتهم) يهاجمون المعابد بالحجارة والفؤوس، والعتلات، وحتى بأيديهم وأقدامهم. ثم يدقون السقف ويسوون الحوائط بالأرض. ويحطمون التماثيل ويهدمون المذابح فلابد أن يتعذب كهنة المعبد في صمت أو يموتون. هذه الانتهاكات تحدث في المدن وأسوأ منها في الريف».

الوثنية تتشبث بالبقاء:

بالرغم من كل الخطوات التي أتخذت ضد الوثنية فقد استمرت تحيا بعدة طرق مختلفة. فالبسطاء في الريف، حتى بعد ما صاروا مسيحيين كانوا مترددين في التخلي عن الآلهة القديمة. كذلك فإن الوثنية احتفظت بضغطة على الأرستقراطيين بالمدينة بسبب ارتباطها بالثقافة الكلاسيكية القديمة التقليدية.

٧- الثقافة والترف في الكنيسة

البابا داماسوس والثقافة المسيحية الجديدة:

يمكن أن نرى في حكم داماسوس بابا روما من سنة ٣٦٦م. إلى سنة ٣٨٤م. الوعد بكنيسة الدولة كما كان يجب أن تكون. فقد فعل الكثير لإقامة جسر فوق الثغرة بين الثقافة الكلاسيكية والمسيحية، جاذبًا الكثيرين من ذوي الثقافة العالية إلى داخل الكنيسة. وقد نجح داماسوس في تقديم المسيحية كالديانة الحقيقية القديمة للإمبراطورية. وبرغم توجيه النقد إليه لصلته الحميمية بالعائلات الكبرى، فإنه كان يؤمن أن مستقبل الكنيسة يكمن في اتحادها بالثقافة الإمبراطورية، وبتشجيع منه أصبح الأغنياء أنصارًا للكنيسة. وقد رمم داماسوس مقابر الموتى كأماكن زيارة يحج إليها الناس. كما بنى حجرة المعمودية في كنيسة القديس بطرس وأسس احتفالاً سنويًا كبيرًا لتكريم القديسين بطرس وبولس. إن الكنيسة في عمارتها وآدابها، وخدمات الليتورجيا المتقنة فيها، وثياب الإكليروس الفاخرة، كانت تتحرك بوضوح نحو عظمة وفخامة العصور الوسطى.

سيادة بابا روما:

كذلك دعم داماسوس مركز البابا بالنسبة للدولة وبقية الكنيسة. فلم يعد البابا مضطرًا للمثول أمام المحكمة. في سنة ٣٧٨م. عند إنعقاد المجلس الروماني، ثبّت داماسوس حق بابا روما في الاستمتاع إلى استئناف أي أسقف ضد مطرانه في أي كنيسة. وأمكنه أيضًا المطالبة بحق معاونة السلطة المدنية معه في تنفيذ أي حكم بابوي ضد أحد الأساقفة. في مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ - ٣٨٢م. أعلنت الرئاسة العليا لروما فوق جميع الكنائس الأخرى، ولو أن الكنائس الشرقية لم تعترف بها.

التبذير والترف في الكنيسة:

ظهرت حياة التبذير وتعظم المعيشة في الكنيسة، وكان هذا موضع الاستنكار الشديد. وجيروم الذي كان سكرتيرًا لداماسوس أخذ يكتب في وقت لاحق: «الكهنة الذين ينجحون في الوصول إلى بيوت الأرستقراطيين ويخدعون النساء الغريرات.. الذين يسعون للرسامة لمجرد أن يشاهدوا النساء بحرية أكثر.. لا يفكرون في شيء سوى ملابسهم، يتعطرون ويصقلون أحذيتهم، يجعِّدون شعورهم، وتلمع أصابعهم بالخواتم.. إنهم عرسان أكثر منهم إكليروس». داماسوس نفسه كان معروفًا بأنه» الرجل الذي دغدغ آذان السيدات».

رسامة الأثرياء بسهولة:

كما لاحظ جيروم السهولة التي يتمكن بها الأغنياء من دخول الخدمة «من كان بالأمس طالبًا تحت التمرين، هو اليوم أسقف. وآخر ينتقل أثناء الليل من مدرج الملهى إلى الكنيسة. وإنسان قضى الليل في السيرك يقف أمام المذبح في صباح اليوم التالي، وآخر كان من وقت قريب من أنصار المسارح هو الآن مكرِّس العذارى في الكنيسة والمهتم برعايتهن».

نقد الكتاب الوثنيين للمسيحية:

أسرع الكتاب الوثنيون في ملاحظة التناقضات في حياة الكنيسة. فقد حاول «أميانوس Ammianus»، المؤرخ الوثني، أن يكون منصفًا مع المسيحية لكنه صُدم لما علم أن ١٣٧ جثة وجدت في كنيسة مسيحية بعد المعركة الانتخابية بين الشخصين المتنازعين على البابوية، داماسوس ويورسينوس. كما كتب أن أساقفة روما: «لا يشكون من متاعب مالية. يغتنون من تقدمات النساء المتزوجات، يركبون العربات، ويلبسون أفخر الثياب، ويتبذخون في الأعياد – ولائمهم أفخم من ولائم الملوك. لكن كانوا يمكنهم أن يصيروا سعداء.. لو أنهم عاشوا مثل أساقفة الأقاليم والريف، زاهدين الطعام والشراب، بسطاء الملبس والثياب، وعيونهم إلى الأرض – معلنين أنفسهم أطهارًا ومقدمين الوقار للإله الأبدي ولعباده الصادقين الحقيقيين».

نقد غريغوريوس للترف في الكنيسة:

من أقوى الإدانات على الأحوال في الكنيسة، تلك التي قدمها غريغوريوس النازينزي عندما استقال من منصبه كأسقف القسطنطينية: «لم أكن أدري أننا يجب أن ننافس القناصل والحكام، والقادة المشهورين، أو أن بطوننا كان يجب أن تشتهي طعام الفقراء، وننفق ضرورياتهم على التنعم، ونتجشأ فوق المذابح. لم أكن أعلم أنه يلزم أن نمتطي الخيول الجميلة، ونسافر في عربات فاخرة، بالمواكب أمامنا، والكل يهتف ويفسح لنا الطريق كما لو كنا حيوانات برية. وإنني لآسف لهذا الحرمان وعلى الأقل لقد انتهت هذه الأمور (بالنسبة لي). سامحوني على أخطائي واختاروا لكم آخر يرضي الأغلبية».

٨- الكنيسة والإمبراطورية

الإمبراطوية المقدسة والإمبراطور المقدس:

يجب أن نختم هذا الفصل الآن ببعض الملاحظات عن تأثير هذه الفترة على الإمبراطورية. فمنذ نبذ الإمبراطور جراتيان لقب الحبر الأعظم Pontifex Maximus لم يعد أحد يعبد الإمبراطور كما في الأيام القديمة. ومع ذلك كانت المملكة

مقدسة من عدة جوانب وبصفة خاصة تحت حكم ثيودوسيوس. فكان الحاكم وقصره مقدَّسين. وكانت روما تدعى «المدينة المقدسة»، وكانت الولائم الملوكية تعرف «بأعياد الآلهة». وكان امتيازًا أن يمس الناس «الثوب الأروجواني المقدس» من أرواب الأباطرة «هائمين بصفائه» كما يقولون. وكان الناس يدعون للسجود أمام الصور الشخصية للأباطرة السابقين في قاعات القصر وكان إهمال « القوانين الإلهية» للإمبراطور أو عصيانها يعتبر تدنيسًا للمقدسات، ومن يخدع الإمبراطور فقد خدع الله. وكان الوزراء الذين يعينهم الإمبراطور فوق النقد والمساءلة كما كان قبول الوظيفة العامة يعتبر نوعًا من الرسامة وكانت الخدمة العامة أمانة مقدسة.

الإمبراطورية «المسيحية»:

لقد توقع كل الأباطرة «المسيحيين» من قسطنطين ومن بعده أن تؤدي المسيحية نفس المهام والوظائف الاجتماعية الاقتصادية التي كانت تؤديها الوثنية. وقد كان هذا الموقف أكثر وضوحًا لدى ثيودوسيوس، وكما يقول كوكران: «تفصح معتقدات ثيودوسيوس خلطا ميتًا في الأفكار». لأنه لكي نصور الإيمان كمبدأ سياسي، لم يكن في أكثره تحويلاً للمدنية إلى المسيحية بقدر ما كان «تمدينًا» للمسيحية. ولم تكن تقديسًا وتكريسًا لشرائع ودساتير الإنسان لخدمة الله، لكن بالأحرى ليطابقوا الله مع تأييد دساتير الإنسان. وبسرعة طرحت الإمبراطورية زخارف الدنيا لتتخذ لنفسها زخارف المسيحية، لكنها ظلت في أعماقها وثنية بعمق، وإلى ذلك الحد، تحولت فقط إلى «قبر مبيض».

(Cochrane. C.N. Christianity and Classical Culture p. 35). وبالطبع كانت توقعات الكنيسة عكس ذلك تمامًا، وفي النزاع الناشيء أعدت الحلبة لألف سنة من التوتر، علاوة على ذلك فإنه بوضع هذه المسألة في البؤرة بينهما، عجلت الكنيسة والدولة معًا من سقوط وتدهور العالم القديم.

أفول نجم الإمبراطورية:

بنهاية القرن الرابع كان نجم الإمبراطورية يسير حثيثًا نحو الإفول. فمع الغارات المتزايدة من القبائل البربرية القادمة من الشمال، والانقسامات السياسية داخل الإمبراطورية، والفساد الأخلاقي للمجتمع الروماني، كان الانهيار النهائي مؤكدًا. وقد قدم لنا غريغوريوس النازينزي في خطابه الرابع عشر لمحة عن الترف الفاسد للمجتمع الأرستقراطي: «نحن نستريح في أبهة على وسائد فخمة نفيسة فوق أثمن الأغطية التي غالبًا ما يخشى المرء لمسها، ونغتاظ لمجرد سماعنا صوت فقير ينوح. ويجب أن نستنشق رائحة الزهور من حجراتنا، وأن تفيض موائدنا بأذكى وأثمن الأطياب، كما ينبغي أن يقف العبيد متأهبين في أحسن زينة... بشعور تتموج كشعور العذارى، بعضهم لحمل الكؤوس بأطراف أصابعهم متأنقين ثابتين، وآخرون لدفع الهواء بالمراوح فوق الرؤوس. مائدتنا يجب أن تنثني تحت ثقل الأطباق، بينما كل عوالم الطبيعة، الهواء والماء والأرض تسهم إسهامًا وفيرًا بعطايا ثمينة... الإنسان الفقير راضٍ بالماء، أما نحن فنملأ كؤوسنا بالنبيذ حتى الثمالة، نعم وأكثر من ذلك بلا حدود». في كتاب من تأليف ميلمان «تاريخ المسيحية القديمة» (In Milman's History of Ancient Christianty p. 440). نقرأ أن «أذني الإمبراطور، كانتا محملتين بأقراط من

ذهب. وأن ذراعيه كانتا مثقلتين بأساور ذهبية. وأن رداءه الأروجواني كان موشى بالأحجار الكريمة». وعند عودة الإمبراطور إلى القصر بعد جولة بالعربة حول المدينة «كان يمشي على ذهب. وكانت مجموعة من الحاضرين تنثر تبر الذهب حتى أنه نادرًا ما وطأت قدماه أرضًا مكشوفة».

سقوط روما نهائيًا:

وبنهاية القرن الرابع كانت الجيوش الإمبراطورية تتقهقر على كل جبهة. أمام الهجمات الشرسة من الوثنيين القوطيين والهونيين Huns. وإذ أحس الجندي الروماني بتدهور حضارته الرومانية لم يعد محاربًا لا يهزم. وقد وصف جيروم هذا الموقف سنة ٣٩٦م وهو حزين. قائلاً: « (Epistle 60: 16) «إن العقل يسرح متأملاً خراب وقتنا الحاضر. ففي العشرين سنة السابقة تخضبت الأرض بين القسطنطينية وجبال جوليان العالية (الألب) بدماء الرومان حيث نشرت قبائل وحشية لا حصر لها الدمار والموت. وصارت أجساد الأحرار والنبلاء. والسيدات والعذارى. جميعًا فريسة للشهوة. وأودع الأساقفة في السجون ونهبت الكنائس. وربطت الخيول عند مذابح المسيح. وقذفت عظام الشهداء خارج الأكفان.. حزن في كل مكان.. عويل في كل مكان. شبح الموت في كل مكان». ولما إستولى الأريك Alaric القوطي في سنة ٤١٠م على المدينة الخالدة «روما». كتب جيروم ثانية الرسالة (Epistle 127: 12 and 128: 4) «المدينة التي أسرت العالم كله صارت هي نفسها في الأسر. نور الكون اللامع إنطفأ. الإمبراطورية فقدت رأسها. العالم كله هلك في مدينة واحدة».

Recommended English Readings

1 – Duchesne, Louis, *The Early History of the Church*, *vol, II,* pp. 496 – 526.

2 – Jackson, F. J. F. *A History of the Christian Church to A.D 461*, pp. 404 – 422, 567 – 585.

3 – Leitzmann, Hans, *A History of the Early Church*, vol. III, 288 – 328, *vol, IV*. 97 – 123

4 – Marrou, Henri, *The Christian Centuries, vol I*, pp. 291 – 300, 309 – 328.

الفصل السادس

القبائل البربرية والكنيسة المسيحية



القبائل البربرية على حدود الإمبراطورية:

سبق أن ذكرنا وجود قبائل بربرية على حدود الإمبراطورية. وقد عرفت عمومًا بأنها قبائل جرمانية. لكن القبائل لها أسماء منفردة مثل Franks الفرنجة = Huns» = الهون. Lombard = اللومبارد. Vandals = الفاندال .. إلخ. كانوا يقيمون في منطقة هي اليوم على امتداد أوروبا من أسبانيا إلى روسيا. وكانت الجماعة الأكثر إنتشارًا في القرن الثاني هي قبيلة القوطيين. وكانوا مقسمين بين القوط الغربيين Visigoths في الغرب. والقوط الشرقيين Ostrogoths في الشرق. وضغطوا على الحدود الشمالية للإمبراطورية على امتداد ضفاف نهري الدانوب والراين. قيل في وقت ما. أن أكثر من مائتي ألف جندي من الجيش الروماني تم تعبئتهم للدفاع عن هذه الحدود.

علاقات سلمية مع القوطيين:

ومع ذلك فقد أتيحت فرص كثيرة للعلاقات السلمية الطيبة مع القوط. فقد سمح لبعض الفرق الأقل ميلاً إلى الحرب أن تستقر في نطاق حدود الإمبراطورية. كان في الجيش الروماني جنود قرطيون وصل بعضهم إلى أعلى الرتب العسكرية وقد غزا التجار الرومان المنطقة القوطية. وقد إنجذب الكثير من القوطيين إلى الثقافة الرومانية وإمتصتهم المجتمعات الرومانية.

التأثير المسيحي على القوطيين:

بحلول القرن الثالث كان للمسيحية تأثيرها على القوطيين ولسنا متأكدين كيف حدث هذا. لكن لعله حدث بسهولة عن طريق الجنود والتجار. ويحتمل أن أسرى الحرب المسيحيين الذين أصبحوا عبيدًا في بيوت القوطيين كانت لهم فرصة التبشير بالإنجيل. وبحلول القرن الرابع صار عدد كبير من القوطيين مسيحيين. ولو أن الأغلبية العظمى منهم كانوا أريوسيين. كان هناك أسقف قوطي هو ثيوفيلوس Theophilus من بين المندوبين في مجمع نيقية.

١- أولفيلاس Ulfilas

حياة أولفيلاس المبكرة

أشهر اسم في الكنيسة القوطية هو «أولفيلاس» (معناه «الذئب الصغير») – سنة ٣١١ – ٣٨٣م. وكان جدّ أولفيلاس مسيحيًا أخذه القوط أسيرًا أثناء غارة على آسيا الصغرى. كما كان أبواه مسيحيين. يتكلمان اللغة القوطية. لكن *أولفيلاس نال قسطًا وافرًا من التعليم اليوناني*. يقول سوزومين Sozomen المؤرخ اليوناني أن أولفيلاس كان في أول الأمر يتبع الإيمان النيقوي لكن لسبب ما صار أريوسيًا وأخذ معه الشعب كله.

إرسالية أولفيلاس إلى القوط:

ذهب أولفيلاس وهو شاب مع وفد قوطي إلى القسطنطينية ومكث هناك لمدة تسع سنوات. في سنة ٣٤١م تم تكريسه أسقفًا للقوط شمال الدانوب على يد يوسابيوس أسقف نيكوميديا (أريوسي). ثم رجع للعمل مرسلاً بين مواطنيه في داكيا Dacia. (رومانيا الحديثة) في البلقان. وصارت أعداد كبيرة من الناس مسيحيين نتيجة لجهوده. لكنه واجه مقاومة شديدة من بين القوطيين حتى أنه ورفاقه طلبوا السماح لهم ليستقروا بعيدًا في موسيا Moesia (بلغاريا الحديثة) حيث استمر يبشر ويخدم إلى أن مات في سنة ٣٨٣م أثناء رحلة إلى القسطنطينية.

الكتاب المقدس بلغة القوطيين:

إن أعظم مساهمة قام بها أولفيلاس لكنيسة القوطيين هي ترجمته الكتاب المقدس إلى اللغة القوطية. ولما كان القوطيون قومًا بدائيين لم تكن لهم لغة نظامية مكتوبة. ومن ثم فقد إلتزم أولفيلاس أن يبتكر لهم لغة. وذلك باستخدام الحروف اليونانية. وبعض الحروف اللاتينية مع بضعة رموز قوطية ويقول المؤرخون أنه حذف أسفار صموئيل والملوك بسبب طبيعتها الحربية القتالية. وقد شعر أولفيلاس أن قومه كانوا رجال حرب بدرجة كافية لا يحتاجون معها إلى تشجيع على القتال من أسفار الكتاب المقدس. ولذلك كان الكتاب المقدس هو أول كتاب قرأه القوطيون بلغتهم وما يزال جزء من هذا الكتاب المقدس باقيا في أوبسالا في السويد Uppsala وكان مكتوبًا على رقوق من الجلد بحروف ذهبية وفضية على خلفية أرجوانية.

٢- سقوط الإمبراطورية أمام القبائل

الجيوش القوطية تغزو الإمبراطورية الغربية:

وفي منتصف القرن الرابع كان الموقف العسكري قد أصبح خطيرًا بين القوطيين والرومان. وكان الهونيون وهم قبيلة أسيوية شرسة متوحشة يهاجمون القوطيين من الشرق والشمال. وكان الضغط شديدًا في سنة ٣٧٦م. حتى أن جماعة من ثمانية آلاف قوطي طلبوا من الرومان مكانًا يلوذون به جنوب الدانوب. لكن الرومان بدأوا يفرضون عليهم الضرائب فثار اللاجئون القوطيون فطردهم الجيش الروماني إلى الوراء عبر الدانوب. ونتيجة لذلك شنت قوات قوطية أكثر عددًا هجومًا مضادًا. وعند أدريانوبل Adrianople. في سنة ٣٧٨م. أبيدت الفيالق الرومانية .وفقد الإمبراطور فالنز حياته. عندئذ تقدم القوط لغزو المزيد من الأقاليم الرومانية في البلقان. حتى وصلوا في سنة ٤٠١م. إلى إيطاليا الشمالية. ولم يكن بد من سقوط المدينة الخالدة. روما سنة ٤١٠م في يد

«الأريك Alaric» ووصف جيروم الواقعة بأن «هذه هي نهاية العالم».

سقوط الإمبراطورية الرومانية:

وفي القرن الخامس حدث الإنهيار الأخير والتام للغرب الروماني. وكان «الهونيون» هم الأقوى دائمًا في المناطق التي تعرف الآن ببولاندا، وألمانيا، والنمسا، والمجر، وروسيا. كما سيطر القوطيون الشرقيون على المنطقة الوسطى (سويسرا، وإيطاليا، ويوغسلافيا) كما تمركز «الفرنجة» في بلاد الغال (فرنسا)، والقوطيون الشرقيون في أسبانيا، والفاندال في شمال أفريقيا. وظل هناك بعض الأباطرة يحكمون في الغرب، لكن بالاسم فقط لأنهم كانوا مقيدين بسلطة زعماء القبائل وأخيرًا في سنة ٤٧٦م – قام رجال الجيش – تحت قيادة قوطي يدعى أودوفيكر Odovaker – بعزل الإمبراطور ونصبّوا أودوفيكر ملكًا. وتعتبر سنة ٤٧٦م في العادة نهاية الإمبراطورية الرومانية. وظلت الإمبراطورية البيزنطية في شرق البحر الأبيض المتوسط آمنة إلى حد كبير، ولأعوام طويلة ظل ملوك قبائل الغرب يقدمون الولاء الاعتباري الأسمي لأباطرة بيزنطة.

علاقات طيبة بين الكنيسة والقبائل:

وسط كل هذا الاضطراب العسكري والسياسي عاشت الكنيسة وأفلحت. والواقع أن أهمية الكنيسة نمت بطريقة تناسبت طرديًا مع تدهور أهمية الأباطرة. وظلت روما كمقر للكرسي البابوي، هي المدينة الخالدة، وأصبح الكثير من هذه القبائل «البربرية» مسيحية لدرجة أن الكنيسة كانت دائمًا آمنة في رحابهم. كذلك فإن القادة البرابرة إذ كانوا معجبين بالثقافة الرومانية وراغبين في محاكاتها، وجدوا الكنيسة مؤسسة متعاونة جدًا.

الكنيسة تدعي لنفسها القيادة السياسية وتتولاها

علاوة على ذلك فلقد ازدهرت المسيحية في ظل الممالك القبائلية لأن حكام القبائل كانوا على خلاف الأباطرة الرومان والبيزنطين – أقل ميلاً إلى التدخل في شئون الكنيسة. في الواقع أن العكس قد حدث، وأصبحت الكنيسة هي القوة السياسية المسيطرة في أوروبا. ترأس الأساقفة الكاثوليك المدن التي أقيمت فيها كنائسهم. وكثيرون من الأساقفة القادمين من الطبقة الرومانية الحاكمة القديمة بثقافتها وهيبتها ومكانتها كانوا في واقع الأمر حكامًا. وقد ساعد صبغ القبائل بصبغة رومانية على تمهيد الطريق عمليًا أمام قيام دولة المدينة كما في أوروبا الحديثة. ونتيجة أخرى لهذا التطور هي زوال الحركة الأريوسية نهائيًا تمامًا. فقد كان الأريوسيون تنقصهم موهبة القيادة والتدريب وتدبير الأمور التي لدى الكاثوليك. ولذلك فإنهم في معظم المراكز المحلية أفسحوا الطريق أمام الكاثوليك وأخيرًا خرجوا من مسرح الأحداث.

Recommended English Readings

1 – Bainton, R. H. ***The Horizon History of Christianity***, Avon, New York, 1964 .pp. 128 – 132.

2 – Boer, H. R. ***A Short History of the Early Church***, pp. 121 – 126.

3 – Bruce, F. F. ***The Spreading Flame***, pp. 321 – 322, 325 – 328.

4 – Chadwick, ***Henry The Early Church***, pp. 247 – 251.

5 – Foster, john, ***Church History 1***, The First Advance, TEF Study Guide No. 5, SPCK, London, 1972, pp. 117 – 126.

6 – Jackson, F. J. F, ***History of the Christian Church to A D 461***, pp. 558 – 561.

7 – Marrou, Henri, ***The Christian Centuries***, ***vol, I.*** pp. 287 – 289.

8 – Walker, Williston, ***A History of the Christian Church***, pp. 119 – 223.

9 – Wand, J.W.C. ***A History of the Early Church to A.D. 500***. pp. 179 – 183.

الباب السادس

آباء الكنيسة في القرنين الرابع والخامس

الفصل الأول

أمبروسيوس أسقف ميلانو

(٣٣٩ - ٣٩٧م.)



خلال النصف الثاني من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس ظهر أربعة من أشهر قادة الكنيسة هم:

أمبروسيوس Ambrose (سنة ٣٣٩ – ٣٩٧م)، جيروم Jerome (سنة ٣٤٢ – ٤١٩م)، ويوحنا ذهبي الفم Chrysastom (سنة ٣٤٤ – ٤٠٧م)، وأغوسطينوس أسقف هيبو Augustine of Hippo (سنة ٣٥٤ – ٤٣٠م). ولأن كلا منهم قد ساهم شخصيًا مساهمة فريدة، ليس فقط لصالح كنيستة المحلية لكن إيضًا لمصلحة الكنيسة بوجه عام، سوف نتناول كلا منهم بالدراسة على حدة. وسنذكر أيضًا ثلاثة آخرين من آباء الكنيسة الشرقية أقل شهرة.

١– أمبروسيوس أسقف ميلانو (سنة ٣٣٩–٣٩٧م)

أسرة أمبروسيوس المسيحية:

ولد أمبروسيوس لأسرة مسيحية أرستقراطية، وكان أبوه حاكمًا لبلاد الغال Gaul وله قصر في تريف Treves وكانت بلاد الغال تضم وقتئذ ما يعرف الآن بإنجلترا وفرنسا وأسبانيا وأجزاء من ألمانيا. وكانت والدة أمبروسيوس تمتلك قصرًا في روما، وكان البابا يزورهم في المنزل. ويقالأن الطفل أمبروسيوس، وهو يرقب تقبيل الناس ليد البابا، كان يمد يده لتقبيلها ويقول: «ربما أصبح يومًا ما أسقفًا». وكانت الأسرة شديدة الترابط. فقد كان أمبروسيوس ملتصقًا جدًا بأخيه ساتيروس «Satyrus» وبأخته مارسيلينا Marcellina، وقد نذرت مارسيلينا نفسها راهبة عفيفة. وقد درس أمبروسيوس وساتيروس القانون، ولو أن أمبروسيوس لم يكن راضيًا بصفة خاصة عن هذه المهنة.

تعيين أمبروسيوس حاكمًا:

تم تعيين ساتيروس حاكمًا لأحد الأقاليم. وفي أحد الأيام أستدعى أمبروسيوس إلى مكتب الوالي

وأخبره باختياره هو أيضًا ليكون حاكمًا. فلما طلب أمبروسيوس أن يعفى من هذه الوظيفة، قيل له «اذهب، دبر أمرك، لا لكي تكون حاكمًا وقاضيًا، بل أسقفًا»! وقد أقيم على إقليم «إميليا ليجوريا» وعاصمته ميلانو (إيطاليا). كان لهذا الأمر أهميته الخاصة حيث إن ميلانو وقتئذ فاقت روما في أهميتها في الإمبراطورية الغربية. وهكذا ذهب أمبروسيوس إلى ميلانو ليقضي هناك بقية أيام حياته، بالرغم من تردده فقد أثبت أمبروسيوس أنه حاكم مقتدر، وأضاف فعلاً قوة سياسية وهيبة لهذه المدينة الهامة.

نزاع حول اختيار أسقف لميلانو:

بعد خمس سنوات انهمكت كنيسة ميلانو في صراع لانتخاب أسقف لها. وكانت هناك فرق متنافسة تتنازع على المنصب. وقد حضر أمبروسيوس إجتماعًا من هذه الاجتماعات، إذ كان النزاع بدون حسم، وحاول أن ينصح الشعب بأن يسلكوا ويعملوا بطريقة سليمة. وفي هذه اللحظة بالذات صرخ طفل صغير قائلاً: «أمبروسيوس هو الأسقف» وعلى الفور رددت الجموع المحتشدة الصرخة ونادوا «أمبروسيوس الأسقف».

أمبروسيوس يصبح أسقفًا لميلانو:

هرب أمبروسيوس إلى قصره، إذ لم يكن حتى ذلك الوقت قد اعتمد، ولو أنه كان يعتبر نفسه مسيحيًا. علاوة على ذلك فإن فكرة أن يكون أسقفًا كانت بعيدة عن خياله وأفكاره وطموحاته. إلا أن الشعب لاحقه ولم يتركه مستريحًا. فوضع أمبروسيوس أمامهم كل أنواع العقبات والاعتراضات، بل وحاول الهروب من المدينة وقبضوا عليه فعلاً بصفة مؤقتة. فلما وصلت رسالة بموافقة الإمبراطور فالنتنيان والبابا داماسوس، على اختيار الشعب، خضع أمبروسيوس أخيرًا لما اعتبره حينئذ إرادة الله نحوه. وخلال الأيام الستة التالية تم تعميده وأقيم حارسًا للأبواب، ثم ترقى إلى حاجب ثم قارئ، ثم طارد للحيوانات والشياطين والأرواح الشريرة من الكنيسة، ثم مساعد شماس، فشماس ثم قسيس وأخيرًا تمت ترقيته إلى أسقف.

أمبروسيوس يعتني بالفقراء ويهتم بهم:

قام أمبروسيوس كأسقف بأمور كثيرة جديرة بالاعتبار. فكانت حياته الشخصية في غاية التقشف، فقد عاش تقريبًا عيشة الراهب، محاكيًا تنسكات أخته وطريقتها التقشفية. كما كان دائمًا شديد الاهتمام بالفقراء. وكانت أول أعماله هو أنه باع الكثير من الفضة الثمينة من الكاتدرائية ليشتري طعامًا للفقراء. فانتقده بعض الأريوسيين في المدينة لكنه أجابهم قائلاً: «أيهما أكثر قيمة، أواني الكنيسة أم النفوس الحية؟» وعندما مات ساتيروس أخوه، لم يحتفظ أمبروسيوس ومارسيللينا بشيء من ميراث أخيهما الضخم بل استخدماه لصالح الفقراء والمعوزين في ميلانو. لم يكن أمامه إلا أن يحتقر الأغنياء الذين استغلوا الفقراء: «هؤلاء الأغنياء» بعد أن تملكوا الأرض، بدوا يائسين من تملك السماء والهواء والبحر .... وكانوا يتباهون بجواهرهم أمام الفقراء ويتاجرون في بؤس وشقاء الإنسان».

دراسات أمبروسيوس:

كرس أمبروسيوس الكثير من الوقت للدراسات العلمية، حيث لم ينل من قبل إلا القليل من

التعليم اللاهوتي. كما بدأ يكتب مفضلاً أن يكتب بخط يده على أن يملي على يد السكرتير.

أمبروسيوس وجراتيان:

كان لأمبروسيوس علاقة خاصة بالأباطرة الثلاثة الذين حكموا البلاد أثناء حياته: جراتيان وفالنتيان الثاني، وثيودوسيوس. فقد أعجب به جراتيان كشاب كثيرًا وكان كثيرًا ما يرجع إليه طلبًا للمشورة والنصيحة. فقد كان جراتيان – كما يقال - جنديًا ممتازًا لكنه كان حاكمًا ضعيفًا، وكان يعاب عليه بعض عاداته المستهترة إلا أن أمبروسيوس «أحبه وكتب له الرسائل كما احتفظ برسائله وخطاباته ووصفه أنه إنسان كامل». (آباء الكنيسة الغربية) (Payne, Robert, The Fathers of the Western Church p. 73)

المسيحية: الديانة الوحيدة للإمبراطورية:

لعلنا نذكر أن جراتيان هو الذي أمر بإزالة المذبح الوثني للنصر من مجلس الشيوخ. وهو عمل لم يتقبله أعضاء المجلس بسهولة، فقد ظلوا يعتقدون بقيمة الممارسات الوثنية. وقد قدم سيماخوس «Symmachus» وهو خطيب مفوه، التماسًا خاصًا لإعادة التمثال لكن أمبروسيوس وقف يجادله وأجابه على كل نقطة وبادله حجة بحجة. ولما استأنف سيماخوس طالبًا التسامح مع الديانات الأخرى. أصر أمبروسيوس على أنه لا طاعة ولا وفاء إلا لإله واحد فقط. فاحتج الخطيب بأن التمثال جلب النصر للبلاد، وأجاب أمبروسيوس بأن النصر سببه قوة المحاربين وليس «أحشاء الحيوانات أو الأصنام العديمة الإحساس». ادعى سيماخوس أنه لابد من وجود أكثر من طريق إلى الحق لكن أمبروسيوس قال أن تقدم الإنسانية يعود فقط إلى عناية الله. ونلاحظ الآن بكل وضوح الموقف الذي كان يتخذه أمبروسيوس. ويصف «كوكران Cochrane» ذلك قائلاً: «من وجهة نظره لم يكن هناك أمل في الخلاص للإمبراطورية ما لم تنفصل عن أخطاء الوثنية واليهودية والهرطقة. وقد أعلن أثناسيوس أن الاضطهاد سلاح الشيطان. لكن أمبروسيوس كان مستعدًا لاستخدام أسلحة الشيطان كوسيلة لتحقيق ملكوت الله». (Cochrane, Christianity and Classical Antiquity, p. 350)

أمبروسيوس يعارض جوستينا:

كان أمبروسيوس أب اعتراف لفالنتنيان الثاني الذي خلف جراتيان. كان فالنتنيان إمبراطورًا ضعيفًا تسيطر عليه جوستينا Justina أمه، أرملة فالنتنيان الأول. وكانت جوستينا أيضًا أريوسية المذهب، ولم تكن تحب أمبروسيوس كما لم يكن هو يحبها.

وأقنعت جوستينا ابنها بأن يطلب ترك إحدى كنائس ميلانو خصيصًا لاجتماعات الأريوسيين. فأجاب أمبروسيوس على الفور: «مثل هذا الطلب يمكن إجابته في حالات الممتلكات الشخصية، لكن ليس في حالة ممتلكات الكنيسة. فما يخص الله خارج عن سلطة الإمبراطور». والواقع أن جوستينا حاولت ترتيب القبض على أمبروسيوس، لكنه التجأ إلى الكنيسة، وتحصن بها، ووفر له الشعب الحماية. وبعد مرور سنة جرت محاولة أخرى، لكن لما حدث أن إنحاز إليه الجنود المرسلين للقبض عليه تخلت الإمبراطورة وابنها الإمبراطور عن الفكرة.

أمبروسيوس يكرم رفات الشهداء:

كذلك في هذه المناسبة، تشجع أمبروسيوس باكتشاف رفات شهيدين تحت أرضية الكنيسة، وكانا من أصحاب الأجسام الضخمة، كما كانت الدماء لم تجف عليهما بعد، وحدثت معجزة شفاء عندما جاءوا برجل أعمى بالقرب منهما. فقال أمبروسيوس: «هؤلاء هم المدافعون الذين أحتاج إليهم. هؤلاء من ينصروننا ونحن نجهل ذلك». وقد شجع استخدام الرفات بكل طريقة ممكنة حتى لقد جلب رفات القديسين والشهداء إلى ميلانو من مواضع أخرى. بل وكان يبحث عنها، ففي حديقة خارج ميلانو، وجد جسد الشهيد نازاريوس Nazarrius ودمه لم يجف بعد، وشعره باق في مكانه.

معارضة جمع الرفات والذخائر:

تشكك البعض في التأكيد على الشهداء وقواتهم السحرية. وقد استنكر قس يدعى فيجيلانتيوس Vigilantius حفظ الرفات في علب الحلي الفضية لكي يقبلها أفراد الشعب، كما استنكر بناء الكنائس تكريمًا للشهداء، ودعا ذلك «تصرفات وثنية دخلت الكنيسة تحت ثوب الدين.... وهو عمل الوثنيين». وفي وقت لاحق، أدرك الأمبراطور ثيودوسيوس أن عملية جمع الرفات أصبحت تجارة، بل أن الناس كانوا يحرقون الرفات لبيعها. فأصدر مرسومًا يقول: «محظور على أي شخص أن ينقل جسدًا مدفونًا إلى مكان آخر، أو يبيع رفات أحد الشهداء، ومحظور على أي شخص أن يبيعها أو يشتريها».

موت فالنتنيان الثاني:

وبالرغم من اختلافاته مع جوستينا لم يفقد أمبروسيوس وده نحو ابنها فالنتنيان الثاني (الابن). كان فالنتنيان يواجه مشكلة كبرى في بلاد الغال مع أحد زعماء البربر، فالتمس المساعدة من أمبروسيوس، لكن الأسقف كان دائمًا يرفض مغادرة ميلانو، وتردَّد، وفي ذلك الوقت قتل فالنتنيان. حتى لو لم يكن في مقدوره إنقاذ حياة الإمبراطور بالفعل، فلقد شعر أمبروسيوس بتبكيت الضمير لأن هذا هو ثاني الأباطرة الشباب الذين أحبهم أمبروسيوس وقد مات بعيدا عنه.

أمبروسيوس وأوغسطينوس:

حوالي سنة ٣٨٤م، تم تعيين الشاب أوغسطينوس أستاذًا لعلم البيان والبلاغة في ميلانو. وقد حضر أوغسطينوس خدمات الكاتدرائية هناك وتأثر جدًا بمواعظ أمبروسيوس. لم يسبق لأوغسطينوس أن سمع تعليم الثالوث مشروحًا وموضحًا بمثل هذه الطريقة المقنعة. علاوة على ذلك فقد أحب أوغسطينوس في مواعظ أمبروسيوس تأكيده على «الروح» أكثر من «الحرف». وبفضل هذا التأثير في نفسه وبفضل وجود أمه «مونيكا Monica» اقتنع أوغسطينوس بقبول المعمودية المسيحية. وفيما بعد كتب أوغسطينوس عن أمبروسيوس: «إنني أبجِّله كأب، لأنه ولد في المسيح يسوع وبالإنجيل، وبخدمته نلت غسل التجديد. أمبروسيوس المبارك الذي اختبرت أنا نفسي نعمته، وثباته، ونضاله، ومعاناته من أجل الإيمان الكاثوليكي الجامع، سواء بالكلام أو الأعمال. إن كل العالم الروماني ينادي بذلك معي بلا تردد».

أمبروسيوس وثيودوسيوس:

إن ثيودوسيوس الذي صار إمبراطورًا في

القسطنطينية سنة ٣٧٩م. استمر في الحكم حتى السنتين الأخيرتين من حياة أمبروسيوس. وكانت العلاقة بينهما فوق العادية في منتهى الغرابة. حيث كان الإمبراطور دائمًا يستجيب لأوامر الأسقف.

ويسجل التاريخ مثلين بارزين عن سلطان الكنيسة فوق الدولة. أو على الأقل قوة شخصية أمبروسيوس فوق شخصية ثيودوسيوس.

أمبروسيوس يأمر ثيودوسيوس بتغيير أمر أصدره:

في وادي الفرات البعيد كانت هناك واقعة تدمير معبد للغنوسيين ومجمع يهودي. وكان الهجوم بتحريض من أحد الأساقفة. لذلك أمر ثيودوسيوس أن تقوم الكنيسة بإعادة بناء المجمع لليهود. فلما سمع أمبروسيوس عن أمر الإمبراطور كتب إلى الإمبراطور بلهجة قوية: «القصر من إختصاص الإمبراطور. الكنائس من اختصاص الأسقف.. ولم يحدث أن عوقبت مثل هذه الهجمات والغارات من قبل. إن إذلال الأسقف أو المجتمع المسيحي يحط من كرامة الكنيسة.... أيهما أهم. استعراض التأديب أم قضية الدين؟ إن التمسك بالقانون المدني يأتي في المرتبة الثانية بعد المصالحة الدينية». كذلك ألقى أمبروسيوس عظة عن هذا الموضوع في محضر الإمبراطور فأذعن ثيودوسيوس لأمبروسيوس وفي خضوع غير رأيه.

ثيودوسيوس ومقتل سبعة آلاف في تسالونيكي:

تضمنت أشهر واقعة من هذا النوع مقتل مدنيين في تسالونيكي. كان والي الأقاليم قد سجن أحد الأبطال الرياضيين المحبوبين لدى الجمهور. وذلك السجن بسبب سوء الأخلاق. فلما سمع الشعب أن هذا البطل لن يتمكن من الاشتراك بعد ذلك في المباريات الشعبية قتلوا العديد من الشخصيات العامة الحكومية. المكروهة. وعندما سمع ثيودوسيوس بذلك أمر بمعاقبة الشعب. فتدخل أمبروسيوس وطلب الرأفة. أما ثيودوسيوس فبدون الإتصال ثانية بأمبروسيوس. أرسل أوامر سرية بذبح أهالي تسالونيكي. بعد ذلك رق قلبه. وأرسل أمرًا ثانية يلغي الأمر الأول. لكن الوقت كان قد فات. لأن الجنود حاصروا ٧٠٠٠ من أفراد الشعب في «الإستاد» وقتلوهم جميعًا بحد السيف.

أمبروسيوس يدين ثيودوسيوس:

اهتزت الإمبراطورية كلها عند سماع الخبر. وبالأكثر أمبروسيوس لأن ثيودوسيوس تمم الأمر محتالاً بطريقة خفية. عندئذ كتب أمبروسيوس واحدة من أروع رسائله:

«إني أنصحك. أسألك. أرجوك. أحذرك. لأنه يحزنني ألا يسبب لك إهلاك هذا العدد من الأبرياء أي حزن. إني أتعذب عندما أراك... عاجزًا عن الندم لمقتل هذا العدد الكبير من أبرياء الشعب. الشيطان يحسدك على براعتك – اغلبه ما دامت لديك الوسيلة..».

«بالنسبة لي. أنا «المديون» لإحسانك في كل شيء. الممنون كما يجب أن أكون دائمًا.. لكن عندي كل سبب يجعلني أتوجس شرًا. إنني لا أجرؤ على تقديم الذبيحة (للإفخارستيا) في محضرك وهل يسمح بتقديم القربان. الذي يعتبر مرفوضًا إذا سفك دم إنسان واحد. بينما دم الكثيرين يسيل على الأرض.؟ .. أعتقد لا».

ثيودوسيوس يجب أن يتوب:

«أنا لا أنكر أن لديك غيرة على الإيمان. وأنك

تخاف الله. لكن فيك بالطبع روح سرعة الانفعال. التي عندما تهدأ. تتحرك بسهولة إلى الرأفة. لكن الزمام يفلت منك إذا استشاروك. كان بودي أن أتركك لأفعال قلبك. لكنني لا أقوى على الصمت أو التخفيف من جرمك. فإن مثل هذا المشهد الدامي الذي وقع في تسالونيكي، لم يسمع به في تاريخ العالم كله. لقد حذرتك ورجوتك لكي لا تفعل، وقد أدركت بنفسك شناعة الفعل. فحاولت أن تلغي أمرك. والآن أهيب بك أن تندم وتتوب. أذكر كيف ندم داود على جريمته وتاب. فهل تخجل أن تفعل ما فعله داود؟ يمكنك فقط أن تكفر عن خطيتك بالدموع. بالتوبة. وبتذلل روحك كإنسان. وهكذا يجب أن تندم وتتوب. لا ملاك ولا رئيس الملائكة يمكن أن يغفر لك. الله وحده يقدر أن يغفر لك. وهو يصفح فقط عن التائبين.

«لك حبي. وودي. وصلاتي. فإن صدقتني. فافعل ما أخبرك به. وإذا لم تصدقني فسامحني إذا فضلت الله عليك» . (من رسالة أمبروسيوس رقم ٥١)

(Ambrose, Epistle 51, Quoted by Robert Payne, The Fathers of the Western Church, p. 77 – 79).

أمبروسيوس يطرد ثيودوسيوس من الكنيسة:

عندما تلقى هذه الرسالة. تقدم ثيودوسيوس إلى الكاتدرائية. لكن أمبروسيوس رفض أن يدخله الكنيسة قائلاً: «كيف ترفع في الصلاة يديك اللتين ما زالتا تقطران بالدم؟ أقول لك. إبتعد» فلما قال ثيودوسيوس: «داود أخطأ. ومع ذلك غفر له» أجاب أمبروسيوس: «نعم أنت قلدت داود في الخطية. الآن قلد داود في الندم والتوبة». عندما سأل أحد رجال الحاشية الإمبراطور عن سبب إكتئابه. قال: «أنت لا تشعر بتعاستي. كنيسة الله مفتوحة للعبيد والشحاذين والمتسولين أما بالنسبة لي فهي مغلقة ومعها أبواب السماء».

توبة ثيودوسيوس:

أصر أمبروسيوس على أن يقضي ثيودوسيوس فترة ثلاثين يومًا في تذلل وندم عميق. ثم كان عليه أن يأتي إلى الكاتدرائية بدون الأرواب والشعارات الملوكية الأخرى مرتديًا فقط المسوح. ويسجد أمام المذبح لتلقي المغفرة. نفَّذ ثيودوسيوس التعليمات وسمح له بالعودة إلى التناول من العشاء الرباني.

موت ثيودوسيوس:

كانت صداقة أمبروسيوس وثيودوسيوس لصيقة ومتينة وحميمة. فعندما ظفر الإمبراطور بإنتصار معجزي على البرابرة. قدم أمبروسيوس «Te Deum» تسبحة شكر خاصة ماسكًا بيديه الرسالة المحتوية على خبر النصر. وقد مات ثيودوسيوس بين ذراعي أمبروسيوس في سنة ٣٩٥م. وقال أمبروسيوس: «لقد أحببته. ثيودوسيوس يحيا الآن في النور السماوي. وبالابتهاج يختلط مع مجمع القديسين». في جنازته ارتجل أمبروسيوس كلمة مخاطبًا الجنود: «بإيمان ثيودوسيوس كان انتصاركم. فليكن صدقكم وإيمانكم قوة لأبنائه. وحيث يوجد عدم الإيمان يوجد العمى. ولكن حيث الأمانة والإخلاص هناك حشد الملائكة».

موت أمبروسيوس:

مات أمبروسيوس بعد ذلك بسنتين. وقد كتب «بولينوس Paulinus» – الذي سجل سيرة

حياة أمبروسيوس أن أمبروسيوس كان يحيط به أصدقاؤه المتشوقون والمتلهفون على تدوين كلماته الأخيرة. وقد ظهر لهيب نار صغير فوق رأسه، ثم اختفى داخل فمه. ومن أقواله الأخيرة، «لم أعش هكذا بينكم بطريقة تخجلني من استمرار حياتي. لكن لست أخشى الموت، لأن إلهنا صالح». ومات بعد ذلك ببضعة أيام في ليلة عيد القيامة، ودفن في كاتدرائية ميلانو. ثم نقل جسده في القرن التاسع إلى الكنيسة التي سبق أن اكتشف داخلها رفات الشهيدين.

الدولة لا تتدخل في شئون الكنيسة:

بلا شك أن أعظم إنجازات أمبروسيوس كانت سياسية أكثر منها لاهوتية. ففي نضاله مع الأباطرة أوضح للمجتمع الإمبراطوري أن المسيحية الأرثوذكسية القويمة الرأي هي وحدها التي يحق لها التمتع بكامل حقوقها المدنية. علاوة على ذلك أغلق كل باب يحاول منه الإمبراطور التدخل في شئون الكنيسة. وعندما حاول الإمبراطور تعيين أساقفة رد أمبروسيوس عليه قائلاً: «نحن طبقًا لناموس يسوع المسيح، لن نستجيب لذلك القانون الذي يجيز مثل هذه القرارات» (Epistle 1: 21) وأيضا: «كما أنه لا يصح أن تنكر الدولة حرية التعبير، كذلك أيضًا يتحتم على الكاهن أن يعبر عما يشعر به، لأن الكاهن، بفضل وظيفته المقدسة، رسول يعلن ملكوت المسيح والحياة الأبدية (Epistle 1: 40) ومن الناحية الأخرى – ولكن تأسيسًا على نفس المبدأ – عارض أمبروسيوس في أن تقبل الكنيسة هبات عامة، حيث إن هذا الأمر يجعل الكنيسة معتمدة على الدولة ويحد من حريتها.

الكنيسة فوق الدولة:

اعتقد أمبروسيوس، كما رأينا، أن من حق الكنيسة أن تتدخل في شئون الإمبراطورية. فالكنيسة باعتبارها تمثل الله (على الأرض) ملتزمة بأن تحكم على استقامة أو خطأ أي وضع دنيوي أو أي تصرف للحكومة، فكانت الكنيسة ضميرًا للدولة، ولهذا المدى كانت أعلى من حكامها. «إن الإلتزام بالخدمة المسيحية هو التزام على الحاكم كما هو التزام على الرعايا. لأن الإمبراطور، مثله مثل أحقر فرد من أفراد الشعب، هو أحد أبناء الكنيسة» . لا تمجد نفسك، إذا أردت أن تحتفظ بسلطتك، عليك أن تخضع ذاتك لله. (Epistle 1, 20, 19)

مؤلفات أمبروسيوس:

كان لمواعظ أمبروسيوس ورسائله التي تعالج مثل هذه الموضوعات أعظم التأثير على مستقبل الكنيسة الغربية. كما أن حملاته البليغة على الأغنياء من الفقراء تضعه في مصاف أعظم المفكرين الاجتماعيين. ولم يستطع أن يفهم لماذا لا يحوّل الأغنياء ثرواتهم إلى الفقراء كما سبق أن فعل هو! وكان تناوله للأسفار المقدسة غير مدرك وشديد الشبه بمحاولة أوريجانوس. كان يلتزم أن يُفسر الكتاب المقدس على خمس مستويات: التفسير الحرفي، والأدبي، والمعنوي، والمجازي، والسري، والتطبيقي الروحاني. وكان مثل الكابادوكيين عميق الإعجاب بجمال الطبيعة، مدركًا صنعة يد الله في الزهور والبحور والحيوان وجسم الأنسان. وقد اشتهر أمبروسيوس بالترانيم التي وضعها، منها اثنتا عشرة ترنيمة معروفة وأربع ترانيم

مستخدمة في الوقت الحاضر.

أمبروسيوس يحول الكنيسة إلى اللاتينية كما فعل داماسوس:

يمكن أن نقارن إمبروسيوس مع البابا داماسوس الذي أدخل التعليم والثقافة إلى الكنيسة. وقد مزج أسقف ميلانو آداب شيشرون الكاتب الروماني بتعليم الكنيسة. وحوَّل الكتابات الأساسية للكنيسة إلى اللاتينية ميزًا إياها عن ثقافة البيزنطيين اليونانية. كما ترجم لاهوت الأسرار المقدسة إلى اللاتينية. وبذل جهدًا كبيرًا في ترجمة خدمة القداس. وانعكس هذا الاتجاه أيضًا على فن عمارة الكنائس، وكذلك على ملابس الكهنوت الرسمية. ومثل داماسوس إتخذ خطوات رئيسية كبرى في بدء تطوير الكنيسة الغربية الكاثوليكية للألف سنة التالية.

Recommended English Readings

1 – Boer, Harry, *A Short History of the Early Church*, pp. 148 – 150.

2 – Bruce, F. F. *The Spreading Flame*, pp. 330 – 332.

3 – Duchesne, Louis, *The Early History of the Church, vol. II,* p. 369, 435 – 441.

4 – Frend, W. H. C. *The Early Church*, pp. 190 – 199.

5 – Jackson, F. J. F *History of the Christian Church to AD 461*, PP. 413 – 433.

6 – Payne, Robert, *The Fathers of the Western Church, Viking*, NYC, 1951, pp. 60 – 86.

7 – Schaff, Philip, *History of the Christian Church, vol. III,* pp. 961 – 967.

8 – Walker, Williston, *A History of the Christian Church*, pp. 128 – 129.

9 – Wand, J.W.C. *A History of the Early Church to AD 500*, pp. 203 – 204.

الفصل الثاني

چيروم Jerome (٣٤٢ — ٤١٩م.)



حياته المبكرة

ولد يوسابيوس سيفرونيوس إيرونيموس چيروم – Eusebius Sephronius Hierony mus) Jerome) في بلدة إستريدون بإقليم دلماطيا (حاليًا يوغوسلافيا). ميلاده غير مؤكد حسب مصادر مختلفة يقع بين ٣٣١م / ٣٤٢م. وكان أبوه ثريًا يملك الأرض والعبيد. وكانت أسرته مسيحية. وما نعرفه عن طفولته قليل فقد أرسل إلى روما لدراسة العلوم التقليدية الكلاسيكية (اليونانية والرومانية). وأصبح مغرمًا بالكتّاب اللاتينيين مثل: «فرجيل»، و «شيشرون». كان يذهب إلى دور المحاكم ويستمع للخطباء الموهبين. لكنه انزعج كثيرًا في حياته الخاصة. وانتابه الشعور العميق بالذنب بسبب رغباته الجنسية. فعندما إعتمد صديقه «روفينوس» اعتقد چيروم أنه لا يستحق هذا الشرف. ولما دخل صديق آخر الدير حسده چيروم لكن أحس أنه لا يمكن أن ينهج نفس منهجه.

چيروم يختار حياة الرهبنة:

ثم بدأ يسافر مع فريق من الأصدقاء يزورون مختلف الأديرة في أسيا الصغرى وتفرق الأصدقاء في أنطاكية. حينئذ وهناك اختار چيروم حياة الرهبنة لنفسه. فانضم إلى مجموعة من النساك على طرف الصحراء في «خلقيس Chalcis في سورية. وكان ذلك في نحو عام ٣٧٣م. وهناك قضى خمس سنوات يعيش في صومعة جرداء مرتديًا أسمالاً من الخيش. ويقتات على جرعة ماء و كسرة خبز وإدام نيئ. كتب لأصدقائه يشرح اختباراته التي تشبة اختبارات القديس أنطونيوس» كم من مرة لما كنت أعيش في الصحراء.... تلسعني الشمس المحرقة. كم من مرة تخيلت نفسي وسط ملاهي روما وملذاتها !... كان وجهي شاحبًا وجسمي يرتعش بفعل الصيام. ومع ذلك يحترق فكري بالرغبة الجنسية. وظل لهيب الشهوة مستعرًا أمامي. بينما كان جسدي مثل جسد الأموات... أذكر ما أكثر ما صرخت بأعلى صوتي طول الليل حتى مطلع النهار ولم أتوقف عن أن قرع على صدري إلى أن عاد إلى الهدوء بتوبيخ الرب لي Epistle XX II: 7

ارتياحه لحياة الرهبنة:

لكنه اغتنى جدًا بالخبرات. فكتب لأحد أصدقائه يحثه على الانضمام إليه «هل تخشى الصحراء في اتساعها الأبدي الرهيب؟» أقول: «إن روحك

نزهة لطيفة داخل الفردوس. هل تفزع من خشونة جلدك وقذارة أطرافك؟ أقول إن من اغتسل في المسيح لا يعوزه الاغتسال مرة أخرى. عند تجوالي في الصحراء بعد سكب الدموع غزيرة، والتأمل الطويل في السماء أحسست كأنني في محضر الملائكة (Epistle XV : 10)

انقطاعة عن الكتّاب الوثنيين:

وفي الصحراء اجتاز چيروم واحدًا من أهم اختباراته. فقد رأى في حلم «رُفعت أمام كرسي الدينونة. والله هو القاضي «وكان النور مبهرًا حتى لم أجرؤ على النظر»

- من أنت؟

- أنا مسيحي.

- «أنت تكذب. أنت لست تلميذ المسيح. بل أنت تلميذ شيشرون. فحيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضًا». حينئذ صدر الأمر بجلدي. هل كان مجرد حلم؟ أقسم إنني وجدت على كتفي خطوطا زرقاء وسوداء. بعد هذا الحلم قرأت كتاب الله بحماس أعظم من كل كتب البشر. «Epistle XX 11: 30» وقد عكس هذا الحلم الرأي العام لدى الآباء الأولين أن الكتابات الوثنية والأسفار المقدسة لا تتفق معًا. لكننا نلاحظ أن چيروم لم يحافظ على عهده ونذره. ففي وقت لاحق من حياته عاد إلى الآداب اللاتينية كما فعل أمبروسيوس وداماسوس وأوغسطينوس؟

چيروم كاهنًا – استمراره في الدراسة – اختياره سكرتيرًا للبابا:

في ٣٩٧م ترك چيروم عزلته في الصحراء وشق طريقه إلى أنطاكية حيث استمع إلى محاضرات «أبوليناريس». وفي أنطاكية أقيم كاهنًا بدون مسئولية رعوية. ومن أنطاكية سافر إلى القسطنطينية وتأدب ودرس على يد غريغوريوس النازينزي. على مدى هذه الفترة واصل الدراسة والتثقف. فتعلم العبرية وترجم إلى اللاتينية مواعظ أوريجانوس ومقالاته عن إرميا. وقد سمع داماسوس الذي صار أسقفًا في وقت قريب – عن چيروم ودعاه إلى روما ليصير أمينًا وسكرتيرًا للحبر الأعظم.

انتقاد چيروم لأرستقراطية روما:

بسرعة تقبل المجتمع الروماني شخصية چيروم. فقد كانت رسائله من الصحراء معروفة. وكانت سيدات المجتمع الأرستقراطي متلهفات على استضافته. لكنه لم يهتم بأن يكون رجل مجتمع ، وكتب نقدًا قاسيًا عن النساء المدللات ورجال الإكليروس المتدهورين الذين يتملقونهن. ودعاهم الفاسدين عديمي الأخلاق الذين يعيشون عالة، الواحد على الآخر تحت ستار كاذب من التقوى. كما كتب عن النساء المتظاهرات بالتدين: «يدعين أنفسهن راهبات وبعد وجبة دسمة من سبعة أطباق يحلمن بالرسل».

أخريات أقمن عرضًا فخمًا باسم العمل الخيري فوزعن الدراهم (يقصد القليل) على الجياع من فوق مركباتهن الذهبية، ومع ذلك زجرن وطردن أي شخص شديد اللهفة والإلحاح. إن لدينا حوائط ذهبية مصقولة وأعمدة ناعمة، ولكن حينما نترك فقراءنا يموتون فإن المسيح أيضًا يموت عريانًا وجوعانًا أمام أبوابنا».

چيروم يهاجم كل العلاقات الجنسية:

من بين كل ضعفات الجسد، كان چيروم يمقت

«الغريزة الجنسية» أكثر من أي شيء على الإطلاق. وكانت المرأه الصالحة الوحيدة لديه هي من كانت عذراء. لذلك كان يهاجم بشدة سيدات روما اللاتي كن يجمّلن أجسادهن. ويجعّدن شعورهن. ويضعن أحمر الشفاه. إلخ. لاجتذاب الرجال. وقد أبغض الزواج قائلاً: «الزواج يصلح فقط لأولئك الذين بسبب أهوال الليل لا يستطيعون النوم منفردين» . «أيضًا النساء يكبرن سريعًا ويسرعن إلى الشيخوخة. خاصة عندما يكون بجانبهن رجل». السبب الوحيد الذي من أجله امتدح الزواج. هو أن يثمر الزواج عن المزيد من العذارى اللاتي يصبحن راهبات. وقد كتب لأم أرادت ابنتها أن تنتذر للرهبنة. «لماذا يا أماه. تحقدين على ابنتك!؟ لقد رضعت من لبنك. وخرجت من أحشائك. ونمت وترعرعت بين ذراعيك. وبتقواك المثابرةحفظت سالمة. ولذلك أنت ساخطة لأنها رفضت الزواج من جندي. لكنها سوف تتزوج الملك (المسيح) بدلاً منه؟ لقد قدمت لك نعمة عظمى. إذ تصبحين أمًا – لعروس الله» (Epistle XXII: 20)

چيروم والسيدة بولا:

وكانت أقرب الشخصيات إلى چيروم هن النساء من أهل بيت أرملة واسعة الثراء اسمها «بولا Paula» مع ابنتيها چوليا ويوستوخيوم Julia and Eustochium وأخريات كثيرات. هؤلاء جميعًا نذرن أنفسهن راهبات. وبإقناع من چيروم. فقد كتب إليهن رسائل عديدة ممتدحًا حياة التقشف. قال فيها: «العذارى هن الصحراء المزدانة بالزهور».

چيروم ينتقل إلى بيت لحم:

في عام ٣٨٤م مات داماسوس. وتوقع چيروم أن يختاره خليفة له. لكن بسبب نقده المرير للإكليروس إلى حد انتقاده لداماسوس نفسه كان له بضعة أصدقاء والكثير من الأعداء في البلاط البابوي. كما أشيعت شائعات شريرة عن علاقاته بالنساء. وقال بعض الناس أن أحكامه التقشفية تسببت في موت إحداهن. فهرب من روما ولحقت به بولا ومن معها من العذارى إلى أنطاكية. وتوقفوا في أورشاليم ثم توجهوا إلى مصر حيث قاموا بزيارة الأديرة المشهورة في وادي النطرون. وانتهز چيروم الفرصة ليتعلم تحت قدمي ديديموس الضرير Blind Didymus الذي كان على رأس المدرسة الإسكندرية الجدلية الشهيرة بأسلوب الحوار في التعليم. ومن هناك رجعوا إلى فلسطين واستقروا في بيت لحم حيث قضى چيروم هناك بقية أيام حياته.

حياة الرهبنة في بيت لحم:

في بيت لحم تم بناء دير بالقرب من مغارة الميلاد. وبيت ضيافة للحجاج وذلك بأموال «بولا». وعاشت النساء القديسات عيشة متضعة وكرّسن ثروتهن للفقراء لمثل هذه المشروعات. وكتب چيروم عن سعادته هناك «كل شيء في بيت المسيح هذا – بسيط. وليس هناك سوى الترنم بالمزامير أو الصمت. فالحراث ينشد التسابيح وهو يحرث الأرض كما يتغنى الكرام بأغاني داود – وهو يهذب الأغصان. وهذه هي الأغاني الوحيدة التي ترنم هنا. وهي ترانيم الحب المألوفة لدينا (Epistle L XXV II: 7) كما كتب چيروم عن "يوستوخيوم" لإحدى قريباتها يقول: «أتمنى لو رأيت ابنة أخيك الآن. إنها تحفظ أجزاء كبيرة من الكتاب المقدس عن ظهر قلب. ومتعتها الصلاة. وتدرب رفيقاتها كجوقة ترنيم للمسيح. لقد كانت تأنف أن تسير

في الشوارع الموحلة، وكان لها خدم يحملونها، جاءت بالخدم يحملونها. أما الآن فبيدها تشذّب شريط المصباح، وتكنس الأرض، وترتب الموائد، وتجري هنا وهناك في خدمة الآخرين .... لو أن يوسف ومريم أتيا الآن إلى بيت لحم لوجدا المأوى ولقيا الترحاب (Ep.54)

الحجاج إلى بيت لحم:

كقرية يحج إليها الناس كانت بيت لحم مكانًا مشهورًا جدًا. وهناك عدة حكايات رواها چيروم عن القادمين والراحلين. كان بعضهم أصدقاء مثل «فيجلانتيوس Vigilantius» لكنه طرد لأنه شرب الخمر في لحظة ضعف، وهناك «سابنيانوس Sabinianus» الذي كسب ثقة چيروم ثم خان هذه الثقة عندما غرر بإحدى العذارى. لما ضغطت جحافل البربر على شمال الإمبراطورية، صلى چيروم أن يعتنق الكثيرون منهم المسيحية، الأمر الذي تحقق مع الكثيرين بالفعل إلا أن الحروب أرغمت المزيد من الناس على الهروب نحو الجنوب. وقد تذمر چيروم من هذا في إحدى رسائله: «شمال إفريقيا ومصر والشرق وبيت لحم نفسها إزدحمت باللآجئين المعدمين .. وقد إضطررت إلى الكف عن كتابة تفسير سفر حزقيال بل وتقريبًا عن كل الدراسات. إن جموع المشردين بلا مأوى جعلني أرغب في تحويل كلمات «الكتاب المقدس» إلى أعمال. ليس الكلام عن أمور مقدسة بل تنفيذها بالفعل (من مقدمة تفسيره لسفر حزقيال)

موت بولا:

في عام ٤٠٤م ماتت بولا. لقد أحبها چيروم وتعلق بها كما لم يتعلق بإمرأة أخرى. وإمتلأ حزنًا، وناح عليها حتى يوم مماته عام ٤٢٠م. وقد تم تنظيم جنازة مهيبة لها. وقد وقفت جوقة العذارى المرنمات حول الكفن لمدة ثلاثة أيام ينشدن الترانيم باليونانية واللاتينية والسريانية. كما نقش چيروم بنفسه على حائط قبرها آيات المديح في فضائلها وأفضالها وأصلها النبيل. ثم كتب فيما بعد إلى «يوستوخيوم» لم تترك لك أمك فلسًا واحدًا. بل فقط الديون وجموع المعوزين من الصبيان والبنات لتستمري في معونتهم. أيتها الابنة يوستوخيوم، لقد تسلمت ميراثا . (Epistle 108)

چيروم يناضل الآخرين:

تحدثنا عن الإنتاج الأدبي العظيم لچيروم. لقد كان بحق أديب عصره وعالم علماء زمانه. فبالإضافة إلى طوفان الرسائل (مجموع صفحاتها ألف وسبعمائه صفحة) ترك كتبًا في التفسير والتاريخ، وفي الإرشاد والتوجيه وفي قواعد اللغة.... إلخ. ومن أشهر كتبه كتاب De Viris Illustribus (عن مشاهير الرجال) الذي وصف فيه حياة أشهر رجال الكنيسة بداية بالرسول بطرس ونهاية بنفسه. كان چيروم مجادلاً عظيمًا. وقد تنازع مع «روفينوس» بشأن أوريجانوس فخسر بذلك صديق عمره. كما أجاب بعبارات قوية شرسة على النقد الذي وجّهه فيرجيلانتيوس وجوفينيان إلى الرهبنة وحياة التقشف قال: «اتركوا فيرجيلانيتوس» ينام، وفيما هو نائم تأتي الملائكة التي حلقت فوق مصر، لتهلكه مع المصريين. «وقد اختلف چيروم مع أوغسطينوس على تفسير غلاطية (ص ٢) مصرًا على أن بطرس فقط تظاهر بتأييد الفرائض الموسوية حتى أمكن لبولس أن يثبت أنه على خطأ. لما جاء بيلاجيوس (غريم أوغسطينوس) إلى فلسطين هاجمه چيروم بمرارة،

وحاول أن يعلن أنه هرطوقي. والواقع أن بيلاجيوس هاجم چيروم في بيت لحم. لكن شعب المدينة دافع عنه. كانت لديه فكرة سيئة عن أمبروسيوس ودعاه غرابًا. لم يكن يحجم عن استخدام أقسى عبارة في قاموس اللغة ضد معارضيه. وفيما يلي فقرة من رسالة عن الذين يسيئون تفسير الأسفار المقدسة.» ما أغبى هؤلاء الناس. كل واحد يظن أنه بإمكانه تفسير الكتاب المقدس.. العجائز يثرثرون. الشيوخ يهيمون في التخريف. السفسطائيون ببطونهم المنفوخة وروائحهم الكريهة كل هؤلاء يعتبرون أنفسهم أساتذة في التفسير. إنهم يمزقون الأسفار المقدسة ... بوقاحة ينقلون للآخرين كلامًا. هم أنفسهم لا يفهمونه.. *إنهم لم يكلفوا أنفسهم* حتى عناء الكشف عما يعنيه الأنبياء والرسل. لكنهم بتعسف يرتبون الفقرات والآيات الكتابية ويوفقونها معًا لكي تلائم المعنى الذي يقصدونه هم».

چيروم ليس عالمًا لاهوتيًا:

لم يكن چيروم لاهوتيًا مع أنه كتب في بعض الاحيان في مواضيع لاهوتية. في بدء حياته العملية. حاول الميليتيون أن يجعلوه يحدِّد رأيه في مسألة «الجوهر Ousis» في الثالوث. لكنه رفض المناقشة. وفي مسار حياته غير رأيه في أوريجانوس. مع أنه كان مخلصًا لقديس الإسكندرية.

چيروم يتحدث عن نشأة الأسقفية:

إن موقف چيروم من الأسقفية يستحق النظر «فهو يرى أنه في الأزمنة المبكرة الأولى. كان يقوم بالإشراف على الكنائس مجموعة من القسس ثم تطور الأمر إلى أن يوكل القسوس عملية الإشراف إلى واحد منهم. هو الذي أصبح يعرف بعدئذ بالأسقف The Church, Its changing imag through twenty (p93 وcenturies, John Knox, Atlanta (1997

وقد كتب چيروم نفسه في تفسير الرسالة إلى تيطس ما يلي (Commentary on the Epistle to (Titus (1: 6 – 7

فالقس إذن له نفس مكانة الأسقف. وقبل أن يدخل الطموح إلى الدين بتحريض من الشيطان وقبل أن يبدأ الناس في القول «أنا لبولس. وأنا لأبلوس وأنا لصفا» (اكو ١: ١٢) كان حكم الكنيسة يتم من خلال جماعة أو مجمع القسس العاملين معًا. لكن بعد أن بدأ كل منهم يعتقد أن من عمدهم هم خاصته. لا خاصة المسيح. صدر القرار بالإجماع باختيار أحد القسس ليرأس الآخرين.

چيروم يؤيد سيادة ورئاسة البابوية في روما:

في نفس الوقت لم يترك چيروم أدنى شك في اعتقاده الراسخ في سيادة بابا روما «حيث أني لا أتبع قائدًا إلا المسيح» فإني أضم نفسي مشتركًا مع غبطتكم (داماسوس) أي مع كرسي أسقفية بطرس. أعلم أن الكنيسة بنيت على تلك الصخرة. وكل من يأكل من الحمل خارج هذا البيت (مز ١٢: ٤٦) فهو نجس.

وكل من ليس في فلك نوح فهو هالك عندما يسود الطوفان». (From Epistle XV,.. adressed (to Pope Damasus

چيروم يترجم الفولجاتا:

إن الإنجاز الذي من أجله يذكر چيروم دائمًا. خصوصًا في الكنيسة الغربية. هو ترجمته

الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية وهي الترجمة المعروفة بالفولجاتا[1]. والتي ما تزال إلى يومنا هذا، النص الرسمي لكنيسة روما الكاثوليكية. وقد كانت هذه الترجمة حتى عصر الإصلاح هي النص الوحيد للكتاب المقدس لدى الكنيسة الغربية.

بل وحتى ترجمة لوثر للكتاب المقدس بالألمانية، في القرن ١٦، وترجمة الملك جيمس إلى الإنجليزية في القرن ١٧ كلاهما تعكس بعض استخدامات الفولجاتا[2] والإفادة منها، وهناك نحو ثلاثمائة وخمسين كلمة لاهوتية وكتابية مستخدمه حتى اليوم — كان چيروم قد صاغها في أثناء قيامه بالترجمة.

چيروم يترجم من العبرية:

كان چيروم مؤهلاً تأهيلاً عاليًا جعله جديرًا بهذه المهمة حيث أنه قد تعلم اللغة العبرية أثناء وجوده في الصحراء السورية. والقليلون جدًا من العلماء المسيحيين في عصره من الملمين باليونانية واللاتينية، اهتموا بدراسة اللغة العبرية. وقد حث البابا داماسوس چيروم كي يضطلع بهذا المشروع، لكنه حقيقة لم يبدأ العمل جديًا إلا بعد استقراره في بيت لحم. وهذا أيضًا مكنه من الاتصال بعلماء اليهود القاطنين في المنطقة. وكان هناك في ذلك الوقت نص لاتيني للعهد القديم من القرن الثاني الميلادي لكنه كان رديئًا جدًا. كما كانت هناك جزازات حد باللغة اللاتينية لكنها كانت مبنية على الترجمة اليونانية السبعينية للعهد القديم.

فعقد چيروم العزم على الترجمة من النص العبري «المشوري» Masoretic مباشرة (أقدم نص عبري) وقد حاول أوغوسطينوس إقناع چيروم بأن يترجم من اليونانية السبعينية *، التي كانت هي النص الوحيد للعهد القديم المستخدم في الكنيسة في ذلك الوقت. اهتم أوغسطينوس بذلك لأنه كان يعرف أن الترجمة من العبرية، ستنتج عنها اختلافات تسبب انزعاجا للمحافظين من شعب الكنيسة. لكن چيروم أصرَّ على مشروعه، وأكمل ترجمة الأناجيل في ٣٨٢م والعهد الجديد كله في ٣٨٦م». والكتاب المقدس كله في ٤٠٤م. وكما تنبأ أوغسطينوس، إعتبر الناس ترجمة چيروم «راديكالية» (ترجمة متطرفة) وبدملوماسيته المعهودة، دعا چيروم من انتقدوه» حميرًا يسيرون على رجلين، من يحسبون الجهل قداسة». وعلى أي حال كان لدى الكنيسة كل سبب يجعلها تذكر چيروم بالإمتنان من أجل الإنجاز العظيم الذي أسفر عن صدور الكتاب المقدس بلغة عامة الشعب — الفولجاتا.

شخصية چيروم:

من العسير أن نرسم صورة واضحة لشخصية چيروم. فلا شك في إنجازاته العلمية ورعايته لحركة الرهبنة. لكنه كان رجل المتناقضات الكثيرة، فقد وصفه أحد الكتاب بأنه «لين وعنيف» رقيق وفظ، متشامخ كالأشرار متواضع كالأطفال، رجل الكراهيات العميقة، والأهواء المريضة «آباء

(١) كلمة «فولجاتا» في اللاتينية تعني لغة عامة الشعب.

(٢) الترجمات العربية للكتاب المقدس، المستخدمة حاليًا في الكنائس القبطية الكاثوليكية والرومانية الكاثوليكية في مصر هي ترجمات مبنية على الفولجاتا.

الكنيسة الغربية» (Robert Payne, The Fathers of the Western Church, p. 90). أن تكون صديقًا له فلابد أن ذلك يعد اختبارًا نادرًا. لكن أن تكون عدوًا له فذلك هو الشيء المر حقًا. ومع أنه أظهر القليل من خصائص وأخلاقيات القديسين، فقد أعطته الكنيسة لقب قديس.

Recommended English Readings

1 – Boer, H. R. ***A Short History of the Early Church***, pp. 151 – 154.

2 – Bruce, F. F. ***The Spreading Flame***, pp. 332 – 333.

3 – Foster, John, ***Church History 1, The First Advance***, The TEF Study Guide, pp. 154 – 158.

4 – Jackson, F. J. F. ***History of the Christian Church to AD 461***, pp.480 – 490.

5 – Payne, Robert, ***The Fathers of the Western Church***, pp. 87 – 137.

6 – Schaff, Philip, ***History of the Christian Church, vol. III***. pp, 205 – 216, 967 – 988.

7 – Walker, Williston, ***A History of the Christian Church***, pp. 158 – 159.

8 – Wand, J. W. C. ***A History of the Early Church to AD 500***, pp. 207 – 211.



الفصل الثالث

ثلاثة آباء شرقيون



من المناسب في هذا المجال أن نذكر ثلاثة من آباء الكنيسة الشرقيين، أقل شهرة في الغرب لكنهم مكرّمون في الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، هم: كيرلس الأورشليمي، وأبيفانيوس أسقف قبرص، وأفرايم السرياني أسقف سورية.

١- كيرلس أسقف أورشاليم (٣١٠-٣٨٦م.)

Cyril of Jerusalem

نعرف القليل عن حياة كيرلس المبكرة عدا كونه تربّى في بيت مسيحي. وقد رُسم اسقفًا لأورشاليم في سنة ٣٥٠م. لكنه عُزل في وقت لاحق بقرار من مجمع أريوسي.

تميزت حياته بالصراع لأنه كان يدافع عن الإيمان النيقوي ضد الأريوسيين. وقد أعيد إلى كرسيه ثانية لكنه عُزل مرة أخرى وفي حكم الإمبراطور فالينز الأريوسي. أخيرًا سمح له الإمبراطور ثيودوسيوس بالعودة أسقفًا لأورشاليم حيث خدم لآخر أيام حياته. أبرز إنجاز قام به كيرلس هو كتاب به ثلاثة وعشرون تعليمًا كتبه سنة ٣٤٧م، مقدِّما معرفة كاملة لمن كانوا يستعدون للدخول في عضوية الكنيسة، هذا بالإضافة إلى محاضرات أخرى تبين تفاصيل عديدة عن ممارسات العبادة في كنيسة أورشاليم في القرن الرابع الميلادي.

٢- أبيفانيوس أسقف قبرص (٣١٥-٤٠٣م.)

Epiphanius of Cyprus

ولد أبيفانيوس في فلسطين، يقال من أبوين يهوديين، وبذلك فهو الوحيد من آباء الكنيسة من أصل يهودي. اعتنق المسيحية في سن السادسة عشر. وقضى سنوات عديدة في أديرة مصر، ثم عاد إلى فلسطين وأسس ديرًا في تلال اليهودية. في عام ٣٦٧م اُنتخب أسقفًا لمدينة سلاميس Salamis (عاصمة قبرص) حيث قضى رئيس مقاومة الهرطقة، منكرًا على الكنيسة استخدام التعليم اليوناني أو التفكير اللاهوتي أو النقد التاريخي. وأشهر أعماله كتاب عنوانه The Panarium the medicine chest (صندوق الدواء) يحتوي على مضادات لسموم هرطقات بلغ عددها ثمانين هرطقة، عشرون منها سابقة على وقت المسيح. وكانت أحكامة قاسية لا يسمح فيها بالحل الوسط. وكانت ترجمته الدقيقة لصحة عقيدة نيقية كانت الوحيدة المُسلَّم بها. يهتم

العلماء بمؤلفاته اليوم خصوصًا لأنها المصدر الوحيد للعديد من الكتابات الهرطوقية والجدلية في الأزمنة المبكرة.

٣ - أفرايم أسقف سورية (٣٠٦-٣٧٣م.)

Ephraem of Syria

الكنيسة السورية الأرثوذكسية تكرم أفرايم بدرجة عظيمة كرجل كنيسة وخطيب وشاعر. ويلقب «بعمود الكنيسة» «ونبي السوريين»، «وقيثارة الروح القدس». ونعرف القليل جدًا عن حياته. هناك تقليد يقول إنه ولد من أبوين وثنيين في إديسّا، ولما أظهر شغفًا بالمسيحية طرد من البيت، وتثقف على يد أسقف نصيبين Nisibis وحضر مجمع نيقية. وعاش ناسكًا في كهف بالقرب من إديسّا، التي كانت وقتئذ المركز الرئيسي لتعليم المسيحية في سورية. كما قضى أيضا سنوات عديدة بين رهبان مصر ونساكها وفيما بعد تعرف على باسيليوس الكبير أسقف قيصرية الذي رسمه شماسًا. وأراد باسيليوس أن يقيمه أسقفًا لكن أفرايم ادعى الجنون لكي يهرب من مسئولية الوظيفة. وقبل وفاته بفترة قصيرة حدثت مجاعة قاسية في إديسّا. فألقى أفرايم عظة قوية ضد الأغنياء لتركهم الفقراء يموتون من حولهم. فنخستهم ضمائرهم لدرجة أنهم قدموا المال والأمتعة لأفرايم كي يوزعها بين من يعانون من المجاعة. ويتذكر الناس أفرايم بصفة خاصة بسبب تقوى حياته، وتفاسيره لأسفار الكتاب المقدس ومواعظه وشعره. فقد كتب الكثير من الترانيم ليقاوم بها تأثير مفعول بعض الترانيم الهرطوقية، وكانت كل الكنائس السريانية تتغنى بترانيمه. وماتزال ترانيمه باقية إلى اليوم باللغة السريانية مع ترجمتها إلى اللغات الأرمانية واليونانية واللاتينية.

ومواعظه وشعره. فقد كتب الكثير من الترانيم ليقاوم بها تأثير مفعول بعض الترانيم الهرطوقية، وكانت كل الكنائس السريانية تتغنى بترانيمه. وماتزال ترانيمه باقيه حتى اليوم باللغة السريانية مع ترجمتها إلى اللغات الأرمنية اليونانية واللاتينية[1].

(١) المادة في هذا الجزء مأخوذة من كتاب فيليب «شاف» بعنوان «تاريخ الكنيسة المسيحية»
Philip Schaff, ***History of the Christian Church vol. III***, pp. 924- 933, 949- 954.

الفصل الرابع

يوحنا كريسوستوم «فم الذهب»

Chrysostom (٣٤٥ – ٤٠٧م.)



كريسوستوم «فم الذهب أو ذهبي الفم»:

نتجه الآن إلى أحد عظماء الكنيسة الشرقية. وقد إكتسب لقبه «ذهبي الفم» «فم الذهب» بسبب حسن بيانه وفصاحة مواعظه. ولو أن هذا اللقب لم يلصق به حتى القرن السادس أو السابع.

حياة ذهبي الفم العائلية:

ولد يوحنا وترعرع في أنطاكية في ٣٤٧م. وكان أبوه ضابطًا عسكريًا مرموقًا. كانت أمه أنثوزا «Anthusa» سيدة مسيحية تقية جدًا. أثرت كثيرًا في حياة إبنها. مات زوجها وهي في سن العشرين. لكنها رفضت الزواج مرة ثانية مكرسة نفسها لخدمة الكنيسة وقد درس يوحنا علم البيان على يد أستاذ وثني ليبانيوس وقد قال ليبانيوس «Libanius» متأثرا بتقوى «أنثوزا» وحياتها المكرسة «ما أبدع السيدات الموجودات بين المسيحيين».

فم الذهب ، الطالب:

إنجذب يوحنا إلى حياة العلم والأدب وتلقى تدريبه كخطيب على يد «ليبانيوس» الذي اعتبره أفضل تلاميذه. استمر يوحنا لبعض الوقت خطيبًا. لكن سرعان ما قرر أن يدخل الخدمة المسيحية. وبعد ثلاث سنوات من التعلم عمده ميليتيوس أسقف أنطاكية (بحسب النظام وقتئذ. لم يعتمد يوحنا حتى بلغ الثامنة عشر من عمره) . ولما سئل ليبانيوس عمن يختار خليفة له قال: «يوحنا لو لم يخطفه المسيحيون».

فم الذهب في الدير:

جذبت حياة الرهبنة يوحنا لكن من أجل أمه مكث في أنطاكية يخدم بصفة قارئ[١] لكن لما ماتت «أنثوزا» دخل الدير واستقر هناك يدرس ويتأمل لمدة ست سنوات. وكانت فرصة وجوده في الدير. سببًا في تنمية علاقاته بكل من ديودوروس

(١) رتبة كهنوتية ثانوية.

Diodorus وثيودور Theodore من موبسوسيتا Mopsuestia. وقد وجه يوحنا رسالتين – من أهم رسائله – إلى ثيودور محاولا إقناعه بعدم الزواج. ولكن بحلول سنة ٣٨٠م اضطر يوحنا إلى أن يترك الدير بسبب ضعف صحته وذلك نتيجة لممارساته التقشفية العنيفة. وعاد إلى أنطاكية في ٣٨٦م حيث رسم شماسًا وبعد فترة وجيزة، قسيسًا** بيد الأسقف فلافيانوس.

فم الذهب في أنطاكية:

كانت السنوات الست عشرة أو السبع عشر التي قضاها ذهبي الفم في أنطاكية أسعد أيام حياته وأغزرها إنتاجًا حيث كتب الكثير من المواعظ والتفاسير. وقد نمت مواهبه الخطابية الباهرة هنا إلى أقصى مداها، وكانت الحشود المحتشدة من جماهير الشعب تأتي لسماع عظاته. وتدور أشهر مواعظه حول «التماثيل»، ألقاها تشجيعًا للناس بعد أن حطموا تماثيل الإمبراطور وأسرته احتجاجا على فرض الضرائب الباهظة المتزايدة. كذلك فإن كتابته عن مسئوليات الخادم المسيحي، مشهورة جدًا.

فم الذهب واعظًا:

تميزت مواعظ يوحنا ببساطتها وبلاغتها وقد تحاشى الأسلوب المجازي التي إتبعه وعاظ الإسكندرية. وكانت كرازته تفسيرية إيضاحية تكشف الحق الكتابي البسيط وطبقه على الحياة اليومية. لم يكن واعظًا لاهوتيًا بل كارزًا عمليًا. كان يستعد بعناية معتمدًا على الكتاب المقدس كمصدر رئيسي لعظته. وقد سجل أحد المؤرخين ليتزمان (Lietzmann III, p. 312) أن يوحنا ألقى:

تسعين عظة على «إنجيل متى»

خمسًا وخمسين عظة على «أعمال الرسل»

اثنين وثلاثين عظة «على رومية»

سبعة وستين عظة على «سفر التكوين»

وفي فترة واحدة تكلم عن تفسير إنجيل يوحنا لمدة أربعة وأربعين أسبوعا صباح كل يوم سبت وكل يوم أحد، أي بإجمالي ثمان وثمانين عظة بدون توقف. وكانت جموع المستمعين من الشعب تؤخذ بقوة كلماته حتى أنهم كانوا يندفعون مصفقين منتشين إعجابًا بقوة تعليمه، برغم اعتراض يوحنا بعدم لياقة التصفيق في قدس الكنيسة.

فم الذهب رئيسًا لأساقفة القسطنطينية:

بسبب شهرته العظيمة، أختير يوحنا في عام ٣٩٨م رئيسًا لأساقفة القسطنطينية، وكان ذلك ضد رغبته. فلما تسلم مهام وظيفته لاحظ أمورًا داخل وخارج الكنيسة لم يرض عنها. كان الأساقفة يكرمون وفادة الكهنة والرهبان، كما كان الأغنياء يولمون لهم الولائم في بيوتهم. وكان المتوقع أن يرحب رئيس الأساقفة بنبلاء البلاط الإمبراطوري بنفس الطريقة. لكن يوحنا ذهبي الفم وضع حدًا لهذا كله. فكان يأكل منفردًا مكتفيًا بالقليل من الطعام، وقد أمر أن يعود الكهنة إلى كنائسهم والرهبان إلى أديرتهم. وبدأ الآن في استخدام الأموال التي كانت تهدر في الولائم الباذخة، للعناية بالفقراء والمرضى. من منبر الكاتدرائية، وبخ إسراف الأغنياء، وعروض

(**) عمليًا هذه رتبة كاهن. في ذلك الوقت كانت الكلمات تقريبًا مترادفة. في العصور الوسطى اختفت كلمة شيخ Presbyter.

ومباريات الوحوش المفترسة في الملاعب ورذائل البلاط. كان صوته هو الوحيد لكنه الصوت القوي الذي ارتفع محتجًا ومدافعًا عن الضعيف ضد الظالم، وعن الفقير ضد الغني، وعن الفضيلة ضد الرذيلة. كما حث الأغنياء وأصحاب الأراضي أن يبنوا الكنائس في مقاطعاتهم وأن يحاولوا هداية العاملين معهم إلى الحق.

كان يوحنا يؤمن بأن القدوة الحسنة لها نفس أهمية الوعظ والتعليم، فمن أقواله «لن يوجد وثنيون إذا نحن كنا مسيحيين حقيقيين».

توجيه النقد إلى ذهبي الفم:

كان أسلوب يوحنا في الحديث حادًا وصريحًا. إذا رأي خطأ لا يخفف من لهجته. من الطبيعي جدًا أن يوجد الكثيرون الذين بدأوا يكرهونه ومعظمهم كانوا أقوياء، والإمبراطورة إيدوكسيا Eudoxia (زوجة الإمبراطور اركاديوس Arcadius) التي كانت في أول الأمر تكرم يوحنا، إستاءت منه بسبب الملاحظات التي أبداها منتقدًا طريقة حياتها المبذرة كما أن ثيوفيلس أسقف الإسكندرية الذي أراد أن يحسم اختيار رئيس أساقفة القسطنطينية بدأ يتهم يوحنا بالهرطقة الأوريجانية. وهذه كانت جزءًا من حملة كان يقودها أبيفانيوس (أسقف سلاميس في قبرص) منتقدًا الذين اتبعوا طريقة أوريجانوس المجازية لتفسير الكتاب المقدس[٢]. لم يكن يوحنا نفسه يستخدم مثل هذه الطريقة، لكنه ارتبط بها لأنه كان يأوي أربعة رهبان من مصر فروا من ثيوفيلوس لإتهامهم بالأوريجانية.

عزل فم الذهب في «مجمع البلوط» (Oak):

قرر ثيوفيلوس أن الوقت قد حان لمواجهة يوحنا، لذلك سافر في عام ٤٠٠م إلى خلقيدونية من القسطنطينية عبر البوسفور مع ٢٨ من أساقفته، ظاهريًا ليدافع عن معاملته للرهبان الأربعة، لكن عمليًا ليهاجم رئيس الأساقفة يوحنا. فدعا ثيوفيلوس يوحنا إلى مجلس في قصر البلوط، ولما رفض يوحنا وأساقفته الحضور، كان من السهل على ثيوفيلوس أن يحصل على أصوات كافية في المجلس لعزله. وكان يمكن لهذا الإجراء أن يصبح عديم الأثر لو لم تحاول الإمبراطورة أيدوكسيا Eudoxia الغاضبة على يوحنا، إقناع زوجها أركاديوس بالتصديق على قرار مجلس البلوط. لكن بسبب شهرة يوحنا الشعبية أمكنه البقاء في مركزه بعض الوقت. وحسب قوله «كنيستي ظلت وفيه لي» فرعوننا الحديث اشتهى أن يأخذها منى كما سبق أن أخذ فرعون القديم سارة. لكن مرة أخرى بقيت سارة طاهرة. الزناة تبلبلت أفكارهم.

عزل فم الذهب ونفيه وموته:

خلال شهرين تفجرت المتاعب ثانية. فقد أقيم تمثال من الفضة للإمبراطورة بجانب الكاتدرائية. فلم يتردد يوحنا في شجب هذه «الوثنية» مثيرًا بذلك غضب البلاط الإمبراطوري من جديد. وفي نفس الوقت كتب ثيوفيلوس نشرة ندد فيها بيوحنا قائلاً: «الشيطان متنكرًا في صورة

(٢) الأوريجانية في نظر من أدانوها كانت تعلِّم بسبق وجود الأرواح الإنسانية. وقد أعلن مجمع القسطنطينية في ٥٤٣م أنها هرطقة، كما أعلن أيضًا مجلس القسطنطينية العام في ٥٥٣م.

ملاك نور». وإستمر يوحنا في إلقاء عظاته ضد الإمبراطورة بأقوى لغة. «مرة أخرى هيروديا تهذي، مرة أخرى ترقص، مرة أخرى تطلب رأس يوحنا على طبق». أقيمت التهمة ضد يوحنا بأنه عاد إلى وظيفته قبل قرار مجلس البلوط. وانعقد مجمع جديد للأساقفة في القسطنطينية لكن في هذه المرة انقسموا وتناقص عدد من أرادوا مساندة يوحنا. وكان فلافيانوس أسقف أنطاكية رجلاً طاعنًا في السن وأضعف من أن يقدم له المعونة. وكان أهل القسطنطينية هم الأنصار الحقيقيين ليوحنا ذهبي الفم. لكن لم يكن لهم صوت في المجمع .وكان الضغط شديدًا من جانب البلاط الملكي. وفي عام ٤٠٤م وأدين يوحنا، وحكم عليه بالنفي إلى مدينة بعيدة في آسيا الصغرى. ولمدة سنوات عديدة استمر مشغولاً في كتابة رسائل مستأنفًا قضيته لدى روما لكن بدون نتيجة. فلقد أصدر الإمبراطور أوامره بنقل يوحنا إلى مكان أبعد على شاطئ البحر الأسود. لكن قبل استكمال الرحلة. مات يوحنا في ١٤ سبتمبر عام ٤٠٧م وهو يردد قائلاً: «المجد لله في كل الأمور».

الفرق بين الكنيستين الشرقية والغربية:

تمثل مأساة فم الذهب بأوضح صورة الفرق الشاسع بين الشرق والغرب في علاقات الكنيسة بالدولة. يقول «دبليو. إتش. سي. فرند W.H.C. Frend» مع أن فم الذهب اعترض على تفوق المركز الكهنوتي على الملكي. فإنه عند الاختيار كان موقفه الإذعان. وقد كتب عام ٣٨٧م «الإمبراطور لا ندَّ له على الأرض. لأنه رأس وتاج كل شيء في هذا العالم» (Homily on the Statues 11,2) بينما استطاع أمبروسيوس أن يتحدى أمرًا إمبراطوريًا ويصدر الأمر إلى إمبراطور. وعندما ووجه يوحنا بمثل هذه الضغوط لم يستطع أن يفعل شيئًا. وظل أمبروسيوس في ميلانو بينما ارتحل يوحنا إلى المنفى والموت. ليس هناك مثل سيرة حياة هذين الرجلين. تمثل بوضوح الفرق بين مكانة الأسقف الشرقي، ومكانة الأسقف الغربي. كما توضح الفرق في علاقات الكنيسة والدولة في شطري الإمبراطورية الرومانية» (The Early Church, pp. 223, 224).

فم الذهب. نيقوي في الفكر اللاهوتي:

كخلاصة يمكن القول أن يوحنا فم الذهب كان يمثل المدرسة الأنطاكية في الفكر اللاهوتي. لو عاش يوحنا في زمن لاحق لاتهموه بالنسطورية خلال المنازعات حول طبيعة المسيح. لم يكن إتهام ثيوفيلس ليوحنا ذهبي الفم بالأوريجانية إتهامًا ثابتًا وقانونيًا. مع أن مجمع الإسكندرية عام ٣٩٩م أعلن أن يوحنا مهرطق. وقد واجه يوحنا الأريوسيين والنوفاتيين. ويمكن القول بأنه اتبع المجرى الرئيسي للفكر اللاهوتي النيقوي كما وضُع حينذاك.

الفصل الرابع
أغسطينوس أسقف هيبو
(٣٥٤ – ٤٣٠م.)



١- حياة أغسطينوس:

ليس في الكنيسة المسيحية قائد نال فائق الاحترام وعظيم الثناء أكثر من أغسطينوس أسقف هيبو (Hippo) (تونس الحديثة). حتى أولئك الذين إنتقدوا فكره اللاهوتي يشهدون له بأنه المفكر الأكثر تأثيرًا في تاريخ الكنيسة الغربية.

شهرة أغسطينوس:

«وصف تعليم أغسطينوس بأنه أعلى درجات الإدراك الديني منذ العصر الرسولي... وقف على الخط الفاصل بين عالمين. العالم القديم الكلاسيكي الذي أوشك على الاختفاء، وعالم العصور الوسطى، الذي لم يكن قد ولد بعد. وهو يجمع في نفسه أفضل ما في الثقافة القديمة وينشرها ممهورة بكل ما لشخصيته من خصب وحيوية، لكي يحيي الثقافة الجديدة.. كنسيًا يمكن القول بأن أغسطينوس هو أبو كل من كاثوليكية العصور الوسطى والبروتستانتية الحديثة. وكثيرًا ما يوصف الإصلاح نفسه بأنه ثورة بسبب تعليمه وعقيدته عن النعمة ضد تعليمه وعقيدته عن الكنيسة» (تاريخ الكنيسة الأولى Wand. JWC – A History of the Early Church to A.D. 500. P.224)

اعترافات أغسطينوس :

من حسن الحظ أن لدينا قصة حياة أغسطينوس كما سجلها هو نفسه في ترجمة حياته الشهيرة «بالاعترافات» ويعتبر هذا العمل في حد ذاته قمة مؤلفات أغسطينوس. وهذه الإعترافات مكتوبة في شكل صلاة طويلة لله. صيغت جزئيًا على نمط المزامير، وتعبر عن الكثير من فكر أغسطينوس اللاهوتي. أحد الكتَّاب سمى «الاعترافات» بأنها صورة كائن بشري ثابت الأركان، الذي في محضره تسقط حواجز الزمان والمكان لكي تظهره إنسانًا قريبًا من كل الوجوه من أنفسنا، كائن متفرد للآن في تاريخ البشرية، لكنه مكسو بفضائل وعيوب الجنس البشري. وقد قال الأمريكي وليم جيمس، فيلسوف القرن التاسع عشر – عن أغسطينوس أنه «أول إنسان عصري» Cochrance, C.N.) (Christianity and Classical Culture. P. 387

سنوات عمره الأولى:

ولد أغسطينوس في ١٣ نوفمبر عام ٣٥٤م في مدينة «سقسطة» النوميدية Thagaste (الجزائر الحديثة) كان أبواه في سعة من العيش. وقد صار

أبوه الوثني – مسيحيًا – فيما يقال عام ٣٧٠م قبل وفاته مباشرة. أما أمه فكانت إمرأة مسيحية حقيقية. وكان لها تأثير قوي على حياة ابنها في صباه. فقد أدخلته الكنيسة كشاب مبتدئ يتعلم ليعد نفسه لعضوية الكنيسة. لكن أغسطينوس فضل حياة الانطلاق والحرية وطلب المتعه. التي سجلها بكل مشاعر الإحساس بالذنب في كتابه (الاعترافات) وأرسله أبواه ليدرس علم البيان والبلاغة في قرطاجنة (تونس الحديثة). وفي أثناء وجوده هناك اتخذ له محظية[1] عاشت معه لمدة الأربعة عشر عامًا التالية. وقد ولدت له ابنا اسمه أديوداتوس Adrodatus (عطية الله) وكان حبيبًا إلى قلب أغسطينوس أبيه. اكتسب أغسطينوس تميزًا في دراساته للعلوم اللاتينية التقليدية. وسرعان ما عُين أستاذًا للبيان والبلاغة في مدينة ثافاستا ثم في قرطاجنة في وقت لاحق.

الصراع الذهني والأخلاقي:

تميزت سنوات الشباب هذه بالصراع العقلي والأدبي العنيف. فقد حولت دراسته وقراءته لشيشرون (القانوني والفيلسوف الروماني) فكر أغسطينوس نحو الدين فبدأ يدرس الأسفار المقدسة لكنه شعر أن الكتاب المقدس أدنى من العلوم اللاتينية التقليدية. ولما تحول عن هذا جذبته بالفلسفة الثنائية لجماعة المانويين The Manichees (انظر صفحة ١٠٦ المجلد الثاني) وفي نفس الوقت اضطرب اضطرابًا عظيمًا بسبب حياة الفجور التي كان يحياها. ولم يكن في وسعه إلا أن يصلي «هبني الطهارة يا رب. لكن ليس الآن».

أغسطينوس والمانوية:

ظل الشاب أغسطينوس لمدة السنوات التسع التالية تابعًا أمينًا للعقيدة المانوية فقد راقته فلسفيًا وأدبيًا. فقد كانت الحياة لدى المانويين عبارة عن صراع بين الخير والشر. النور والظلام. على شرارة النور داخل كل إنسان أن تتطهر بأقسى الممارسات الأدبية الأخلاقية من الجسد الفاسد الذي يغلفها وقد إنجذب أغسطينوس لهذا التشديد وراقه كثيرًا هذا التأكيد اعترضه وهو في صراعه مع مشاكله الأخلاقية الخاصة. وفي الواقع كان البعض يعتبر أن المانويين في شمال إفريقيا – مسيحيين. فقد اقتبسوا من كتب الأبوكريفا عن حياة الرسل وأيضًا من أجزاء من رسائل بولس بما يتفق مع أغراضهم. فكانوا يحبون بنوع خاص حديث بولس عن النعمة (أف ٢: ١- ١٨). ولذلك فبإنتمائه إلى المانوية لم يشعر أغسطينوس أنه خرج عن المسيحية وخانها. بل بالأحرى قبل تعليم المانوية كصورة أعلى من المسيحية وأكثر منطقة منها. والواقع أنه نجح في تحويل بعض أصدقائه إلى الإيمان بالعقيدة المانوية. ولكنه تدريجيًا وجد عيوبًا في التعليم المانوي. وعندما انتقل من قرطاجنة إلى روما في عام ٣٨٣م صار أكثر شكًا وبازدياد ضيقه وتبرمه بالمانوية كان اهتمامه بالأفلاطونية الحديثة ينمو ويزداد. وقد أدت الكتابات الأدبية التي قرأها ولعلها من كتابات بلوتينوس وبورفيري – أخيرًا إلى إجتذابه بعيدًا عن المانوية كما غيرت من فكره

(١) جدير بالملاحظة أن اتخاذ محظية كان إجراء عاديًا ومقبولاً بين المسيحيين في ذلك العصر. في سنة ٤٠٠م أصدر سنودس أسباني قرارًا بأنه طالما كان الإنسان أمينًا للمحظية كما لو كانت زوجة له فإن علاقتهما لم تكن عقبة في سبيل تناولهما القربان. البابا «ليو» (٤٠٠ - ٤٦١م) اعتبر الزواج بواحدة صالحًا إذا ترك الرجل محظيته وعقد زواجًا قانونيًا بأخرى.

عن الواقع والحقيقة. فرأى الله مصدرًا وحيدًا للحقيقة، ورأى في الشر ابتعادًا عن الصلاح ورفضًا لإرادة الله. إن معرفة الله هي أسمى البركات. ومن خلال تأثير هذه الأفلاطونية الحديثة استطاع أوغسطينوس ثانية أن يعتبر نفسه مسيحيًا، ولو أنه مسيحي غير مبال.

أغسطينوس وأمبروسيوس:

في عام ٣٨٤م انتقل أغسطينوس إلى ميلانو حيث استمع إلى عظات أمبروسيوس أسقف ميلانو القوية التي أعادت إلى أغسطينوس احترامه العقلي للمسيحية بعد أن كان قد فقده. وانتقلت أمه مونيكا إلى ميلانو وحثته أن يتخلى عن محظيته ويتزوج من أخرى قانونيًا، وتم عقد الزواج. لكنه لم يعاشرها معاشرة الأزواج طول حياته معها. فقد دخل أغسطينوس أقسى أزمات حياته الروحية وأكثرها يأسا فإذا كانت الأفلاطونية قد أفلحت في إقناعه عقليًا بحقيقة المسيحية. فقد ظل يشعر بالإنجذاب نحو مغريات العالم «المتعة، المال، المجد، المركز». لم تكن هناك دموع الاعتراف ولا الخضوع لله ولا التواضع، ولا الدعوة إلى الإقتداء بالمسيح.

وقد قال في إحدى رسائله: «في كل الجوانب أريتني وأوضحت لي أن كلماتك حق، وأنا إذ تدينني الحقيقة والحق ليس لدي ما أجيب به سوى الكلمات البطيئة المتكاسلة الآن، الآن أتركني وحدي لفترة وجيزة» (Contra Ep. Parmenniani 1: 10- 16)

صراع أغسطينوس الروحي:

كان أغسطينوس في أحد الأيام مع صديقه أليبيوس «Alypius» في حديقة خارج ميلانو. وهذه فقرة من إعترافاته» هناك هبت في داخلي عاصفة عاتية، مفجرة ميازيب الدمع من عيني، فلكي أسكبها سكيبًا مع ما يصحبها من صراخ ونحيب إنفردت عن أليبيوس بعيدًا في خلوة وحدي حتى لا يحد قربه مني من مشاعري. وانطرحت تحت شجرة تين وأرخيت لدموعي العنان... وصحت مع المرنم.. إلى متى يا رب؟ إلى متى يا رب تحجب وجهك عني إلى متى تغضب عليّ؟ إلى متى، إلى متى، غدًا وغدًا؟ لماذا ليس الآن؟ لماذا لا تجعل من هذه الساعة نهاية لنجاستي؟

خذ واقرأ:

«نطقت بهذه الكلمات لحظة إجهاشي بالبكاء في شدة إنسحاق قلبي بمرارة..... وها أن صوتًا يخرج من بيت مجاور كأنه صوت صبي أو صبية، لا أدري، يغني ويكرر قائلاً، «خذ واقرأ – خذ واقرأ». ومن ثم حبست سيل دموعي ونهضت، مفسرًا ذلك بأنه ليس إلا صوتًا إلهيًا يأمرني بأن أفتح الكتاب المقدس واقرأ أول فصل يقع عليه بصري. لأني كنت قد سمعت أن أنطونيوس (انظر صفحة ١٣٦ المجلد الثاني) دخل الكنيسة أثناء قراءة الإنجيل فسمع العبارة التي اتخذها كلمة خاصة له، وكانت تقول: «إذهب وبع أملاكك واعط الفقراء، فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني» (مت ١٩: ٢١). وبذلك تم تجديده فورًا. بهذا الباعث الداخلي رجعت إلى حيث كان يجلس صديقي وحيث كنت قد تركت كتاب رسائل بولس .. وأمسكت الكتاب في صمت وقرأت أول ما وقع عليه نظري، «لا بالبطر والسكر، لا بالمضاجع والعهر، لا بالخصام والحسد، بل البسوا الرب يسوع المسيح ولا تصنعوا تدبيرًا للجسد لأجل الشهوات» (رو ١٣: ١٣، ١٤). ولم أقرأ سواها، ولا رأيت نفسي في حاجه إلى أكثر منها. ففي لحظة الإنتهاء من قراءة هذه الجملة، أحسست قلبي كأنما قد غمره شهاب من نور السلام

وومضة من شمس البر إختفت كل ظلال الشك وذابت» (Confessions XIII, 12: 29)

الله يجد أوغسطينوس:

وهكذا فإن قصة اختبار التجديد هذه شبيهة بقصة تجديد بولس الرسول في الطريق إلى دمشق. وقد تم تجديد أغسطينوس في صيف عام ٣٨٦م. وفي وقت لاحق كتب أغسطينوس ممتدحًا ما حدث له «أحببتك يا إلهي متأخرًا، أيها الجمال، أنت القديم وأنت الجديد. أحببتك متأخرًا! هاأنت كنت في الداخل لكني كنت في الخارج». وهناك كنت أبحث عنك، وفي حسن خليقتك أغرقت نفسي في قباحتي، لأنك كنت معي وأنا لم أكن معك... أنت دعوتني وبصوت عال نفذت إلى صميمي. أضأت لي وأشرقت بنورك لتطرد عني عمى بصيرتي. أنت نفخت نسمة الحياة وأنا تنفست النسمة وأرجعت أنفاسي إليك.. أنت لمستني وأنا أكتوي في سبيل السلام. اذا كنت أنا، بكل ما في داخلي، يمكن أن أعيش مرة فيك إذن لتركني العذاب وهجرتني المتاعب. عندما أمتلئ منك تمامًا، يصبح كل شي حياة بالنسبة لي. ولنذكر هنا أشهر كلمات أغسطينوس «لا يستريح قلب إنسان حتى يجد راحته فيك» (الاعترافات ١: ١)

أغسطينوس أسقفًا على هيبو Hippo

استقال أغسطينوس على الفور من وظيفته كمدرس وانسحب لبضعة شهور مع فريق من أقرب أصدقائه وبدأ يعيد النظر في فلسفته على ضوء اختيار تجديده. وهنا كتب بعض رسائله الأولى، مقدمًا إجابات مسيحية أساسية على أسئلة فلاسفة الأفلاطونية الحديثة. عند حلول عيد القيامة في عام ٣٨٧م عمده أمبروسيوس مع ابنه أديوداتوس وصديقه أليبيوس. وخطط آنذاك للعودة إلى ثاقاستا لكن موت أمه أعاقه بعض الوقت. إن وصف أغسطينوس عن هذه المأساة الشخصية هي إحدى أنبل الوثائق وأروعها في الأدب المسيحي Confessions IX 10:12

وأخيرًا عند وصوله إلى ثاقاستا، قضى السنوات الأربع التالية يعيد النظر في آرائه اللاهوتية كما نظم شكلاً لامانويًا لحياة الرهبنة، وحاول إقناع أصدقائه الذين سبق أن ربحهم للمانوية، لكي يعودوا الآن إلى الكنيسة. في ثاقاستا ذاق ألم الفراق مرة أخرى في موت «أديوداتوس». في عام ٣٩١م إزدادت شهرة أغسطينوس إلى درجة رسامته قسيسًا في هيبو وكان ذلك ضد رغبته. بعد أربع سنوات رسم أسقفًا شريكًا في كنيسة هيبو القريبة من قرطاجنة ولما مات فاليريان المتقدم في العمر، أصبح أغسطينوس الأسقف الوحيد.

زعامة أغسطينوس في «هيبو»:

ظل أغسطينوس يخدم في هيبو لمدة ٣٥ سنة حتى وفاته في عام ٤٣٠م. فجعل من هيبو مركزًا فكريًا ثقافيًا لكل الكنيسة الغربية، مؤسسًا ديرًا صار مدرسة لتعليم رجال الإكليروس. بعد عدة سنوات أصبح هذا الدير مركزًا لنظام الرهبنة الأغسطينية الذي أنتشر على امتداد أوروبا. وقد كان مارتن لوثر راهبًا أغسطنيًا. وقد اتبع أغسطينوس نفسه في حياته أسلوب التقشف كرهبان الدير. وكان يفضل حياة التأمل، لكنه أيضًا كان أمينًا لواجباته الرعوية في الأسقفية. كان يعظ كثيرًا، أحيانًا مرتين في اليوم، وكان مكرسًا لخدمة الفقراء. في إحدى المناسبات باع أواني الكنيسة ليفتدي سجناء من السجن. وبسبب

حماسته وشغفه بكل الأمور اللاهوتية والكنيسة وبفضل مواهبه المتميزة الفريدة فإنه سرعان ما صار الرأس المفكر للكنيسة الغربية. وكما قال عنه فيليب سكاف «في أوغسطينوس تركزت كل قوة الجدال والحوار للكاثوليكية في ذلك العصر ضد الهرطقات والشقاق. وبه نالت الكنيسة النصرة عليها History of The Christian Church,) (vol III, p.994 وفي آخر سنوات عمره تخربت المناطق الريفية لشمال إفريقيا عندما قامت قبائل الفاندال بغزوها (والفاندال قبائل متوحشة من شمال أوروبا). مات أغسطينوس آنذاك وهو محجوز في «هيبو» المحاصرة. ومات بهدوء وسلام يوم ٢٨ أغسطس عام ٤٣٠م وهو في السادسة والسبعين من عمره.

٢- أغسطينوس ضد الدوناتيين

مشكلة الدوناتية Donatism

عندما أصبح أغسطينوس أسقفًا لـ «هيبو»، كانت في شمال إفريقيا كنيستان. فبجانب الكنيسة الكاثوليكية (أي الكنيسة الرومانية الكاثوليكية)، أقيمت كنيسة دوناتية منذ عصر «كبريانوس» Cyprian منذ خمس وثمانين عاما مضت. الدوناتيون كما نذكر انفصلوا ليكونوا كنيسة خاصة بهم إحتجاجًا على رسامة الأسقف سيسليليان Caecilian في ٣١١م. وكان أحد الأساقفة الذين اشتركوا في إجراءات الرسامة قد سبق اتهامه بتسليم الأسفار المقدسة إلى جنود الإمبراطور خلال إضطهادات «دقلديانوس Diocletian». ومن ثم كانت الرسامة من وجهة نظر الدوناتيين باطلة. وعلى مدى القرن الرابع استمر هذا الجدل في شمال أفريقيا وإيطاليا. علمًا بأنه لم يكن هناك فرق البتة بين الكنيستين الكاثوليكية والدوناتية في العبادة والتنظيم والفكر اللاهوتي. إلا أن الدوناتيين اعتبروا أنفسهم الكنيسة الحقيقية وكل الكنائس الأخرى مرتدة[٢]. وكانت لهم كنائس كثيرة العدد وموجودة في كل مدينة تقريبًا إلى جنب مع الكنائس الكاثوليكية الموالية لروما وكان للدوناتيين قيادة معبرة ومقتدرة. وقد اشتدت المشاعر المريرة بين الفريقين بسبب الأعمال الأرهابية التي شنتها العصابات الدوناتية المسلحة.

الدوناتية تهدد وحدة الكنيسة:

فيما يختص بأغسطينوس كان عار الدوناتيين في رأي أغسطينوس هي انتهاكهم لوحدة الكنيسة. كما كتب لهم «أنتم جميعًا مذنبون بجريمة الانشقاق، ولا يمكن لأي واحد منكم أن يدعي أنه لم يشترك في ذلك الانتهاك البشع طالما أنه يرفض الدخول في شركة مع وحدة كل الأمم Contra lit Petiliani II: 180». لقد كان أغسطينوس ينمي مفهومه عن «مسكونية» وشمولية الكنيسة، بينما كانت الدوناتية تحديًا لذلك المفهوم. ويصف

---

(٢) لاحظ هنا الفرق بين الانشقاق والهرطقة Schism& Herasy. فالانشقاق معناه الانفصال عن الكنيسة بسبب موضوع نظام الكنيسة أو سياستها. بينما الهرطقة معناها اتباع عقيدة أو مبدأ يخالف الفكر اللاهوتي المسلم به (كما في حالة الأريوسيين). وعلى أي حال فكما قال توما الإكويني: من أول نظرة ومن زاوية واحدة يبدو الشقاق أمرًا مختلفًا عن الهرطقة. لكن لا يوجد شقاق لم يكوّن لنفسه هرطقة ما -مثل- أنه من الصواب أننا تركنا الكنيسة» (Sunna Theologice XXXX) وقال أغسطينوس نفسه: «الهرطقة هي انشقاق نما وكبر»..

ذلك بول جونس مؤرخ الكنيسة فيقول: «كانت هذه خطة الله. كان لدى أغسطينوس وجهة نظر عن تطور البشرية وهي أن هناك ستة عصور، والإنسان يعيش الآن في العصر الأخير، بين المجيء الأول للمسيح ومجيئه الثاني، حيث تستوعب المسيحية العالم تدريجيًا استعدادًا للعصر السابع والأخير. وقد بدأ الدوناتيون – في مواجهة خلفية هذا المفهوم – ضئيلي التفكير بطريقة سخيفة. لقد أدركوا جدية المسيحية. ولكن إنزعاجه بسبب ما فعله بعض الأساقفة... في وقت معين ومكان معين، فقدوا رؤية مقياس الإيمان الضخم الهادف وتطبيقه على كل الأمكنة والأزمنة والأحوال. وقد كتب أغسطينوس قائلاً: «السحاب يقصف الرعد مدويًا بأن بيت الرب سوف يبني في كل الأرض وأن هذه الضفادع تقبع في مستنقعها وهي تنق نقيقًا بالقول: «نحن وحدنا المسيحيون».

أغسطينوس يهاجم الدوناتيين:

رفض الدوناتيون من ناحيتهم، رفضًا باتًا صلاحية كل ممارسات الأسرار المقدسة التي يؤديها غيرهم في الكنائس الأخرى. فعلى سبيل المثال فإن أي شخص يدخل كنيستهم، حتى وإن كان قد اعتمد في الكنيسة الكاثوليكية، يتحتم أن يُعمد من جديد. ومن وجهة نظرهم، فإن الكاثوليك باحتفالهم بذكرى سيسيليان كقديس راحل، قد دنسوا الطهارة الأخلاقية والطقسية للكنيسة. فرد عليهم أغسطينوس أول كل شيء بإنكار التهم القديمة ضد رسامة سيسيليان. كما رفض أيضًا وجهة نظر الدوناتيين المتطرفة عن طهارة الكنيسة قائلاً: إن الكنيسة مثل فلك نوح الذي ضم الحيوانات الطاهرة وغير الطاهرة.

كذلك استشهد بمثل يسوع عن الحقل الذي نمت فيه الحنطة مع الزوان جنبًا إلى جنب إلى يوم الدينونة. وثانيًا لاحظ أغسطينوس أن الدوناتيين لم يمكنهم الإدعاء بأنهم جزء من الكنيسة الشاملة العامة بمعناها المسكوني لأنهم ليسوا في شركة مع كنيسة أورشاليم أو الإسكندرية أو أي كنيسة أخرى. الأمر الثالث يختص بصلاحية الأسرار المقدسة. إن صلاحية السر المقدس عند الدوناتيين، اعتمدت على السمعة السليمة للخادم (من هنا كانت رسامة سيسيليان باطلة بسبب اشتراك أسقف خارج عن الكنيسة). أما أغسطينوس فكان رأيه متفقًا مع قرار المجمع «Arles أرلز» في فرنسا عام ٣١٤م بأن الأسرار المقدسة لا تخص خدمة الوظيفة الكهنوتية بل تخص المسيح. لذلك فالصلاحية تعتمد على إتمام أمر الرب بالتعميد في الماء باسم الثالوث الأقدس. لكن صلاحية وفعالية الأسرار المقدسة لا تعتمد على سمعة الشخص الذي يؤدي المراسيم ولا على أخلاقه ولا على سيرته الروحية، وبناء على هذا الأساس كان أغسطينوس مستعدًا أن يعترف بصلاحية وفعالية الأسرار المقدسة التي تؤدي في كنائس الدوناتيين.

الدوناتيين يجبرون على العودة إلى الكنيسة:

نتيجة لإلحاح أغسطينوس عقدت مؤتمرات عديدة لحل الموقف وإعادة الدوناتيين إلى الكنيسة الكاثوليكية. لكن الدوناتيين كانوا مرتبطين عاطفيًا بتاريخهم بشدة، ولم يشعروا نفس الشعور بأن الانقسام عار وفضيحة بل كانوا يعيدون ويكررون نفس الحجج القديمة. وقد تمسك أغسطينوس في المراحل الأولى بأن المنطق والحوار والحجة هي الوسيلة الوحيدة التي ينبغي استخدامها في

إقناع الدوناتيين بالعودة. لكن بمضي الوقت إزدادت المناقشات حدة وتهكمًا وصارت النتائج أقل. إقتنع بأن القوة لها ما يبررها. فطبق الآية التي نطق بها يسوع في المثل حين قال: ألزمهم بالدخول» (لو ١٤: ٢٣). وانعقد مؤتمر أخير في قرطاجنة في مايو / يونية عام ٤١١م برئاسة مندوب الإمبراطور ويبين محضر هذا الاجتماع صورة حية لقوم حانقين في حرارة الصيف مرددين مرة أخرى الحجج المألوفة غير القابلة للتساهل أو المصالحة. بل رفض الدوناتيون حتى الجلوس مع «الأشرار». حزب أغسطينوس. وبفضل المشاعر الشعبية المتزايدة ضد الدوناتيين ومساندة أوريليوس أسقف قرطاجنة الكاثوليكي Aurelius. استطاع حزب أغسطينوس أن يستميل البلاط إلى جانبه في هذه القضية. عندئذ حظر الإمبراطور هونوريوس Honoruis عام ٤١٢ نشاط الدوناتية. وفرض الغرامات والعقوبات المالية على من استمر دوناتيًا في عبادته. وقد تم نفي رجال الإكليروس الدوناتيين وصودرت أملاك الدوناتيين. وهكذا بانقلاب قوة الدولة ضدهم. ضعفت الكنيسة الدوناتية ضعفًا شديدًا. إلا أن الدوناتية لم تمت وبقيت حتى القرن السادس. وكانت من القوة حتى أنها سببت المتاعب للبابا أغريغوريوس في عام ٥٩٠م لكنها صارت في حالة متهالكة متداعية بحيث اختفت أخيرًا بجملتها مع مجيء الإسلام. ولم تقدر حتى الكنيسة الكاثوليكية في شمال أفريقيا على الاستمرار عند مجيء الإسلام.

أغسطينوس واستخدام القوة:

ظل تشجيع أغسطينوس لاستخدام القوة موضع شك. وكانت حجته غريبة لكن متفق مع فكره المتطور عن الكنيسة. فكان يعتقد أن الآدميين يخطئون بالضرورة لو تركوا وشأنهم. فبدون عقاب وتهديد الكنيسة وإجبار الدولة. يستخدم الناس «حريتهم» في اختيارات خاطئة. وكان هذا المذهب الجبري عن الكنيسة اعدادًا لظهور المذهب الجبري عن النعمة.

٣- الفكر اللاهوتي لدى أغسطينوس

تقييم الفكر اللاهوتي لدى أغسطينوس:

مع أن أغسطينوس واجه نقدًا قاسيًا لموقفه المتشدد المؤيد لمذهب الجبرية. فإنه أيضًا نال الإعجاب والاستحسان باعتباره أعظم اللاهوتيين أثرًا في الكنيسة الغربية. فلم يكن لعمق واتساع تفكيره نظير في عالم الفكر اللاهوتي.

فيما يلي تقييم غير إنتقادي عن أغسطينوس كتبه أحد مؤرخي القرن التاسع عشر. «كان كاثوليكيًا بدرجة كافية لقبوله مبدأ السلطة الحرة. ومع ذلك كان في نفس الوقت حرًا إنجيليًا لدرجة أنه أجرى تعديلاً في سمه السلطان والمقدسات وسماتها الخاصة بالأسرار المقدسة. وقاوم اتجاهاتها نحو نظام عبادة الطقوس الميكانيكية الآلية. وحافظ على إبقاء الوعي العميق بالخطية والنعمة وعلى روح الحماس للتقوى المسيحية الحقيقية إلى أن ازدادت هذه الروح في القوة لتكسر القشرة التي غلّفت وصاية سلطان الكهنوت. وتدخل مرحلة جديدة في تطويرها. لا يوجد بين الآباء أكثر من أغسطينوس من استطاع أن يعمل ويأتي بكل هذه الفوائد الكاثوليكية في العصور الوسطى. وأعد للإصلاح الإنجيلي بنجاح كبير ليس من قام بهذا أكثر من القديس أغسطينوس. خليفة بولس بجدارة والبشير الذي مهد الطريق قدام لوثر وكلفن) (Schaff, Philip,

History of the Christian Church Vol. III, p. 1026)

علاقته الشخصية مع الله:

كان أغسينوس مملوءًا بروح التوسل في تعبيره عن علاقته الشخصية بالله. فيوجد دفء وعاطفة في كل سطر من وصفه كيف يمكن للإنسان أن يكتشف الله في الطبيعة». «بعض الناس يقرأون الكتب كي يكتشفوا الله. لكن هناك كتاب عظيم، هو المظهر الحق لكل المخلوقات. انظر فوقك! انظر تحتك! لاحظه واقرأه. الله الذي تريد اكتشافه لم يكتب أبدًا ذلك الكتاب بالحبر، بدلاً من ذلك رتب أمام عينيك الأشياء التي صنعها. هل يمكن أن تبحث عن صوت أعلى من ذلك، لماذا، فالسموات والأرض تصرخ في أذنيك: «الله سوانا! وصنعنا!» (Mal CXXXVI: 6)

بحث الإنسان عن الله:

لأغسطينوس أوصاف بليغة عن روح الإنسان، وعقله، وإرادته، وقلبه، التي تناضل جميعها دائمًا من أجل أن تجد طريقها إلى الله. المحبة للعقل هي كما الثقل للجسد - فالجسد بثقله يكافح متجهًا نحو مكانه - النار تتجه إلى أعلى، والحجر إلى أسفل - كلها تساق بدافع من ثقلها سعيًا وراء أماكنها ومواقعها الخاصة بها - الزيت إذا صب تحت الماء ارتفع فوق الماء، والماء إذا صب على الزيت هبط إلى أسفل تحت الزيت - إنها مدفوعة بأوزانها للبحث عن أماكنها - فإذا خرجت عن النظام إنتابها القلق. فإذا ما استعادت النظام استراحت وسكنت - وزني هو محبتي، بذلك أنقل إلى حيث يحملوني مهما يكن المكان» (Confessions XIII: 9: 10).

الاتحاد مع الله:

هذا المسعى الحماسي نحو الاتحاد مع الله يعبر عنه أغسطينوس المرة بعد المرة ليس فقط في «الاعترافات» بل في مواعظ ورسائل عديدة.

«كل رجائي في عظيم رحمتك الفائقة الحدود. هبني ما تأمر به ومرني بما تريد» (Confessions x: 29) «الإرادة موجودة بالتأكيد لدى كل الناس نعم، فنحن جميعًا لا شيء آخر سوي الإرادات». «لكن الإنسان» الذي يعرف الصواب ويفشل في فعله، يفقد القوة لمعرفة ماهو صواب، و(الإنسان) الذي لديه القوة أن يعمل الصواب، يمتنع، يفقد القوة لإتمام ما يريد (De Vera Religiene XX) الإرادة الصالحة يُنادي بها كأعظم عطية من الله للإنسان. النعمة تكون المصدر لإمداد الإرادة بالطاقة والقوة، التي هي صالحة (De- Spiritu El LitteraV) - «محبة الذات تتحول بالنعمة إلى محبة الله». «كمال النعمة كمال الحرية.» (Contra Duas Epist. Pelag II: 9,12).

الشخصية الإنسانية والله:

لا يوجد كاتب آخر قبل أغسطينوس اهتم بعناية، بكل جوانب شخصية الإنسان وعلاقة هذه الشخصية بالله الحي «من الروح والجسد عنصري الإنسان، نصل إلى الوحدة الكاملة التي هي الإنسان. بناء عليه ليست حياة الروح شيئًا، وحياة الجسد شيئًا آخر، لكن كليهما واحد ونفس الشيء، أي، حياة الإنسان كإنسان (De Civitatis- Dei XIV: 4) اشتاق أغسطينوس أن يتشارك مع الآخرين في عجائب حياته مع المسيح. وقال في إحدى عظاته، «لماذا أحيا؟ ما لم يكن في الإمكان أن نحيا سويًا مع المسيح. هذه رغبتي، شرفي،

ومجدي، هذه فرحتي، هذه ثروتي، إن كنت أتكلم ـ ولو أنك لا تصغي ـ فلقد أديت واجبي لكني لا أرغب في نوال الخلاص بدونك».

الثالوث:

كانت معالجة أغسطينوس للأوجه الرسمية الخاصة بالفكر اللاهوتي متأثرة بخلفيته عن الأفلاطونية الحديثة. وقد ركز على وحدة اللاهوت في الثالوث. ويقول في كتابه «الثالوث»: De Trinitatis «الآب والابن والروح القدس، إله واحد، وحده مفرد، عظيم، كلي القدرة، صالح، عادل، رحيم، خالق كل الأشياء، ما يرى وما لا يرى (VII: 6: 12) الآب والابن والروح القدس من نفس الجوهر الواحد، الله الخالق، الثالوث كلي القدرة يعمل وهو غير قابل للانقسام ودون أن يتجزأ (IV: 21) «ليسوا ثلاثة آلهة ولا ثلاثة صالحين، بل إله واحد، صالح كلي القدرة، الثالوث نفسه (preface 8). إن إدراك أغسطينوس لوحدة ومساواة الأقانيم الثلاثة قاده إلى إدراك أن الروح القدس انبثق من الآب والابن. هذا هو مفهوم ال «فيليوك»[٣] Filioque (والابن أيضًا) الذي أدرج في الترجمة اللاحقة للعقيدة النيقوية التي وافق عليها مجمع توليدو «Toledo» الثالث عام ٥٨٩ م. وأصبحت دستورًا نهائيًا وحاسمًا للكنيسة الغربية لكنها ظلت حتي اليوم موضع نقاش بين الأرثوذكس، والكاثوليك الذين كانت اللاتينية لغتهم في القداس.

التعاليم المتعلقة بلاهوت المسيح:

في شرحه اللاهوتي لشخص المسيح أكد أغسطينوس الناسوت كما أكد اللاهوت «يسوع المسيح، ابن الله، هو الله والإنسان، الإله قبل كل الأكوان، الإنسان في عالمنا .. ومن ثم، طالما أنه هو الله، فهو والآب واحد، وطالما أنه إنسان، فالآب أعظم منه» (Enchiridion 35) لا يمكن لخطية آدم أن تغتفر وتمحى إلا بالوسيط الوحيد بين الله والإنسان، يسوع المسيح الإنسان (Enchiridion 48). (وقد أكد أغسطينوس بشدة على إتضاع المسيح» الوسيط الحق، الذي في رحمتك الخفية أظهرته للمتضعين وأرسلته حتي يتعلموا بمثاله نفس التواضع» (Confessions x: 43)

الخطية والخلاص:

إن أعظم العقائد المثيرة للجدل التي تحدث عنها أغسطينوس هي ما يتعلق بالخطية والخلاص. فطبقًا لرأي أغسطينوس، وأن الإنسان خلق في الأصل بلا خطية. لكن حينما قام آدم في كبريائه بمعصية الله، صار سقوطه من النعمة أمرًا موروثًا لكل الجنس البشري من بعده وقد بنى أغسطينوس عقيدته على كلمات بولس: «بإنسان واحد (آدم) دخلت الخطية إلي العالم... إذ أخطأ الجميع» (رو ٥: ١٢). علاوة على ذلك فإن خطية الإنسان صارت أحط وأردأ لأن الجميع يولدون نتيجة إتصال جنسي بين الرجال والنساء. والنتيجة أن كل الجنس البشري من الكبير حتي أصغر رضيع أو وليد، جميعهم، كتلة من الهلاك الأبدي»، وبهذه الحالة يستحقون غضب الله. ومن هذه الحالة الميئوس منها للخطية الأصلية، ليس هناك ولا واحد، كلا، واحد حصل على الخلاص أو يكون مخلصًا أو سوف يخلص على الإطلاق، إلا بنعمة الفادي (Original sin 34)

(٣) «فيليوك» هي التعبير اللاتيني الذي يعني أن الروح القدس انبثق من الآب والابن.

التعيين السابق:

عقب ذلك كان منطقيًا جدًا في رأي أغسطينوس حيث أنه ليس في الإنسان شيء يستحق الخلاص ولا لديه القوة للحصول عليه. فإن هذا الخلاص يمكن أن يأتي فقط عن طريق عمل نعمة الله، أي إرسال ابنه ليحيا، ويموت، ويقوم ثانية. لكن هذا العمل الخلاصي، فعّال ونافذ المفعول فقط لمن يختارهم الله. لذلك فإن الله يعين سابقًا البعض للخلاص والبعض للهلاك وأكثر من ذلك إن النعمة التي يخلص الله بها لإنسان لا تقاوم. فلا يقدر المختار أن يرفضها كما لا يقدر أن ينالها المحكوم عليه بالهلاك الأبدي. حينئذ تعمل النعمة داخل المؤمن لتقديسه ويقول أغسطينوس: «النعمة دواء الروح تعمل من الداخل، كما يعمل الدواء من الخارج على الجسد» (De Civitatis Dei XV:6) إن النعمة تحرر الإرادة لتختار ما يرضي الله. «ليس فقط لكي يعرفوا من ظهور هذه النعمة، ما ينبغي أن يفعلوه، لكن أكثر من ذلك لكي بقدرتها يمكن أن يتمموا بالمحبة ما يعرفونه التوبيخ والنعمة».
(Rebuke and Grace 3)

تأليه المسيحي:

فوق ذلك فأن من نال الخلاص سيتمتع بنوع من التأليه. «الله يريد أن يجعل منك إلهًا، ليس بالطبيعة مثل ابنه الوحيد الذي له، لكن بالعطية والتبني، لأنه كما بالناسوت صار مشاركًا في موتك وفنائك، كذلك بالارتفاع يجعلك شريكًا في خلوده «ذاك الذي هو إله صار إنسانًا» لاهوت الابن شريكًا في موتنا حتى نكون نحن شركاء له. في الخلود والحياة الأبدية».

تأثير أغسطينوس على الآخرين:

سادت آراء أغسطينوس عن الخطية والخلاص على فكر الكنيسة وسيطرت عليه لعدة قرون من الزمن، حتى أنه يمكن بسهولة التعرف عليها في الفكر اللاهوتي لدي كالفن والمصلحين الذين اتبعوا تلك المدرسة بعينها. أما كيف هاجمها الراهب الأيرلندي «بلاجيوس» في نفس عصر أغسطينوس، فسنتدارسه معًا في فصل لاحق.

التعليم المتعلق بالكنيسة:

أما من جهة عقيدة أغسطينوس عن الكنيسة فقد اعتبرها أغسطينوس أساسًا الجسد السري للمسيح. «رأس الكنيسة هو المسيح. والكنيسة جسد المسيح» لكن أيضًا «الرأس والجسد مسيح واحد، ليس لأنه غير كامل بدون الجسد، لكن لأنه أيضًا تنازل ليكون كاملاً بنا ومعنا، وهو الذي بدوننا كامل وتام» Homilies on I. John VI. 10. إن الكنيسة أيضًا هي شركة المحبة، وشركة من يحبون معًا الله وأبناء الله في المسيح. وكما سبق القول، كان لأغسطينوس اهتمامًا عظيمًا وتقديرًا كبيرًا لوحدة الكنيسة. فقد اغتم وتألم كثيرًا بسبب الانقسام الذي سببه الدوناتيون، ومع ذلك كان مستعدًا أن يعترف بصلاحية أسرارهم المقدسة، ولذلك فإنه إلى حد ما بمعنى آخر، لم يزل معترفًا بهم كجزء من جسد المسيح. وكما قال أغسطينوس «كل الأشياء (أي المقدسات والأسرار المقدسة) كانت في الحقيقة لهم من قبل، لكنها لم تنفعهم بشيء، لأنهم كانوا مجردين من المحبة. فأي حقيقة توجد في الاعتراف بالمحبة المسيحية عند ذاك الذي لا يعتنق وحدة الكنيسة؟ لذلك عندما يرجعون إلى الكنيسة الكاثوليكية،

يربحون بذلك. ليس ما كانوا يمتلكونه بالفعل. بل يربحون شيئًا لم يكن عندهم من قبل وهو أن تلك الأمور التي امتلكوها. تصبح حينئذ نافعة لهم ومفيدة. لأنهم في الكنيسة الكاثوليكية ينالون جذور المحبة في رباط السلام في شركة الوحدة». (Letters XXI: 2)

لا خلاص خارج الكنيسة:

يتفق أغسطينوس مع «كبريانوس» (المجلد الثاني صفحة ٨٠) على الإعتقاد بأنه لا خلاص خارج الكنيسة. لكنه إعتقد أن أعضاء الكنيسة الحقيقيين هم عدد ثابت محدد من القديسين المعينين قبل تأسيس العالم. والمعروفين لدى الله وحده. ويقول أغسطينوس: «هناك البعض من الذين يعيشون حتى الآن في الشر. أو حتى ينغمسون في الهرطقات. أو في خرافات الأمم. وحتى ذلك الوقت فإن الرب يعرف أنهم خاصته لأنه. في علم الله المسبق. ذلك العلم الذي لا يوصف. كثيرون ممن يبدون كأنهم من داخل. إلا أنهم في الحقيقة من خارج» (on Baptism V.2). وبالعكس. كثيرون ممن نحكم أنهم من خارج. يأتون إلى الداخل من خلال مشيئة الله البعيدة عن الفهم.

مدينة الله:

إن أشهر أعمال أغسطينوس كلها هو كتابه التذكاري «مدينة الله». في اثنين وعشرين مجلدًا. وقد كتبه في مده ثلاث عشرة سنة ويعبر الكتاب عن فلسفته للتاريخ الذي حدد علاقة الكنيسة بالدولة. ففي «مدينة الله» يمكن أن نجد فكرة الدولة الثيوقراطية (التي يديرها الكهنة). وهي التي سادت أوروبا في العصور الوسطى. وقد بدأ أغسطينوس هذا العمل الضخم العظيم جوابًا على الاتهام القائل بأن روما سقطت في أيدي القوطيين عام ٤١٠م بسبب إهمال عبادة آلهة الأوثان. وبعبارة أخرى كانوا يحاولون وضع اللوم على المسيحيين. بدأ أغسطينوس إجاباته بأن من طبيعة هذا العالم أن يوجد فيه الشر والألم والعذاب والضياع. لم تكن روما لتنجو من ذلك أكثر من أي مدينة أخرى. علاوة على ذلك. كان في روما مسيحيون فعلوا الكثير لإنقاذ الشعب من الأذى. ولم تكن الكنيسة هي التي رغبت في سقوط المدينة. كما كان أغسطينوس يعتقد أيضًا أن التخلص من الآلهة القديمة وفقدانها قد مهد الطريق لمجيء المسيح الله الحق. وقال في إجابته: «إنه هنا يستقر الأمان لدولة باهرة. لأنه لا يمكن تأسيس أي مجتمع بطريقة مثالية ولا استمراره إلا على أساس وبرباط الإيمان والتناسق القوي. حين يكون هدف المحبة وموضوعها هو الصلاح الشامل الذي في ذروته وأصدق سماته هو الله نفسه. وحينما يحب الناس بعضهم البعض بكل الإخلاص في الله. والأساس لمحبتهم الواحد للآخر هو محبة الله الذي لا يمكن أن يحجبوا روح محبتهم عن عينيه». (Epistle and Volusianum 137: 17)

نظرة أغسطينوس إلى التاريخ:

ثم ينتقل أغسطينوس إلى نظرته في التاريخ. مدينتان تكوّنهما محبتان. المحبة التي تنشط المجتمع الدنيوي هي محبة الذات لدرجة الاستخفاف بالله. وتلك التي تنعش المجتمع الإلهي هي محبة الله لدرجة إزدراء الذات. الواحدة تفتخر بنفسها على نفسها. أما الأخرى ففخرها بالرب. الواحدة تنشد المجد من الناس. الأخرى تحسب وجدانها ووعيها بالله كأعظم أمجادها (De Civitatis Dei XIV: 28). إن المدينة الأرضية بإلهها

- متحدية الروح - شر لابد منه للزمن الحاضر. فهي تحفظ السلام والنظام المدني، لكن يجب أن تفسح المجال في النهاية وأخيرًا لمدينة الله النامية. إن من تتكون منهم مدينة الله هم المختارون الذين اختارهم للخلاص. الكنيسة المنظورة المنظمة الرئاسة والإدارة هي مدينة الله التي يجب أن تحكم العالم أكثر فأكثر. وستوجد الدولة الدنيوية بجانبها لكنها تزداد اندماجًا في الكنيسة، وتتخللها وتصبح تحت سيطرة وسيادة الكنيسة التي بقيادة المختارين كان واجبها أن تحوّل، وتمتص وتكمل كل ارتباطات العلاقات الإنسانية القائمة، وكل الأنشطة الإنسانية والمؤسسات ودساتير البشر، وأن تنظم وتقنن وتعلي كل أوجه الحياة. (Johnson, paul, A History of Christianity, p. 115). وأخيرًا فإن الكنيسة نفسها هي المجتمع المسيحي، المؤلف من كل الأمم والحضارات والثقافات، وكلها على مستوى واحد، لأن الجميع خطاة، والجميع عليهم نفس الواجبات والالتزامات محصورون بناموس المحبة. إذا كانت هناك قيادة، فلتكن «أسقفية» وهو الإسم ليس للتمييز لكنه التزام. هذا المجتمع الكامل «يحسم جوهر السلام الذي يعرض أكمل مقياس للنظام والارتباط . سلام الرابطة التي يتمتع أعضاؤها بالله ويتمتع الواحد بالآخر في الله». (De Cevitatis Dei XIX: 13)

٤- النزاع والجدل والمناظرات مع بيلاجيوس

بيلاجيوس وحرية الإنسان:

كان بيلاجيوس راهبًا أيرلنديًا ظهر في روما حوالي عام ٤٠٠م. وكان رجلاً وافر التعليم وعظيم الاهتمام بالأخلاقيات. فلما صدمته المستويات الأدبية والأخلاقية الدنيئة التي شاهدها في المدينة الخالدة، روما، بدأ حملة للإصلاح. وكان يؤمن أنه في إمكان قوة وطاقة الطبيعة البشرية أن تنصلح وتتحسن وأن إرادة الإنسان حرة في صنع الاختيارات الأخلاقية الأدبية. ومن وجهة النظر اللاهوتية، أنكر أن الخطية الأصلية موروثة عن آدم. فخطية كل إنسان تخصه وحده وتقع عليه وحده. فإن آدم أعطى مثالاً سيئًا، لكن خطأه لم ينتقل للجنس البشري من بعده. لكنها أضلته فقط. لما قرأ بيلاجيوس جملة أغسطينوس القائلة: «هبني ما تأمر به، ومرني بما تريد» أرفضها معتبرًا أنه إنكار لحرية الإنسان ومسئوليته. إن إتكال كل الناس على النعمة - في نظر بيلاجيوس - خفض من قيمة النعمة، وثبط همة الإنسان للسعي الأخلاقي الأدبي.

أغسطينوس يهاجم بيلاجيوس:

لم يدخل أغسطينوس في نقاش وجدل مع بيلاجيوس حتى وصل رفيق لبيلاجيوس يدعي سيلستيوس إلى قرطاجنة سعيًا وراء الرسامة. وقد إتهم سيلستيوس بالبلاجيوسية ووجّه إليه اللوم رسميًا من سنودس إنعقد في قرطاجنة عام ٤١٢م. وعندئذ رافق بيلاجيوس شرقًا في أورشاليم حيث وجدا معارضة أقل لآرائهما. حينئذ بدأ أغسطينوس يهاجم أفكار بيلاجيوس. فكتب كتابًا عنوانه «عن الحرف والروح» on The Letter and the Spirit بيّن فيه «أن الحرف الذي يقتل هو الناموس الموسوي الذي وضع ما يجب على المرءأن يفعله لكن لم يمنحه القوة لإتمامه. والروح الذي يحيي هو الروح القدس الذي به ارتفعت الإرادة

وجعل في الإمكان طاعة ناموس الله». وقد اعتبر أغسطينوس أن بيلاجيوس أخطأ بإنكاره الخطية الأصلية ورفضه الخلاص بالنعمة المسكوبة، وبتأكيده على قوة الإنسان في أن يحيا بدون خطية. واشتبك جيروم في النقاش، وكان في نقده قاسيًا جدًا على بيلاجيوس، ودعاه «كلبًا بدين الجسم يزداد وزنًا بأكل الثريد الأسكتلندي». على أن بيلاجيوس وجد في فلسطين كثيرين آخرين يتعاطفون معه. وفي عام ٤١٥م في «مجمع اللد» أعلنوا أنه مستقيم العقيدة.

إدانة البيلاجيوسية:

قام أغسطينوس عندئذ بحملة أشد عنفًا ضد بيلاجيوس. فأقنع أعضاء مجلسين في شمال أفريقيا بإعلان أن بيلاجيوس مهرطق لأنه أنكر الصلاة ومعمودية الأطفال (وهي اتهامات أنكرها بيلاجيوس) وأيد البابا «إنوسينت» الأول Innocent I القرار. لكن البابا زوسيموس Zosimus الذي خلف إنوسينت الأول بعد بضعة شهور، إقتنع برأي سيلستيوس بأن يقلب القرار. لكن في عام ٤١٨م كان أغسطينوس قد اتصل بالإمبراطور هونوريوس Honorius في بيزنطة الذي أصدر مرسومًا إمبراطوريًا يدين البيلاجيوسية وأمر بنفي من ينادون ويعلمون بها. عندئذ غير البابا زوسيموس قراره ليتفق مع مرسوم الإمبراطور. ولا نسمع شيئًا بعد ذلك عن بيلاجيوس. لكن أحد تلاميذ أغسطينوس السابقين، جوليان أسقف إيكلانم، في جنوب إيطاليا دافع عن القضية البيلاجيوسية واحتج بأن أغسطينوس جعل اعتقاده السابق بالمانوية يؤثر على فكرة اللاهوتي المسيحي وأن صلابته في تعليم «سبق التعيين» هو إساءة إلى حرية المسيحية. لم يكن مصير جوليان أفضل من بيلاجيوس وأرغم على الرحيل إلى المنفى في الشرق. ومع أن الكنائس الشرقية بدت أكثر قبولا للبيلاجيوسية، إلا أن البيلاجيوسية إدينت في المجمع المسكوني الثالث في أفسس عام ٤٣١م.

كاسيانوس (كاسيان) والبيلاجيوسية:

كان هناك عدد من القادة الذين واصلوا النقاش حول هذا الموضوع، أخذ بعضهم جانب بيلاجيوس، والبعض الآخر جانب أغسطينوس لكن الكل يحاول إيجاد حل وسط. كان يوحنا كاسيان John Cassianus أحد هؤلاء، وقد سافر بكثرة إلى الشرق وأصبح ملمًا بحركة الرهبنة في مصر، وقد أسس كاسيان ديرًا للرهبان وآخر للراهبات في مرسيليا حوالي عام ٤١٥م. وإذ كان على علم بسير المناقشة بين أغسطينوس وبيلاجيوس كتب إنطباعة واستجابته للجدل في صورة حوار ومناظرات مع الرهبان المصريين وفي رأيه، «تبقى الإرادة حرة دائمًا في الإنسان. فيمكنها إما أن تهمل نعمة الله أو تبتهج بها» مناظرات يوحنا كاسيان Cassianus Conversation 12 وقد اتفق كاسيان مع أغسطينوس على أن الإنسان يحتاج في كل نقطة وفي كل أمر إلى النعمة الإلهية. وكما شرحها كاسيان، فإن قلب الإنسان مثل حجر الصوان أو حجر القداحة الذي يقدحه الله. لكن عندما يرى الله شرارة الاستجابة الأولى، يصب نعمته على الإنسان. إن المقدرة على صنع أول تحول للإرادة تجاه الله هي عطية النعمة. لكن التحول الفعلي هو تعاون الإرادة الطبيعية مع معونة الله الرحيمة. وقد رفض كاسيان رفضًا باتًا فكرة أن النعمة قوة لا يمكن مقاومتها أو ضياعها أو فقدانها.

استمرار الحوار:

الواقع أن المناظرة حول العلاقة بين إرادة الإنسان الحرة وقوة نعمة الله لم تتوقف البتة في الكنيسة. إلى يومنا هذا يمكن أن نراها في عقيدة سبق التعيين التي ينادي بها أتباع كالفن المدققون، والإرادة الحرة التي يقول بها الوسليون الميثودست أتباع وسلي Wesleyan Methodists.

التأثير المستمر لأغسطينوس:

مهما يكن شعور الإنسان نحو أغسطينوس، فلا شك أن أعماله وشخصيته ألقت ظلها على تاريخ الكنيسة الغربية. لقد تأثرت الكنيسة في عقيدتها وفي بناءها وتركيبها وتشكيلها وتاريخها بأغسطينوس كما لم تتأثر بأي شخص آخر. ويقدم له مؤرخ حديث هذه التحية، إن حضارة مدينة العالم المسيحي في العصور الوسطى تدين له (أغسطينوس) أكثر من أي شخص آخر بين آباء الكنيسة. فلقد إتجه إليه كل من غريغوريوس الكبير (بابا روما ٥٤٠ – ٦٠٤م) بخصوص التفسير الكتابي والفكر اللاهوتي، وشارلمان (أول إمبراطور للإمبراطورية الرومانية المقدسة بشأن النظرية السياسية، وبونا فينيتورا أول لاهوتي فرنسيسكاني) بشأن الصوفية، وأكويناس (العالم اللاهوتي الدومنيكاني في العصر الوسيط عام ١٢٥٠) عن عناصر الفلسفة المدرسية للقرون الوسطى. وفي وقت لاحق ومع مجئ الإصلاح أصبح لوثر وكالفن من تلاميذه، ومن بعدهما باسكال (الفيلسوف الفرنسي عام ١٦٥٠م). وكان كل منهم يأخذ من أسقف هيبو، محركًا قويًا يبعث به حياة التقوى المسيحية من جديد.

Bottenhous R.W – A Companion of the Study of ST. Augustine New York, Oxford (1945, p54).

Recommended English Readings

1 – Boer, H. R. *A Short History of the Early Church*, pp. 158 – 163.

2 – Bruca, F. F. ***The Spreading Flame***, pp. 333 – 339.

3 – Chadwick, Henry, ***The Early Church***, pp. 216 – 236.

4 – Foster, John, ***Church History 1***, The First Advance, pp. 126 – 129.

5 – Frend, W. H. C. ***The Early Church***, pp. 210 – 220.

6 – Latourette, K. C. A ***History of Christianity***, pp. 96, 97, 173 – 181.

7 – Schaff, Philip, ***History of the Christian Church***, ***vol. III,*** pp. 785 – 870.

8 – Walker, Williston, ***A History of the Christian Church***, pp. 160 – 172.

9 – Wand, J. W. C. ***A History of the Early Church to A. D. 500***, PP 224 – 233.

For a Catholic appreciation of Augustine see: Pope, Hugh, O.P. , ST. Augustine of Hippo, Image Books, New York, 1961.

الباب السابع

القرن الخامس

المنازعات حول

"العقيدة في المسيح"



الفصل الأول

مجمع أفسس ٤٣١م.



١- ناسوت المسيح ولاهوته:

كان الموضوع اللاهوتي الذي استغرق مفكري القرن الرابع يختص بعلاقة الأقانيم الثلاثة لله - الآب والابن والروح القدس. هل هم متساوون؟ أو هل الابن والروح القدس أدنى مرتبة من الآب؟ أو هل هما صورتان أو شكلان لأقنوم الآب؟ هذه هي الأسئلة التي حاولت الكنيسة أن تجيب عليها في الفترة التي تميزت بانعقاد المجامع في نيقية عام ٣٢٥م والقسطنطينية عام ٣٨١م. وبنهاية القرن الرابع تحولت الأنظار إلى موضوع آخر وثيق الصلة – كيف يمكن منطقيًا أن يتحد الناسوت واللاهوت في شخص المسيح؟ كان هذا الموضوع سببًا في انعقاد مجمعين مسكونيين. مجمع أفسس عام ٤٣١م. ومجمع خلقيدونية عام ٤٥١م كما سبب انقسامًا في الكنيسة ظل باقيًا حتى يومنا هذا.

٢- أحداث وشخصيات مجمع أفسس عام ٤٣١م

أ- أبوليناريوس *Apollinarius*

في الواقع كانت قضية ناسوت المسيح وألوهيته جزءًا من الحوار والجدل في نيقية. فقد تساءل الأريوسيون: «كيف يمكن للمسيح أن يكون إلهًا كاملاً إذا جاع أو عطش أو تعب أو بكى عند قبر لعازر واهتز لتوقع موته؟ هذه «الإنسانية» في رأيهم، أنقصت وحطت من قدر صلاح المسيح وهكذا جعلته غير مساو لله الآب.

وكان أبوليناريوس من أوائل المفكرين الذين اجتهدوا في هذه المسألة. كان أبوليناريوس أسقف لادوكية (٣١٠ – ٣٩٠م) مؤيدًا لقرار نيقية وصديقًا لأثناسيوس أسقف الإسكندرية. وكان جيروم أحد تلاميذه. وقد حاول أبوليناريوس صياغة تفسير لطبيعة المسيح الإلهية البشرية على أن الجسد البشري بطبيعته خاطئ. ولكي يكون المسيح بلا خطية وجب أن يأتي إليه روح أو عقل إلهي ليرشد الجسد ويسيطر عليه. لقد أخذ «اللوجوس» الإلهي مكان الروح البشري أو العقل الإنساني في المسيح. وظل الجسم فقط بشريًا. وتمسك أبوليناريوس بأن الإلهي هكذا جعل الإنساني واحدًا معه حتى أن الله تحمّل أوجاعنا في جسده هو. وقد كتب أبوليناريوس جملة كثيرًا ما ذكرت في

المناقشات اللاحقة «أن طبيعة الكلمة الإلهية الذي تجسد، طبيعة متميزة فريدة لا نظير لها». وقد وجّه الآباء الكابادوكيون النقد إلى أبوليناريوس في زمانه، فقالوا إنه قد «ضحى بكمال ناسوت المسيح» كذلك فإن مجامع روما عام ٣٧٧م والإسكندرية عام ٣٧٨م وأنطاكية عام ٣٧٩م، ومجمع القسطنطينية المسكوني عام ٣٨١، كلها استنكرت رأيه وأدانته.

ب- المدرسة الأنطاكية

تركزت مقاومة آراء أبوليناريوس في أنطاكية في ثلاث شخصيات هي «ديودورس، الطرسوسي (٣٩٤م) وثيودور الموبسوستي (٣٥٠ - ٤٢٨م) ونسطور (٣٨٠ - ٤٥١م). والكثير من آرائهم تشبه آراء بولس السمسطائي أسقف أنطاكية في القرن الثالث» (انظر صفحة ١٠١ في المجلد الثاني).

ديودورس الطرسوسي:

كان ديودورس قسًا في أنطاكية ثم أصبح أسقفًا على أنطاكية، وكان عالمًا ومدافعًا قويًا عن الإيمان. وبفضل جهوده جاءت المدرسة التفسيرية الأنطاكية إلى الوجود. وكانت هذه المدرسة تتميز بتركيزها على المعنى الحرفي للأسفار المقدسة، مقابل للطريقة المجازية المفضلة في مدارس أخرى. لقد دافع ديودورس دفاعًا قويًا ضد الأريوسيين عن ألوهية المسيح وبنفس القوة عن ناسوت المسيح ضد أبوليناريوس، وفي محاولته إعطاء القيمة الكاملة لناسوت المسيح قدم فكرة وجود شخصين في المسيح، في شكل اتحاد أدبي معنوي. فالذي ولد من مريم هو الإنسان فقط. وكان التجسد هو سكنى اللوجوس في إنسان كامل، كسكنى الله في الهيكل. إن اتحاد الناسوت واللاهوت في المسيح يشبه اتحاد الجسد والروح في أي شخص.

ثيودورس أسقف موبسوستيا:

كان ثيودورس صديقًا وزميل الدراسة ليوحنا فم الذهب تحت إرشاد المعلم ليبانوس وكان من أهل أنطاكية، وأصبح أقدر عالم كتابي في تلك المدرسة الأنطاكية. وخدم أسقفًا لموبساويستا لمدة ست وثلاثين سنة. وكان الفكر اللاهوتي لدى ثيودورس عن شخص المسيح إمتدادًا لفكر «ديودورس الطرسوسي» وكان مهتمًا بالمحافظة على التمييز بين الطبيعتين، البشرية والإلهية. وقد أطلق ثيودورس على اتحاد الطبيعتين في المسيح ما أسماه اتحاد أو إقتران أو «إندماج الإرادة» بين اللوجوس الإلهي ويسوع الإنسان. ومع أن ثيودورس كان حريصًا على التأكيد على أنه هناك شخص واحد فقط في المسيح إلا أنه، بسبب اهتمامه بأن يؤكد على كمال ناسوت المسيح، أتهم بأنه يعلّم بشخصين، أحدهما إنساني والآخر إلهي. قال عنه مؤرخ حديث «وضع ثيودورس تأكيدًا هائلاً على حقيقة الطبيعة الإنسانية لربنا. ويحتمل أن الجدال النسطوري كان بسببه أكثر من أي معلم آخر، وكثيرًا ما يشك فيما إذا كان نسطور نفسه نسطوريًا، لكن لا يمكن الشك في أن ثيودورس كان نسطوريًا قبل نسطور» (Wand, J.W.C. A History of the Early Church to A .D 500 p.219)

نسطور:

كان المسرح وقتئذ معدًا لنسطور الذي اشتهر كراهب، بمواعظه في أنطاكية، وصار

أسقفًا للقسطنطينية في عام ٤٢٨م. وسرعان ما انهمك في جدل العقيدة عن المسيح. تمسك جوهريًا بنفس وجهات النظر التي تبناها ثيودورس الطرسوسي وثيودوريوس الموبسيوستي لكنه مثل ثيودورس لم يعترف قط أنه اعتقد بوجود شخصين في المسيح. وعلى حد قوله «بالاسم الواحد. اسم المسيح. نشير في نفس الوقت إلى طبيعتين. فمن المستحيل أن يفعل الله (الكلمة) شيئًا بدون الناسوت».

ثيئوتوكوس Theotokos:

كانت النقطة التي وصل فيها نسطور إلى أحدّ صراع وأعنف صدام مع مدرسة الإسكندرية مع معظم باقي الكنيسة في الحقيقة هي إطلاق تعبير «ثيئوتوكوس Theotokos = أم الله على مريم العذراء. في رأي نسطور إن كلمة «ثيئوتوكوس» لم تميز بدرجة كافية بين الناسوت واللاهوت في المسيح. وكان يفضل أن يطلق على مريم اللقب «كريستوكوس Christokos» أم المسيح. وبتعبيره هو «ما يولد من الجسد فهو جسد» وهذه هي نفس كلمات نسطوريوس من عظة ألقاها عن ذات الوضع. «تسألون عما إذا كان يمكن أن تدعى مريم» أم الله». إذن هل لله أم؟ إذا صح هذا فالوثنية نفسها معذورة في أن تنسب أمهات لآلهتها. لكن حينئذ يكون بولس الرسول كاذبًا لأنه قال عن لاهوت المسيح أنه كان «بلا أب. بلا أم. بلا نسب» (عب ٧: ٣)[١] لا يا سيدي. مريم لم تحمل في بطنها الله. فإن المخلوق لم يحمل الخالق. غير المخلوق لكن مريم حملت الإنسان الذي هو أداة الله. لم تحبل مريم من الروح القدس في اللوجوس لكن الروح القدس صاغ وكوّن من العذراء هيكلاً يسكنه اللوجوس (يوحنا ٢: ٢١). الله المتجسد لم يمت. لكنه أحيا ذاك الذي فيه صار جسدًا. إني أكرم الثوب الذي استخدمه الله بسبب الله الذي كان ملتحفًا به في داخله وغير منفصل عنه إني. أفصل الطبيعة لكن أوحد العبادة. لاحظ ما تعنية هذه العبارة» ذاك الذي تكون في أحشاء مريم لم يكن الله نفسه لكن الله اتخذه لنفسه (أي كسا نفسه بالناسوت) وبسبب الذي اتخذه. فإن ذاك الذي قد أخذ يدعي أيضًا الله».

Philip, History of the Christian Church, vol. III, pp. 717 – 718

ج- كيرلس الأول أسقف الإسكندرية (؟ - ٤٤٤م)

شهرة كيرلس:

في عام ٤١٢م أصبح كيرلس الأول البطريرك الرابع والعشرين لكرسي الإسكندرية. خلفًا لعمه ثيوفيلس. ويلقي كيرلس تقديرًا عظيمًا من الكنيسة الأرثوذكسية كضليع في تفسير الكتاب المقدس. وكلاهوتي وواعظ. ومدافع عن الإيمان. كما تذكره الكنيسة أيضًا من أجل خدمة الليتورجية الخاصة بالقديس كيرلس (القداس الكيرلسي) المأخوذة عن خدمة ليتورجية القديس مرقس وهي أقدم خدمة ليتورجية في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية. ويقال إن الشعب كان معجبًا بصفة

(١) يمكن إلتماس العذر لنسطوريوس لاتباعه الفكرة السائدة في زمانه بأن بولس هو كاتب الرسالة إلى العبرانيين. ولا يمكننا التأكد بأن الفقرة المشار إليها شاهد صحيح على ألوهية المسيح.

خاصة بجمال صوته في إنشاء تسابيح ليتورجية القداس. وترجع شهرته العظيمة في الكنيسة أساسًا من حججه دفاعًا عن لاهوت المسيح في مقابل رأي نسطور الأنطاكي. وبفضل جهوده أكثر من أي شخص آخر انعقد مجمع أفسس المسكوني الثالث في عام ٤٣١م.

عقيدة كيرلس عن المسيح:

عندما سمع كيرلس برأي نسطور عن الثيئوتوكوس كان رد فعله قويًا وعنيفًا. وقال: «إن كان ربنا يسوع المسيح هو الله، فكيف يمكن للقديسة العذراء التي ولدته أن لا تكون أم الله (ثيئوتوكوس) (Epistle ad Monachos Aegypti, 4) كانت الحقيقة الأساسية لدى كيرلس هي لاهوت المسيح، وكثيرًا ما اعتبرته الكنيسة أقدر وأكفأ أستاذ في موضوع التجسد. وقد حمل رأي كيرلس بعض الشبه لرأي أبوليناريوس، فيما عدا أن كيرلس تمسك بأن ناسوت المسيح كامل حيث كان للمسيح كإنسان – جسد وعقل وروح. وكان يؤمن أن المسيح كيان واحد موحد، متحدا لكنه ذو طبيعتين – بشرية وإلهية – كاملتين في الكيان الواحد. وقد لوحظ أنه خلال كل الجدل والحوار كان هناك غموض حول كلمة «طبيعة». فقد كانت الكلمتان اليونانيتان (Physis طبيعة) و(Hypostasis أقنوم) مستخدمتين بالتبادل وكانتا تفهمان بطريقة مختلفة في أنطاكية والإسكندرية. وكان الدافع وراء تأكيد كيرلس على عدم إنفصام الوحدة بين الله والإنسان في التجسد، هو رغبة كيرلس ألا يمس لاهوت المسيح. بينما كان الاهتمام في أنطاكية هو عدم المساس بناسوت المسيح.

كيرلس ضد نسطور:

عندما واصل كيرلس الجدل والحوار مع نسطور بالمراسلة كان كيرلس في أول الأمر مجاملاً ومحاذًا لكن المنافسة التقليدية بين الإسكندرية والقسطنطينية بدأت تظهر تأثيرها على الموقف. علاوة على ذلك كانت هناك شكوى من أربعة مواطنين من الإسكندرية مقدمة إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني (في القسطنطينية) عن معاملة كيرلس لهم. فأحال ثيودوسيوس القضية إلى نسطور أسقف القسطنطينية. إلا أن إقامة أسقفية القسطنطينية في مكان القاضي بالنسبة إلى أسقفية الإسكندرية كان أمرًا غير مقبول بالكلية من كيرلس. فكتب رسائل إلى ثيودوسيوس محاولاً التأثير عليه ضد نسطور. كما كتب أيضًا إلى البابا «سيليستين» في روما (كانت روما والإسكندرية في تلك الأيام في تعاون تام. فدعا سيليستين إلى عقد مجمع في روما عام ٤٣٠م أدان فيه نسطور مهددًا بعزله. ومنتدبا كيرلس لتنفيذ الحكم[٢] وقد وضع كيرلس اثني عشر «حرمًا» «أناثيما» متهمًا نسطور بتقسيم كلمات وأعمال المسيح بين الطبيعتين الإلهية والبشرية (مثال ذلك فإن الناسوت لا اللاهوت هو الذي بكى ومات، كما أن اللاهوت لا الناسوت هو الذي أسكت العاصفة). حينئذ جرى تبادل الرسائل بكثافة وسرعة بين روما والإسكندرية

(٢) من العسير أن نفهم مقدار قسوة البابا سيليستين حيث إن نسطور كتب مخففًا من رأيه ليكون مقاربًا لرأي كيرلس. أعلن نسطور إيمانه «بكلا الطبيعتين اللتين باتحادهما الأسمى والصافي بغير امتزاج لهما الإكرام في الشخص الواحد- الابن الوحيد».

والقسطنطينية. وبحلول نوفمبر عام ٤٣٠م كان واضحًا لكل الأطراف أن مجمعًا عامًا كان ضروريًا للنظر في القضية. وقد دعا الإمبراطور ثيودوسيوس إلى انعقاد هذا المجمع في السنة التالية عام ٤٣٠م في أفسس.

د- مجمع أفسس.. مجمع مضطرب

مع أن مجمع أفسس إنتهى بإدانة النسطورية والبلاجيوسية إلا أنه كان أكثر المجامع اضطرابًا في تاريخ الكنيسة. فقد تميز بالنزاعات المريرة اللاهوتية والكنسية بين الأحزاب المتنازعة المتصارعة.

إدانة نسطور:

وصل نسطور أولاً إلى أفسس ومعه ستة عشر أسقفًا وحرسًا مسلحًا. ثم ظهر كيرلس الأول مع خمسين أسقفًا مصرياً بخلاف الرهبان. والخدم والبحارة. وقد وجد كيرلس حليفًا في ميمنون أسقف أفسس الذي كان معارضًا لنسطور. أما الأسقف يوحنا الأنطاكي الذي كان يساند نسطور فقد تعطل في الطريق مع أساقفته. قرر كيرلس طلب عقد الاجتماع في كنيسة الأسقف ميمنون وهي كنيسة القديسة مريم. وقد رفض نسطور الحضور حتى تصل جميع الوفود ·تعطل وفد روما ايضًا فتأخر عن الوصول) وقد قام المجمع بحضور مائة وستين أسقف بالاستماع إلى رأي نسطور ودراسته واتفقوا على إدانة نسطور بهذه الكلمات «الرب يسوع المسيح الذي جدف عليه نسطور يحكم بواسطة هذا المجمع المقدس بأن يستعبد نسطور من وظيفة الأسقفية وكل شركة كهنوتية». وأرسلوا إلى نسطور الرسالة التالية» إلى نسطور – يهوذا الجديد – إعلم أنه بسبب تعاليمك المتمردة وعصايانك لقوانين الكنيسة. فإنه فى اليوم الثاني والعشرين من شهر يونية الجاري عام ٤٣١ م وعملاً بلوائح وبقوانين الكنيسة. قرار المجمع المقدس عزلك. كما قرر أنه لم يعد لك أي رتبة فى الكنيسة». إستقبل شعب أفسس القرار بالهتاف والفرح ورافقوا كيرلس إلى بيته فى موكب بالمشاعل.

الإمبراطور يدين كلا الحزبين لكن كيرلس ينتصر أخيرًا:

بعد أيام قليلة وصل يوحنا أسقف أنطاكية مع وفده وعقد مجمعًا مضادًا تم فيه تصويت على إعلان أن كيرلس وممنون هرطوقيان. وعلي عزلهما من وظائفهما. فلما وصل أعضاء وفد بابا روما أخيرًا جمعهم كيرلس مع الوفود المؤيدة له وأصدر المزيد من الإدانات على يوحنا ونسطور عندئذ رفع كلا الحزبين استئنافًا إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني. ولأن الأمر اختلط عليه. صدق أولاً علي قرارات كلا الطرفين. بعزل كيرلس وممنون ونسطور. ثم أمر بسجنهم. تلا ذلك مزيد من الاستئنافات والمداولات وانفض مجمع أفسس فى أكتوبر عام٤٣١م. وأطلق سراح كيرلس وممنون. وصدر الأمر بإعادة جميع الأساقفة إلى أستقفياتهم. أما نسطور فكان أقل حظًا. فبناء على طلبه أعيد إلى ديره السابق في أنطاكية. متخليًا عن أسقفية القسطنطينية.

اتفاق كيرلس والأنطاكيين على صيغة جديدة بعد أفسس :

فى السنتين التاليتين بذلت المساعي مجددة

لرأب الصدع بين أنطاكية والإسكندرية. وفي الواقع، فإنه طوال هذه المناقشات الخاصة بالعقيدة في المسيح لم تكن الأفكار اللاهوتية للكنيستين بعيدة تمامًا. فقد أرسل يوحنا وثيودورت الأنطاكي صياغة جديدة للعقيدة إلى كيرلس، هذا نصها: «لذلك نحن نعترف بربنا يسوع المسيح إلهًا كاملاً وإنسانًا كاملاً.. وبأنه تم اتحاد بين الطبيعتين، لذلك نقر بالمسيح الواحد.. وأن القديسة العذراء هي أم الله (ثيئوتوكوس) لأن الله (الكلمة) تجسد وصار إنسانًا، وفي حبلها اتحد هو نفسه مع الهيكل الذي أخذه منها. وقد وجد كيرلس أن هذا البيان مقبول ولو أنه انتقد من بعض زملائه من أجل هذا العمل. وعلى أي حال فإنه أصر على حرمان وعزل نسطور. وكان الأنطاكيون مستعدين أن يضحوا بشخص نسطور في سبيل الوحدة، بل إن كنيسته حرمته (جعلته أناثيما) بسبب البدع الشريرة والدنسة لكن بغير توضيح لطبيعة هرطقته.

نسطور والكنيسة النسطورية:

إن بقية تاريخ نسطور كما سجله بنفسه في ترجمته لسيرة حياته تحت عنوان «المأساة» تاريخ محزن يحرك العواطف. فقد أخرجوه من الدير وطردوه إلى المنفى، أولاً في جزيرة العرب، وأخيرًا في «واحة الخارجة» في الوجه القبلي في مصر حيث مات حوالي عام ٤٥٠م[٣]. وكثيرون من أصدقائه طردوا وصودرت أملاكهم. مؤلفات نسطوريوس صودرت وحظرت وحرّمت قراءتها أو نسخها أو حفظها وصدر مرسوم إمبراطوري يمنع المنتمين إلى الكنيسة النسطورية أن يسموا أنفسهم مسيحيين، فأطلق عليهم اسم «السمعانيون» (على اسم سمعان الساحر) واجتماعتهم محظورة.

التاريخ المتأخر للنسطوريين:

بالرغم من الاجراءات القاسية التي أتُخذت ضدهم، وبالرغم من غياب قائدهم، فلقد ثبت النساطرة واستمروا ككنيسة في سوريا وبلاد فارس (إيران). وأنشأوا فيما بعد نشاطًا إرساليًا تبشيريًا واسعًا. وأقاموا جماعات لهم في الجزيرة العربية والهند (مالابور) وتركستان والصين. ومايزال لهم وجود في العراق وإيران لكنهم يعرفون بالكنيسة الأشورية أو «كنيسة الشرق» ويعتبر «الكلدانيون» فرعًا من الكنيسة النسطورية التي تعترف بسلطة بابا روما.

(٣) أحد الأشياء الأخيرة التي قيل إن نسطور كتبها بعد سماعه عن استمرار المشادات حول العقيدة عن المسيح كانت كما يلي «أعز أمنية لي أن يتبارك الله في السماء وعلى الأرض. أما عن نسطور فليبق محرومًا. أرجو من الله أنه حينما يصب الناس لعناتهم عليّ، يتصالحون معه». From The ATargedy.

Recommended English Readings

1 – Atiya, Aziz S. *A History of Eastern Christianity*, pp. 45 – 48.

2 – Boer, Harry R. *A Short History of the Early Church*, pp. 165 – 171

3 – Bruce, F. F., *The Spreading Flame*, pp, 311 – 312.

4 – Chadwick, Henry, *The Early Church*, pp. 192 – 200.

5 – Danielou, Marrou, ***The Christian Centuries, vol. I,*** pp. 335 – 347

6 – Duchesne, Louis, ***The Early History of the Church, vol. III,*** pp.219 – 270.

7 – Foster, John, *The First Advance*, pp. 140 – 141.

8 – Frend, W. H. C. *The Early Church*, pp. 224 – 230.

9 – Latourette, K. S. *A History of Christianity*, pp. 164 – 170.

10 – El Masry, Iris H. *The Story of the Copts*, pp. 192 – 207.

11 – Schaff, Philip, ***History of the Christian Church, vol. III,*** pp. 705 – 733.

12 – Walker, Williston, *A History of the Christian Church*, pp. 131 – 137.

13 – Wand, J. W. C *A History of the Early Church to A.D 500*, pp. 218 – 224.



الفصل الثاني
مجمع خلقدونية عام ٤٥١م .



١- أحداث وشخصيات مجمع خلقيدونية (٤٥١م.)

استمرار الحوار حول العقيدة في المسيح

مع أن عقدًا من الزمن مرّ فى سلام نسبي بعد مجمع أفسس في سنة ٤٣١ م. بقى الموضوع الأساسي بدون تسوية. فكانت الأحزاب المختلفة ما تزال متنازعة. لكن الشخصيات الآن تغيرات. فقد صار فلافيانوس (ليس الأنطاكي) أسقفًا للقسطنطينية ومات كيرلس الأول في سنة ٤٤٤ م. ليخلفه «ديوسقورس»[1] (٤٤٤-٤٥٤م.) بطريركًا للإسكندرية. ومع أن ديوسقورس لم يكون بمثل علم كيرلس، إلا أنه كان مصممًا علي المضي في النضال ضد المدرسة الأنطاكية. وكان ثيودوروس (٣٩٣-٤٥٨ م.) علي رأس المدرسة الأنطاكية، وكان يدعى أوغسطينوس الشرق. وقد اشتهر بكونه لاهوتيًا وراعيًا وكارزًا ربح عشرة آلاف ماركيوني للكنيسة الأرثوذكسية. أما رابع شخصية هامة فكانت أوطاخي (أفتيخوس) (٣٧٨-٤٥٤ م.) الأب المشرف علي دير قريب من القسطنطينية.

العقيدة عن المسيح – لدى أوطاخي:

قام أوطاخي – الذى لم يكن راضيًا عن المصالحة والحل الوسط بين كيرلس الأول ويوحنا الأنطاكي، بوضع صياغته الخاصة عن موضوع «العقيدة في المسيح» فقال إنه كانت هناك طبيعتان قبل التجسد، طبيعة إلهية وطبيعة بشرية. لكن بعد التجسد امتزجت الطبيعتان هكذا معًا حتى أصبحت هناك طبيعة واحدة فقط. وهذه كانت طبيعة إلهية تمامًا. ولم يكن يؤمن أن يسوع كان من نفس جوهر الإنسان- أي أنه لم يكن يؤمن أن بشرية المسيح مثل بشريتنا. وقد عُرف هذا الرأي فيما بعد بـ «خلط الطبيعتين» ولم يعد تتمسك به أي جماعة مسيحية كبرى.

---

(١) لاحظ قضية ديوسقورس كممثل للحرب المكبوتة على الشخصيات في الكنائس المختلفة. فقد كان ديوسقورس بالنسبة للفلسطينيين والمصريين وغيرهم «مبشرًا رسوليًا وشهيدًا حقيقيًا» الرجل الذي رفض أن يركع للبعل في مجمع الانشقاق» (أي مجمع خلقيدونية) لكنه عند «ليو» بابا روما «كان المصري الأفاق والمحتال، والمبشر بأخطاء الشيطان».

مجمع ثان في أفسس:

أجاب ثيودوريت على أوطاخي في محاورة طويلة تسمى «إيرانستيس» Eranistes (ومعناها الشحاذ أو الشخص الذي يصنع ثوبًا من الأسمال). واقتنع الأسقف فلافيانوس بأن يدعو أوطاخي للمثول أمام مجمع في القسطنطينية في عام ٤٤٨م.. وقد حوكم أوطاخي وأدين بأنه اعتنق مباديء أبوليناريوس. وقد رفع ديوسقورس الذي دافع عن أوطاخي – استئنافاتٍ لدى الإمبراطور ثيودسيوس الذي قرر بأن القضية يجب أن تسوى في مجمع عام. وهكذا أقيمت الدعوة إلى عقد مجمع أفسس الثاني في عام ٤٤٩م.

البابا ليو الأول وكتابه المسمى «طومس»:

نحن الآن أمام ظهور شخصية قوية من الكنيسة الغربية، هو «ليو» الأول (بابا روما) الذي تابع الاجتماعات السابقة باهتمام عظيم مع أنه لم يحضرها قط. وأعد وثيقته الخاصة لهذه المناسبة، وهي كتابه المسمى (طوم) إلى فلافيانوس «إن في المسيح طبيعتين كاملتين تمامًا مجتمعتين معًا في شخص واحد.. وقد ظلت الخاصية أو الصفة المميزة لكل طبيعة ومادة وجوهر تامة ومندمجة في شخص واحد، الجلال اتخذ لنفسه الاتضاع، الجبروت لبس الضعف، الخلود ارتدى جسد الموت. كل طبيعة في اتحادها مع الأخرى أدت العمليات المناسبة لها... في يسوع لم يكن الناسوت الحقيقي، ولا اللاهوت الحقيقي يوجد بدون الآخر». لأول مرة غامر أسقف من روما، لم يكن يعرف إلا اللاتينية، غامر بالدخول في حلبة النزاع اللاهوتي. اقتصرت مصطلحاته الفنية على اليونانية.

ديوسقورس في مجمع أفسس الثاني:

ظهر المندوبون من روما في أفسس (لكن بدون ليو) حاملين معهم وثيقة الطوم، ووثائق أخرى. لكن الاجتماع كان تحت سيطرة دروسقورس الذي حرص على أن تُقرأ فقط الوثائق التي في صالح الفكر الإسكندري فلم تُقرأ الوثيقة «طوم» مطلقًا. وبناء على طلب البلاط الإمبراطوري، أعيد أوطاخي إلى منصبه. أما ثيودوريت وكل الآخرين المشتبه في انتمائهم إلى النسطورية فقد عُزلوا. كما عزل فلافيانوس ومات متأثرًا بإصابات قيل إنه عانى منها على أيدي بعض المندوبين. لقد كان اجتماعًا هائجًا – حتى «ليو» عُزل وعينوا بدلاً منه كاهنًا إسكندرانيًا. لفترة وجيزة كانت القوانين والمعتقدات التي أعلنها أوطاخي تتصاعد قيمتها. وقد أيد الإمبراطور ثيودوسيوس قرارات المجمع، وكان ليو عاجزًا عن أن يفعل شيئًا أكثر من التشهير بالمجمع بأنه «مجمع لصوص»[٢].

الموقف يتغير لصالح ليو:

جرت الآن عدة أحداث غير متوقعة غيرت تمامًا

(٢) عن وجهة نظر كاتب قبطي أرثوذكسي بخصوص مجمع أفسس في عام ٤٤٩ نحيل القارئ إلى «قصة الأقباط» للكاتبة إيريس حبيب المصري» الصفحات ٢١٥- ٢٢٣. هذا الكتاب يقدم أوطاخي على أنه نقض رأيه وقبل الرأي المستقيم عن المسيح، مبررًا بذلك إعادته إلى مركزه. بناء عليه فإن قرارات المجمع لم تتضمن تأييد الفكر اللاهوتي الهرطقي لأوطاخي. إن اختلاف الاتجاه في الروايتين المتعلقتين بمجمع أفسس عام ٤٤٩م. وأيضًا مجمع خلقيدون عام ٤٥١م اختلاف عظيم لدرجة أن محاولة التسوية عند هذه النقطة كانت مستحيلة. إنها حقيقة محزنة في تاريخ الكنيسة أن الأفكار بقيت على ما هي عليه لا تقبل التوفيق لأكثر من ١٥٠٠ سنة. البيان المسجل في متن النص أعلاه يبدو للكاتب أنه يمثل إجماع معظم المؤرخين الكبار الثقاة.

من المنظر السياسي في الإمبراطورية والكنيسة. إذ قتل الإمبراطور ثودوسيوس عندما سقط من فوق حصانه وخلفته أخته بولشريا Pulcheria «التي، بعكس ثيودوسيوس، لم تكن متعاطفة مع الإسكندريين بل مع ليو. وقد أمَّنت بولشريا مركزها السياسي بزواجها من الجنرال (مارسيان) الذي كان يسيطر على الجيش. كذلك فإن الأسقف «أناتاليوس Anatoliutus» الذي خلف فلافيانوس في القسطنطينية، كان مصممًا على تأكيد ادعاءات قسطنطينية بأنها تلي روما فقط مكانة. حينئذ رأي ليو الفرصة سانحة لهدم القرارات التي صدرت في أفسس سنة ٤٤٩م، وهكذا بأمر من مارسيان التأم مجمع عام آخر في ٨ أكتوبر – إلى أول نوفمبر سنة ٤٥١م. في خلقيدونية، الذي صار يعرف بالمجمع المسكوني الرابع.

الحكم على ديوسقورس في خلقيدون:

يقدر عدد المندوبين الذين حضروا مجمع خلقيدون ما بين خمسمائة إلى ستمائة مندوب. وكان كل المندوبين من الكنائس الشرقية فيما عدا أربعة من روما. لكن بمساندة وتأييد بولشيريا والإمبراطور الجديد، مارسيان، سيطر هؤلاء الأربعة على المجمع. فأجلسوا ديوسقورس في وسط الاجتماع كشخص متهم. وروجعت القرارات التي اتخذت في أفسس في سنة ٤٤٩م. ورُفضت. وقد أخذ المندوبون واحدًا فواحدًا - ينحازون [illegible] مندوبي البابا وأقروا الوضع الجديد لكن [illegible] لم يذعن قط لأي نقطة، حتى بعد [illegible] بعض أعضاء وفده[٣] وحكم عليه وعلى خمسة أساقفة آخرين بالعزل وأعيد تيودوريت وإيباس أسقف أديسا إلى مركزيهما واسترد فلافيانوس اعتباره بعد وفاته، وأدين أوطاخي مرة ثانية.

العقيدة الخلقيدونية في المسيح:

وجه المجمع الآن انتباهه إلى كتاب ليو «الطوم» The Tome وركز على وضع بيان منقح «للعقيدة في المسيح». وأخذ المجمع أربع جلسات في تفسير المعنى الدقيق باليونانية واللاتينية. وكتب النص الأساسي باليونانية. عمليًا، مع أن قوام قانون الإيمان الخلقيدوني مشتق من «الطوم» فإن بعض مادته جمعت من رسالة كيرلس الثانية إلى نسطور وخطاب كيرلس إلى يوحنا الأنطاكي في عام ٤٣٣م. (بعد مجمع أفسس الأول). وكانت النقطة الهامة الرئيسية البارزة تدور حول الطبيعة الواحدة Monophysite والطبيعتين diophysite وقد حرص على شجب تطرف نسطور (أقنومين) وتطرف أوطاخي (خلط الطبيعتين)، واتفقوا على الإقرار بأنه بعد التجسد كان المسيح شخصًا واحدًا ذا طبيعتين بدون اختلاط أو تغيير أو تقسيم أو انفصال. وجدير بالملاحظة أن ثلاثمائة وخمسين مندوبًا فقط وقعوا على الإقرار الأخير، وأن الكثيرين

(٣) عندما سئل ديوسقورس أن يوضح إيمانه في طبيعة المسيح قال: «إذا وضعت قطعة من الحديد في النار حتى تلتهب إحمرارًا ثم ضربتها بالمطرقة على السندان، فإن الحديد هو الذي يتلقى الضربات وليست الحرارة المتوهجة أي الإحمرار، حتى ولو أن الحديد والحرارة المتوهجة هما وحدة واحدة لا يتجزأ. ومع أنه لا يتجزأ فإن الحرارة لا تختلط بالحديد مطلقًا ولا تندمج فيه ولا تتغير به. نفس الشيء يصدق على الحديد، وبدرجة ما يرمز إلى تجسد ربنا حيث اتحدت فيه الطبيعتان الألوهية والناسوت بلا اختلاط ولا امتزاج، ولا تغيير، مع أنهما لم يفترقا قط حتى ولا للحظة أو طرفة عين». هذا التحاد يعرِّفه ويحدده آباء كنيسة الإسكندرية بأنه «طبيعة الله الواحدة الكلمة صار جسدًا» وهو قول مرادف لقول البشير يوحنا الكلمة صار جسدًا.

تغيبوا عن عمد. إن الإصرار على «الطبيعتين» بعد التجسد أمر غير مقبول لدى الإسكندريين. علاوة على ذلك فإن استعادة النسطوريين وثيودوريت وإيباس لمراكزهم كانت بصفة خاصة إجراءً هجوميًا. وكضربة أخيرة أعلنت إبرشية القسطنطينية أنها التالية لروما فقط. مزيحة الإسكندرية من مكانها. من أجل هذا الامر لم يخضع الإسكندريون قط لرئاسة أسقفية روما. وهذه ملاحظة واحد منهم «أي شيء أوضح من هذا؟ ها إن نسطور أخذ بثأره. والأساقفة في خلقيدون ومحرضهم البابا «ليو» كانوا شلة نسطوريين. أية كوميديا هذه كانوا يحرمون نسطور ويقننون عقيدته

(Quoted Louis Duchesne, The Early History of the Church, vol. III, p 310.)

فيما يلي الجزء الرئيسي من قانون الإيمان الخلقيدوني:

٢- قانون الإيمان الخلقيدوني(٤):

«فلهذا ونحن تابعون الآباء القديسين. كلنا بصوت واحد نعلم البشر أن يقرّوا بالابن الوحيد ربنا يسوع المسيح الكامل في اللاهوت والكامل أيضًا في الناسوت. إله حق وإنسان حق ذو نفس ناطقة وجسد. جوهر واحد (هوموأوسيون) مع الآب بحسب اللاهوت ومن نفس الجوهر معنا بحسب الناسوت. وهو مثلنا في كل شيء ما عدا الخطية وحدها. مولود من الآب قبل كل الدهور بحسب اللاهوت. وفي هذه الأيام الأخيرة ومن أجلنا ومن أجل خلاصنا وُلد من مريم العذراء (الثيوتوكوس) والدة الإله Theotokos بحسب الناسوت. هو مسيح واحد وابن واحد ورب واحد المولود الوحيد بطبيعتين غير ممتزجتين ولا متغيرتين ولا منقسمتين ولا منفصلتين. والفرق بين الطبيعتين لم يتلاش باتحادهما بل بالحري إن خواص كل طبيعة منهما الخاصة باقية ومحفوظة ومجتمعة في شخص واحد (Prosopon) وأقنوم واحد وأقنوم واحد hypostasis غير منفصل ولا منقسم إلى شخصين. بل الابن الوحيد والمولود الوحيد. الله الكلمة Theon Logon الرب يسوع المسيح. كما أعلن عنه الأنبياء منذ البدء. وكما علمنا الرب يسوع المسيح نفسه وكما تسلمنا قانون إيمان الآباء القديسين».

تأثير خلقيدون على قانون الإيمان المشيخي الوستمنستري(٥): Westminster Confession

يمكن أن نجد تأثير خلقيدون في قوانين الإيمان لدى اليونانية واللاتينية ومعظم الطوائف البروتستانتية. وهكذا يمضي نص قانون الإيمان الوستمنستري (١٦٤٣- ١٦٤٦م.) المعتمد لدى المشيخيين قائلاً: «إن ابن الله الأقنوم الثاني في الثالوث وهو الله الحق الأزلي من جوهر الآب ومعادل له. لما جاء ملء الزمان أخذ لنفسه طبيعة الإنسان مع كل خواصها الجوهرية وكل ضعفاتها العامة. ولكن ما خلا الخطية وحدها فحبل به بقوة الروح القدس في بطن العذراء مريم ومن جوهر جسدها. وبذلك اتحدت طبيعتان صحيحتان كاملتان متميزتان - هما اللاهوت والناسوت - اتحادا غير منفصل في شخص واحد بدون تحويل ولا تركيب

(٤) انظر أيضًا النص في كتاب «علم اللاهوت النظامي» صفحة ١٧٦. ١٧٧.

(٥) انظر أيضًا النص في كتاب «علم اللاهوت النظامي» صفحة ٧٨٩. ٧٩٠.

ولا اختلاط. وذلك الشخص إله حق وإنسان حق بل مسيح واحد والوسيط الوحيد بين الله والإنسان.
(Westminster Confession ch. VIII see. 21)

الكنائس غير الخلقدونية:

إنه لشيء مؤسف أن نعترف بأن قانون الإيمان الخلقيدوني يرفض الكنائس المدعوة كنائس «الطبيعة الواحدة» (أو اللاخلقيدونية) الموجودة في زماننا الحاضر - وهي كنائس الأقباط الأرثوذكس، والسريان الأرثوذكس (اليعاقبة)، والأرمن الأرثوذكس والأحباش الأرثوذكس. هذه الكنائس تري أن القانون الخلقيدوني قريب جدًا من النسطورية، ويبدو لكاتب هذا الكتاب أن موضوع «العقيدة في المسيح»، الذي نسبه الغرب تقريبًا مازال له أهميته في الشرق. ولكي نقدّر قيمة رأي الكنائس غير الخلقيدونية، ننقل مقتطفات من إيضاح الكنيسة القبطية الأرثوذكسية ورأيها في موضوع العقيدة عن المسيح الذي أدلى به أسقف الدراسات اللاهوتية العليا والثقافة القبطية والبحث العلمي بالقاهرة نيافة الأنبا غريغوريوس فقد قال:

المقتطفات المنقولة من خطابه في اجتماع ممثلي الكنيسة في أورشليم ١٩٥٩م.

أ. بيان الأنبا غريغوريوس:

«إني أتجاسر وأقرر أن كل الجدال الدائر بين الكنائس الكاثوليكية الرومانية، والبروتستانتية والخلقيدونية من جانب، وكنائس «الطبيعة الواحدة» أو الأرثوذكسية اللاخلقيدونية من الجانب الآخر، إنما هو في جملته جدال فلسفي، أثير بسبب الاصطلاح الصحيح الذي يجب أن يستخدمه المسيحيون للتعبير عن إيمانهم بنوع الاتحاد الموجود بين لاهوت وناسوت ربنا ومخلصنا.

ب. طبيعة واحدة:

نحن شعوب الشرق نخاف جدًا من استخدام الاصطلاحات الفلسفية في تعريف المعاني. إن الكنائس الأرثوذكسية الخلقيدونية تؤمن بلاهوت المسيح كما تؤمن بناسوته. لكن المسيح بالنسبة لنا هو «طبيعة واحدة». وقد يبدو هذا متناقضًا. ومهما تكن التناقضات العقلانية المنطقية فإن كنيستنا لاترى أي تناقض في إعترافها، وإقرارها بخصوص طبيعة المسيح. فهناك دائمًا حل سري روحي غير مدرك بالعقل يذيب ويحل ويتغلب على كل التناقضات. بسبب هذه الخبرة السرية الروحية فنحن لا نسأل دائمًا لماذا وكيف.

ج. الألوهية والبشرية متحدتان في المسيح:

«الإيمان الأرثوذكسي طبقًا لإقرارنا هو أن ربنا كامل في ألوهيته وكامل في بشريته. على أننا لا نجرؤ علي القول بأنه هو الله وإنسان معًا لأن هذا التعبير يتضمن الإنفصال. بل بالأحرى هو الله المتجسد. فاللاهوت والناسوت متحدان فيه اتحادا تامًا أي في الجوهر، والأقنوم، والطبيعة. لا انفصال أو انقسام بين لاهوت وناسوت ربنا. فمنذ نفس لحظة حلول «الكلمة» الإلهية في أحشاء مريم، فإن الأقنوم الثاني من الثالوث المقدس، إتخذ لنفسه من دم القديسة مريم جسدًا بشريًا كاملاً وروحًا إنسانيًا عاقلاً، وجعل نفسه واحدًا مع الناسوت الذي تسلمه من العذراء مريم. لذلك فإن «الواحد» المولود من القديسة مريم هو الله

المتجسد: جوهر واحد، شخص واحد، أقنوم واحد، طبيعة واحدة، أو يمكن القول أنه طبيعة «واحدة» من بين طبيعتين. وبعبارة أخرى فنحن نتكلم عن طبيعتين قبل حدوث الاتحاد، لكن بعد الاتحاد فلا شيء سوى طبيعة «واحدة» طبيعة واحدة لها صفات الطبيعتين.

د- لاأوطاخية:

«ومن ثم فإن الاتحاد الذي تؤمن به الكنائس الأرثوذكسية اللاخلقيدونية يختلف جوهريًا عن نوع الاتحاد الذي أعلنه أوطاخي. قال أوطاخي أن ربنا طبيعة واحدة، لكن هذا الاتحاد مبني على فكرة أن ناسوت المسيح تم إمتصاصه وذوبانه تمامًا في لاهرته وتلاشى تمامًا مثل نقطة خل في المحيط. إن أوطاخي في حقيقة الأمر، ينكر الوجود الحقيقي لناسوت المسيح.

إن الكنائس الأرثوذكسية اللاخلقيدونية – على عكس أوطاخي – تعترف بأن المسيح طبيعة «واحدة» محفوظ فيها تمامًا كل الصفات البشرية وكل الصفات الإلهية حفظًا تامًا بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير، إنه اعتراف يصرح به الكاهن القبطي الأرثوذكسي في خدمة ليتورجية القداس رافعا بيديه صينية القربان المقدس.

هـ- اتحاد حقيقي لكن لااختلاط بين الطبيعتين:

«آمين، آمين، آمين، أؤمن وأعترف للنفس الأخير أن هذا هو الجسد المحيي واهب الحياة، الذي أخذه ابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، من سيدتنا وملكتنا كلنا والدة الإله، القديسة مريم. وجعله واحدًا مع لاهوته بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. أؤمن أن لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين». إذن اللاهوت باق محفوظ والناسوت باق محفوظ والناسوت باق محفوظ ومع أن المسيح ذو طبيعتين، فإنه ليس ذا طبيعتين بعد الاتحاد، كما قال ديوسقورس بابا الإسكندرية، أن اللاهوت لم يختلط بالناسوت ولم يمتزجا معًا ولا تبدلا، كل منهما إلى الآخر. وأن اللاهوت والناسوت متحدان ليس بمعنى مجرد الضم أو الارتباط أو الاتصال، لكنهما متحدان بالمعنى الحقيقي لكلمة اتحاد. لكن كيف يحدث هذا؟ كيف اتحدت معًا الخصائص والناسوت في طبيعة واحدة بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير، هذا ما لا نعرفه، وكيف يمكن أن تكون للمسيح صفات وخصائص كلا الطبيعتين لكن ليس له طبيعتان، فإن هذا ما لا نعرفه أيضًا. وقد يبدو هذا غير منطقي ومتناقضًا. شيء واحد نحن متأكدون منه، أن هناك نوعًا من الاتحاد الذي يفوق كل إدراك المفاهيم البشرية والمتناقضات الإنسانية. إنه اتحاد حقيقي. وقد نتكلم أحيانًا عن طبيعة إلهية وطبيعة بشرية، لكن هذا الانفصال موجود في عقولنا فقط. وفي الحقيقة ليس هناك طبيعتان بعد الاتحاد. ولم يحدث أن الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية انفصلتا الواحدة عن الأخرى، ثم اجتمعتا معًا في اتحاد. وأما ما حدث فهو هذا، أن الأقنوم الثاني للثالوث المقدس المبارك قد نزل وحل وسكن في بطن العذراء واتخذ لنفسه جسدًا بشريًا وروحًا إنسانيًا، طبقًا لما يعلنه القديس يوحنا «والكلمة صار جسدًا» (يو ١: ١٤). ولا توجد كلمة غير كلمة «صار» اقوى دلالة على الاتحاد التام الذي حدث. كان يمكن للكتاب المقدس أن يستخدم تعبيرًا آخر لكنه لم يفعل ولا يوجد إزدواج هنا بين الطبيعتين. فلا توجد إلا طبيعة «واحدة» فقط.

هذا برهان حقيقي على الاتحاد بالمعنى الذي تقره ونعترف به الكنائس الأرثوذكسية غير الخلقيدونية.

و- مثل اتحاد الروح والجسد:

«إن الاتحاد بين اللاهوت والناسوت يشبه بالاتحاد بين الروح والجسد في الإنسان. فمع أن الروح والجسد يختلفان الواحد عن الآخر في الجوهر، فإن الاتحاد بينهما جعل منهما طبيعة واحدة فقط وهي التي نشير إليها بالتعبير»الطبيعة الإنسانية». هناك تشبيه آخر قد يكون أوضح، هو الاتحاد الموجود بين الفحم والنار في جمرة أو فحم متقد، ومهما يكن فإن الاتحاد في المسيح لا يمكن أن يشبه أو يقارن بأي نوع من الاتحاد الذي نعرفه في خبراتنا الإنسانية. «إنه اتحاد لا نظير له».

«مرة أخرى أكرر أننا نؤمن بطبيعة «واحدة». هذه الطبيعة ليست هي اللاهوت وحده ولا الناسوت وحده. إنها طبيعة «واحدة» لها صفات وخصائص الطبيعتين بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير.

ز- الاختلاف حول خلقيدون اختلاف ضئيل:

«والآن يبدو لي أن الاختلاف بين إقرارانا الذي نعترف به وبين الإقرار الذي تعترف به الكنائس الخلقيدونية اختلاف تافه ضئيل. إنها مسألة تعبير عن نفس المعنى ونفس الحقيقة اللاهوتية. إنني أعتقد أن هذا صحيح إلى حد كبير، ما زلنا نحتفظ بأسبابنا للتمسك بتعبيرنا التقليدي «طبيعة واحدة للكلمة المتجسد». طبيعة واحدة لها خصائص وصفات الطبيعتين بلا اختلاط، ولا امتزاج، ولا تغيير. هذه الأسباب يمكن إجمالها في النقط التالية:

أولاً: لا يوجد نص كتابي واحد يبرهن بصورة قاطعة حاسمة على أن للمسيح طبيعتين بعد الاتحاد

وعلى العكس فإن كل النصوص الكتابية في جانبنا، ونذكر فقط فقرات قليلة كأمثلة:

يقول القديس يوحنا بكل صراحة ووضوح «والكلمة صار جسدًا وحل بيننا» (يو ١: ١٤).

وفي سفر الرؤيا يعلن ربنا، «أنا هو الأول والآخر، والحي وكنت ميتًا وها أنا حي إلى أبد الآبدين آمين. ولي مفاتيح الهاوية والموت» (رؤ ١: ١٧، ١٨).

الضمير «أنا» في هذه الفقرة لا يبين الإزدواج أو الثنائية. إنه هو الأول والآخر وهو الذي كان ميتًا.

نفس المعنى واضح في فقرات أخرى، «وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يو ٣: ١٣). إذن هو «الواحد» الذي في السماء وهو ابن الإنسان على الأرض، دائمًا نفس الأمر، جوهر واحد، أقنوم واحد، طبيعة واحدة.

والقديس بولس في حديثه إلى أساقفة أفسس، ينادي بنفس الاتحاد «احترزوا إذًا لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه» (أع ٢٠: ٢٨) «فكيف أمكن للرسول القول بأن الدم المسفوك هو دم الله لو كان هناك إزدواج في المسيح بأي معنى؟

كما أن نفس الرسول يقرر في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس «لأن لو عرفوا لما صلبوا رب المجد. (١كو ٢: ٨)

إذن «فالواحد» المصلوب هو رب المجد نفسه. مرة أخرى لا إزدواج.

نفس الحقيقة واضحة جدًا من فقرات مثل «عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد» (اتي ٣: ١٦) - «الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله. لكنه أخلى نفسه آخذًا صورة عبد صائرًا في شبه الناس. وإذ وجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب» (في ٢: ٦-٨).

«فقرات أخرى من إنجيل متى ٣: ١٧؛ ولوقا ١: ٤٣؛ ويوحنا ١: ١٨؛ ٣: ١٦؛ ٨: ٥٨.؛ اكورنثوس ٨: ٦؛ ١٠: ٤و٩؛ غلاطية ٤: ٤؛ أفسس ٤: ٨ - ١١؛ كورنثوس ١: ١٥ و١٦؛ ٢: ٩؛ تيطس ٢: ١٣. عبرانيين ١: ١-٣؛ ٢: ٩ و١٠؛ ١٣: ٨».

ثانيًا: عبارة «طبيعتين متحدتين معًا» هي عبارة في غاية الخطورة

١ - إنها تتضمن الإزدواج. وحتى نوعًا من الفصل بين اللاهوت والناسوت. وإلا فلا معنى للإصرار على عبارة «طبيعتين» مادام هناك اتحاد.

٢ - إنها لا تدل على اتحاد حقيقي - إنها بالأحرى تعبر عن وجود طبيعتين منفصلتين تقتربان أو تنضمان معًا. وبناء عليه فمثل هذا التعبير يفتح طريقًا إلى النسطورية التي بالتأكيد تدينها الكنائس الخلقيدونية كهرطقة ضد الإيمان المسيحي.

٣ - «عبارة طبيعتين متحدتين معا عبارة خطيرة ضد خلاصنا. فلو أن هناك طبيعتين في المسيح بعد الاتحاد. إذن ففداء المسيح كان عمل ناسوته لأن الجسد هو الذي صلب. وبالتالي فلا يكون لفداء المسيح قوة لخلاص الجنس البشري. والواقع أن قيمته تكمن في حقيقة أن «الواحد» الذي صلب هو «الكلمة» المتجسد. بالتأكيد لم يكابد اللاهوت عذاب الصلب. إلا أن اللاهوت أعطى الصلب قيمته اللانهائية وقدرته المتناهية على خلاص كل الجنس البشري. إن عبارة «طبيعة واحدة لها صفات وخصائص الطبيعتين» تنقذ إيماننا بفداء ربنا. وتتضمن عبارة «طبيعتين» إحتمال صلب جسد المسيح لا المسيح نفسه. وكل فقرات الأسفار المقدسة ضد هذا المفهوم.

فالدم هو دم الله. كما قال القديس بولس «كنيسة الله التي اقتناها بدمه» (أع ٢٠: ٢٨).

٤ - عبارة «طبيعتين» في المسيح لا يمكن أن توضح العقيدة التي تعترف فيها الكنائس الرومانية الكاثوليكية والخلقيدونية بأن القديسة مريم هي والدة الإله.

وعلى العكس يتضمن التعبير الخلقيدوني احتمال الهرطقة النسطورية التي يقبلها كل البروتستانت على اختلاف طوائفهم. وهي أن القديسة مريم ليست أم الله. والدة الإله. إنها فقط أم يسوع الإنسان ولا أدري كيف يمكن للكنائس الخلقيدونية أن تستمر في اعتقادها أن القديسة مريم أم الله. وعبارة أن للمسيح طبيعة «واحدة». يمكن أن توضح هذه الحقيقة بسهولة لأن «الواحد» المولود من القديسة مريم ليس هو يسوع الإنسان بل «الكلمة» المتجسد.

ح - الأرثوذكس الشرقيون يرفضون عقيدة خلقيدون:

«هذه هي الأسباب التي من أجلها ترفض الكنائس الأرثوذكسية الشرقية عبارة «طبيعتين» وتتمسك بتعبيرها التقليدي القديم «طبيعة واحدة» التي أقرها القديس أثناسيوس العظيم والقديس كيرلس بطريرك الإسكندرية. وبالمثل هي الأسباب التي من أجلها ترفض الكنائس الأرثوذكسية غير الخلقيدونية الإعتراف بوثيقة «ليو» بابا روما والتعريف الخلقيدوني، لأنها تقر بوضوح بوجود طبيعتين بعد الاتحاد.

ط- الحاجة إلى الاتفاق والاتحاد:

هذا هو رأينا وموقفنا اليوم. إنني شديد الاقتناع جدًا بأن الإيمان الخلقيدوني بعيد عن كونه نسطوريًا، وأن الإيمان اللاخلقيدوني بعيد عن كونه أوطاخيًا، ولذلك فنحن لا نتخلى عن الأمل بأن يومًا ما لن يكون لجميع الكنائس نفس الإيمان، ولكن أيضًا نفس الاعتراف بالإيمان ونفس الاصطلاحات والتعبيرات اللاهوتية. يجب أن يأخذ مجمع مسكوني المبادرة. إن المؤتمرات المشابهة لمؤتمرنا قد تمهد الطريق.

إنني واثق أن مثل هذه الاجتماعات سوف تؤدي إلى مفهوم أفضل وتساعد على دفع الحركة المسكونية إلى الأمام. دعونا نصلي من كل القلب من أجل وحدة كنيسة المسيح، حتى تستطيع أن تمسك معتصمة بمشعل النور، كارزة بالإنجيل، ومقاومة شرور العالم، ومصارعة الإلحاد والمادية. إن اتحاد الكنيسة ليس فقط هو إرادة الله، إنه أيضًا الشرط الذي بدونه تنتهي إرسالية الكنيسة والمسيح. «ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط بل أيضًا من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم.. ليكونوا هو أيضًا واحد فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني». (يو ١٧: ٢٠، ٢١)

(From an adress presented to a meeting of Church Representatives in Jerusalem. Quoted by Iris Habib Al Masry, The Story of the copts, pp. 536 – 542)

Recommended English Readings

1 – Atiya, A.S. ***A History of Eastern Christianity***, pp.69 – 71.

2 – Boer, Harry R. ***A Short History of the Early Church***, pp. 171 – 176.

3 – Bruca, F. F. ***The Spreading Flame***, pp. 312 – 315.

4 – Chadwick, Henry. ***The Early Church***, pp. 200 – 205.

5 – Danielou – Marrou, ***The Christian Centuries, vol. 1,*** pp. 348 – 358

6 – Duchesne, Louis, ***The Early History of the Church, vol. 111,*** pp. 271 – 289.

7 – Foster, John ***Church History 1***, The First Advance, pp. 141 – 143.

8 – Frends. W. H. C. ***The Early Church***, pp. 237 – 246.

9 – Latourette, K. K. ***A History of Christianity***, pp. 170 – 172

10 – El Masry, I. H. ***The Story of the Copts***, pp. 215 – 238.

11 – Schaff, Philip, ***History of the Christian Church***, vol. 111, pp. 137 – 139.

12 – Walker, Williston, ***A History of the Christian Church***, pp. 137 – 139, 734 – 762.

13 – Wand, J. W. C. ***A History of the Early Church to AD 500***, PP. 234 – 243.

14 – Especially recommended is The Christological Controversies By Richard. A. Norris, JR, in the series Sources of Early Christian Thought, editor – William G. Rusch. This book gives an excellent summary of Christology from the arliest days through Chalcedon including extensive quotes from the leading thinkers on the subject.

15 – Also recommended for reading in Christology:

Seeberg, Reinhold, ***Text Book of the History of Doctrines***, pp. 243 – 271.

الفصل الثالث

نتائج مجمع خلقدونية



استمرار الجدل حول العقيدة في المسيح:

على العموم لقد حسم إقرار الإيمان الخلقيدوني، الخلاف من جميع الوجوه حول لاهوت المسيح وناسوته، بالنسبة للكنيسة الغربية (اللاتينية)، لكن ليس بالنسبة للكنيسة الشرقية. فقد استمر الصراع بين الخلقيدونيين (اليونانيين أو البيزنطيين) واللاخلقيدونيين. وكان اللاخلقيدونيين هم الأقوى في الإسكندرية، لكن كان لهم مراكز قوية أيضًا في أورشاليم، وأنطاكية، ونصيبين، وأديسا. وقد حاول الخلقيدونيين في الشرق بدورهم إما أن يقنعوا أو يرغموا غير الخلقيدونيين على أن يغيروا من موقفهم ومن رأيهم.

الاضطهاد البيزنطي في مصر:

مع عزل ديوسقورس ونفيه، تم تعيين بروتيريوس Proterius صديق البيزنطيين بطريركًا للإسكندرية بمرسوم إمبراطوري (تذكّر أن عاصمة الإمبراطورية البيزنطية كانت القسطنطينية). كان هذا الإجراء مرفوضًا بجملته تمامًا من شعب مصر الذين انتخب من ناحيته تيموثاوس إيلوروس أسقفًا له. وحين سنحت الفرصة هب عامة الشعب في الإسكندرية واغتالوا بروتيريوس. وتلا ذلك عندئذ محاولات أخرى من القسطنطينية لتنصيب بطاركة بيزنطيين في الإسكندرية، ومجهودات أخرى بنفس التصميم من المصريين، على اختيار قاداتهم بأنفسهم. وفي أنطاكية انتخب السوريون بطرس الفولر The Fuller بطريركًا لهم في عام ٤٦٤م خلقيدونياً قوياً، وهو الذي أدخل في تسبحة «الثلاث تقديسات (قدوس قدوس قدوس) في ليتورجية القداس، جملة جديدة هي «قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الحي الذي لا يموت، الذي صلب من أجلنا». وهي كلمات مقبولة لدى اللاخلقيدونيين لكنها مرفوضة لدى الخلقيدونيين. وخلال هذه الفترة اتخذت مقاومة البيزنطيين نغمة وطنية عالية، ففي سنة ٤٨١ إختار الشعب بطرس موجو Peter Mongo بطريركاً للإسكندرية وقد استطاع بطرس أن يحتفظ بمركزه بالرغم من التدخل البيزنطي. ولأن الخلقيدونيين كانوا مؤيدين من الإمبراطور أصبح اسمهم «الملكانيين

(١) لسنوات عديدة كان يوجد بطريرك ملكاني بيزنطي في الإسكندرية وفي أيام الإمبراطورية البيزنطية كانت تحميه فرقة من الجيش الإمبراطوري.

Melchite» أو «الإمبراطوريين»[1]

وكان الملكانيون يتحدثون اليونانية بينما كان غير اللاخلقيدونيين يستخدمون في ليتورجياتهم اللغة القومية الوطنية، السريانية في سوريا والقبطية في مصر.

هذا الإحساس بالعزلة والتباعد الثقافي والسياسي بين الخلقيدونيين واللاخلقيدونيين تسبب في الإنفصال بينهم بنفس القدر الذي سببته المناظرات والجدل حول «العقيدة في المسيح».

زينون Zeno وآل هينوتيكون Henoticon:

لفترة ما، كانت هناك تسوية للخلافات بين الإسكندرية والقسطنطينية عندما تقابل بطرس ماجُو، الذي انتخبه الأهالي بطريركًا للإسكندرية، مع أكاكيوس «Acacius» بطريرك القسطنطينية. في ذلك الوقت كان الإمبراطور زينون قد اقتنع بأن استخدام القوة ضد مؤيدي مبدأ «الطبيعة الواحدة» لا جدوى منه. وقد أصدر الإمبراطور زينون بمساعدة بطرس أسقف الإسكندرية وكاكيوس أسقف القسطنطينية في سنة ٤٨٢م منشور الاتحاد واسمه هينوتيكون «Henoticon». وقد اعترف هذا «الهينوتيكون» بقرارات المجامع المسكونية الثلاثة الأولى (نيقية والقسطنطينية وأفسس). وحرم ثانية (أناثيما) كل من نسطور وأوطاخي وأتباعهما. وكرّم المنشور ذكرى كيرلس وإقتراحاته الاثني عشر. ووافق رسميًا على تعبير ثيوتوكوس. وأعلن أن المسيح واحد في الجوهر في ناسوته وفي لاهوته. ولكن المنشور كان حريصًا على تجنب ذكر «طبيعة واحدة أم طبيعتين». وقد جاء ذكر خلقيدونية كما هي لكن بطريقة غير مباشرة. واختتم المنشور بهذه الكلمات: أو من فكر بخلاف ذلك سواء في خلقيدون أو في أي مجمع أو سنودس آخر من أي نوع، فهو محروم «أناثيما». وقد كانت للشعب الحرية في قبول مجمع خلقيدونية. لقد كان منشور الاتحاد الهينوتيكون - كمحاولة لإيجاد حل وسط - مقبولاً لدى البعض، لكنه كان بصفة عامة غير ناجح. فقد بدا الهينوتيكون بالنسبة للخلقيدونيين كأنه إنكار لقانون مجمع خلقيدونية. أما لدى اللاخلقيدونيين فكان غير واف لأنه لم ينكر خلقيدون بصفة خاصة. لقد وسّع هذا المنشور عمومًا الهوة بين روما والقسطنطينية بدرجة كبيرة. وقد أصدر «فيلكس Felix» بابا روما قرارًا بحرم أكاكيوس، وأكاكيوس بدوره حذف اسم الأسقف الروماني من ليتورجية الأفخارستيا. إن إصرار واستمرار زينون وخليفته أنستاسيوس لمدة ستة وثلاثين عاما (٤٨٢ - ٥١٨م) على محاولة فرض الهينوتيكون بالقوة على الخلقيدونيين واللاخلقيدونيين على السواء، لم ينفع في حل المشاكل.

إحترام اللاخلقيدونيين:

من المفيد أن نلاحظ سمو الاحترام لزعماء أنصار «الطبيعة الواحدة» الذي تمسك به كاتب كاثوليكي روماني معاصر هو، هنري مارو في كتاب Henri Marrou In The Christian Centuries, vol. 1.p. 356). يتأسف لمرور العصر الذهبي لآباء الكنيسة- جيروم، ويوحنا فم الذهب، وثيودوريت، وكيرلس وغيرهم، ويذكر أنه في القرنين الخامس والسادس كانت الشخصيات القوية في الكنيسة

موجودة بين معتنقي «الطبيعة الواحدة». «لم يكن بين الخلقيدونيين واحد يتساوى معهم في المقام». ثم يشير إلى تقواهم «ونشاطهم الروحي والليتورجي». وجهودهم التبشيرية وسط قبائل العرب في سوريا. وكان يمكنه أن يذكر أيضًا توسع الكنيسة القبطية وسط القبائل النوبية في أعالي النيل. For Which, sea al Masry, Iris Habib,) The Story of the Copts. P. 259, in Arabic vol, 11, p. 169) عن ذلك انظر كتاب «تاريخ الكنيسة القبطية» للكاتبة إيريس حبيب المصري، المجلد الثاني صفحة ١٦٩). وفي المقابل كانت الأقاليم الغربية تدخل عصورها المظلمة. وقد سقطت بلاد شمال أفريقيا، وأسبانيا وبريطانيا، وبلاد الغال في أيدي القبائل الوثنية. أما عن الكنيسة فباستثناء روما، كانت الأريوسية حية ونشيطة للغاية، وكان أساقفة أرليز ورافينا وقرطاجنة – أريوسيين.

ساويرس الأنطاكي Severus of Antioch:

كان ساويرس الأنطاكي شخصية هامة من جماعة اللاخلقيدونيين (٤٦٠ – ٥٣٨م). كان ساويرس كاتبًا خصيب الإنتاج أدى الكثير في تعريف فكر ورأى «الطبيعة الواحدة». نفاه الإمبراطور الخلقيدوني جوستين، وقضى عشر سنوات في مصر (٥١٨ – ٥٢٧م). ونجده مرة أخرى في القسطنطينية في سنة ٥٣١م. حيث كانت تحميه تيودورا زوجة الإمبراطور جوستنيان والتي كانت متعاطفة مع غير الخلقيدونيين، لكنه نفى مرة أخرى إلى مصر في سنة ٥٣٦م. رفض ساويرس محاولات فصل طبيعتي المسيح، كما رفض أن يفسر ناسوت المسيح تفسيرًا خاطئًا. وربما كان ساويرس أقرب لقانون خلقيدون من كثيرين من زملائه. في الواقع يقول هنري مارو عنه: « يمكننا القول إن عقيدة الطبيعة الواحدة تاريخيًا، وهي المبدأ الذي دام إلى العصور الحديثة، هي عقيدة الطبيعة الواحدة التي نادى بها ساويرس. وقد رفض ساويرس خلقيدونية ووثيقة «طومس ليو» مخلصًا تمامًا لتعليم كيرلس الذي يمجد اتحاد اللاهوت والناسوت في المسيح فوق كل شيء آخر. فلو أن الطبيعتين تميزتا الواحدة عن الأخرى، فلقد كان ذلك تمييزًا منطقيًا فقط وليس تمييزًا حقيقيًا.

إنقسامات أصحاب الطبيعة الواحدة

لسوء الحظ تجزأ حزب اللاخلقيدونيين إلى طوائف أخرى لأسباب سياسية ولاهوتية متنوعة. فهناك فريق لا يغفر أبدًا لبطرس موجو موافقته على الهينوتيكون.

وهناك جماعة تؤمن بعقيدة أوطاخي إيمانًا كاملاً، وكانوا يؤمنون بأن اللاهوت ابتلع واستوعب الناسوت تمامًا في المسيح. وهناك مدرسة تتبع جوليان إلهاليكارناسوسي Halicarnassus الذي كان يؤمن بأن جسد الرب غير قابل «للفساد» متضمنًا بذلك أنه لم يكن متأثرًا بالحواس والأحاسيس الإنسانية الأصلية النمطية (مثل الجوع والعطش والألم... إلخ).

الإمبراطور جوستينيان:

ظهر آنذاك شخص أثر تأثيرًا عظيمًا في مستقبل الكنائس وإمبراطورية الشرق – هو جوستينيان الأول (٤٨٣ – ٥٦٥م) أعظم أباطرة البيزنطيين الذي حكم من سنة ٥٢٧م حتى موته سنة ٥٦٥م. وإذ نترك جانبًا نجاحه الكبير سياسيًا وعسكريًا، نتجه إلى علاقاته بالكنيسة. كان جوستينيان لاهوتيًا مقتدرًا شرع في تسويه

الفروق بين الفروع الخلقيدونية وغير الخلقيدونية للكنيسة. وقد سعى نحو أساس وسط يمكن أن يعيد التأكيد الكيرلسي للإقرار الخلقيدوني بدون الإساءة إلى البيزنطيين «ا لأرثوذكس». ونجح جوستينيان إلى حد كبير مع البيزنطيين لكن النجاح لم يحالفه مع الإسكندريين. كان جوستينيان يتلقى المساعدة من اللاهوتي «ليونيتوس «Leontius» (٤٨٥ – ٥٤٣م) الذي طبق منطق أرسطو على مشكلة «الطبيعة الواحدة؛ الطبيعتين». فتمسك بأن طبيعة المسيح البشرية كانت متحدة مع «اللوجوس» منذ الأزل ولم توجد قط بصورة مستقلة عنه. الإنسان في المسيح، حقيقي، لكن مركزه اللوجوس. كانت وجهة نظر ليونينوس فعليًا وعمليًا قريبة جدًا من فكر ساويرس الأنطاكي (انظر أعلاه) لكن الغالبية من طوائف الطبيعة الواحدة في سوريا ومصر لم يكن يرضيهم شيء أقل من الرفض التام الفوري لإقرار خلقيدون.

لذلك فإن الكنائس الشرقية الأرثوذكسية في صلوات الليتورجية تحيي فقط ذكرى الجامع المسكونية الثلاثة الأولى فقط، نيقية، القسطنطينية، أفسس. أما الكنائس الخلقيدونية فتعترف بسلطة سبعة مجامع مسكونية – هي نيقية – ٣٢٥م القسطنطينية (الأول) سنة ٣٨١م، أفسس سنة ٤٣١م، خلقيدونية سنة ٤٥١م القسطنطينية (الثاني) سنة ٥٥٣م، القسطنطينية (الثالث) سنة ٦٨٠م، نيقية (الثاني) سنة ٧٨٧م.

الفصول الثلاثة ومجمع القسطنطينية الثاني

مرة أخرى حاول جوستنيان الأول في ما يعرف بمناظرات «الفصول الثلاثة» التي أدت إلى انعقاد المجمع الخامس العام في القسطنطينية. ففي سنة ٥٤٤م أدان الإمبراطور بعض الكتابات التي اعتبرها نسطورية. (١) شخصية وكتابات ثيودور أسقف مابسوستا (٣٥٠ – ٤٢٨م). (٢) كتابات ثيودوريت (٣٩٣ – ٤٥٨م) في نقد كيرلس بطريرك الإسكندرية. (٣) خطاب إيباس السوري – كان الغرض من هذه الخطة هو السماح فقط لتفسير كيرلس للإقرار الخلقيدوني وتنقيته من أي ارتباطات نسطورية (ملاحظة: ثيودوريت وإيباس أعيدا إلى مراكزهما في خلقيدون). لم يكن بابا روما فيجيليوس Vigilius، سعيدًا حيث أنهم الآن حقروا مجمع خلقيدونية لكنه لم يستطع أن يفعل إلا القليل لأن جوستنيان كان قد هزم إيطاليا للمرة الثانية وسيطر سيطرة تامة على الإمبراطورية شرقها وغربها. لذلك استطاع جوستنيان أن يدعو إلى انعقاد مجمع القسطنطينية المسكوني الثاني في سنة ٥٥٣م. ثم قبول إدانة «الفصول الثلاثة» في القسطنطينية (بيزنطة) وقبلها فيجيليوس والغرب تحت الضغط. كان الغرض الرئيسي لجوستنيان من تمسكه بالمجمع هو المصالحة مع أصحاب مبدأ «الطبيعة الواحدة» من سوريا ومصر، لكن مجهوداته كانت بدون فائدة.

يعقوب باراديوس (يعقوب البرادعي) Jacob Bardaeus:

بسبب الإجراءات التي إتخذها الإمبراطور إنقسمت جماعة اللاخلقيدونيين إنقسامًا خطيرًا. وكان الشخص الذي بذل مجهودًا كبيرًا لإنقاذ هذه الجماعة من الانقراض هو يعقوب البرادعي أسقف سوريا (٥٤٢م – ٥٧٨م). كان يعقوب قد أقيم أسقفًا سنة ٥٤٢م على يد ثيودوسيوس أسقف

الإسكندرية وبتشجيع من الإمبراطورة «ثيودورا» التي كانت تميل جزئيًا إلى أصحاب مبدأ الطبيعة الواحدة. وكان البرادعي (الاسم يعني الأسمال) يسافر متنقلاً في كل الشرق الأوسط متنكرًا في زي شحاذ ليهرب من القبض عليه، مشجعًا قادة الكنيسة، وكان يقوم برسامة الكهنة، ناهضًا باجتماعات المصلين. وقد نظم مجمعًا للأساقفة في الإسكندرية. أما هو نفسه فلم يحظ بالإرتقاء إلى عرش البطريركية، لكنه في سنة ٥٦٠م نجح في تنصيب كاهن غير خلقيدوني بطريركًا لأنطاكية إذ لم يكن هناك أي بطريرك على أنطاكية منذ عزل ساويرس سنة ٥١٨م. يقول تقليد الكنيسة السريانية أن يعقوب البرادعي كرس ما لا يقل عن سبعة وعشرين أسقفًا، اثنا عشر أسقفًا منهم في مصر. وكان يعمل بلا كلل أو ملل ليجمع ويوحد الكنيستين الأرثوذكسيتين المصرية والسريانية. وما تزال الكنيسة الأرثوذكسية السرانية تُعرف لهذا اليوم بالكنيسة اليعقوبية. ومع أن الكنيستين الأرثوذكسيتين القبطية والسريانية لم تتحدا قط، فقد كانت بينهما دائمًا علاقة أخوية وثيقة.

هرقليوس Heraclius وعقيدة المشيئة الواحدة «Monotheletism»:

إلا أن الهوة اتسعت بين الخلقيدونيين واللاخلقيدونيين في السنوات التالية، عندما حاول الأباطرة من بعد جوستنيان – إما بالقهر أو بالإقناع – أن يعيدوا توحيد الكنيسة. وفيما يختص المصريين فإنهم اعتبروا هذه المحاولات على أنها ليست سوى احتلال واستغلال من أجنبي معتد ظالم. وفي خلال القرن السابع قامت جيوش الفرس تحت قيادة خسرو Chosroes بغزو سوريا وفلسطين واحتلال مصر لمدة عشر سنوات. وكانت الإمبراطورية كلها معرضة للضياع لولا الإمبراطور هرقل الذي تمكن من أن يرد الفرس على أعقابهم. إلا أن هرقل اتبع السياسة البيزنطية الأصلية النمطية ضد مصر، فأقام بطريركًا ملكانيًا في الإسكندرية وخوّله سلطات مدنية، وكنسية. كما ابتكر هرقل أيضًا نظرية لاهوتية جديدة كان يرجو بمقتضاها أن يجذب أصحاب مبدأ الطبيعة الواحدة. كانت هذه النظرية تسمى «Monotheletism» (أي المشيئة الواحدة) أو وحدانية وتناسق الإرادتين الإنسانية والإلهية في المسيح. وقد لقيت هذه النظرية بعض الاهتمام في روما وأنطاكية لكنها قوبلت بالرفض القاطع الفوري في الإسكندرية. في سنة ٦٣٨م حاول هرقل بمرسوم إمبراطوري أن يجبر كل الكنائس على قبول مبدأ عقيدة «الإرادة الواحدة»، الأمر الذي أدى إلى المزيد من سخط وهياج الإسكندريين. لقد كان أقباط مصر ملتزمين برفض أي حل يوناني من خلقيدونية إلى هينوتيكون «Henoticon» إلى عقيدة الإرادة الواحدة « Monotheletism» فإذا أخذنا في الإعتبار معاملة البيزنطيين لهم لعرفنا أنه كان لديهم سبب وجيه جدًا لذلك.

كورش المقوقس الملكاني، بطريركًا:

كجزء من جهوده لإخضاع مصر، قام هيرقليوس بتعيين ساويرس «كورش» بطريركًا ملكانيًا وواليًا إمبراطوريًا في نفس الوقت، وبولاية ساويرس «كورش» (المعروف عند العرب باسم «المقوقس»)، بدأت حقبة من الظلم فاقت الكل في قسوتها، فاضطر البطريرك القبطي بنيامين إلى أن يعيش

لاجئًا في الأديرة حتى وضع غزو العرب حدًا للحكم البيزنطي. كانت مصر لبضعة قرون، مطمعًا للإمبراطوريات المختلفة بسبب وفرة محصولها من القمح. لكن المصريين لم يذوقوا مرارة الإضطهاد تحت نير أي ظالم بقدر ما ذاقوه تحت حكم البيزنطيين الذين إستغلوهم اقتصاديًا، وسياسيًا، ودينيًا. لقد وفر عليهم الغزو العربي المزيد من العقوبات من البيزنطيين، لكن الغزوة أيضًا غيرت الوضع تغييرًا جوهريًا بالنسبة لهم ولكل الطوائف الدينية في الشرق الأوسط.

اليونان الأرثوذكس والأقباط الأرثوذكس:

لقد تناست كنيسة الغرب الحديثة كل شيء عدا قضايا ألوهية المسيح، التي كانت النقطة المركزية لذلك الصراع المرير في القرون الرابع والخامس والسادس والسابع، بل وحتى الكنائس الشرقية التي تحتفظ في ذاكرتها بتلك القضايا، تتكلم في الموضوع بتحفظ ورفق وبدون تعصب (كما في شهادة الأنبا أغريغوريوس السابق ذكرها). وجدير بالملاحظة أنه فيما عدا تعريف الناسوت واللاهوت في المسيح (لم تكن القضية مطلقًا هل هناك؟ بل كيف؟). فإن اللغات وبعض جوانب التقليد والليتورجية، فيها مشابهات عديدة بين الأرثوذكس اليونان، والأرثوذكس الأقباط. فالكنيستان تتفقان على ذبيحة الأفخارستيا في الليتورجية المقدسة، وعلى الأسرار المقدسة السبعة، والنظام الأسقفي، ومبدأ الرهبنة، والحج والصوم، وزواج الكهنة وعدم زواج الأساقفة، ورفات القديسين، والأيقونات (لكن ليس التماثيل).

والكتاب المقدس والتقليد لهما السلطان بالتساوي، في تعريف الإيمان.

ولا شك أن تاريخ العزلة المبكرة بين الكنيستين، ثم القرون التي حدث فيها انفصال بينهما بسبب اختلاف السلالات والحضارات، كل هذا زاد من صعوبة الاتحاد بينهما، وهو اتحاد يبدو أمام المراقبين الخارجين ممكنًا ومحتملاً من الخارج.

Recommended English Readings

1 – Atiya, A.S. *A History of Eastern Christianity*, pp. 71 – 78.

2 – Danielou, Jean. ***The Christian Centuries, vol. I,*** pp. 353 – 368 Marrou, Henri.

3 – Duchesne, Louis, *The Early History of the Church*, vol. III, pp. 359.

4 – Al Masry, I. H. *The Story of the Copts*, pp. 241 – 268.

5 – Schaff, Philip, ***History of the Christian Church, vol. III,*** pp.762.

6 – Seeberg, Reinhold, ***Textbook of the History of Doctrines, vol.*** I,p 272 – 288.

7 – Walker, Williston, *A History of the Christian Church*, pp. 140 – 141.

الباب الثامن

التطورات داخل الكنيسة في القرون الرابع والخامس والسادس



١- الإدارة والنظام

مركز وحياة الأساقفة:

لقد ناقشنا فيما مضى تطور سلطة وقوة الإكليروس في العصر القسطنطيني (القرن الرابع). ووجدنا في القرنين الخامس والسادس مزيدًا من التأكيد على هذا الاتجاه. فقد أصبح الأساقفة فعليًا وعمليًا موظفين كبارًا للدولة. (ويبدو أنه لم يكن هناك ثمة تناقض في أن يقوم الإمبراطور هرقل (القرن السابع) بتعيين سايرس (المقوقس) أسقفًا على الإسكندرية وأن يمده بالسلطتين الدينية الكنسية، والمدنية. وكان المتوقع منهم أن يتنافسوا مع نظائرهم السياسيين في ممارسة سلطتهم وفي أسلوب معيشتهم في حياتهم. وكانوا منهمكين في العمل. فكانوا يعمّدون، ويحلّون، ويكرزون، ويحرمون. كانوا إداريين، وقضاة، ومجادلين، ومدافعين عن الإيمان، ومستشارين للإمبراطور. وكان الأمر يتطلب من الشخص رحلة طويلة من التلمذة والتدريب، قبل أن يصل إلى مركز الأسقفية. وقد وضع البابا سيريشيوس[1] سنة ٣٩٠م برنامجًا لرجال الإكليروس المنتظرين. فيبدأ الشخص في سن السادسة كقارئ للإنجيل. ثم يتقدم إلى رتبة مساعد شماس، وبعد ثلاث سنوات إلى شماس وأخيرًا إلى القسوسية (أي الكهنوت). وعند بلوغ الأربعين يتوقع المرء أن يصبح أسقفًا.

From Siricuis Letter 1: 9 – 10

استبعاد الأثرياء من الإكليروس:

منذ أيام قسطنطين كانت السلطات تثبّط همة الأثرياء عن الدخول في خدمة الكهنوت. ففي سنة ٣٢٦م أمر الإمبراطور بأن «أصحاب الثروات الصغيرة» متوسطي الدخل هم فقط الذين يرسمون. فقد كانت الحكومة شغوفة ألا تفقد إيراداتها. وكانت هناك استثناءات بالطبع مثل أمبروسيوس. لكن لسوء الحظ فإن أمر الإمبراطور كان معناه أيضًا أنه في أوقات كثيرة دخل الخدمة أناس قلت موهبتهم أو هزل تعليمهم.

تأثير العلمانيين:

مع ازدياد قوة الإكليروس كان تأثير العلمانيين يتضاءل بالتناسب. على أية حال يمكن أن نلاحظ أن العلمانيين استمروا يلعبون دورًا هامًا في حياة الكنيسة وتطورها ونموها. فكان كل واحد مهتما بالفكر اللاهوتي. وكانت الهرطقة الأريوسية والمنازعات حول العقيدة في المسيح، هي موضوع الساعة. وكان الناس على اختلاف مراكزهم من المتعلم إلى الأمي يتابعون الصراع داخل المجامع بنفس الولع والشوق الذي يتابع به الإنسان الحديث في الشارع مبارياته في كرة القدم. وبسبب القرارات غير المرضية كان العامة يخرجون في مظاهرات صاخبة إلى الشوارع. وكان الأباطرة يعقدون المجامع كما كان كبار رجال البلاط يشاركون فيها مشاركة فعالة. وكان العلمانيون المثقفون مستشارين للاهوتيين. وكان اثنان من أهم مؤرخي هذه الحقبة وهما سقراط وسوزومين خادمين مدنيين في القسطنطينية. وأخيرًا لقد أسهم العلمانيون في الجهد التبشيري للكنيسة إسهامًا عظيمًا. فالتجار المسافرون إلى خارج

(١) تذكر النيسة البابا سيريقيوس لأنه اتخذ خطوات لمنع بعض دوائره من الوقوع تحت السلطة القضائية للقسطنطينية.

حدود الإمبراطورية كانوا يحملون معهم الإنجيل. وقد تم تحويل أيرلندا إلى المسيحية بفضل صبي مسيحي صغير اسمه (باتريك) Patrick. كان البربر قد أسروه. وبفضله أيضًا تجدد من أسروه. وتكررت القصة أيضًا في إثيوبيا بأسر فرومينيتوس Frumentius وأوديسيوس Aedisius.

تدهور وضعف تأثير العلمانيين:

وبحلول القرن الخامس يلاحظ المؤرخون تدهورًا واضحًا ظاهرًا في تأثير العلمانيين. «فالخوف المتزايد من اقتراب النهاية (نهاية الإمبراطورية) قتل الفكر اللاهوتي المستقل لدى العلمانيين. وأصبح المستقبل للكاهن والراهب ورجال الإكليروس. ففي كل مجال.. كان العالم القديم يسير في ظل عتمة الخوف إلى عصور الظلمة. وخلال سنوات قليلة بعد موت البابا «ليو» سنة ٤٦١م واجهت الكنيسة والشعب في الغرب عالمًا بربريًا خالصًا (Frend, W.H.C. «The Early Church», p. 252)

٢- العبادة

تطورات في العبادة:

بدأت بعض التطورات الجديدة وقتئذ في الظهور، وصار استخدام كتاب القراءات اليومية أمرًا شائعًا، وتم تحديد فقرات من العهد القديم، ومن الرسائل، ومن الأناجيل لتقرأ كل يوم أحد من كل أسبوع. وقد وصلت الكرازة والوعظ إلى القمة في القرنين الرابع والخامس برجال مثل أمبروسيوس، ويوحنا ذهبي الفم، وكيرلس، الذين اجتذبوا حشودًا من جماعات المصلين. وكانت الخدمات في أماكن خاصة ومناسبات خاصة ذات مغزى عظيم وأهمية كبرى. وقد كتب أحد الحجاج الذين زاروا أورشاليم في سنة ٣٩٠م تقريرًا عن خدمة يوم الأحد :«في يوم الرب يجتمع جمهور الشعب قبل صياح الديك بأعداد ضخمة على قدر ما يتسع المكان... (وأيضًا) خارج الأبواب حيث تعلق المصابيح لهذا الغرض. وخوفًا من أن لا يكونوا حاضرين (في الوقت المحدد) يأتون قبل الموعد ويجلسون هناك، ينشدون التسابيح وكذلك الترانيم بالتناوب (المردات) ويقيمون الصلاة بين التسابيح والترانيم العديدة... وعندما يخرج الأسقف يقترب الجميع لتقبيل يده. (Quoted by Frend op, cit. p. 250)

معنى «عشاء الرب» في الشرق والغرب:

كان سر الأفخارستيا – عشاء الرب – بوضوح هو الجزء المركزي في العبادة لكل الكنائس الشرقية والغربية. كان الإعتقاد الراسخ أنه بقوة الله يصبح المسيح حاضرًا وموجودًا في الخبز والخمر. على أية حال كان هناك فرق في التأكيد بين الشرق والغرب. ففي الغرب خاصة بعد أوغسطينوس، صارت الفكرة عن سر الأفخارستيا أنه وسيلة للغفران والتطهير من الخطية، وأنه ميل من الله ليكون رحيمًا بالخاطئ، وأنه استعادة للشركة المتهدمة. أما في الشرق فكانت الفكرة عن العشاء – وماتزال إلى اليوم – أنه أساسًا سر عظيم، محيي، واهب الحياة، فيه يتلقى المتناول الجسد المتحول، والدم المتحول – للرب. وبهما يصير شريكًا للطبيعة الإلهية. وفيما يلي نورد المفهوم الشرقي كما شرحه كيرلس الأول بطريرك الإسكندرية:

«الابن الوحيد، بالحكمة التي هي حكمته، وبمشورة الآب، وجد ومهد السبيل الذي نأتي به إلى الاتحاد بالله، وببعضنا البعض – نحن أنفسنا برغم أننا باختلافاتنا أفراد منفصلون في الروح

والجسد. لأنه بالجسد الواحد. جسده هو. يبارك من يؤمنون به بواسطة سر العشاء المقدس ويجعلهم جسدًا واحدًا مع نفسه ومع بعضهم البعض .. لأنه إن كنا جميعنا نشترك في الخبز الواحد. فكلنا نصير جسدًا واحدًا. لأنه لا يمكن أن يتجزأ المسيح. لذلك تدعي الكنيسة «جسد المسيح» الذي نحن أفراد أعضاء فيه. طبقًا لمفهوم بولس. لأننا كلنا متحدون مع المسيح الواحد من خلال جسده المقدس بقدر ما نأخذه ونتناوله. الذي هو واحد غير منقسم في أجسادنا».

(Comm. In Joanmem XI: 10)

٣- الرفات والذخائر والقديسون والملائكة

تكريم القديسين:

ها قد لاحظنا بالفعل الاتجاه المتزايد نحو تكريم القديسين شهداء الكنيسة. وقد أصبح هذا الإتجاه الآن جانبًا ثابتًا ومقدسًا من جوانب حياة الكنيسة. وتعتبر القوى التشفعية للقديسين والشهداء أكثر فعالية فهم الأقرب إلى الله. وكان أوريجانوس وذهبي الفم، وكيرلس الأورشاليمي، من ضمن الذين أعطوا للطقس الديني الخاص بالقديسين والشهداء أساسًا لاهوتيًا خطيرًا. فالقديسين أصبحوا الحراس على المدن، والمعضدين للتجارة، والشافين للأمراض. فهم حاضرون في كل مكان. وبتعبير جيروم: «إنهم (أي القديسين) يتبعون الحمل حيثما يذهب. فإن كان الحمل كائن في كل مكان، فلابد أن نؤمن بنفس الأمر بالنسبة لمن هم مع الحمل».(Against Vigilantius, 7) كما كانت رفات وذخائر وأجزاء أجساد القديسين والشهداء جزءًا متممًا لتشييد كل كنيسة. وطبقًا لمرسوم المجمع السابع العام (نيقية الثاني سنة ٧٨٧م) قال: «إذا وجد أي أسقف من الآن فصاعدًا يدشن هيكلاً بدون رفات أو ذخائر القديسين، يعزل بوصفه متعديًا على التقاليد الكنسية».

العذراء مريم:

مع أن العذراء مريم حظيت دائمًا بمكانة خاصة من احترام وتقدير المسيحيين، فإنها لم تصل إلى أعظم مراتب السمو والرفعة حتي القرن الرابع. فكانت في نظر الناس كمال المثل الأعلى للبتولية (للرهبانية) في خضوعها لإرادة الله. إن السمو والإعلاء الكامل لمريم كالأولى والعظمي بين كل المخلوقات جاء أثناء المنازعات حول العقيدة في المسيح «عندما وصفت رسميًا بأنها» والدة الإله» ثيوتوكوس. وقد مدحها الآباء الشرقيون (ديديموس وأفرايم ويوستين وغيرهم) بأفخم عبارات التمجيد. بعد ذلك صارت مريم الأولى بين كل القديسين في التقدير والاحترام الشعبي والرسمي على السواء. وقد قورنت مريم التي جاء الخلاص عن طريقها بحواء التي دخلت الخطية عن طريقها. ومن المحتمل - ربما بدون قصد - وكنتيجة للمنازعات حول العقيدة في المسيح، وتأكيدهم على ألوهية الابن، أن العذراء، الأم الحنون، أخذت على الفور سريعًا الدور الأكثر إنسانية كشفيعة لدى الآب. فهي الأكثر قربًا.

الملائكة:

في القرن الخامس ظهر مؤلف مكتوب باسم ديونيسيوس الأريوباغي Dionysius the Areopagite (أع ١٧: ٣٤) يحث علي تبجيل الملائكة. وكان أعظمها كرامة هو رئيس الملائكة

ميخائيل الذي يحتفل بعيده في الكنيسة الغربية. وقد بنيت في القرن الخامس كنيسة على اسمه بالقرب من القسطنطينية، وأخرى في روما. وصار الاحتفال بعيد الملاك ميخائيل (٢٩ سبتمبر - لدى الغرب) أعظم الأعياد شعبية في القرون الوسطى.

Recommended English Readings

Frend, W.H.C. ***The Early Church***, pp. 247- 252.

Jay, E.G. ***The Church***, pp. 75- 83.

Walker, Williston, ***A History of the Christian Church***, pp. 150- 158.

نهاية عصر

بالطبع لا يمكن إيجاد تعريف دقيق للعصور التاريخية. فالتاريخ سلسة متصلة تنطوي أجزاؤها المستمرة على حقب زمنية مختلفة ممتزجة ومتداخلة الواحدة في الأخرى.

على أي حال فنحن نحذو حذو كبار المؤرخين في إنها هذا الوصف الخاص بالكنيسة الأولي في القرن السادس. وقد تميز خط النهاية - إن صح وجود مثل هذا الخط - بسقوط الإمبراطورية الغربية، والانزلاقة الطويلة نحو العصور الوسطى، وبزوغ الكنيسة الإمبراطورية، والإمبراطورية الرومانية المقدسة، وحكم بيزنطة في الشرق، وتنافر الشرق والغرب فيما بعد خلقيدونية. ولقد عجل من هذه النهاية أيضًا الغزوات العربية وسيطرة الإسلام على بلاد الشرق الأوسط.

تاريخ الكنيسة: ليس مجرد كتاب تاريخ.

إنه مرجع كامل شامل جامع لتاريخ الكنيسة عبر العصور.

إنه تاريخ أمين، يعرض المساوئ والعيوب، كما يعرض البطولات والانتصارات.

إنه رواية مشوقة، مليئة بصراعات وأحداث، تأخذ العقل، وتحمل العبرة.

إنه سير أشخاص، بعضهم كان صالحًا وآخرون كانوا أشرارًا.

إنه كتاب يحمل دروسًا حية من الماضي، نافعة لليوم وللغد.

إنه قصة حية، لكنيسة حية، وضعت حياتها ورجاءها في إله حي.

إنه قصتي وقصتك، ونحن اليوم نكمل سطورها. فيه نتعرف على نقاط ضعف وأخطاء من سبقونا فلا نقع فيها، ونعرف نقاط قوتهم وبطولاتهم فنحتذي بها. في هذا الكتاب نغوص في بحر التاريخ، ونذهب بعيدًا في رحلة عبر الزمان، لنأتي بدروس وعبر لليوم..



تاريخ الكنيسة



١٠١٠٠٥٧٣